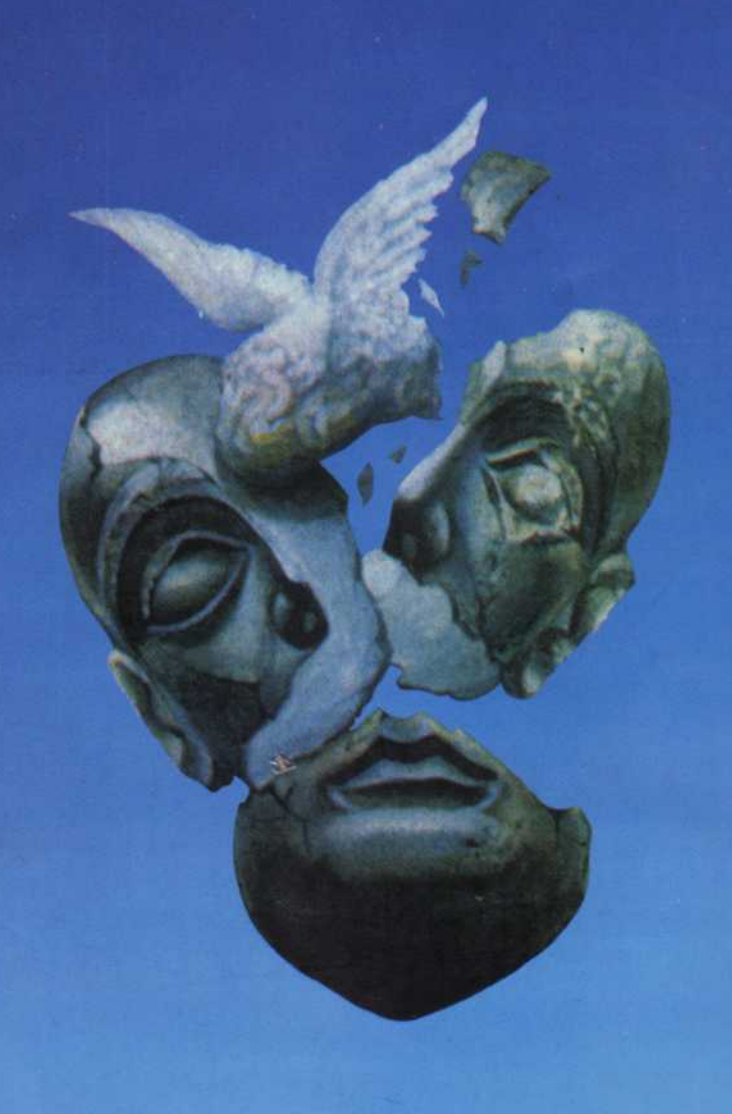
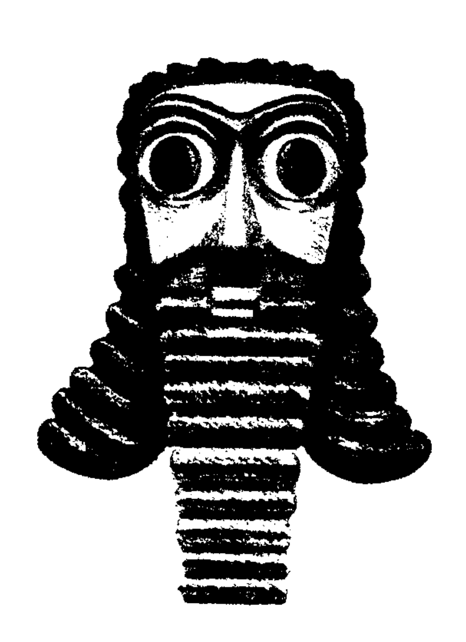
مغامرة العقل الاولى

دراسة في الاسطورة ، سوريا ، ارض الرافدين - فراس السواح



مغامرة العقل الأولى

دراسة في الأسطورة - سورية وبلاد الرافدين



فراس السواح

عشرون عاماً على «المغامرة»

تقديم للطبعة الحادية عشر

إن تنفذ طبعة كتاب ما من الأسواق خلال بضعة شهور أمر معتاد في عالم الكتب ، وأن يعاد طبعه بعد ذلك مرتين أو أكثر خلال عدة سنوات أمر معتاد أيضاً . أما أن يعيش الكتاب عشرين سنة وتتداول الأجيال عشراً من طبعاته خلال هذه المدة ، فأمر نادر الحدوث . وهذا الأمر النادر قد وقع لكتاب « مغامرة العقل الأولى » الذي صدرت طبعته الأولى عام ١٩٧٦ ، وتخرج من المطبعة الآن طبعته الحادية عشر ونحن في عام ١٩٩٦ . بعد كل إصدار جديد كنت أقول لنفسي هو الأخير ، ثم أفاجأ بالناشر بعد عام أو عامين يطلب الإذن لطبعة أخرى ، فتحل النسخ الجديدة محلّ النسخ النافذة في واجهات المكتبات ، ويرفض الكتاب أن يترجل عن مكانه بين مئات الكتب التي تصعد وتهبط رفوف الباعة .

من الطبيعي أن يشعر المؤلف بالرضى عن نجاح كتابة ، ولكن الرضى قد تحول عندي بعد مدة إلى عجب وحيرة . فلقد قيل عقب صدوره ، بأن « مغامرة العقل الأولى » قد سد فراغاً في المكتبة العربية ، وهذا سبب نجاحه . ولكن لماذا بقي حياً كل هذه السنين رغم موجة الكتب المؤلفة والمترجمة التي استثارها صدوره ؟ وما هي الحاجة التي بقي الكتاب يسدها حتى الآن ؟ أصدقكم القول لست أدري ، وإن كان لدي بعض التخمينات

بعد العجب والحيرة ، حل عندي في الآونة الأخيرة نوع من الحسد والغيرة . صرت أغار من ذلك الشاب الذي ابتدأ الإعداد « للمغامرة » وهو دون الثلاثين ، عندما كان يتسكع مدهوشاً بين

رفوف وفهارس المكتبات الكبرى في بريطانيا وأميركا ، من مكتبة المتحف البريطاني إلى [illegible] المعهد الشرقي بجامعة شيكاغو ، ويسجل أفكاره المبدئية في مقاهي ساحة البيكاديللي بلندن ، وعلى أرصفة وحشائش حدائق واشنطن العاصمة . كان يتصل بمن استطاع من المؤلفين الذين قرأهم وأحبهم ، ولا يتردد في طرق باب شخصيات علمية لا تقل مكانة عن أرنولد توينبي الذي استقبله في داره بلندن ، واستمع إليه بتواضع جم وأجابه عن كل ما سأل . وفي الوقت نفسه كان يختلط بالطلبة المتمردين في شوارع واشنطن وحول البيت الأبيض والكابيتول وضفاف البوتاماك ، وهم آخر موجة من موجات ثورة الشباب التي انطلقت من باريس عام ١٩٦٨ ، وبقيت أصداؤها تتردد على الجانب الآخر من الأطلسي حتى مطلع السبعينيات بتأثير حرب الفييتنام . كان يحاورهم ويشاركهم المسيرات الصاخبة التي تندد بالحرب وتدعو لإيقافها ، ويستمع إلى أحلامهم عن تغيير العالم وإحلال قيم جديدة في المجتمعات الغربية .

لهذا ، فقد جاء كتابه مزيجاً من غضب الشارع ومن صمت المكتبات ، من رائحة العرق ورائحة الورق . ربما لهذا أحبه الشباب أكثر من غيرهم . وربما لهذا بقيت الحاجة إليه قائمة بعد عشرين سنة من ظهوره

ولكن لماذا الغيرة ؟ لأن الكتاب كان نتاج مغامرتي المعرفية في بواكيرها الأولى ، وهي المغامرة التي تعقدت في مؤلفاتي التالية واتسعت ، ومعها تعقدت واتسعت مساحة السؤال . ومع ذلك فقد بقي كتاب « المغامرة » في مقدمـة إخوته ، أشبه بالابن الأصغر المشاكس الذي يرفض المزاحمة . ربما لأن البعض لم يعد يتبين عندي ذلك المزيج الذي أحبّهُ من الثورة والتأمل ، أو لأن الثورة عندي لم تعد في وضوح التأمل ، رغم أن موقفي من ضرورة الكتابة لم يتغير . فأنا أؤمن بأن الكتابة لا لزوم لها إن لم تنطلق من النقد المستمر لما نعرفه ونركن إليه ، ومن المفارقة الدائمة للمألوف في مغامرة غير هيابة نحو المجهول ، تدجن فينا الخوف من غير المألوف.

وكما سيرى القارىء في مقدمة الطبعة السابعة للكتاب ، فقد كسب « مغامرة العقل الأولى » المواجهة الحاسمة بيني وبينه ، عندما أقبلت عليه في محاولة لإجراء بعض التعديلات وتقديم بعض الإضافات ، ثم تراجعت . وكسب قارىء الكتاب الذي أراده كما هو خلال عشرين سنة .

فإلى القارىء أهدي هذه الطبعة الحادية عشر وما يليها مع كل محبة وشكر وعرفان .

فراس السواح

مخاطبة

تقديم للطبعة السـابعة

إنه إحساس غريب وجميل، ذاك الذي ينتاب المؤلف بعد أن يتصفح كتابه وقـد خرج غضاً طرياً من رحم المطبعة البارد الصلب. إن كل كلمة من كلمات الكتاب وفكرة من أفكاره التي صارعها المؤلف وصارعته وشذبها وشذبته خلال ليالي الأرق الطويلة، تنتمي له بنفس القدر الذي تنتمي لنفسها وعالمها وحياتها ومنطقها الخاص.

فالكتاب، كالوليد الجديد الذي ينتمي لأبويه بقدر ما يتمتع بذات منفصلة حقيقية، وجسد مستقل، وحياة تنبض من نفسها ولنفسها. وكلما مرت الأيام ازداد الانفصـال ترسخـاً والاستقـلال توضحاً وتمكناً. وكل عودة لتصفح الكتاب تؤكد للمؤلف هذه الحقيقـة التي ليست بحـال من الأحوال وهماً أو إسقاطاً. فبعد أن تتداول الأيدي الكتاب وتستطلعه العقول، يشتد عوده ويشب عن الطوق شاقاً لنفسه طريقه الخاص، آخذاً مكانه في ثقافة المجتمع وضمائر من قرأه وناقشه وحاجه، فقبل به أم ببعضه، أو عارضه فحرض فيه مواقف مغايرة وأفكاراً جديدة، مخالفة. وعقب سنـوات، إذا أقبل المؤلف على كتابه بعد طول انقطاع، لم يجد فيه أثراً لذلك الطفل الأثير المدلل. بل ذلك الكائن المكتفي الممتنع عن التغير والتبدل، الذي يحاوره محاورة الند للند.

هذا بالضبط ما حدث لي وأنـا أقـدم «مغامرة العقل الأولى» لطبعة سـابعة.

لقد هممت به في محاولة لتعديل هنا واضافة هناك، ولكنه أبى وتمنع، وواجهني بمنطق داخلي متماسك، وبناء متراص لا تستطيع انتزاع حجر منه أو إضافة آخر، دون أن تحدث شرخاً يهدد استقراره. فآثرت التراجع وإعطاءه الحق في حياة مستقلة يقرر القراء بأنفسهم مدى تجاوبها مع حياتهم ومسار تفكيرهم في دورة تداول سابعة.

أمر واحد فقط أود التعقيب عليه لأن البعض اعتبره المحور الأساسي في الكتاب وما هو بذلك. فبسبب المواقف المسبقة التي يبحث أصحابها عن سند لاعتقادهم ودعم، كرسوا «مغامرة العقل الأولى» باعتباره كتاباً في نقد الفكر الديني عموماً، وكان هذا أبعد ما يكون عن أهدافي في الكتاب. لقد قلت في حوار مع إحدى المجلات العربية ما نصه: «لقد كان همي دوماً البحث عن وحدة التجربة الروحية للانسان عبر التاريخ، بصرف النظر عن مصدر الخبرة الدينية، وهل هي من أصل ما ورائي أم نتاج تجربة إنسانية وكدح روحي». ففي موقفي بعضٌ من تساؤل أحد المتصوفة الذي كان يناجي ربه قائلاً: «من منا اقتحم الصومعة على صاحبه؟» أي هل إن خبرة الانسان الدينية هي حصيلة لافصاح القدرة الإلهية عن مقاصدها، أم هي كدح من الانسان لتلمس مقاصد القدرة الإلهية؟. إن الإجابة عن هذا السؤال هي تجربة فردية محضة يعانيها كلٌ في معزلٍ، ولا أسمح لنفسي بالتطفل عليها بإعطاء إجابة ناجزة قد تعفي البعض من حرية الأرق لتضعهم في قيد طمأنينة مستعارة. ومن ناحية أخرى فإن نوع الاجابة لا يؤثر، في اعتقادي، على جوهر التجربة الدينية وعمقها ونتائجها لدى كل فرد. إن لقاء الإلهي بالإنساني قائم عبر تاريخ الإنسان الروحي، وذلك بصرف النظر عن «من اقتحم الصومعة على صاحبه».

إن الديانات السماوية الباقية اليوم، هي نتاج لإبانة القدرة الإلهية عن مقاصدها. ولكن، هل نسم بالزيف كل تجربة دينية لثقافة كدحت في التعرف على مقاصد القدرة الإلهية دون عون من وحي؟ إن أكثر الملتزمين بحرفية النصوص المقدسة لا يقدر على الاجابة بنعمٍ مطمئنةٍ عن هذا السؤال.

ولمزيد من الإيضاح، أستنجد في هذا المجال بصديقي وصديق كل من قرأه، الكاتب اليوناني «كزانتزاكس» الذي أورد في مذكراته المشهد النابض الذي أنقله فيما يلي عن ترجمة الزميل ممدوح عدوان:

«توقفنا بين خرائب القصر القديم قرب عمود مربع من الجص المصقول على قمته العلامة المقدسة منقوشة: الفأس ذات الحدين. ضم الأب كفيه وحنى ركبتيه لحظة ثم حرك شفتيه وكأنه يصلي. استغربت وسألته: ماذا ـ اتصلي؟. فقال: طبعاً ياصديقي الشاب كل شعب وكل عصر يمنحه الله قناعه الخاص به. ولكن وراء الاقنعة كلها في كل عصر وفي كل عرق يبقى الله هو ذاته، الله الدائم الذي لا يتغير. إن لدينا الصليب شارة مقدسة لنا وأجدادك الأقدمون في كريت كانت لهم الفأس ذات الحدين. لكنني أنحي جانباً هذه الرموز الفانية وأتحسس الله وراء الصليب ووراء الفأس ذات الحدين. أتحسسه وأنحني له احتراماً».

دمشق ١/ ١/ ١٩٨٨

فاتحة

عندما كنا صغاراً، كان أستاذ الجغرافيا يحدثنا عن نظرية لابلاس في نشأة الكون وتشكل العوالم من الكتل السديمية الأولى وتحولاتها. وكنا في جدال دائم حولها وخصام. قال البعض إنها هراء يتعارض والكتب المقدسة التي تقول بخلق السماوات والأرض في ستة أيام، وقال آخرون إننا في عصر لا نستطيع فيه غض الطرف عن الحقائق والمكتشفات العلمية، بحجة التمسك بأهداب الدين. وأذكر أنني مضيت إلى أبي يوماً أسأله كيف خلق الله العالم في ستة أيام، والعلم يقرر أن الكون قد تشكل ببطء عبر مليارات السنين؟ وكان حديثاً طويلاً استمر إلى ساعة متأخرة من تلك الليلة الشتائية.

فتح القرآن الكريم وقرأ لي بضع آيات أذكر منها:

«يدبر الأمر من السماء إلى الأرض، ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره الف سنة مما تعدون»[1].

«تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة»[2].

ثم قال: ما طول اليوم الواحد من تلك الأيام الستة التي خلق فيها الله الكون؟

---

(١) سورة السجدة ٣٢ الآية ٥.

(٢) سورة المعارج ٧٠ الآية ٤.

أكان ألف سنة مما نعد، أم خمسين ألف سنة أم عدداً آخر من السنين لا يعرفه إلا الله؟.

في اليوم التالي مضيت إلى المدرسة بآراء جديدة أحاول من خلالها تقريب وجهات النظر المتعارضة.

مرت الأيام، وعرفنا أن نظرية لابلاس لم تعد صالحة لتفسير النشأة الأولى وأن نظريات أخرى قد حلت محلها. ولأمر ما يتعلق بتلك النقاشات القديمة، بقي اهتمامي قائماً بتتبع أخبار الاكتشافات والفرضيات العلمية، المتعلقة ببدايات تشكل المادة والعوالم والحياة، والغايات التي تسعى اليها الجمادات والحيوات. ولعل هذا الاهتمام هو الذي قادني إلى عالم الأسطورة، حيث وجدت البحث في البدايات والغايات، هماً أساسياً من همومها. وتذكرت نظرية لابلاس والمجادلات القديمة وتساءلت: نظرية كبيرة أخذت مكانها في مساحة العلم ردحاً ثم دحضت. فما الفرق بينها وبين الأسطورة؟. أليست أساطير التكوين بدورها، نظريات قامت للتفسير والتعليل؟ أليست محاولة من العقل، في نشأته، للتصدي للأسئلة الكبيرة المطروحة عليه؟.

لقد جهد الانسان دوماً في كشف حقيقة العالم والحياة والبدايات، وشغلته الغايات والنهايات. وكان وسيلته إلى ذلك مرتبطة بالمرحلة التاريخية لتطوره نفسياً وعقلياً. اعتقد في البداية[٣] أن العالم بكل مظاهره المتنوعة يخضع لترابطات وقوانين وقواعد معينة، واعتقد أن معرفته بتلك الترابطات وقواعدها، تساعده في السيطرة على الطبيعة المحيطة به واخضاعها لرغباته ومصالحه. فهو يستطيع مثلاً استجلاب الأمطار- عن طريق ممارسات سحرية معينة، تدفع الطبيعة مجبرة للاستجابة، كما يستطيع شفاء الأمراض، والقضاء على الأعداء، ودفع الكوارث الطبيعية بنفس الطريقة. وقد تجمعت لديه عبر القرون، مجموعة من القواعد الذهبية التي تؤلف، في مجموعها، سفراً متكاملاً للسحر. ولم يكن الانسان في ممارساته تلك، يستعين بأية قوى خارقة أو الهية من أي نوع، لإيمانه المطلق بأن تتابع الأحداث يخضع لقانون معين، هو جزء أصيل من الطبيعة ذاتها، لا خارجاً عنها ولا متعالياً عليها.

3 - Sir James Frazer. Thr Golden Bough, Mcmillan. Newyork, 1971 Chapter IV.

على ان الانسان، بعد تاريخ طويل مليء بالمرارة والألم والفشل في السيطرة على محيطه بعلمه الزائف ذاك (السحر)، اتجه إلى الدين[٤]. فإذا كان العالم قد تمرد حتى الآن على الانسان، مثبتاً عدم خضوعه لتلك الترابطات المفترضة، فلابد اذن من وجود قوى خارقة تقف وراء المظاهر المتبدية لهذا العالم، قوى الهية، مفارقة له، فعالة فيه. ولابد أن يكون الكون تبدياً مادياً لتلك الطاقات الالهية ومظهراً لفعاليتها وقواها المستمرة. وبذلك ابتدأت مرحلة جديدة تتميز بالتقرب لتلك القوى واجتذاب عطفها، ومحاولة تفهم رغائبها وآلية فعلها وشروطه. فظهر الدين وتطور بشقيه: الشق الأول اعتقاديّ يستخدم الأسطورة أداة للمعرفة والكشف والفهم. والثاني طقسي، يستهدف استرضاء الآلهة والتعبد لها. فالاسطورة، والحالة هذه، هي التفكير في القوى البدئية الفاعلة، الغائبة وراء هذا المظهر المتبدي للعالم وكيفية عملها وتأثيرها، وترابطها مع عالمنا وحياتنا. انها اسلوب في المعرفة والكشف، والتوصل للحقائق، ووضع نظام مفهوم ومعقول للوجود، يقنع به الانسان ويجد مكانه الحقيقي ضمنه، ودوره الفعال فيه. إنها الإطار الأسبق والأداة الأقدم للتفكير الانساني المبدع، الخلاق، الذي قادنا على طول الجادة الشاقة. التي انتهت بالعلوم الحديثة، والمنجزات التي تفخر بها حضارتنا القائمة.

إلا أن الفكر الانساني في وثبته الدائمة لا يقف عند إطار، ولا يهدأ في مستقر يطمئن اليه، أو يركن لمعرفة يظنها مطلقة لا يأتيها الباطل. فهو في حركة دائبة تتجاوز أبداً ما وصلت اليه. فتهاوت الأسطورة تحت مطارق الفلسفة، وتجرع سقراط السم جزاء اجترائه على آلهة اليونان، ومن بعده تابع افلاطون وارسطو المهمة. وتعاونت، مع الفلسفة، الديانتان المسيحية والاسلامية. فتبنت المسيحية بضع أساطير اساسية، كونت منها هيكلها. كأسطورة هبوط الإله من السماء وموته وبعثه، بعد ذلك، وصعوده إلى السماء. وهدمت ما تبقى من صرح الأساطير القديمة. أما الاسلام قد أثبت بعض ما أوردته الأساطير، وقدمه في صيغة مختلفة تماماً، مرجعاً اياه إلى أصله السماوي القديم، قبل تحريف الكلام عن مواضعه، بسبب التقادم أو سوء الطوية. ثم أدى تبلور المناهج العلمية مع مطلع العصور الحديثة إلى الازدراء الكامل للأسطورة وانزالها إلى مرتبة الحكاية المسلية، لما

(٤) المرجع السابق. الفصل الرابع.

تحتويه من عناصر غيبية تتنافى والتفكير العلمي السليم . كما ادعى العلم في بعض مراحله ، القضاء على الفلسفة والدين معاً .

إلا أن القرن التاسع عشر، في أوروبا، قد جلب معه ثورة فنية وجمالية، اعادت للأسطورة رونقها وبهاءها كشكل فني تعبيري من أشكال الفلكور والأدب الشعبي ، بعد ان أراد أصحاب عصر الاستنارة في القرن الثامن عشر محوها . ولم تكن اعادة الاعتبار هذه إلا مرحلة أولى ، فما لبث الرومانتيكيون أن مشوا خطوات أبعد في النظر إلى الأسطورة، فاعتبروها اصلاً للفن والدين والتاريخ ، وصارت لهم منهلاً ثراً، وملهماً . ثم اتجهت اليها العلوم الانسانية ، تبحث خلف الشكل الظاهر للأسطورة عن رموز كامنة ومعان عميقة تعين على فهم الانسان وسلوكه وحياته الروحية والنفسية وآليات تفكيره وعواطفه ودوافعه . فقدمت لمختبرات علوم الاجتماع والنفس والانتروبولوجيا مادة قيمة لا تقدر بثمن، وغدت منهلاً للعلوم بعد أن لاقت من العلوم ما لاقت من تجاهل . وإلى جانب هذا وذاك ظهر فرع جديد من فروع المعرفة، يعنى بدراسة وتفسير الأساطير، دعي بالميثولوجيا (MYTHO-LOGY) والشق الأول من الكلمة (MYTHO) مأخوذ عن الكلمة اليونانية (MUTHO) التي تعني حكاية تقليدية عن الآلهة والأبطال(٥). أما الشق الثاني (LOGY) فيعني «علم» وتستخدم هذه الكلمة الأخيرة بكثرة في العصر الحديث للدلالة على العلوم المختلفة ، كأن نقول سوسيولوجيا أو بيولوجيا . كما تعني الميثولوجيا أيضاً مجموعة الأساطير الخاصة بشعب من الشعوب(٦)، كأن نقول الميثولوجيا السورية أو الميثولوجيا الاغريقية . هذا وقد اهتمت الميثولوجيا الحديثة بتعريف الأسطورة ودراسة بواعث نشوئها وتفسيرها ودراسة وظائفها النفسية والفكرية والاجتماعية . ومنذ نهاية القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا، ظهرت، وتظهر، مدارس شتى تهدف إلى تقديم نظريات شاملة متكاملة في تفسير الأسطورة وبيان دلالاتها وبواعثها ووظيفتها إلا أن معظم هذه المدارس قد وقعت في أحادية النظرة، اذ حاولت اعطاء نظريات جامعة مانعة ، اعتقدت أنها قد أحاطت بالأسطورة وأوقعتها في شبكة التفسير الشامل الجامع . وسأقوم فيما يلي باستعراض مجتزأ، غير جامع، لأهم تلك المدارس والاتجاهات .

5 - G.S Kirk, Myth . , Pelican Book, 1977 P 22.

(٦) المرجع السابق ص٢١ .

الأسطورة باعتبارها فناً أدبياً وحكمة :

ينظر هذا الاتجاه، لما ترويه الأسطورة، على أنه تراكم لنتاج الفكر الانساني المبدع في مجال الأدب(٧). فالأمثال الصغيرة التي يرويها حكيم القوم، سوف تروى مرات ومرات . ولن يقاوم الراوي رغبته الملحة والمشروعة في الاضافة اليها من عناصر جديدة نابعة من خياله الخاص ومن ظروف اجتماعية مستجدة، تحيط الراوي الجديد . وعندما تأخذ القصة شكلها المكتمل، تكون قد عبرت عن طابع فني وفكري وأدبي لشعب من الشعوب . إلا أن هذا الشكل الفني لا ينفصل عن مضمونه الذي ينحو في غالب الأحيان لأن يكون تأملياً، يقدم للمجتمع نظريات في السلوك والأخلاق والتوجيه الاجتماعي .

الأسطورة وظواهر الطبيعة :

يُرجع هذا الاتجاه كل الأساطير إلى منشأ طبيعي يتصل بعناصر الطبيعة(٨) . فكثير من الأساطير كان باعثه القمر، ذلك الجرم السماوي المنير، الذي أثار دوماً خيال البشر، بأطواره وتبدل أشكاله والسماء معتمة التي يسبح فيها وكثير من الأساطير قد تركز حول الشمس، ذلك الجرم المشع ، مصدر الحياة والنماء والدفء . وجزء آخر سحرته السماء السامية، مثار التأمل والتفكير العميق . وآخر، أهابته ظواهر الطقس المختلفة كالصواعق والرعود والبروق . وحتى الأساطير التي لا تتصل من قريب أو بعيد بظواهر الطبيعة ، قد وجدت تفسيراً طبيعياً لها، لدى هذه المدرسة، بعد التمحيص والبحث عن أصولها وجذورها وطريقة تطورها وتغيرها .

الأسطورة والايتيولوجيا :

الايتيولوجيا (AETIOLOGY) ، هي دراسة الأسباب . وقد وجدت الأسطورة

7 - Philip Freund, Myths of Creation, W.H. Allen, London 1964

8 - G. S. Kirk, Greek Myths. Pelican Book, 1977 P 43.

لتقديم الأسباب الكامنة وراء كثير من الظواهر التي يراها الانسان في العالم الواقعي[9]. تقول أسطورة فليبينية مثلاً إن تنوع ألوان العروق البشرية راجع إلى ساعة الخلق، عندما وضع الاله الخالق حفنة من طين في الفرن لصنع الانسان. ففي المرة الأولى أخرج الاله الطين قبل نضجه فكان الانسان الأبيض وفي المرة الثانية تأخر في اخراجه فاحترق، فكان الانسان الأسود، وفي الثالث اخذ الطين كفايته من الشي فخرج الانسان الفيليبيني البرونزي وتقول الأسطورة الأغريقية، إن هرقل قد أرضعته الآلهة هيرا في صغره، ولقوته العظيمة شعرت هيرا بألم في ثديها من شدة الأمتصاص دفعها إلى سحب ثديها من فم الصغير بقوة فانبثق اللبن في السماء مكوناً المجرة المعروفة بدرب اللبن.

الأسطورة باعتبارها تاريخاً:

ليست الأسطورة، وفق هذا الاتجاه، نتاج الخيال المجرد، بل ترجمة لملاحظات واقعية ورصد لحوادث جارية. وعبرها، انتقلت الينا تجارب الأولين وخبراتهم المباشرة[10]. وهي تعود في اصولها إلى أزمان سحيقة سابقة للتاريخ المكتوب. فقبل ان يتعلم الانسان الكتابة، كانت ذاكرته على قدر كبير من النشاط والحيوية، وقد استخدمها لنقل الأحداث بأمانة عبر الأجيال[11].

ويتقدم أصحاب هذه المدرسة بأمثلة متعددة تدعم وجهة نظرهم هذه، منها أساطير الطوفان أو الدمار الشامل بالنار السماوية أو الأعاصير. فشمولية هذه الأساطير وتكررها لدى معظم الشعوب، دلالة على تجارب وخبرات عاناها الجنس البشري في مطلع حياته.

الأسطورة والطقس:

أسس هذا الاتجاه، رائد الانتروبولوجيا الحديثة السير جيمس فريزر. ورغم النقد الذي يوجهه اليه علماء الانتروبولوجيا المعاصرون، بعد مرور ثمانين عاماً

9 - ibid P 35.

10 - Philip Freund, Myths of Creation, W. H. Allen, London 1964.

11 - G. S. Kirk, Greek Myths, Pelican Book, 1977 P 29.

تقريباً على ظهور كتابه الفريد: «الغصن الذهبي» فإن تأثير ذلك العبقري، مازال ماثلاً، وآراءه مازالت تلقى الاحترام لدى الكثيرين.

يقول فريزر، ومن تأثر به من أصحاب هذا الاتجاه[12]، بأن الأسطورة قد استمدت من الطقوس. فبعد مرور زمن طويل على ممارسة طقس معين، وفقدان الاتصال مع الاجيال التي أسسته، يبدو الطقس خالياً من المعنى ومن السبب والغاية، وتخلق الحاجة لاعطاء تفسير له وتبرير. وهنا تأتي الأسطورة لاعطاء تبرير لطقس مبجل قديم، لا يريد أصحابه نبذه أو التخلي عنه. إن قيام أتباع ديانة ديونيسوس، مثلاً، بشرب دم ثور حي بعد تمزيقه، وأكل لحمه نيئاً، بعد ذلك، هو طقس قديم أتت أسطورة موت ديونيسيوس على يد التيتان مفسرة له ومحافظة على حرارته ودفعه. فديونيسيوس يحاول الهرب من التيتان، اعداء أبيه زيوس، ولكن عبثاً يغير أشكاله وهم يتبعونه، إلى أن يقبضوا عليه في هيئة الثور فينهالون عليه تمزيقاً ويلتهمونه حياً ويشربون دمه.

الأسطورة والذرائعية:

أسس هذا الاتجاه، عالم الانتروبولوجيا الشهير مالينوفسكي الذي قضى شطراً من حياته في دراسة تجريبية مع قبائل التروبرياند في غرب المحيط الهادي ابان الحرب العالمية الثانية والذي يعد من أشهر ناقدي جيمس فريزر وأصحاب المدرسة النفسية أيضاً كفرويد.

يقول مالينوفسكي إن الأسطورة لم تظهر استجابة لدافع المعرفة والبحث، ولا علاقة لها بالطقس أو البواعث النفسية الكامنة بل هي تنتمي للعالم الواقعي وتهدف إلى تحقيق نهاية عملية فهي تروى لترسيخ عادات قبلية معينة أو لتدعيم سيطرة عشيرة ما أو أسرة أو نظام اجتماعي وما إلى ذلك. فهي والحالة هذه عملية في منشئها وغايتها[13].

(١٢) هذه النظرية مشروحة في ثنايا كتاب فريزر. المرجع رقم ٣.

(١٣) هذه النظرية مشروحة في كتاب مالينوفسكي:

Malinowski. Magic. Science, and Religion; Garden City. Newyork. 1954

وبعض تلامذته ممن اطلق عليها اسم النظرية الوظيفية. راجع بهذا الخصوص.

A.R. Radcliffe - Brown. The Andaman Islanders, Cambridge, 1922.

الأسطورة والكبت ـ فرويد :

في كتابه «تفسير الأحلام» اجتذبت الأسطورة فرويد، كما أجتذبت الكثير من أتباعه فيما بعد. وفي كتابه ذاك، الذي نشر لأول مرة عام ١٩٠٥[14] ـ يرى فرويد تشابهاً في آلية العمل بين الحلم والأسطورة، وتشابه الرموز لكليهما، فهما نتاج العمليات النفسية اللاشعورية. ففي الأسطورة، كما في المحلم، نجد الأحداث تقع حرة خارج قيود وحدود الزمان والمكان. فالبطل في الأسطورة، كما هي حال صاحب الحلم، يخضع لتحولات سحرية ويقوم بأفعال خارقة، هي انعكاس لرغبات وأمانٍ مكبوتة، تنطلق من عقالها، بعيداً عن رقابة العقل الواعي الذي يمارس دور الحارس على بوابة اللاشعور. فالأسطورة والحالة هذه ملأى بالرموز، التي ان فسرت، زودتنا بفهم عميق لنفس الانسان الخافية ورغباته المكبوتة. وتفسير فرويد في هذا المجال لأسطورة أوديب أشهر من أن يبحث هنا.

وفي كتابه «التوتم والتابو»[15]، يبدو فرويد مقتنعاً تماماً، أنه في فترة مبكرة من تاريخ الانسانية، قد وقعت أحداث الدرام الأوديبي بشكل حقيقي، عندما تعاون الأولاد على قتل أبيهم في القبيل الابتدائي، في صراع كان دافعه الحصول على زوجات الأب. وعندما تم لهم ذلك، انتابهم احساس الندم والاثم، فحرموا على أنفسهم زوجات الأب، وكان ذلك أول قانون وضع للبشر. ولكن تلك التجربة البدئية، قد تركت بصمتها على ضمير الجنس البشري، وهي الأساس وراء احساس البشر المتوارث بخطيئة ما. كما أنها الأساس الكامن وراء مجموعة الأساطير التي تروى عن تضحية الاله الابن. وكأنما يقدم البشر كفارة رمزية عن خطيئتهم الأولى نحو الأب[16].

لقد فتح فرويد باباً واسعاً لم يغلق بعد أمام التفسير النفسي للأسطورة، وتابع الرحلة بعده تلامذته وناقدوه من أمثال يونغ ورانك وفروم وغيرهم.

(١٤) سيجموند فرويد، تفسير الاحلام، مكتبة التحليل النفسي، القاهرة.

15 - Sigmond Freud, Totem and Taboo, The Basic Writings, Modern Library, N.Y. 1938.

راجع أيضاً ترجمة بوعلي ياسين ـ دار الحوار، اللاذقية، سورية ١٩٨٥.

(١٦) سيجموند فرويد، موسى والتوحيد، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت.

الأسطورة والنماذج البدئية ـ يونغ :

كان يونغ من أكثر تلامذة فرويد اهتماماً بالأسطورة، وتعمقاً في دراستها وتعويلاً على أهميتها وعمقها وبعد دلالاتها. وفي رأيه، أن كل المحاولات التي بذلت لتفسير الأسطورة، لم تساهم في فهمها، بل على العكس لقد زادت في الابتعاد عن جوهرها، وزادت من حيرتنا نحوها. وهو يقتفي أثر فرويد في النظر للأسطورة كنتاج للاشعور، ولكنه يفترق عنه جذرياً عندما يقرر أن اللاشعور الذي تنتج عنه الأسطورة هو اللاشعور الجمعي للبشر وهو يناقض نظرية فرويد القائلة بأن الأسطورة والحلم، انما يشفان عن مكنونات العناصر المكبوتة في لا شعور الفرد، وانها نوع من التعويض عن رغبات لم يقيض لها ارضاء حقيقي. فالصور والخيالات المتبدية في الحلم والأسطورة لم تكن في وعي الفرد الشخصي في يوم من الأيام. ولذا فإنها لم تكبت، والأصح أن نقول إنها قد عاشت في اللاشعور الجمعي، ولكن انبثاقها كان من خلال الفرد. فنحن عندما تتنفس، لا نستطيع تفسير هذا التنفس فردياً. ولذا، يمكن القول بأننا ممتلكون من قبل هذه الصور والخيالات أكثر من كوننا مالكين لها. ونحن كلما تعمقنا نحو طبقات النفس السفلى، كلما غادرنا عالم الفرد الشخصي تدريجياً واقتربنا من الأرضية الانسانية المشتركة لبني البشر، إلى أن نصل إلى قاع النفس لا نجد هناك سوى العالم بكل بساطة، مجرداً من أي طابع شخصي فردي، تماماً كما هو الأمر عندما نحلل المواد المكونة للجسد الانساني، حيث تعود مادة الكربون الموجودة في الجسم، إلى الكربون الطبيعي الذي تشكل منه جميع الاجسام. فمن خلال رموز الأسطورة، نجد أن العالم يتكلم، وكلما ازداد الرمز عمقاً، كلما كان أقرب للعالمية والشمول الانساني[17].

اللغة المنسية ـ اريك فروم :

اريك فروم (ERICHFROMM) آخر عمالقة مدرسة التحليل النفسي ـ قدم لنا

(١٧) افكار يونغ بهذا الخصوص مشروحة بشكل سلس وواضح في كتاب :

C.G. Jung, Man and his Symbols, New York. 1964.

راجع ايضاً ترجمة عبد الكريم ناصيف ـ دار منارات، عمان ١٩٨٧.

في كتابه اللغة المنسية (THE FORGOTTEN LANGUAGE) [18] دراسة عميقة للأسطورة، منطلقاً أيضاً من فكرة فرويد عن العلاقة بين الأسطورة والحلم، مع مخالفته في النظر للأسطورة والحلم على أنهما نتاج العالم اللاعقلاني. فالعقل في حالة الحلم انما يعمل ويفكر، ولكن بطريقة أخرى ولغة أخرى. فعندما ندخل ملكوت النوم نتحرر من عبء العمل ومشاغل الحياة اليومية وقلق الصحو، وندلف إلى عالمنا الداخلي بعيداً عن قواعد الواقع، فتغدو الـ «أنا» بؤرة تفكيرنا. فإذا كان الصحو دعوة للعمل والفعل، فإن النوم دعوة لتأمل من نوع خاص يستخدم لغة خاصة هي لغة الرمز. النوم انفلات من هم التحكم بعالم المادة وتفرغ للذات، يجعلنا أكثر شفافية وحساسية، فتغدو معرفتنا بأنفسنا أكثر وضوحاً وصدقاً وحكمة. فحالة السبات هي القطب الثاني لوجودنا في مقابل حالة اليقظة ـ وليست كماً زمنياً معطلاً، يعطينا الراحة لبدء يوم جديد.

ولغة الرمز، هي اللغة التي تنطق عن الخبرات والمشاعر والأفكار الباطنة، كما تنطق لغتنا المحكية عن خبرات الواقع. مع فارق هام، يكمن في شمولية لغة الرمز وعالميتها، وتجاوزها لفوارق الزمن والثقافة والجنس. والأسطورة، كما الحلم، تكمن اهميتها في تقديمها حكايا تشرح بلغة الرمز، حشداً من الأفكار الدينية والفلسفية والاخلاقية. وما علينا إلا أن نفهم مفردات تلك اللغة، لينفتح أمامنا عالم مليء بمعارف غنية ثرة.

الأسطورة ـ مغامرة العقل الأولى:

بعد هذا الاستعراض السريع، نود أن نوضح رؤيتنا الخاصة للأسطورة، والتي تشكل أرضية هذا الكتاب، في عجالة بلا اطالة. فهدفنا دراسة الأسطورة لا التنظير لها.

عندما انتصب الانسان على قائمتين رفع رأسه إلى السماء ورأى نجومها وحركة كواكبها، وأدار رأسه فيما حوله فرأى الأرض وتضاريسها ونباتها وحيوانها. أرعبته الصواعق، وخلبت لبه الرعود والبروق. داهمته الأعاصير والزلازل والبراكين ولاحقته الضواري. رأى الموت وعاين الحياة. حيرته الأحلام ولم يميزها تماماً عن

18 - Erich Fromm. The Forgotten Language Holt, Rinhart and Winston, New York 1951.

الواقع. ألغاز في الخارج وأخرى في داخله. غموض يحيط به أينما توجه وكيفما أسند رأسه للنوم. تعلم استخدام اليدين وصنع الأدوات، وفي لحظات الأمن وزوال الخوف، كان لدى العقل متسع للتأمل في ذلك كله. لماذا نعيش؟ ولماذا نموت؟ لماذا خلق الكون وكيف؟ من أين تأتي الأمراض؟ إلى آخر ما هنالك من أسئلة طرحت نفسها عليه، كما تطرح نفسها على طفل العصر الحديث. كان العقل صفحة بيضاء لم ينقش عليها شيء، عضلة لم تألف الحركة خارج نطاق الغريزة، وبعد حدود رد الفعل. ومن أداته المتواضعة هذه، كان عليه أن يبدأ مغامرة كبرى مع الكون، وقفزة أولى نحو المعرفة، فكانت الأسطورة. وعندما يئس الانسان تماماً من السحر، كانت الأسطورة كل شيء له. كانت تأملاته وحكمته، منطقه واسلوبه في المعرفة، أداته الأسبق، في التفسير والتعليل، أدبه وشعره وفنه، شرعته وعرفه وقانونه، انعكاساً خارجياً لحقائقه النفسية الداخلية. فالأسطورة نظام فكري متكامل، استوعب قلق الانسان الوجودي، وتوقه الأبدي لكشف الغوامض التي يطرحها محيطه، والأحاجي التي يتحداه بها التنظيم الكوني المحكم الذي يتحرك ضمنه. إنها ايجاد النظام حيث لا نظام، وطرح الجواب على ملحاح السؤال، ورسم لوحة متكاملة للوجود، لنجد مكاننا فيه ودورنا في ايقاعات الطبيعة. انها الاداة التي تزودنا بمرشد ودليل في الحياة، ومعيار اخلاقي في السلوك، انها مجمع الحياة الفكرية والروحية للانسان القديم.

والأسطورة حكاية، حكاية مقدسة، يلعب أدوارها الآلهة وأنصاف الآلهة، احداثها ليست مصنوعة أو متخيلة، بل وقائع حصلت في الأزمنة الأولى المقدسة، أنها سجل أفعال الآلهة، تلك الأفعال التي أخرجت الكون من لجة العماء، ووطدت نظام كل شيء قائم، ووضعت صيغة أولى لكل الأمور الجارية في عالم البشر. فهي معتقد راسخ، الكفر به فقدان الفرد لكل القيم التي تشده إلى جماعته وثقافته، وفقدان المعنى في هذه الحياة.

والأسطورة، حكاية مقدسة تقليدية. بمعنى أنها تنتقل من جيل إلى جيل، بالرواية الشفهية. مما يجعلها ذاكرة الجماعة، التي تحفظ قيمها وعاداتها وطقوسها وحكمتها، وتنقلها للأجيال المتعاقبة، وتكسبها القوة المسيطرة على النفوس. فهي الاداة الأقوى في التثقيف والتطبيع والقناة التي ترسخ من خلالها ثقافة ما وجودها واستمرارها عبر الاجيال وحتى في فترات شيوع الكتابة، لم تفقد الأسطورة الشفهية

قوتها وتأثيرها. ذلك أن الألواح الفخارية، كانت محفوظة في المعابد وفي مكتبات الملوك، ولا تلعب الا دور الحافظ للأسطورة من التحريف بالتناقل. وبقي السمع هو الوسيلة الرئيسية في تداولها. وفي أكثر من مناسبة دورية، كانت الأساطير تتلى أو تنشد في الاحتفالات الدينية العامة، من ذلك مثلاً، أعياد رأس السنة في بابل، حيث كانت تتلى وتمثل أسطورة التكوين البابلية. واعياد الربيع حيث كانت تتلى وتمثل عذابات الاله تموز.

والأسطورة نص أدبي، وضع في أبهى حلة فنية ممكنة، وأقوى صيغة مؤثرة في النفوس، وهذا مما زاد في سيطرتها وتأثيرها. وكان على الأدب والشعر، أن ينتظرا فترة طويلة، قبل أن ينفصلا عن الأسطورة. لقد وضعت معظم الأساطير السورية والسومرية والبابلية في أجمل شكل شعري ممكن. وقام هوميروس بصياغة معظم أساطير عصره المتداولة، شعراً في الاوديسة والالياذة. وإلى جانب الشعر والأدب، خلقت الأسطورة فنوناً أخرى كالمسرح، الذي ابتدأ عهده بتمثيل الأساطير الرئيسية في الأعياد الدينية. كما دفعت فنوناً أخرى كالغناء والموسيقى وغيرهما.

هذا ويمتزج تعبير الأسطورة في أذهان الكثيرين بتعبير «الخرافة» و «الحكاية الشعبية» رغم البعد الشاسع بين هذه النتاجات الفكرية الثلاثة. فالخرافة حكاية بطولية ملأى بالمبالغات والخوارق. الا أن أبطالها الرئيسيين هم من البشر أو الجن، ولا دور للآلهة فيها. ففي حديث نبوي[19] عن عائشة قالت «حدث رسول الله ﷺ نساءه ذات ليلة حديثاً، فقالت امرأة، يارسول الله كأن الحديث حديث خرافة، فقال: أتدرون ما خرافة؟ إن خرافة كان رجلاً من عذرة أسرته الجن في الجاهلية فمكث فيهن دهراً طويلاً ثم ردوه إلى الأنس، فكان يحدث الناس بما رأى من الأعاجيب فقال الناس: حديث خرافه. وبصرف النظر عن صحة هذا الحديث المنسوب إلى الرسول فإن النص يظهر لنا معنى الخرافة عند العرب. بينما يثبت لنا القرآن الكريم علاقة كلمة «الأسطورة» في اللغة العربية بالتصورات الدينية والاعتقادية: «وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا»[20].

وفي هذه الآية اشارة إلى قول اعداء النبي أن ما يأتي به محمد في القرآن هو أساطير الأقوام السابقة تملى عليه وهو بدوره يستكتبها.

(١٩) مسند ابن حنبل، المطبعة الميمنية، مصر ١٣١٣ جـ٢ ص٢٨١.

(٢٠) سورة الفرقان الآية ٥.

اما الحكاية الشعبية، فإنها، كالخرافة لا تحمل طابع القداسة، ولا يلعب الالهة أدوارها. كما أنها لا تتطرق، كما هو شأن الأسطورة، إلى موضوعات الحياة الكبرى، وقضايا الانسان المصيرية، بل تقف عند حدود الحياة اليومية والأمور الدنيوية العادية، وذلك كمكر النساء ومكائد زوجات الرجل الواحد، وقسوة زوجة الأب على الطفلة المسكينة التي تتدخل العناية الالهية لانقاذها، وما أشبه ذلك من موضوعات. هذا وقد تتداخل الحدود بين الخرافة والحكاية الشعبية أما الأسطورة فتبقى نسيجاً متميزاً. ورغم أن كلًا من الخرافة والحكاية الشعبية والحكم والأمثال الشعبية قد تلعب دوراً ثقافياً شبيهاً بدور الأسطورة إلا أنها لا تمتلك قوة التأييد الذاتي التي تمتلكها الأسطورة، والنابعة من قداستها وطابعها الاعتقادي والايمائي ومنشأها وقالبها الفني و. . نبالتها.

ولا أريد في هذه العجالة، أن أتقدم برؤية أحادية. فأنا أؤمن بتعدد المستويات لفهم الأسطورة. فقد تحتوي بعض أساطير الخلق على عناصر نفسانية كثيرة، وقد تحتوي بعض الأساطير الأخلاقية على عناصر تاريخية كأسطورة الطوفان البابلية، وأسطورة جلجامش. كما أننا نلمح تأثيراً كبيراً لنمط الانتاج الاقتصادي على مضمون وصياغة الأسطورة. وسنقوم في حينه، بأبراز هذه المستويات كما تتبدى لنا، مع التركيز على المستوى الأهم في رأينا، لفهم الأسطورة كمغامرة فكرية جريئة لانسان العصور القديمة، تهدف إلى كشف الحقائق وفتح آفاق المعرفة.

... ...

وبعد. هذا كتاب في أسطورة الشرق القديم، هدفنا من وراءه التعريف بالأسطورة في سوريا القديمة وبلاد الرافدين. وقد بذلت غاية الجهد في الحصول على النصوص الكاملة لأهم الأساطير المعروفة وتقديمها اعتماداً على أكثر من نص وأكثر من ترجمة. وحاولت أن تكون ترجمتي أمينة دون تدخل أو تزويق. مع عدم الاخلال بالشكل الفني الرائع لتلك النصوص. وهي معادلة صعبة، نجحت فيها أحياناً وأخفقت أحياناً أخرى. ولم يكن جهدي في الشرح والتفسير والتقديم منصباً على كل أسطورة، بمعزل عن الأخرى، بل حاولت رسم صورة متكاملة عن الموضوع، بحيث تأخذ كل أسطورة مكانها في تلك الصورة، وتستمد تفسيرها من البنية الاجمالية للعمل. وكان منهجي في تقديم الأساطير يعتمد على جمعها في

مجموعات وفق موضوعاتها لا وفق تسلسل زمني أو توزع جغرافي، لاعتقادي بأن تفسير أسطورة ما، يبدو عصياً، اذا لم ينظر إليها من خلال منظور شامل، يجمعها مع غيرها من الأساطير التي تعالج نفس الموضوع. وهو منهج جديد في دراسة أساطير المنطقة على ما وصل إليه علمنا. كما قمت من خلال أسفار الكتاب، بمقارنة شاملة مع كتاب التوراة العبرانية، فيما يتعلق بالنصوص الأسطورية الواردة فيه، لاظهار مدى اعتماد الثقافة اليهودية على الثقافة السورية والبابلية في صياغة أهم مرجع ديني وثقافي لدى الشعب اليهودي. كما أظهرنا علاقة الأساطير السورية والبابلية بأساطير الشعوب المجاورة كالمصريين والأغريق، وتتبعنا، كلما أمكن ذلك، الأصول الشرقية للأساطير الأغريقية.

أما لماذا اقتصر بحثي على سورية وبلاد الرافدين* دون بقية ثقافات الشرق القديم، فذلك راجع لأسباب ثلاثة: الأول هو الوحدة الثقافية القائمة في هذا الجزء من المنطقة، هذه الوحدة التي تعطى لأي بحث يدور حولهما طابع الانسجام والتكامل. والثاني راجع لاتساع الموضوع وتشعبه، مما لا يسمح بدراسة وافية لميثولوجيا الشرق القديم في كتاب واحد ومن قبل مؤلف واحد. أما السبب الثالث فشخصي جداً، يرجع إلى ميل خاص إلى آداب هذه المنطقة، وولع بتاريخها وتراثها. وقد حاولت الا يكون توجهي، في هذا الكتاب، إلى زمرة معينة من القراء، بل إلى زمر متعددة. فالقارىء العادي سيجد فيه موضوعاً جديداً على الكتابات العربية الحديثة، لأنه أول كتاب يعالج موضوع الأسطورة على هذا المستوى من الاحاطة. وسيجد القارىء المطلع كثيراً من المعلومات الجديدة والتفسيرات الجديدة. كما سيجد المهتمون بالديانات المقارنة عدداً لا بأس به من النقاط القابلة للدراسة والمناقشة، وكذلك الأمر فيما يتعلق بدارسي الآداب والديانة اليهودية. أما بالنسبة للمتخصصين، فآمل أن تفتح النظرات والأفكار الجديدة التي أطرحها في ثنايا هذا الكتاب، مجالاً لحوارات مجدية.

* في مواضع كثيرة من هذا الكتاب استعملت كلمة «بابل» أو «بابلي» للدلالة على بلاد الرافدين اجمالاً.

ملاحظات لقراءة النصوص

- إن جميع النصوص الواردة في هذا الكتاب مترجمة عن الانكليزية. وقد جاءت النصوص العربية التي أثبتناها هنا، نتاج تحقيق طويل، ومقارنة دقيقة بين ترجمات انكليزية مختلفة للنص الواحد. وقد حاولت، قدر الامكان، الا أتصرف بالترجمة الا في مواضع قليلة استدعتها الضرورة، مع الاشارة إلى مثل هذا التصرف عند حدوثه. كما حاولت الابقاء على الطابع الأدبي لتلك النصوص الشعرية، دون الاخلال بالمعاني والمرامي الأصلية. أما عند وقوع التعارض بين الصياغة الأدبية والترجمة الأمينة، فقد التزمنا الأمانة العلمية على حساب القيم الجمالية. كما بذلت جهداً في اعطاء الاسماء نطقاً سامياً، قد يختلف أحياناً مع ما تعودنا قراءته في الترجمات الحرفية عن اللغات الأوروبية. فالاله مردوك هو في الواقع مردوخ، والالهة تيامات، كما تنقلها لنا بعض الترجمات، هي تعامة، واداد هو حدد. . . . .

- [ ] القوس المنكسر في النصوص، دلالة على وجود نقص في الشعر، ناشيء عن كسور أو تشوهات في اللوح الفخاري. فإذا احتوى القوس على كلمات [القوس المنكسر] فمعنى ذلك وجود تشوه غير تام في السطر، وأن ما تبقى من حروف ومقاطع يكفي لاستعادة الكلام الأصلي أو ما شابهه. أما اذا احتوى القوس على نقاط [. . . .] فمعنى ذلك أن التشوه تام. وفي هذه الحالة لم نسمح لأنفسنا باملاء الفراغات الحاصلة.

- (   ) القوس العادي، هو اضافة مني، أو من المترجم الأصلي - على السطر - لغرض توضيح المعنى، ولا وجود للكلمات المحصورة في هذا القوس، في النص الأصلي. وقد أبقيت مثل هذه الاضافات، في حدها الأدنى المطلوب، وغالباً ما لجأت اليها لضرورات جمالية.



«وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء»

قرآن كريم - هود ٧

«في البدء خلق الله السماوات والأرض وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه»

التوراة - تكوين ١

«في تلك الأزمان الأولى. لم يكن سوى المياه»

اسطورة بابلية

لقد كانت مسألة بدء العالم والحياة والانسان، من أولى المسائل التي ألحت على العقل البشري، والتي تصدى لمعالجتها منذ فجر طفولته. فلا نكاد نجد شعباً من الشعوب الا ولديه أسطورة أو مجموعة أساطير في الخلق والتكوين وأصول الأشياء. نزولاً إلى العصر الحديث، حيث احتلت هذه المسألة الجانب الأكبر من ميتافيزيقيا جميع الفلسفات، وشغلت حيزاً هاماً في العلوم الحديثة، فحلت النظريات العلمية محل الأسطورة، ومحل التأمل الفلسفي المجرد.

تنتمي أساطير التكوين في المنطقة إلى زمرة أساطير الميلاد المائي. فالحالة السابقة لبدء الكون في اساطيرنا التكوينية، هي حالة من العماء المائي، ساكن، لا متمايز، لا متشكل، في زمن سرمدي متماثل، لا ينتابه تغيير ولا تبديل كأنه عدم. وفي لحظة معينة، هي هزة ودمار، يليها بناء جديد، ينبثق الكون من لجة العماء، ويبدأ النظام من قلب الفوضى، ويتحد الشكل من صميم الهيولى. لحظة يقرر فيها الآلهة خلق العالم، ووضع أسس الكون والحياة. فيبدأ الزمن الذي نعرفه الآن، وتتخذ الأشياء شكلها الذي نراه اليوم.

ولكن ساعة الخلق، هي ساعة صراع كوني شامل. فالقوى الالهية الخالقة، هي قوى نشطة، دينامية، فعالة، وليس الكون والحياة والانسان، الا تعبيراً عن طاقاتها الحركية وفاعليتها الخلاقة. ولكنها لا تستطيع تحقيق مرادها بغير التمرد

والثورة على آلهه العماء، والسكون والفوضى واللاتشكل، التي تقف ضد هذا الشرخ في جدار الزمن الساكن. ولهذا لن يتأتى ظهور العالم الا باراقة الدماء، وانتصار آلهة ودمار أخرى، ولن تتوطد اسس الكون إلا على اشلاء الضحايا المغلوبة.

وفعل الخلق الأول لا يعطي الوجود دفعة واحدة، ينطلق بعدها في مساره إلى الأبد، بل لابد من تكرار دوري لفعل الخلق الأول في كل عام من اعوامنا الأرضية. ففي كل سنة يخلق العالم من جديد، ويجري تجديده ليعود نضراً كما كان، لحظة خروجه طرياً من يد الخالق لأول مرة. وهذا التكرار الأبدي للخلق يجري بمعونة البشر ومشاركتهم فيه، عن طريق الطقوس التي من شأنها شد ازر الآلهة ومعاضدتها ضد قوى العدمية التي تتصدى لحركة الكون بغية استعادته إلى حالته السكونية. وهنا تتكشف لنا المعاني السرية، والعميقة الدلالة، للاحتفالات الدينية في رأس السنة، والتي بدأت في بابل وما زالت قائمة إلى يومنا هذا.

في بابل وغيرها من مدن الشرق الأدنى القديم، كانت احتفالات رأس السنة تشغل حيزاً من اهتمامات البشر الدينية. وخلال بضعة ايام كان الناس يتفرغون لمجموعة من الطقوس تتركز حول اعادة تمثيل فعل الخلق الأول، والتكرار الدرامي للصراع البدئي الذي انتج الاكوان، والتوحد مع الزمن المقدس الذي اعطى العالم دفعته الأولى، واستحضاره مرة أخرى وعيشه والذوبان فيه، في حالة من الانقطاع الكلي عن الزمن الدنيوي المعتاد* فكانت تجري تلاوة أسطورة التكوين على الملآ، ثم يجري تمثيلها درامياً بواسطة مجموعة من الممثلين يتخذون أدوار الآلهة المتصارعة . أما بقية العباد فكانت تمارس الصلوات والابتهالات، فتعطي من ايمانها دفعاً للآلهة وسنداً.

وهكذا نجد أن دور الانسان في هذه الحياة ليس دوراً سلبياً، بل ايجابي فعال يساهم في استمرار الوجود وسير الاكوان، ومساندة الآلهة في تكرار فعل الخلق الأول وانتاج زمن جديد وعالم جديد. كما أن الانسان عن طريق المشاركة الرمزية في إفناء العالم واعادة تجديده، يتوحد رمزياً في فعل الخلق الكلي الهائل ويتجدد هو نفسه ايضاً، ويشعر أنه قد تطهر ودفن خطاياه مع العالم الذي انقضى دون رجعة، فكانت ايام رأس السنة مناسبة للتطهر والتكفير والتوبة.

* وعن هذه الاحتفالات التي انتقلت الى الاغريق نشأ المسرح الاغريقي غالباً.

وتدعم بعض الدراسات اللغويه هذه النظرة الأسطورية. فكلمة «عالم» وكلمة «سنة» هي نفسها في بعض اللغات، كما هو شأن هنود امريكا الشمالية الذين يقولون مر عالم في معرض قولهم مرت سنة. فالسنة هي عالم يتكرر مرة أخرى ويولد من جديد. وفي فارس كان الملك يقف في عيد النيروز، وهو رأس السنة الفارسية، ويعلن للملأ من قومه: هذا يوم جديد من شهر جديد من سنة جديدة. وان ما بلي من الوقت يجب تجديده[1].

وعن أسطورة الأصل الاساسية تتفرع مجموعة من أساطير الأصول الثانوية التي تحكي بدايات الأشياء التي تلعب دوراً أساسياً في حياة الانسان، كالزراعة وأدواتها والكتابة والسدود والقنوات وما إلى ذلك. إن معظم ما يستعمله الانسان ويفيد منه لحياته وحضارته، ان هو الا نتاج نموذج بدئي مقدس صنعته الآلهة بيدها أو أوحت به. بل ان معظم ما يقوم به الانسان ويمارسه في حياته، ما هو الا تقليد أولي قام به الآلهة، سواء في المأكل أو الملبس أو الجنس، أو العمل. ورد في أحد النصوص الدينية القديمة: هذا ما قام به الآلهة، وهذا ما سيقوم به الانسان. وعلى هذا، تغدو ميثولوجيا الأصول، أداة كشف ومعرفة وتعليل، من جهة، ومن جهة أخرى تثبيتاً للنماذج البدئية لمعظم النشاطات الهامة في حياة الانسان والمجتمع.

1 - Mercea Eliade, the Sacred and the Profane, Harvest Book, New York.

راجع ايضاً ترجمة نهاد خياطة، المقدس والدنيوي، دار العربي، دمشق١٩٨٧.

١ | التكوين السومري

ازدهرت الثقافة السومرية في الجزء الاسفل من حوض دجلة والفرات وحول الشواطىء العليا للخليج العربي، منذ مطلع الألف الرابع قبل الميلاد. ورغم مرور فترة لا بأس بها على اكتشاف الحضارة السومرية، فان اصول الشعب السومري مازالت قضية يكتنفها الغموض. على ان أكثر النظريات قوة اليوم، هي النظرية التي تقول بقدوم السومريين من أواسط آسيا. ولقد أثبتت الدراسات اليوم أن أرض سومر لم تكن خالية من السكان قبل قدوم السومريين، بل كانت مسكونة باقوام ساميين، ذوي لغة وثقافة سامية، لا نعرف عنها الكثير، ولا نعرف ماذا اعطت للغزاة الأسيويين. ولكن الشيء الأكيد، هو أن الثقافة السومرية، قد نضجت من احتكاك هذين الشعبين وتفاعلهما مع بعضهما البعض في تلك الحقبة المبكرة من تاريخ الانسانية.

ولقد كان للثقافة السومرية تأثير كبير على ثقافة الشرق الأدنى القديم. فهي التي اعطت المنطقة الخط المسماري الذي غدا واسطة الكتابة لدى جميع شعوب المنطقة. وهي التي طورت منذ الأزمنة السحيقة، مبادىء دينية وروحية، ظلت سائدة فترة طويلة من الزمن، حتى وصلت تأثيراتها إلى الثقافة الاغريقية في الفترات المتأخرة جداً. وهي التي وضعت أولى الملاحم الشعرية، وأولى التراتيل الدينية

والقصائد الدنيوية، وأولى التشريعات والقوانين والتنظيمات المدنية والسياسية. وباختصار: فالتاريخ يبدأ من سومر.

لم تصلنا عن السومريين أسطورة متكاملة في الخلق والتكوين وأصول الأشياء، وان كان العلماء لا يستبعدون العثور على مثل هذه الأسطورة، سواء في الألواح الفخارية المبعثرة في معظم متاحف العالم، أو في باطن أرض سومر حيث ما زلنا نتوقع مزيداً من الكشف عن التاريخ المطمور. إلا أن النصوص المتفرقة التي تم العثور عليها، والمتعلقة بامور الخلق والتكوين، تكاد تعطي صورة واضحة عن أفكار السومريين بهذا الشأن ونظرتهم اليه. وان دراسة متعمقة لتلك النصوص وربطها ببعضها في سلسلة منطقية، لتدلنا على أن الأسطورة ليست بالسذاجة التي تبدو عليها في نظر القارىء العادي. وان الرموز الأسطورية التي استخدمها الانسان القديم ليست إلا وسيلة ايصال وقالب تعبير. انها لغة متميزة، تحاول من خلال مفرداتها وتعابيرها ومصطلحاتها ايصال حقائق معينة، وهي منهج له من المشروعية ما لبقية المناهج التي ابتكرها فكر الانسان، لاحقاً، اذا أخذنا بعين الاعتبار، العملية التطورية البطيئة والصاعدة، التي سار بها عقل الانسان منذ فجر التاريخ.

لم تكن أفكار السومريين عن الخلق والتكوين، افكاراً بدائية، بل أفكار ناضجة بالدرجة التي تتيحها معارف تلك الفترة من بداية حضارة الانسان. فلقد اثبت السومريون مقدرة فائقة على الملاحظة الذكية والربط، واستخلاص النتائج المنطقية من المقدمات المنطقية والحقائق والوقائع المشاهدة. وان دراسة النصوص الأسطورية المتفرقة تعطينا التسلسل الأسطوري التالي لعملية خلق العالم والاكوان...

١ ـ في البدء كانت الإلهة «نمو» ولا أحد معها. وهي المياه الأولى التي انبثق عنها كل شيء.

٢ ـ انجبت الإلهة نمو ولداً وبنتاً. الأول «آن» اله السماء المذكر، والثانية «كي» الهة الأرض المؤنثة وكانا ملتصقين مع بعضهما. وغير منفصلين عن امهما نمو.

٣ ـ ثم ان «آن» تزوج «كي» فانجبا بكرهما «انليل» اله الهواء الذي كان بينهما في مساحة ضيقة لا تسمح له بالحركة.

٤ ـ انليل الاله الشاب النشيط، لم يطق ذلك السجن، فقام بقوته الخارقة

بإبعاد أبيه آن عن أمه كي. رفع الأول فصار سماءً، وبسط الثانية فصارت ارضاً، ومضى يرتع بينهما.

٥ ـ ولكن انليل كان يعيش في ظلام دامس. فانجب انليل ابنه نانا إله القمر، فيبدد الظلام في السماء وينير الأرض.

٦ ـ «نانا» إله القمر انجب بعد ذلك «أوتو» إله الشمس الذي بزه في الضياء.

٧ ـ بعد أن ابعدت السماء عن الأرض، وصدر ضوء القمر الخافت، وضوء الشمس الدافىء، قام انليل مع بقية الالهة بخلق مظاهر الحياة الأخرى.

والآن إذا جردنا هذه السلسلة الأسطورية من رموزها ومفرداتها الميثولوجية، وترجمناها إلى لغتنا العلمية الحديثة، لظهر لنا منطقها المتماسك، والملاحظات العلمية التي قادت إليها:

١ ـ في البدء لم يكن موجوداً سوى المياه التي صدر عنها كل شيء وكل حياة.

٢ ـ في وسط هذه الحياة الأولى ظهرت جزيرة يابسة على هيئة جبل قبته هي السماء، وقاعدته هي الأرض ومن لقاء القبة بالقاعدة ظهر الهواء، العنصر المادي الثالث بعد المياه والتراب.

٣ ـ من الصفات الاساسية لهذا العنصر الجديد، التمدد. وبتمدد هذه المادة الغازية، تباعدت السماء عن الأرض.

٤ ـ لم يكن القمر السابح في الهواء إلا نتاجاً للهواء وابناً له، وربما كان من نفس العنصر ايضاً. اما الشمس فهي الابن الذي فاق اباه القمر قوة، وخلفه على عرش السماء فيما بعد.

٥ ـ بعد أن ابتعدت السماء عن الأرض، وغمرت اشعة الشمس الدافئة وجه البسيطة، تهيأت الشروط اللازمة للحياة، فظهرت النباتات والحيوان وتم خلق الانسان.

تتطابق هذه النظرات في بعض جوانبها مع النظريات العلمية الحديثة. فولادة القمر من الهواء لا تبعد كثيراً عن النظريات القائلة بتشكل الاجرام السماوية من السحب الغازية. اما صدور الاشياء عن المياه الأولى فلا يبتعد عن الاكتشافات العلمية الحديثة المتعلقة بنشأة الحياة وتطورها ابتداء من البحر. واريد هنا ان الفت النظر إلى نقطة هامة لفهم الفكر الأسطوري وتطوره. فالفكر القديم ابتدأ مادياً

حسياً، وبعيداً عن التجريد. وفكرة القوة المبدعة المنفصلة عن الكون الفاعلة فيه عن بعد، لم تكن موجودة في ذهن خالق الأسطورة. فعمليات الخلق ليست فعلاً صادراً عن الآلهة، منفصلاً عنها، بمقدار ما كانت تبدياً لحركتها وتفاعلها مع بعضها. ففي البدء كانت المياه الأولى، أزلية غير مخلوقة ولا منبجسة عن العدم. وجبل السماء والأرض لم يخلق بفعل قوة خارجية مجردة متعالية، بل جاء نتيجة اخصاب ذاتي للأم الأولى التي ولدته من رحمها، كما تلد امهات البشر والحيوان، وكما يتكاثر النبات. وكذلك الأمر بالنسبة للقمر والشمس وغيرهما.

والآن لنأت إلى استعراض أهم النصوص التي وصلت الينا، والتي تلقي الضوء على افكار السومريين في موضوع البدء والتكوين.

فصل السماء عن الأرض:

في مطلع اسطورة تحكي عن خلق الانسان، نعثر على اشارة لجبل السماء والأرض.

في جبل السماء والأرض
أنجب «آن» أتباعه الأنوناكي[1].

وهـذا الجبل لم يكن ازلياً، بل مخلوقاً. فمن لوح آخر، مخصص لتعداد أسماء الأنوناكي، الهة سومر، نعرف أن الالهة «نمو» وهي المياه البدئية، قد انجبت السماء والأرض، اللتين انفصلتا عن بعضهما. ويشير مطلع اسطورة اخرى عرضاً إلى هذا الانفصال، فيقول:

بعد أن ابعدت السماء عن الأرض
وفصلت الأرض عن السماء
وتم خلق الانسان
وأخذ «آن» السماء
وانفرد انليل بالأرض
أخذ الاله «كور» الالهة «اريشكيجال» غنيمة[2].

1 - S.N. Kramer. Sumerian Mythology. Harper and Row. Newyork. 1961.
2 - ibid

والاله كور في الميثولوجيا السومرية، هو رب العالم الأسفل، عالم الموتى الذي تمضي اليه الارواح. اما اريشكيجال فقد كانت الهة أرضية تزوجها كور بعد أن اختطفها إلى عالمه الأسفل لتغدو الهة ذلك العالم، وسيدته المطلقة، تماماً كالآلهـة بير سيفوني في الميثولوجيا الأغريقية، التي اختطفها إله العالم السفلي هاديس، من امها الهة الخصب ديمتر، فصارت ربة للعالم الأسفل وزوجة لسيد عالم الموتى. ومما يثبت الرابطة بين الاسطورتين، ان اسم «كور» الذي بقي في اللغة السومرية دلالة على العالم الأسفل حتى الفترات المتأخرة، وزوال ذكرى الاله القـديم واسطورته، هو ايضاً اسم ربة العالم الأسفل الأغريقية، التي تشير اليها الأساطير أحياناً باسم بيرسفوني وأحياناً أخرى باسم «كور».

وفي مطلع اسطورة ثالثة نعرف مزيداً من المعلومات عن فصل السماء عن الأرض، والاله الذي قام بتلك العملية الجبارة:

ان الاله الذي اخرج كل شيء نافع
الاله الذي لا مبدل لكلماته
انليل الذي انبت الحب والمرعى
ابعد السماء عن الأرض
وابعد الأرض عن السماء[3].

تثبت لنا هذه الأساطير السومرية، تقاليد بقيت سائدة في الفكر الأسطوري لحضارات المنطقة والحضارات الأخرى المجاورة. ففكرة الميلاد المائي تتكرر فيما بعد في الأساطير البابلية التي تحكي عن ولادة الكون من المياه الأولى «تعامة» المقابلة لـ «نمو» السومرية[4] وفي الأسطورة السورية نجد «يم» المياه الأولى، وقد انتصر عليه الاله بعل وشرع بعد انتصاره بتنظيم العالم[5]. وفي الأسطورة المصرية كان رع أول إله يخرج من المياه الأولى، وهو الذي انجب فيما بعد بقية الآلهة[6]. وفي الأسطورة الأغريقية نجد «اوقيانوس» هو المياه الأولى، والاله البدئي الذي نشأ

3 - ibid.

(٤) راجع فصل التكوين البابلي فيما يأتي، نص الاينوماإيليش
(٥) راجع فصل التكوين الكنعاني فيما يأتي، نص بعل ويم

6 - J. Viaud, Egyptian Mythology. Larousse Encyclopedia of Mythology. London. 1977 P. 11.

عنه الكون[٧]. وفي التوراة العبرانية ايضاً نجد المياه الأولى وروح الرب فوقها قبل التكوين «وكانت الأرض خربة وخالية، وروح الرب يرف فوق وجه الماء» التكوين: ١. كما اثبت لنا القرآن الكريم وهو نهاية الوحي الذي ابتدأ بسيدنا آدم وجود المياه البدئية اذ قال «وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء» وقال «وجعلنا من الماء كل شيء حي»[٨].

وكذلك الأمر فيما يتعلق بفكرة لقاح السماء والأرض المتحدتين، والفصل بينهما فيما بعد. ففي الأسطورة المصرية نجد «جيب» إله الأرض المذكر، و«نوت» الهة السماء المؤنثة في حالة اتحاد[٩]. وقد تزوجا بعضهما سراً دون اذن من الإله رع. فلما علم كبير الالهة بذلك أرسل إله الهواء «شو» الذي ابعدهما عن بعض عنوة. ومنذ ذلك الوقت والاله شو يطأ بقدميه جيب الصريع، ويرفع بذراعيه القويتين السماء نوت. وفي الأسطورة الأغريقية نجد «جيا» الأرض، الأم الأولى، التي كانت أول إله يخرج من العماء البدئي، تلد نظيرها أورانوس إله السماء الذي يغطيها من كل الجوانب، وتتحد به لتلد بقية الالهة[١٠]، ثم يتم التفريق بينهما عنوة. وفي الأسطورة البابلية يقوم الاله مردوخ بشطر جسد الالهة تعامة، المياه الأولى إلى نصفين، فيرفع الأول سماء، ويبسط الثاني ارضاً[١١] وفي الأسطورة التوراتية، يقوم إله العبرانيين يهوه، ايضاً، بفصل المياه الأولى إلى شطرين، رفع الأول إلى السماء وبسط الثاني الذي تجمع ماؤه في جانب، وبرزت منه اليابسة في جانب آخر[١٢]. أخيراً، أثبت لنا القرآن الكريم واقعة فصل السماء عن الأرض بقوله: «أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما»[١٣].

وقد قام المؤلفون العرب فيما بعد بتفصيل نظرية الميلاد وفصل السماء عن

---

7 - F. Guirands. Greek Mythology. Hamlyn. London. 1963 p. 63

(٨) سورة هود الآية ٦، سورة الأنبياء الآية ٣٠.

9 - New Larousse Encyclopedia or Mythology. Hamlyn London. 1977 p. 14 - 15

10 - ibid p 87. 150

(١١) راجع فصل التكوين البابلي، فيما يلي، نص الانيوما إيليش.

(١٢) العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح الاول.

(١٣) سورة الانبياء، الآية ٣٠.

الأرض، مستخدمين نفس الأفكار الأسطورية القديمة. فنقرأ في كتاب عرائس المجالس، لابي اسحق الثعلبي المتوفى سنة ٤٢٧ هجرية[١٤]: «لما اراد الله تعالى أن يخلق السموات والأرض، خلق جوهرة خضراء حجمها اضعاف طباق السموات والأرض ثم نظر إليها نظرة هيبة فصارت ماء. ثم نظر إلى الماء فغلى وارتفع منه دخان وزبد وبخار... وخلق الله من ذلك الدخان السماء. ومن ذلك الزبد الأرض». كما نقرأ للطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ في كتاب تاريخ الرسل والملوك[١٥]
«ان الله تعالى كان عرشه على الماء، ولم يخلق شيئاً غير ما خلق قبل الماء. فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً فارتفع فوق الماء، فسما عليه فسماه سماء، ثم أيبس الماء فجعله أرضاً واحدة ثم فتقها فجعلها سبع أرضين». كما يحدثنا الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي في الجزء الأول من الفتوحات المكية عن خلق العالم فيقول[١٦]: «فخلق الماء سبحانه، بردة جامدة كالجوهرة في الاستدارة والبياض واودع فيها بالقوة ذات الأجسام وذوات الأعراض.
ثم خلق العرش واستوى عليه اسم الرحمن... فنظر بعين الجلال إلى تلك الجوهرة فذابت حياة، وتحللت أجزاؤها فسالت الماء، وكان عرشه على ذلك الماء قبل وجود الأرض والسماء... وليس في الوجود إذاك إلا حقائق المستوى عليه، والمستوي، والاستواء. فأرسل النفس فتموج الماء وازبد... وترك زبده بالساحل الذي أنتجه... فأنشأ سبحانه في ذلك الزبد الأرض... ثم أنشأ الدخان من نار احتكاك الأرض عند فتقها، ففتق فيه السموات العلى.»

وفي أساطير كثير من الشعوب البدائية المعاصرة لنا نجد تكراراً لأسطورة فصل السماء عن الأرض. ففي نيوزيلاندة وتاهيتي وجزر كوك، يروي السكان الأسطورة التالية[١٧]: بعد ان اتحدت السماء بالأرض انجبتا عدداً من الالهة الصغار الذين كانوا يعيشون في ضيق وظلمة لشدة التصاق السماء بالأرض، فقرروا التمرد على هذا الوضع بزعامة الاله الجريء «تاني» الذي رفع السماء بقوة ذراعيه حتى استقرت مكانها، ثم قال لتبق السماء بعيدة عنا، أما الأرض، فلتبق قريبة هنا أماً رؤوماً.

---

(١٤) أبي اسحاق الثعالبي، عرائس المجالس، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت ص ١٢

(١٥) تاريخ الطبري، دار سويدان، بيروت ١٩٦٧، الجزء الاول ص ٥٢

(١٦) محي الدين بن عربي، الفتوحات المكية، السفر الأول، القاهرة ١٩٧٢ صفحة ٤٩.

17 - Philip Freund. Myths of Creation. W.H. Allen- London. 1964

ولعل النظريات العلمية الحديثة في نشأة الكون لا تبتعد كثيراً عن هذه الافكار عندما تفترض ان انفجاراً بدئياً قد حدث في الأزمنة السحيقة، نشأ عنه تبعثر الاجرام في الفراغ وابتعادها عن نقطة الانفجار. فالأرض والحالة هذه كوكب قد انفصل عن مكان ما هناك في السماء.

ولقد قامت مدرسة التحليل النفسي بتفسير نظرية الميلاد المائي على انها انعكاس لذكرى كامنة في لا شعور الانسان عن حالة الجنين في رحم الأم، حيث كان محاطاً بالماء من جميع الجهات، وانبثاقه، من ثم، عن ذلك الوسط إلى العالم الجاف الخارجي. كما ان المدرسة تستخدم اساطير فصل السماء عن الأرض، لتوكيد وجهة نظرها في سيطرة عقدة اوديب، التي تشغل حيزاً كبيراً من نظرية سيجموند فرويد، فالرغبة المكبوتة في لا شعور الطفل، والمتعلقة بابعاد الأب والاستئثار بالأم، تجد متنفساً لها في عالم الأسطورة، حيث يقوم البطل بابعاد السماء والبقاء في الأرض. يضاف إلى ذلك ان بعض الأساطير لا تكتفي بالابعاد، بل يتعداه إلى قيام الابن بفعل عنيف ضد الوظيفة الجنسية للأب، تلك الوظيفة التي تعطيه امتيازاً عند الأم. فالاله كرونوس في الأسطورة الأغريقية[18] يقوم بتحريض من امه بإخصاء ابيه اورانوس إله السماء، ورمي اعضائه التناسلية في البحر. ومن لقاء مياه اورانوس المخصبة بمياه المحيط، تولد افروديت من زبد البحر، وتضع قدمها على اليابسة عند شواطىء قبرص.

تنظيم الكون:

بعد أن فصل انليل بين السماء والأرض، واعطاهما شكلهما الذي نعرفه اليوم، انصرف إلى خلق بقية عناصر الكون. وهنا ايضاً، يأتي الخلق نتيجة الحركة المادية والفعالية الحياتية للآلهة، لا نتيجة الكلمة الخالقة والأمر الالهي. فظهور القمر والشمس إلى الوجود، وبعض الآلهة الأخرى، يأتي نتيجة الفعالية الجنسية للاله انليل الذي ضاجع الالهة ننليل فولدت له القمر. والقمر بدوره انجب الشمس بفعل جنسي آخر. تحدثنا اسطورة سومرية عن سلسلة الخلق هذه في نص شعري

18 - New Larousse Encyclopedia of Mythology, Hamlyn London 977 P. 88.

جميل مؤلف من مائة واثنين وخمسين سطراً، معظمها في حالة سليمة تسمح بقراءة واضحة للألواح الموزعة عليها[19]:

تبدأ الأسطورة بمقدمة وصفية لمدينة نيبور التي وجدت قبل ظهور الانسان، وكانت تسكنها الآلهة:

انظر (إلى نيبور) عماد السماء والأرض (هي) [. . . .]
انظر إلى نيبور المدينة [. . . .]
ترى اسوارها العالية، مدينة [. . . .]
ترى نهرها الرقراق ايد سالا
ترى رصيفها كاركورانا، حيث ترسو السفن
ترى بولال نبعها الصافي
ترى ادنو نبردو، جدولها العذب
هناك انليل فتاها الغض
هناك ننليل فتاتها الشابة
هناك ننبار شيكونو سيدتها العجوز

بعد هذه المقدمة، تبدأ القصة، فنجد سيدة نيبور العجوز وهي تحدث ابنتها ننليل في كيفية استمالة الاله انليل:

في تلك الايام قامت الأم بارشاد ابنتها،
قامت ننبار شيكونو بنصح ابنتها:
عند النهر الصافي يافتاتي، عند النهر الصافي اغتسلي.
وعلى ضفة نهر النبردو، أي ننليل، تمشي
ذو العينين البراقتين، السيد ذو العينين البراقتين،
الجبل العظيم، انليل الأب، ذو العينين البراقتين سيراك
الراعي، سيد المصائر، ذو العينين البراقتين سيراك
حيث [. . . .] وحيث يقبلك.

نفذت ننليل مشورة امها. وابصرها انليل فحاول غوايتها، ولكنها تمنعت. فتحايل عليها وحملها بمعونة وزيره نسكو إلى قارب، وهناك اغتصبها وتركها حبلى

19 - S. N. Kramer, Sumerian Mythology, Harber and Row. N.y 1961.

بالإله القمر. إلا ان الألهة تغضب لفعلة انليل. ويقرر المجمع نفيه إلى العالم الاسفل. يرضخ انليل لمشيئة الالهة ويبدأ رحلته نحو العالم الاسفل. ولكن ننليل التي تمكن منها حب الاله الشاب تلحق به وتدركه عند بوابة الجحيم. ولكن انليل يطلب من حارس البوابة، ولسبب لا ندريه تضليل ننليل، ويتخذ هو نفسه هيئة الحارس ويقبع في انتظارها. وعندما تصل وتسأله عن حبيبها، يجيبها وهو في هيئة الحارس مضللاً، ثم يجامعها ويتركها حبلى بنرجال إله العالم الأسفل:

انليل [....] غادر المدينة.
نونا منير غادر المدينة
انطلق انليل، والفتاة اقتفت اثره
انطلق نونا منير والفتاة اقتفت اثره
قال انليل لحارس البوابة
ياحارس البوابة ياصاحب القفل
يارجل المزلاج ياصاحب القفل المقدس
ننليل الملكة آتية
ننليل الملكة آتية
فان توجهت لك بالسؤال عني
لا تكشف لها عن مكان وجودي.
اقتربت ننليل من حارس البوابة قائلة:
ياحارس البوابة، ياصاحب القفل
يارجل المزلاج، ياصاحب القفل المقدس.
انليل مليكك اين مضى؟
فاجابها انليل عن حارس البوابة:
لقد امرني انليل سيد كل البلاد،

يلي ذلك اربعة اسطر تحتوي مضمون الأمر إلا ان معناها غامض ثم الحوار التالي:

ـ ان انليل، حقاً، مليكك، ولكني ايضاً مليكتك
ـ اذا كنت حقاً مليكتي، فدعيني المس [....]

ـ ان ماء مليكك في داخلي «نانا»* انه في داخلي
ـ ليذهب ماء مليكي إلى السماء، ليذهب «نانا» إلى السماء
ـ واتركي مائي يمضي إلى الأرض.
انليل في هيئة حارس البوابة اضطجع
فقبلها وجامعها
وسكب في داخلها ماء «ميسلاميتا»
مشى انليل وننليل اقتفت اثره
نونا مشى والفتاة اقتفت اثره
قال انليل لصاحب نهر العالم الاسفل:
ياصاحب نهر العالم الأسفل
ننليل الملكة آتية
ننليل الملكة آتية
فان توجهت لك بالسؤال عني
لا تكشف لها مكان وجودي
اقتربت ننليل من صاحب النهر قائلة:
ياصاحب نهر العالم الأسفل،
انليل مليكك، اين مضى؟
فاجابها انليل عن صاحب النهر:
لقد امرني انليل سيد كل البلاد.

يتكرر ثانية المضمون غير المفهوم للأمر، ثم يليه الحوار التالي، بين انليل في هيئة صاحب النهر، والفتاة ننليل:

ـ ان انليل حقاً مليكك، ولكني ايضاً مليكتك
ـ اذا كنت حقاً مليكتي، فدعيني المس.....
ـ ان ماء مليكك في داخلي، الماء الملتمع في جوفي
ماء نانا الملتمع في جوفي
ـ ليذهب ماء مليكي إلى السماء، واتركي مائي يمضي إلى الأرض

* نانا القمر

انليل في هيئة ملاح النهر اضطجع

فقبلها وجامعها

وسكب في جوفها ماء ننازو*

وتتابع الأسطورة على نفس المنوال، فتصف مولد إله ثالث من الالهة السفلى هو الاله «اليجيبيل» وهنا يتخذ انليل هيئة ملاح العالم الأسفل الذي ينقل بقاربه عبر النهر.

وتنتهي الأسطورة بترتيلة حمد لانليل:

انليل هو السيد والملك

انليل لا مبدل لكلماته

الحمد لأمنا ننليل

الحمد لأبينا انليل

وبالجدير بالذكر أن الأساطير اليونانية اللاحقة قد نسخت بعد ألفي سنة، حرفياً وصف العـالم الأسفـل السـومـري. فنجد بوابات العالم الأسفل، ونهره، وملامحه وملكه، ومليكته.

ولعل مما يلفت النظر في هذه الأسطورة، ظهور القمر للوجود قبل الشمس، وكونه فيما بعد اباً للشمس. ويرجع ذلك، في اعتقادي، إلى اسبقية عبادة القمر على عبادة الشمس في المجتمعات البدائية السابقة لظهور الحضارات، مجتمعات الثقافة التي قدست القمر واعتبرته رمزاً للأم الكبرى الهة المجتمع الأمومي، وقدمته على الشمس التي كانت رمزاً للذكر، والتي قدستها المجتمعات الابوية بعد ذلك باعتبارها رمزاً للاله الذكر، إله السماء الأعلى. ومن ناحية أخرى فان فكرة الإله الابن الذي يتفوق على ابيه، ويأخذ سلطاته، هي فكرة شائعة في ميثولوجيا المنطقة وميثـولـوجيا الشعوب الأخرى. فانليل نفسه قد صار الاله الأول في مجمع آلهة سومر، ومردوخ فيما بعد تفوق على ابيه، وصار سيد آلهة بابل. وعند الكنعانيين، نجـد الاله الأكبر «ايل» وقد تخلى عن مكانه للاله «بعل» الذي تفوق على ابيه «داجون». وفي المعتقد المسيحي، نجد الاله الأبن وقد غدا أكثر اهمية لخلاص الانسان من الإله الأب.

* من آلهة العالم الاسفل.

«انكي» ينظم العالم:

لم يكن الخلق مهمة تولاها إله واحد في سومر. فها هو الاله انكي، يتابع ما بدأه انليل، ويضع اللمسات الأخيرة على صورة الكون، فتخرج حية نضرة. وانكي هو إله الماء العذب عند السومريين وإله الحكمة ايضاً. ومن غير إله الماء العذب يستطيع ان يبعث الحياة في كون جامد لا حركة فيه، ومن غير إله الحكمة يستطيع ان يدفع الحياة نحو غايتها، ويحدد أغراضها ومراميها؟

حول هذا الموضوع وصلتنا اسطورة سومرية، تتحدث عن نشاط الإله انكي الخاص بتنظيم العالم، وتيسير اسباب الحياة والحضارة. ولكن الجزء الأول من النص، وهو الجزء الاساسي، مشوه بشكل لا نستطيع معه تعيين معنى واضح. وعندما يصبح اللوح الفخاري قابلاً للقراءة، نلتقي بالاله انكي وقد وصل في تطوافه الكوني إلى بلاد سومر، فيتوقف هناك، ويعين لتلك البلاد مصائرها[٢٠]:

سومر، يا أعظم بلدان العالم

أيها المغمور بالنور الدائم، والشرائع المطاعة

اقدارك عظيمة لا تتبدل

وقلبك واسع عميق، لا يسير له غور

و [. . . .] كالسماء، لا يمكن مسها

الملك الذي تنجبه، مزين ابداً بحلي دائمة.

السيد الذي تنجبه، على رأسه تاج لا يميل

سيدك، سيد معظم، يجلس مع «آن» في العرش السماوي

مليكك، هو الجبل العظيم، الأب انليل.

وكمثل [. . . .] هو أب لكل البلاد.

أما الانوناكي، الآلهة العظيمة،

ففي وسطك قد اقامت مساكنها

وفي غاباتك الواسعة تتناول طعامها

سومر، لتتضاعف اصطبلاتك وتتكاثر ابقارك.

(٢٠) نفس المرجع.

لتتضاعف زرائبك، وبالالاف فلتتكاثر الحنامك
لتكن [. . . .] باقية
ألا فلترفع [. . . ،] الراسخة يدها إلى السماء
ألا فليقرر الأنوناكي، في وسطك، المصائر.

بعد ذلك يمضي إلى مدينة أور وكانت عاصمة سومر، في ذلك الوقت المبكر من تاريخه. فيقرر لها مصائرها:

إلى أور أتى
انكي، سيد الاعماق، أتى، يقرر مصائرها:
ايتها المدينة الموفورة، يامدينة الماء الثر، والثيران القوية
يامصدر رزق البلاد، ايتها الخضراء، يامتباعدة الركبتين ابدا*
ياغابة الظل الوارف [. . . .]
اقدارك الكاملة، هو الذي قدرها
انليل، الجبل العظيم، قد نطق اسمك المقدس
انليل، الجبل العظيم، قد نطق اسمك المقدس في الآفاق
ايتها المدينة التي رسم مصائرها انكي
أي أور، ايها الهيكل المقدس، لترفعي هامتك نحو السماء

ثم يذهب انكي إلى بلاد ملوخا فيباركها أيضاً وإلى دجلة والفرات فيملأهما بماء نقي ويخلق فيهما السمك، وعلى شاطئيهما ينثر القصب، ثم يوكل بهما الإله انبيلولو. ثم يلتفت إلى البحر فينظم شؤونه ويوكل به الهة اسمها سيرارا** . ثم إلى الرياح فيستلم قيادها ويوكلها إلى الاله اشكور، صاحب القفل الفضي، الذي ينظم من خلاله الامطار، ثم إلى شؤون الزراعة، وما يتصل بها من ادوات، حيث يخلق النير والمحراث، ويوكل الاله انكمدو بالقنوات والسواقي. وفي المدن يهتم بالعمران فيقيم للآجر الهاً خاصاً، ويحفر الاساسات وينشىء الجدران، ويعين الإله

* لم يشر مترجم النص السيد كريمر بشيء، الى تعبير متباعدة الركبتين. وأعتقد، ان في التعبير اشارة لخصب الارض. فقديماً كانت المماثلة قائمة أبداً بين خصب المرأة وخصب الارض. وفي بعض الأعمال الفنية التي وصلتنا من تلك الفترة، نجد آلهة الخصب عشتار وقد جلست على الارض عارية، مباعدة ساقيها، وعضو التناسل بارز بكل تفاصيله.

** ويذكرنا اسمها بالسيرين الاغريقيات، حوريات البحر، الوارد ذكرهن في ملاحم هوميروس

شداما للاشراف على اعمال البناء. ثم يملأ السهول بالاعشاب والمراعي وينثر فيها القطعان، ويعين لأمورها الإله سوموقان. ثم الحظائر يملؤها بالمنتجات الحيوانية، ويعين عليها الإله الراعي دوموزي.

وإلى هنا ينتهي النص المفهوم، حيث يعود اللوح للتشوه مرة أخرى.

خلق الانسان

بعد أن اخذ الكون شكله، واستقرت السماء في موضعها، وكذلك الأرض. بعد أن انتظمت دورة النهار والليل، وحركة الفصول. بعد أن اخرجت الأرض زرعها وشجرها، تفجرت ينابيعها. بعد أن ظهرت الحيوانات بأنواعها وامتلأت البحار بأسماكها. بعد ذلك صار المسرح مهيئاً لظهور الانسان.

والأسطورة السومرية المتعلقة بخلق الانسان، هي أول اسطورة خطتها يد الانسان عن هذا الموضوع. وعلى منوالها جرت اساطير المنطقة، والمناطق المجاورة، التي استمدت منها عناصرها الاساسية، وخصوصاً فكرة تكوين الانسان من طين، وفكرة تصوير الانسان على صورة الآلهة.

اما لماذا خلق الانسان؟ فان الأسطورة السومرية لا تتردد في الاجابة على هذا السؤال ولا توارب. فالانسان خلق عبداً للآلهة، يقدم لها طعامها وشرابها، ويزرع أرضها ويرعى قطعانها. خلق الانسان لحمل عبء العمل ورفعه عن كاهل الآلهة. فمنذ البدء كان الآلهة يقومون بكل الاعمال التي تقيم أودهم وتحفظ حياتهم. ولكنهم تعبوا من ذلك فراحوا يشتكون لانكي الحكيم، ليجد لهم مخرجاً. ولكنه، وهو المضطجع بعيداً في الأغوار المائية، لم يسمع شكاتهم. فمضوا إلى أمه الإلهة «نمو» المياه البدئية التي انجبت الجيل الأول من الآلهة، لتكون واسطتهم اليه، فمضت اليه قائلة[٢١]:

أي بني، انهض من مضجعك، انهض من [. . . .]
واصنع امراً حكيماً
اجعل للآلهة خدماً، يصنعون [لهم معاشهم]

---

(٢١) نفس المرجع.

فتأمل انكي ملياً في الأمر، ثم دعا الصناع الألهيين المهرة وقال لأمه نمو:

ان الكائنات التي ارتأيت خلقها، ستظهر للوجود
ولسوف نعلق عليها صورة الألهة*
امزجي حفنة طين، من فوق مياه الاعماق
وسيقوم الصناع الالهيون المهرة بتكثيف الطين (وعجنه)
ثم كوّني انت له اعضاءه
وستعمل معك ننماخ يداً بيد**
وتقف إلى جانبك، عند التكوين، ربات الولادة
ولسوف تقدرين للمولود الجديد، ياأماه، مصيره
وتعلق ننماخ عليه صور الألهة
[. . . .] في هيئة الانسان [. . . .]

بعد ذلك يتشوه اللوح الفخاري، حامل النص. ثم نجد انفسنا، بعد وضوح الكتابة، مع انكي يحتفل بانجازه المبدع في وليمة يدعو إليها الألهة.

وفي اسطورة سومرية أخرى تحكي خلق الماشية والحبوب، نجد رواية أخرى لقصة خلق الانسان(٢٢)

كالبشر، عندما خلقوا أول مرة.
لم يعرف الانوناكي أكل الخبز
لا ولم يعرفوا لبس الثياب
بل أكلوا النباتات بافواههم
وشربوا الماء من الينابيع والجداول.
في تلك الايام، وفي حجرة الخلق
في «دلكوج» بيت الألهة، خلق «لهار» و «اشنان»***

* اذا اتبعنا ترجمة كريمر، تكون ترجمة هذين البيتين على الوجه التالي:
ان المخلوقات التي نطقت باسمها موجودة فعلقي عليها صورة الآلهة
وقد ارتأيت التغيير في الترجمة العربية لاستقامة معنى هذين البيتين مع السياق العام للنص.

** ننماخ هي الارض الام في الاسطورة السومرية.

(٢٢) نفس المرجع.

*** لهار اله الماشية، واشنان الهة الحبوب

ومما انتج لهار وأشنان
أكل الاونانكي ولم يكتفوا
ومن حظائرها المقدسة شربوا اللبن
شربوا ولكنهم لم يرتووا
لذا ومن أجل العناية بطيبات حظائرهما
تم خلق الانسان

تسربت العناصر الرئيسية لهذه الأسطورة، إلى معظم اساطير الشعوب المجاورة. ففي الأساطير البابلية اللاحقة يتم خلق الانسان من الطين، ويفرض عليه حمل عبء العمل. وفي سفر التكوين العبراني، نجد إله اليهود يهوه، يقوم بخلق الانسان من طين، بعد انتهائه من خلق العالم، ويجعله على شاكلته: «وجبل الإله آدم تراباً من الأرض، ونفخ في انفه نسمة الحياة، فصار آدم نفساً حية»(٢٣). ورغم أن الهدف الذي يقدمه النص التوراتي لخلق الانسان، هو السيطرة على «سمك البحر، وطير السماء، وعلى البهائم، وعلى كل الأرض، وعلى جميع الدابات التي تدب على الأرض»(٢٤) إلا انه يعود فيفرض عليه عبء العمل، تماماً كالنص السومري: «لانك سمعت لقول امرأتك، وأكلت من الشجرة، التي أوصيتك قائلاً لا تأكل منها. ملعونة الأرض بسببك. بالتعب تأكل منها كل ايام حياتك. . . . بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي اخذت منها. لانك من تراب وإلى التراب تعود»(٢٥). وفي الأساطير المصرية نجد ترداداً لنفس الفكرة. وكذلك الأمر في الأساطير الأغريقية(٢٦)، التي تعزو لبروميثيوس خلق الانسان. فقد قام هذا الأخير بخلق الانسان من تراب وماء، وعندما استوى الانسان قائماً، نفخت الالهة اثينا فيه الروح. ثم راح بروميثيوس بعد ذلك يزود الانسان بالوسائل التي تعينه على البقاء والاستمرار، فسرق له النار الالهية من السماء، ضد رغبة كبير الالهة زيوس، وأفشى له سرها وكيفية توليدها واستخدامها، فنال بذلك غضب زيوس وعقابه.

(٢٣) العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح الثاني.
(٢٤) العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح الاول.
(٢٥) العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح الثالث.
26 - Philip Freund, Myths of Creation, W.H. Allen, London. 1964.

فاذا تركنا أساطير الشعوب المتحضرة، نجد أن فكرة الخلق من طين ترد في أساطير الشعوب البدئية. تقول أسطورة أفريقية[٢٧]: ان الاله الخالق قد اخذ حفنة من طين شكلها على هيئة انسان، ثم تركها في بركة مليئة بماء البحر مدة سبعة ايام. وفي اليوم الثامن رفعها فكانت بشراً سويا. وفي اسطورة من الفلبين[٢٨]، يقوم الاله الخالق بجبل حفنة من طين على هيئة انسان، ويضعها في الفرن، ولكنه يسهو عنها فتسود. وهذا هو اصل الانسان الاسود. ثم يضع أخرى ويخرجها قبل اوانها، فهـذا هو اصـل الانسان الابيض. وفي المرة الثالثة يأخذ الطين كفايته من النار فيخرج الانسان الفلبيني، ذو اللون البرونزي. وفي اسطورة هندية امريكية نجد ايضاً التكوين الطيني ونفخة الحياة التي تهب الشكل الجامد روحه وحركته.

هذا ولا يزودنا العلم الحديث بنظرية أو حقيقة، تثبت علاقة جسم الانسان بتراب الأرض، ولكنه يقول لنا ان العناصر المكونة لجسم الانسان هي نفس العناصر الموجودة في التراب.

وأخيراً يثبت القرآن الكريم خلق الانسان من تراب في أكثر من موضع: «خلق الانسان من صلصال كالفخار، وخلق الجان من مارج من نار»[٢٩]. «قال ما منعك الا تسجد إذ امرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين»[٣٠].

استراحة الخالق:

بعد الانتهاء من عناء الخلق، يخلد انكي للراحة والسكينة، ويشرع في بناء بيت له في الاعماق المائية. وتحدثنا اسطورة سومرية عن بناء بيت الرب. الذي يبدو هنا إلهاً للأعماق بشكل عام، أكثر منه الهاً للمياه العذبة الباطنية، فالاسطورة ترسم انكي في صورة تذكرنا بالاله بوسيدون إله البحار عند الاغريق، أو نبتون عند الرومان. تقول الاسطورة[٣١]:

27 - ibid

28 - ibid

(٢٩) سورة الرحمن الآية ١٣ و ١٤.

(٣٠) سورة الاعراف الآية ١١.

31 - S. N. Kramer. Sumerian Mythology, Harper and Row, 1961.

بعد أن تفرقت مياه التكوين.
وعمت البركة أقطار السماء
وغطى الزرع والعشب وجه الأرض.
أنكي. اله الغمر، انكي، الملك
أنكي، الرب الذي يقرر المصائر
بنى بيته من فضة ولازورد.
فضة ولازورد كأنها النور الخاطف
حيث استقر هناك في الاعماق

وبعد أن انتهى من بناء بيته، كان لابد له، ككل الآلهة العظام، من مدينة ايضاً فرفع من اعماق البحر مدينة اريدو*، وغطاها شجراً وخضرة ونباتاً، وملأ مياهها سمكاً. ثم قرر السفر إلى ابيه انليل ليحصل على بركته. فارتفع من الاعماق المائية في مشهد مهيب مروع:

عندما ارتفع انكي، ارتفعت معه كل الاسماك
واضطرب الغمر واصطخب
زال عن البحر وجه المرح
وساد الرعب في الاعماق
واستبد الهلع بالانهار العالية
ورفعت ريح الجنوب الفرات على مد من الامواج

وعندما يصل انكي في مركبته إلى نيبور مدينة انليل، يقيم مأدبة للآلهة، يقدم لهم فيها الطعام والخمر. وفي نهايتها يقف انليل فيثني على ما فعله انكي من بناء للبيت ويمنحه بركاته ورضاه.

ويبدو أن بناء البيت للآلهة، هو أمر ضروري بعد ارتفاع شأنه وعلو مقامه. وبعد البيت يأتي بناء مدينة للاله ايضاً. فهذا مردوخ اله بابل، يبني له الآلهة بيتاً ينـاطح برجه المدرج عنان السماء، بعد انتهائه من فعل الخلق. وحول الهيكل المقدس يبني الآلهة ايضاً مدينة بابل. وها هو بعل، اله سورية، يطالب ببناء بيت له بعـد أن تغلب على المياه الأولى ممثلة بالالـه «يم» وعلى قوى الشر والقحط

* ويعتبرها علماء الآثار من أقدم مدن سومر. وما زال معظمها مطموراً تحت الأرض.

الممثلة بالاله موت، فيكون له ما أراد. ويقلده في ذلك إله اليهود الذي يطالب ببناء بيت له بعد أن تعب من التجوال في خيمة بني اسرائيل. نقرأ في سفر صموئيل الثاني من العهد القديم ٧ : ٣ «وفي تلك الليلة كان كلام الرب إلى ناثان قائلاً. اذهب وقل لعبدي داود، هكذا قال الرب، أأنت تبني لي بيتاً لسكناي؟ لأنني لم أسكن في بيت منذ أصعدت بني اسرائيل من مصر إلى هذا اليوم، بل كنت اسير في خيمة».

وهكذا نغادر التكوين السومري بعد أن وضعت لنا تلك الأساطير القليلة، الناقصة، والمبعثرة، الاطار العام لتصور اسطوري سيستمر ويتطور وينضج في بقية أساطير المنطقة. كما وسنلتقي مع من تعرفنا عليهم من الآلهة، في أماكن أخرى لشعوب أخرى. فـ «آن» اله السماء السومري سيغدو (آنو) إله السماء البابلي، وايل إلـه السمـاء السوري. و(انكي) إله الماء العذب سيغدو (إيا) إله الماء العذب البابلي. ونماذج الأم ـ الأرض، ستظهر باسمها نفسه أو باسم ننخرساج أو باسم ننتو أو مامي. و(نمو) المياه الأولى سنجدها في شخصية (تعامة) المياه الأولى عند البـابليين و(يم) عنـد الفينيقيين (الكنعانيين). وسنلتقي ايضاً بأريشكيجال الهة العالم الاسفل وقد حافظت على اسمها ووظائفها.

لقد استولت الحضارة السومرية على الفاتحين ثقافياً، بعد أن دانت لهم عسكرياً.

٢ | التكوين البابلي

أقام الاكاديون الساميون إلى جانب جيرانهم السومريين ردحاً طويلاً، وما لبثوا أن استوعبوهم، وبسطوا سلطانهم السياسي والثقافي على بلاد الرافدين، في امبراطورية بلغت أوجها في عهد الملك الكبير حمورابي. واذا كان السومريون قد وضعوا بذرة الثقافة في وادي الرافدين، فان الاكاديين هم الذين استنبتوها لتعطي أكلها، وتهب العالم حضارة تعد، إلى جانب الحضارة السورية والمصرية، من أقدم وأهم الحضارات الانسانية. ولم يكن تعاقب الشعوب السامية الأخرى على الهيمنة السياسية في وادي الرافدين (كالكلدانيين، والآشوريين) إلا تنويعاً على أرضية واحدة مشتركة. وسأقوم في هذا الكتاب بالاشارة للثقافة الرافدية باسم الثقافة البابلية، دون أن يعني ذلك تخصيصاً، أو تحديداً معيناً.

تتوضع أفكار البابليين في الخلق والتكوين، بشكلها الأكمل، في ملحمة التكوين البابلية المعروفة باسم «الانيوما ايليش» وتعتبر هذه الملحمة، إلى جانب ملحمة جلجامش، من أقدم وأجمل الملاحم في العالم القديم. فتاريخ كتابتها يعود إلى مطلع الالف الثاني قبل الميلاد. أي قبل الف وخمسمئة سنة تقريباً من كتابة الياذة هوميروس، وتدوين اسفار التوراة العبرانية. وقد لقيت كثيراً من الاهتمام والـدراسة، من قبل علماء المسماريات والانتروبولوجيا والميثولوجيا والثيولوجيا.

فإلى جانب الشكل الشعري الجميل الذي صيغت فيه الملحمة، والذي يعطينا نموذجاً لادب انساني متطور، فانها تقدم لنا وثيقة هامة عن معتقدات البابليين، ونشأة آلهتهم ووظائفها وعلاقاتها. كما انها تقدم لدارسي الديانات المقارنة، مادة غنية، بسبب المشابهات الواضحة مع الاصحاحين الأول والثاني من كتاب التوراة.

وجدت الملحمة موزعة على سبعة الواح فخارية، اثناء الحفريات التي كشفت عن قصر الملك آشور بانيبال، ومكتبته التي احتوت على مئات الالواح في شتى الموضوعات الادبية والدينية والقانونية وما اليها. وقد جرى الكشف عن الواح الملحمة تباعاً، منذ نهاية القرن الماضي وحتى نهاية الربع الأول من القرن الحالي، حيث اكتملت وصارت واضحة وميسرة للترجمة والدراسة.

واسم الملحمة مأخوذ، كما هي عادة السومريين والبابليين، من الكلمات الافتتاحية للنص. فاينوما ايليش، تعني: عندما في الاعالي. فعندما في الاعالي لم يكن هناك سماء، وفي الاسفل لم يكن هناك أرض. لم يكن في الوجود سوى المياه الأولى ممثلة في ثلاثة آلهة: «ابسو» و«تعامة» و«ممو». فأبسو هو الماء العذب، وتعامة زوجته كانت الماء المالح، أما ممو، فيعتقد البعض بأنه الامواج المتلاطمة الناشئة عن المياه الأولى، ولكني أؤيد الرأي القائل بانه الضباب المنتشر فوق تلك المياه والناشىء عنها. هذه الكتلة المائية الأولى كانت تملأ الكون وهي العماء الأول الذي انبثقت منه فيما بعد بقية الآلهة والموجودات، وكانت آلهتها الثلاثة تعيش في حالة سرمدية من السكون والصمت المطلق، ممتزجة ببعضها البعض في حالة هيولية. لا تمايز فيها ولا تشكل. ثم أخذت هذه الآلهة بالتناسل فولد لأبسو وتعامة الهان جديدان هما «لخمو» و«لخامو» وهذان بدورهما انجبا «انشار» و«كيشار» اللذين فاقا ابويهما قوة ومنعة. وبعد سنوات مديدة ولد لأنشار وكيشار ابن اسمياه «آنو» وهو الذي صار فيما بعد الهاً للسماء. وآنو بدوره انجب انكي أو أيا، وهو إله الحكمة والفطنة، والذي غدا فيما بعد إله المياه العذبة الباطنية. ولقد بلغ إيا حداً من القوة والهيبة، جعله يسود حتى على آبائه.

وهكذا امتلأت أعماق الآلهة تعامة بالآلهة الجديدة، المليئة بالشباب والحيوية، والتي كانت في فعالية دائمة وحركة دائبة، مما غير الحالة السابقة وأحدث وضعاً جديداً، لم تألفه آلهة السكون البدئية، التي عكرت صفوها الحركة، واقلقت سكونها الازلي. حاولت الآلهة البدئية السيطرة على الموقف واستيعاب

نشاط الآلهة الجديدة ولكن عبثاً، الأمر الذي دفعها إلى اللجوء للعنف. فقام آبسو بوضع خطة لابادة النسل الجديد والعودة للنوم مرة أخرى. وباشر بتنفيذ خطته، رغم معارضة تعامة التي مازالت تكن بعض عواطف الامومة.

لدى سماعهم بمخططات آبسو، خاف الآلهة الشباب واضطربوا. ولم يخلصهم من حيرتهم سوى اشدهم وأعقلهم، الإله ايا، الذي ضرب حلقة سحرية حول رفاقه، تحميهم من بطش آبائهم، ثم صنع تعويذة سحرية القاها على آبسو الذي راح في سبات عميق. وفيما هو نائم، قام ايا بنزع العمامة الملكية عن رأس آبسو، ووضعها على رأسه رمزاً لسلطانه الجديد. كما نزع عن آبسو ايضاً اللقب الالهي واسبغه على نفسه، ثم ذبحه وبنى فوقه مسكناً لنفسه. كما انقض على ممو (الضباب المنتشر فوق المياه الأولى) المعاضد لآبسو فسحقه وخرم انفه بحبل يجره وراءه اينما ذهب. ومنذ ذلك الوقت صار ايا إلهاً للماء العذب يدفع به إلى سطح الأرض بمقدار، ويتحكم به بمقدار، وهو الذي يعطي الانهاء والجداول والبحيرات ماءها العذب. وهو الذي يفجر الارض عيوناً من مسكنه الباطني. ومنذ ذلك الوقت ايضاً، يشاهد ممو فوق مياه الانهار والبحيرات لأن ايا قد ربطه بحبل فهو موثق به إلى الأبد.

بعد هذه الاحداث الجسام، ولد الإله مردوخ اعظم آلهة بابل، الذي انقذهم مرة أخرى من بطش الآلهة القديمة، ورفع نفسه سيداً للمجمع المقدس. وكيف لا وهو ابن ايا (انكي) الذي فاق اباه قوة وحكمة وبطشاً. وكما كان الانقاذ الأول على يد الأب انكي، كذلك كان الانقاذ الثاني على يد الابن الشاب مردوخ. فتعامة التي تركت زوجها آبسو لمصيره المحزن دون ان تهرع لمساعدته وهو يذبح على يد الآلهة الصغيرة تجد نفسها الآن مقتنعة بضرورة السير على نفس الطريق لأن الآلهة الصغيرة لم تغير مسلكها، بل زادها انتصارها ثقة وتصميماً على اسلوبها في الحياة. وهنا اجتمعت الآلهة القديمة إلى تعامة وحرضتها على حرب اولئك المتمردين على التقاليد الكونية فوافقت وشرعت بتجهيز جيش عرم قوامه احد عشر نوعاً من الكائنات الغريبة التي انجبتها خصيصاً لساعة الصدام، افاع وزواحف وتنانين هائلة وحشرات عملاقة، جعلت عليها الإله «كينغو» قائداً، بعد أن اختارته زوجاً لها، وعلقت على صدره الواح الاقدار.

علم الفريق الآخر بما تخطط له تعامة وصحبها فاجتمعوا خائفين قلقين،

وأرسلوا الإله ايا الذي انقذهم في المرة الأولى، عسى ينقذهم في المرة الثانية. ولكن ايا عاد مذعوراً مما رأى، فارسلوا آنو الذي مضى وعاد في حالة هلع شديد. اسقط في يد الجميع وأطرقوا حائرين كل يفكر في مصيره الأسود القريب. وهنا خطر لكبيرهم انشار خاطر جعل اساريره تتهلل اذ تذكر مردوخ، الفتى القوي العتي، فارسل في طلبه حالاً. وعندما مثل بين يديه وعلم بسبب دعوته، اعلن عن استعداده للقاء تعامة وجيشها بشرط الموافقة على اعطائه امتيازات وسلطات استثنائية. فكان له ما أراد. وجلسوا جميعاً حول مائدة الشراب وقد اطمأنت قلوبهم لقيادة الاله الشاب.

اعطى الآلهة، مردوخ، قوة تقرير المصائر، بدلاً من انشار. واعطوه قوة الكلمة الخالقة. ولكي يمتحنوا قوة كلمته الخالقة، أتوا بثوب وضعوه في وسطهم وطلبوا من مردوخ أن يأمر بفناء الثوب، فزال الثوب بكلمة آمرة من مردوخ، ثم عاد إلى الوجود بكلمة أخرى. هنا تأكد الآلهة من أن مردوخ اذا أراد شيئاً قال له كن فيكون. فأقاموا له عرشاً يليق بالوهيته، وأعلوه سيداً عليهم جميعاً، ثم اسلموه الطريق إلى تعامة. وقبل أن يمضي صنع لنفسه قوساً وجعبة وسهاماً وهراوة، كما صنع شبكة هائلة، أمر الرياح الأربعة ان تمسكها من اطرافها. ملأ جسمه باللهب الحارق، وأرسل البرق امامه، يشق له الطريق. دفع امامه الأعاصير العاتية وأطلق طوفان المياه. وانقض طائراً بعربته الالهية وهي العاصفة الرهيبة التي لا تصد، منطلقاً نحو تعامة، والآلهة تتدافع من حوله تشهد مشهداً عجيباً.

عندما التقى الجمعان، طلب مردوخ قتالاً منفرداً مع تعامة، فوافقت عليه، ودخل الاثنان حالاً في صراع مميت. وبعد فاصل قصير نشر مردوخ شبكته ورماها فوق تعامة محمولة على الرياح، وعندما فتحت فمها لالتهامه دفع في بطنها الرياح الشيطانية الصاخبة فانتفخت وامتنع عليها الحراك. وهنا اطلق الرب من سهامه واحداً تغلغل في حشاها وشطر قلبها. وعندما تهاوت على الأرض اجهز على حياتها، ثم التفت إلى زوجها وقائد جيشها كينغو فرماه في الأصفاد، وسلبه الواح الاقدار وعلقها على صدره. وهنا تمزق جيش تعامة شر تمزيق، وفر معظمه يطلب نجاة لنفسه، ولكن مردوخ طاردهم، فقتل من قتل، وأسر من أسر.

بعد هذا الانتصار المؤزر على قوة السكون والسلب والفوضى، التفت مردوخ إلى بناء الكون وتنظيمه واخراجه من حالة الهيولية الأولى، إلى حالة النظام

والترتيب، حالة الحركة والفعالية و. . . الحضارة. عاد مردوخ إلى جثة تعامة يتأملها، ثم أمسك بها وشقها شقين، رفع النصف الأول فصار سماء وسوى النصف الثاني فصار ارضاً. ثم التفت بعد ذلك إلى باقي عمليات الخلق. فخلق النجوم محطات راحة للآلهة. وصنع الشمس والقمر وحدد لهما مساريهما. ثم خلق الانسان من دماء الاله السجين كنغو، حيث قتله، وافرج عن بقية الأسرى بعد أن اعترفوا بأن المحرض الأول هو كنغو، كما خلق الحيوان والنبات. ونظم الآلهة في فريقين، جعل الفريق الأول في السماء وهم الانوناكي، والثاني جعله في الارض وما تحتها وهم الأيجيجي*.

بعد الانتهاء من عملية الخلق، يجتمع الإله مردوخ بجميع الآلهة ويحتفلون بتتويجه سيداً للكون. بنوا مدينة هي بابل، ورفعوا له في وسطها معبداً تناطح ذروته السحاب هو معبد الايزاجيلا. وفي الاحتفال المهيب اعلنوا اسماء مردوخ الخمسين.

هذه هي الخطوط العريضة للملحمة البابلية الكبيرة، عرضتها في عجالة لا تغني عن النص الشعري الكامل الذي يعتبر مع ملحمة جلجامش أجمل نصين من نصوص الأدب السامي، ومن أجمل نتاجات الأدب القديم. وسأقدم في ما يلي ترجمة كاملة لألواح الملحمة السبعة.

اعتمدت ترجمتي بشكل أساسي على نص السيد اليكسندر هيديل Alexan-der Heidel الصادر في كتابه [1] The Babylanian Genesis ونص السيد سبيسر E. A. Speiser المنشورة في كتاب [2] Ancient Near Eastern Texts وفي بعض المواضع على نص غريسون [3] A. K Gryson واسترشدت بترجمة كينج L. W. King وترجمة سلانجدون Slangdon فجاء النص العربي معبراً عن أهم الاتجاهات القائمة في ترجمة هذا النص العظيم**.

---

* ولكن النصوص القديمة لا تلتزم دوماً هاتين التسميتين. فالايجيجي والانوناكي غالباً ما تستعملان تبادلياً للدلالة على جميع الآلهة.

1 - Alexander Heidel. The Babylonian Genesis, Phoenix Books, Chicago, 1970

2 - James Pritchard, Ancicnt Near Eastern Texts, Princetion, Newjersey. 1969

3 - ibid

** في حال ملاحظة القارىء المتخصص لجمل او كلمات غير واردة في نص هيديل، ارجو منه التحول الى نفس الموضع في نص سبيسر.

اللوح الأول

عندما في الاعالي لم يكن هناك سماء،
وفي الاسفل لم يكن هناك ارض.
لم يكن (من الآلهة) سوى آبسو أبوهم،
وممو، وتعامة التي حملت بهم جميعاً.
يمزجون أمواههم معاً.
قبل أن تظهر المراعي وتتشكل سبخات القصب
قبل أن يظهر للوجود الآلهة الآخرون
قبل أن تمنح لهم أسماؤهم، وترسم أقدارهم.
في ذلك الزمن خلق الآلهة (الثلاثة) في أعماقهم
«لخمو» و «لخامو» ومنح لهما اسميهما
وقبل أن يكبر (لخمو ولخامو) ويشبا عن الطوق
جاء إلى الوجود «انشار» و «كيشار» وفاقاهما قامة وطولا
عاشا الأيام المديدة، يضيفانها للسنين الطويلة
ثم انجبا «آنو» وريثهما، وفخر آبائه.
نعم كان آنو بكر انشار، وكان صنوا له.
ثم انجب آنو ابنه «نوديمود»* على شاكلته
فصار نوديمود سيد آبائه
كان واسع الادراك، حكيماً وعظيماً في قوته
أعظم من جده أنشار «وأكثر قوة وعتيا)

ولم يكن له بين اخوته ند (ولا منافس)
.. وتجمع الصحب المؤلهون

* نود يمود هو ايا، او انكي إلهة الفطنة والذكاء والماء العذب.

أزعجوا بحركتهم تعامة
نعم، لقد هزوا جوف تعامة*
يروحون جيئة وذهاباً في مسكنهم المقدس
لم يقدر آبسو على اسكات صخبهم
وتعامة كانت ساكتة حيال [افعالهم]
رغم المها من سلوكهم
[ورغم] رفضها لطريقتهم
ثم ان آبسو، سلف الآلهة العظام،
دعا أمينه ممو.. قائلاً له
أي ممو، ياأميني الذي يفرح به قلبي**
دعنا [نذهب] إلى تعامة
فمضيا ومثلا امامها
تشاوروا في أمر ابنائهم الآلهة (الشابة)
وفتح آبسو فمه، قائلاً لتعامة بصوت مرتفع
«لقد غدا سلوكهم مؤلماً لي
في النهار لا أستطيع راحة، وفي الليل لا يحلو لي رقاد
لأدمرنهم، وأضع حداً لفعالهم،
فيخيم الصمت ونخلد بعدها للنوم»
فلما سمعت تعامة منه ذلك،
ثار غضبها وصاحت بزوجها،
صرخت وثار هياجها
كتمت الشر في فؤادها وقالت:
«لماذا ندمر من وهبناهم، نحن، الحياة؟
ان سلوكهم لمؤلم حقاً، ولكن دعونا نتصرف بلين (وروية)»
ثم نطق ممو ناصحاً آبسو
[....] وفي غير صالح الآلهة جاءت نصيحة ممو

* اي بطن تعامة
** في ترجمة هيديل: يا وزيري

«نعم ياوالدي دمرهم، دمر فوضاهم .
لتستريح نهارك، وترقد ليلك»
فلما سمع آبسو ذلك، استضاء وجهه
للخطط الشريرة التي يضمرها لأولاده الآلهة
ثم قام اليه ممو معانقاً
وجلس في حضنه وقبله .
ولكن ما دار في مجلسهم من خطط
قد وصل سمعه إلى ابنائهم الآلهة
الذين اضطربوا لما سمعوا
جلسوا صامتين . وسكنوا (حائرين)
(غير أن) ذا الفهم العميق وصاحب الفطنة والحكمة
أيا، العليم بكل شيء، قد نفذ ببصيرته إلى خطط (المتآمرين)
فابتكر ضدها دائرة سحرية (حامية) ضربها حول رفاقه
وبتأن، نطق ترتيلته المقدسة المسيطرة (على النفوس)
رتلها محيطاً بها سطح الماء*
فجلب اليه النوم العميق
نام آبسو وراح في سباته بلا حراك
تاركاً أمينه ممو بلا حول
وهنا قام أيا بحل نطاق آبسو ونضا عنه تاجه
وجلا عنه عظمته (وهيبته) وأسبغها على نفسه
وبذلك أخضعه، ثم عمد إلى ذبحه
وسجن ممو وأغلق دونه الابواب
وفوق آبسو أقام إيا مسكنه
وعاد إلى ممو فخرم انفه بحبل يمسك به .
وبعد أن قهر إيا أعداءه وأخضعهم
علا أمره على خصومه جميعاً

* آبسو

وبسلام ودعة ركن إلى مسكنه
دعا مسكنه الأبسو وجعله مقدساً
فيه بنى غرفة، مقاماً لنفسه
وسكن هناك مع زوجته «دومكينا» بكل أبهة وعظمة
وفي غرفة الاقدار تلك، غرفة المصائر
أحكم الحكماء، أحكم الآلهة، الرب، قد ولد
في آبسو المقدس، مردوخ قد ولد
إيا، كان له ابا
ودامكينا، التي حملت به، أما
أرضعته حليب الآلهة
وأسبغت عليه الجلالة والهيبة
تخلب الالباب قامته، تلمع كالبرق عيناه
يخطو بعنفوان ورجولة انه زعيم منذ البداية

عندما رآه إيا أبوه
فرح وامتلأ قلبه بهجة وحبورا
رفع شأنه بين الآلهة وزاد قدره عليهم
فكان أرفعهم مقاماً واسبقهم في كل شيء
بفن بديع تشكلت اعضاؤه
لا تدركه الافهام، ولا يحيط به خيال
اربعة كانت آذانه، اربعة كانت عيونه
تتوهج النيران كلما تحركت شفتاه
اتسعت آذانه الاربعة،
كما اتسعت عيونه فأحاط بكل شيء
كان الاعلى بين الآلهة، ما لهيئته نظير
هائلة اعضاؤه، سامقة قامته
عظموه، بجلوه*

* سطر مترجم بتصرف، لخلاف النصوص التي بين يدي بشأنه

الابن الشمس . وشمس السماوات*
مثل نوره كنور عشرة آلهة معاً، جباراً عتيا
اسبغت عليه الجلالة النورانية المهيبة .
(ثم) خلق آنو الرياح الاربعة وأنشأها
اسلم امرها لسيد الرهط**
(مردوخ) الذي أحدث الامواج فاضطربت لها تعامة
قلقة صارت، تحوم على غير هدى
والآلهة (الكبيرة) نسيت الراحة، في خضم العواصف
أضمروا الشر في سرائرهم
وجاؤا إلى أمهم تعامة قائلين :
«عندما قتلوا زوجك آبسو
لبثت هادئة دون ان تمدي له يدا
وعندما خلق (آنو) الرياح الاربعة
اضطربت أعماقك وغابت عنا الراحة
تذكري آبسو زوجك
تذكري ممو المقهور واندبي وحدتك
لم تعودي أماً لنا، تهيمين على غير هدى
حرمتنا عطفك وحنانك
[. . . .] عيوننا ثقيلة
[. . . .] دعونا ننام دون ازعاج
[. . . .] واجعليهم نهباً للرياح»
فلما سمعت تعامة القول سرت به :
«[. . . .] دعونا نخلق وحوشا***
[. . . .] وفي الوسط (من جمعها) يسير الآلهة

* راجع سبيسر السطر ١٠٢
** راجع سبيسر السطر ١٠٥ والسطر ١٠٦ الذي احدثه زيادة على نص هيديل
*** السطر مترجم عن سبيسر. أما هيديل فقد نقله على الشكل التالي :
[. . . .] دعونا نخلق عاصفة

دعونا نعلن الحرب على الآلهة (الشابة) دعونا [. . . .]»
ثم احتشد الجمع وساروا إلى جانبها
غاضبين يحيكون الخطط بدأب ليل نهار.
يتهيأون للحرب في هياج وثوران
عقدوا مجلساً وخططوا للصراع .
الأم «هابور»* خالقة الأشياء جميعاً
أتت باسلحة لا تقاوم، أفاع هائلة
حادة اسنانها، مريعة انيابها
ملئت اجسادها بدل الدم، سما
(أتت) بتنانين ضارية تبعث الهلع
توجتها بهالة من الرعب والبستها جلالة الآلهة
يموت الناظر اليها فرقا،
حتى اذا انتصبت لم تخنع ولم تدبر.
خلقت الافعى الخبيثة والتنين وابا الهول**
الاسد الجبار والكلب المسعور والرجل العقرب
عفاريت العاصفة والذبابة العملاقة والبيسون
كلها مزودة باسلحة لا ترد، غير هيابة ولا ناكصة
نافذة كانت أحكام تعامة، لا يقاومها أحد
احد عشر نوعاً من الوحوش أظهرت للوجود
ومن الجيل الأول للآلهة الغاضبة، في مجلسها
اختارت «كينغو» وجعلته علياً وعظيماً
وضعته أمام جيشها قائداً
فيشهر السلاح للمعركة ويبدأ الصراع
انه الأمر الأعلى للمعركة.
اسلمته الامانة، واجلسته في المجمع قائلة.

* هابور هي تعامة
** راجع سبيسر السطر ١٠٤ .

«لقد قرأت عليك تعويذتي، وجعلتك عظيماً في مجلس الآلهة
واسلمت إلى يدك قياد الآلهة جميعاً

فلتكن عظيماً، يازوجي الفذ
وليعل اسمك فوق جميع آلهة الانوناكي»
ثم اسلمت اليه الواح القدر، وزينت بها صدره قائلة :
«وسيكون أمرك نافذاً وكلماتك ماضية»
وبعد أن جرى تنصيب كينغو وتسليمه السلطة العليا
قاما بتقرير مصائر الآلهة :
«سيكون لكلمتك فعل الاخضاع
وستذل (كلمتك) الأسلحة القاهرة»*

«حاشية رقم ١»
ـ اللوح الأول من عندما في الأعالي نسخ من الاصل وجرت مقارنته
ـ بيد نابور بلاطو ـ
«حاشية رقم ٢»
ـ اللوح الأول من عندما في الأعالي
ـ نسخة من بابل نقلت عن الأصل وتمت مقارنتها
ـ بيد نابور ماشيتك ابن [. . . .]

اللوح الثاني

بعد أن أعدت تعامة عدتها
تهيأت لبدء الصراع مع ذريتها من الآلهة
اعدت كل شيء انتقاماً لأبسو
ولكن استعداداتها وصلت لايا
فلما احاط بالمسألة علما
اقعده الخوف وجلس في حزن عميق .
وبعد أن قلب الأمر وسكنت ثائرته

* راجع سبيسر السطر ١٦٠-١٦١ للخلاف الكبير مع هيدل

مضى إلى جده أنشار
فلما صار في حضرة جده أنشار
افضى اليه بكل ما تخطط له تعامة :
«أي ابتاه، ان تعامة التي حملت بنا، تكرهنا
انها مهتاجة غضبى وقد عقدت اجتماعا
فقصدها جميع الآلهة
حتى من خلقتهم انت، انضموا اليها
كلهم غضاب، وبلا راحة يتآمرون، في الليل وفي النهار

تحضروا للقتال وكلهم سخط وهياج
عقدوا اجتماعا ووضعوا خطط المعركة
والأم هابور، خالقة الأشياء جميعا
اتت باسلحة لا تقاوم. أفاع هائلة
حادة اسنانها، مريعة انيابها
ملئت اجسادها بدل الدماء، سما
اتت بتنانين ضارية، تبعث الهلع
توجتها بهالة من الرعب والبستها جلال الآلهة
يموت الناظر اليها فرقا
حتى اذا انتصبت، لم تخنع، ولم تدبر.
خلقت الأفعى الخبيثة، والتنين، وابا الهول
الاسد الجبار والكلب المسعور والرجل العقرب
عفاريت العاصفة، والذبابة العملاقة والبيسون
كلها مزودة باسلحة لا ترد، غير هيابة ولا ناكصة
نافذة كانت أحكام تعامة، لا يقاومها أحد
احد عشر نوعاً من الوحوش، اظهرت للوجود
ومن الجيل الأول، للآلهة الغضبى في مجلسها
اختارت كينغو وجعلته عليا وعظيما
وضعته امام جيشها قائدا

فيشهر السلاح في المعركة، ويبدأ الصراع
انه الآمر الاعلى للمعركة
اسلمته الامانة، واجلسته في المجمع قائلة :
لقد قرأت عليك تعويذتي، وجعلتك عظيما في مجلس الآلهة
واسلمت اليك قيادة الآلهة جميعا
فلتكن عليا عظيما يازوجي الفذ
وليعل اسمك فوق جميع آلهة الآنوناكي
ثم اسلمت اليه الواح الاقدار وزينت صدره قائلة :
سيكون أمرك نافذاً وكلمتك ماضية .
وبعد أن جرى تنصيب كينغو وتسليمه السلطة العليا
قاما بتقرير مصير الآلهة
سيكون لكلمتك قوة الاخضاع
وستذل (كلمتك) الاسلحة القاهرة»
فلما سمع انشار ذلك وعرف بثوران تعامة
ضرب فخذه وعض على شفتيه
كان حزنه عظيما واضطرابه بالغا
[. . . .] كتم تأوهاته
ونادى إيا قائلاً : قم يابني وتأهب للقتال
والاسلحة التي صنعتها، ستحملها الآن
أنت يا من ذبحت آبسو [. . . .]
قم الآن واقض على كينغو الذي يتقدم جمعها
[قم ياسيد] الحكمة .
فأجابه نود يمود، مستشار الآلهة .
(ثلاثة اسطر مشوهة، إلا اننا نستدل من السياق العام على ان ايا قد قدم المعاذير عن عدم استطاعته تنفيذ المهمة).
صرخ انشار بغيظ عظيم
وتوجه بالنداء إلى ابنه آنو:
«ياأول ابنائي، ايها البطل الرائع

ياذا القدرة الفائقة، والانقضاض الجريء
امض الآن وقف أمام تعامة
فان لم تصغ لكلماتك سمعا .
فه لها بكلماتي علها تخمد (من ثورتها)»
فلما سمع آنو كلام ابيه
قام ملتمساً طريقه إلى تعامة
وعندما اقترب منها وعرف كل ما تدبره
ادرك عجزه عن مجابهتها وعاد من حيث أتى
مضى في رعب إلى ابيه انشار
ولفظ امامه ما تمتمه في سره لما رأى تعامة:
ان ذراعي لا تكفيان لاخضاعها*
فسقط على انشار سكون عميق واطرق إلى الأرض ثم هز رأسه،
فتراقصت خصلات شعره
وكل الانوناكي قد تجمعوا في المكان
اطبقوا افواههم وجلسوا صامتين،
فما من إله يمضي لقتالها،
ويأمن العودة سالماً من لقائها
ثم نهض انشار ابو الآلهة بعظمة وجلال
يفضي بما تجيش به نفسه للأنانوكي :
«ان من سينتقم لنا، هو صاحب العزم المتين
الجريء في ساحة الوغى، انه مردوخ الشجاع».
فقام إيا باستدعاء مردوخ إلى غرفته الخاصة
واسدى اليه النصح، مفضياً اليه بخططه :
«أي مردوخ تفكر فيما أقول لك، وانصت لابيك
ياولدي الذي يفرح به قلبي .
امض إلى حضرة انشار في عدة الحرب الكاملة

* في النص الاصلي «ان ذراعي لا تكفياني لاخضاعك» لان آنو يكرر وهو في حالة ذهول ما تمتم به عندما بهره ما رأى من استعدادات تعامة ـ راجع سبيسر سطر ٨٥ .

قف امامه متصباً بينما تكلمه، فتهدأ خواطره»
سر الرب مردوخ بكلام والده
مضى إلى انشار وانتصب أمامه
فامتلأ قلب انشار بهجة لرؤيته
قام اليه وقبله وقد تلاشى منه الخوف
فبادره مردوخ: أي انشار لا تصمت، بل افتح فمك
سامضي قدماً وأحقق ما يصبو اليه فؤادك
نعم انشار لا تصمت افتح فمك
أي الرجال قد أشهر سلاحه ضدك
أم تراها تعامة، وهي انثى، قد فعلت ذلك؟
أبي، أيها الاله الخالق، لتسعد ولتبتهج.
فقريباً سوف تطأ عنق تعامة.
نعم يأبي ايها الاله الخالق.
فقريباً سوف تطأ عنق تعامة.
(فقال انشار): «أي بني، ياصاحب الحكمة الواسعة
أسكت تعامة بتعويذتك المقدسة
التمس طريقك اليها، على عربة العاصفة السريعة

. . . .

. . . . ردها على أعقابها»
سعد الرب بكلام ابيه
طرب فؤاده والتفت اليه قائلاً:
«يارب الآلهة وسيد مصائرهم.
اذا كان لي ان انتقم لكم حقاً
فاقهر تعامة، واحفظ حياتكم
فانني اطلب اجتماعاً يعلن فيه اقتداري.
وعندما تلتقون، جذلين في قاعة الاجتماع
اجعلوا لكلمتي قوة تقرير المصائر، بدلاً عنك

وليبق ما أخلق قائماً لا يزول
وما أنطق به من أوامر، ماضياً لا يحول

«حاشية رقم ١»
ـ اللوح الثاني من عندما في الاعالي «نسخ وفقاً. . . . . .
ـ . . . . نسخة من آشور

ـ . . . .
«حاشية رقم ٢»
ـ استنسخ عن الاصل وجرت مقارنته. لوح نابور آحي آدينا
ـ ابن اتير ـ بل ابن كاهن الاله ماشي

«اللوح الثالث»

فتح انشار فمه
متحدثاً إلى وزيره كاكا:
«كاكا ياوزيري الذي يفرح به قلبي
سأرسلك إلى لخمو ولخامو
فأنت واسع الادراك مجيد الحديث
ادع آبائي الآلهة للحضور إليّ
وليأت معهم جميع الآلهة
فيجلس الجميع إلى مأدبتي ونتحدث
سنأكل خبزا ونشرب خمرا
وإلى مردوخ المنتقم فليسلموا مقاديرهم
أي كاكا، انطلق وامثل أمامهم.
انقل لهم ما أنا محدثك به:
«انشار ابنكم قد ارسلني اليكم
اوكلني أن انقل اليكم مشيئة قلبه
فتعامة التي حملت بنا تكرهنا
انها مهتاجة غضبى، وقد عقدت اجتماعا
فقصدها جميع الآلهة

حتى من خلقتموهم انتم، انضموا اليها
كلهم غضاب، وبلا راحة يتآمرون في الليل والنهار
تحضروا للقتال في سخط وهياج
والام هابور خالقة الأشياء جميعا
اتت باسلحة لا تقاوم - افاع هائلة

حادة اسنانها مريعة انيابها
ملئت اجسادها، بدل الدماء، سماً
اتت بتنانين ضارية تبعث الهلع
توجتها بهالة من الرعب والبستها جلال الآلهة
يموت الناظر اليها غرقا
حتى اذا انتصبت لم تخنع ولم تدبر.
خلقت الأفعى الخبيثة، والتنين، وابا الهول
الأسد الجبار، والكلب المسعور، والرجل العقرب
عفاريت العاصفة، والذبابة العملاقة والبيسون.
كلها مزودة باسلحة لا ترد، غير هيابة ولا ناكصة.
نافذة كانت احكام تعامة، لا يقاومها احد.
احد عشرة نوعاً من الوحوش، أظهرت للوجود
ومن الجيل الأول للآلهة في مجلسها
اختارت كينغو، وجعلته عليا وعظيما
وضعته امام جيشها قائدا
فيشهر السلاح للمعركة، ويبدأ الصراع
انه الآمر الاعلى للمعركة
اسلمته الامانة، وأجلسته في المجمع قائلة:
لقد قرأت عليك تعويذتي، وجعلتك عظيما في مجلس الآلهة
واسلمت إلى يديك قيادة الآلهة جميعا
فلتكن عليا وعظيما يازوجي الفذ
وليعل اسمك فوق جميع آلهة الآنوناكي

ثم اسلمت اليه الواح الاقدار، وزينت بها صدره قائلة:
سيكون امرك نافذاً، وكلمتك ماضية
وبعد أن جرى تنصيب كينغو وتسليمه السلطة العليا
قاما بتقرير مصير الآلهة
سيكون لكلمتك قوة الاخضاع
وستذل (كلمتك) الاسلحة القاهرة
ارسلت اليها آنو فلم يقدر على مواجهتها
وايضاً نوديمود خاف وانقلب على عقبيه
ثم تقدم مردوخ، ابنكم مردوخ، احكم الآلهة
حفزه فؤاده (الجريء) للقاء تعامة
ففتح فمه وقال لي:
«إذا كان لي أن انتقم لكم حقاً فأقهر تعامة واحفظ حياتكم
فانني اطلب اجتماعاً يعلن فيه اقتداري
وعندما تلتقون جذلين، في قاعة الاجتماع

اجعلوا لكلمتي قوة تقرير المصائر، بدلاً عنك
وليبق ما أخلق، قائماً لا يزول
وما انطلق به من أوامر، ماضياً لا يحول»
فهلموا إلي وسلموا إليه مقاديركم
فيذهب للقاء عدوكم العنيد.
انطلق كاكا لا يلوى على شيء
وامام جديه لخمو ولخامو مثل وقال لهم:
انشار ابنكم قد ارسلني اليكم
أوكلني ان انقل لكم مشيئة قلبه
(تكرار لنفس المقطع السابق الذي يصف استعدادات تعامة، وذلك من السطر ٧٣ إلى السطر ١٢٤).

فلما سمع لخمو ولخامو ذلك، صرخا بصوت عال

وكل الايجيجي بكوا بحرقة :
«ما الذي الجأها لمثل هذا القرار
ان سلوكها مستعص على افهامنا»
ثم جمعوا بعضهم وانطلقوا
كل الآلهة التي تقرر المصائر (انطلقت)
والتأم الشمل في حضرة انشار فامتلأت قاعة الاجتماعات
قبلوا بعضهم بعضا حين تلاقوا
وجلسوا للمأدبة يتحاورون
أكلوا خبزا، وشربوا خمرا
فبدد الفرح مخاوفهم
وانتشت اجسامهم بالشراب القوي
زال الهم عن قلوبهم وسمت أرواحهم
ولمردوخ المنتصر اسلموا المصير.

«اللوح الرابع»

أقاموا له منصة عرش ربانية
واتخذ مكانه قبالة آبائه لتلقي السيادة :
«انت الاعظم شأنا بين الآلهة الكبرى
لا يدانيك أحد، وأمرك من أمر آنو
ومن الآن فأمرك نافذ لا يرد
أنت المعز وأنت المذل حين تشاء

كلمتك العليا، وقولك لا يخيب
ما من إله يقارب حدودك
مساكن الآلهة تستصرخ الحماية*

* تصرف بسيط في ترجمة هذا السطر والذي يليه.

لتزينها بحضورك، تجد في كل مكان ركناً لك
مردوخ أنت المنتقم لنا
لك منحنا السيادة على العالمين
وعندما تتصدر المجلس، كلمتك هي العليا
لتكن اسلحتك ماضية ولتفتك بأعدائنا
أيها الرب احفظ حياة من وضع عليك اتكاله
واهدر حياة من مشى في ركاب الشر»
ثم أتوا بثوب فوضعوه في وسطهم
وقالوا لبكرهم مردوخ :
سلطانك ايها الرب هو الأقوى بين الآلهة
ليفن الثوب بكلمة من فمك
وليرجع سيرته الأولى بكلمة أخرى»
فأمر بفناء الثوب، فزال
ثم امر به فعاد ثانية كما كان
فلما رأى آباؤه الآلهة، قوة كلمته (الخالقة)
ابتهجوا وأعطوه ولاءهم : مردوخ ملكاً
منحوه الصولجان والعرش والرداء الملكي
وأعطوه سلاحاً ماضياً يقضي على الأعداء قائلين :
«امض واسلب تعامة الحياة
ولتحمل الريح دماءها للأماكن القصية»
بعد أن انتهى الآلهة من منح «بل» كل السلطات
اسلموه الطريق، طريق النجاح
صنع قوساً وأعلنه سلاحاً له
جعل للسهام رؤوساً مسنونة وشد لقوسه وترا
رفع الهراوة، أمسكها بيمينه
وربط القوس والجعبة إلى جنبه
ثم ارسل البرق امامه
وملأ جسمه بالشعلة اللاهبة

صنع شبكة يوقع بها تعامة
وصرف الريح تمسك باطرافها لتحتوي تعامة
ريح الجنوب، وريح الشمال وريح الشرق وريح الغرب
خلق الامهيلو: الرياح الشيطانية، وخلق الاعصار والعاصفة
الرياح الرباعية، والرياح السباعية، والزوابع، والرياح الداهمة
ثم افلت الرياح السبع التي خلق
ليعصف بها اعماق تعامة، فهبت من خلفه ومشت اثره
اطلق الفيضان المطر، سلاحه الهائل
ثم اعتلى مركبة لا تقهر، مركبة العاصفة الرهيبة
شد لجرها طاقم من أربعة لا تقهر
(هم) المدمر، والعتي، والساحق، والطيار
اسنانها حادة وفي انيابها السم
تمرست بالدمار سريعة لا تجارى
وضع عن يمينه «الباطش» المجلي في النزال*
وعن يساره «الفاتك» الذي يؤجج الحماس
اما هو فقد اكتسى بدرع مهيب من الزرد
واعتمر بهالة تشيع الرعب والذعر
والآن، اتخذ طريقه لا يلوى على شيء
ميمماً وجهه شطر تعامة الهائجة.
حمل بين شفتيه طلسماً من عجينة حمراء
وفي يده ترياقاً من الاعشاب يحفظه من السموم
وقد حفت به الآلهة، حفت به الآلهة
وقد تدافعت حوله الآلهة، تدافع آباؤه الآلهة
ولما اقترب من تعامة، دنا ليسبر غورها
ويكشف خبيئة زوجها كنغو
رماه بنظرة نافذة فاضطربت أحواله

* من اجل هذا السطر والذي يليه، راجع سبيسر، السطران ٥٥-٥٦.

شلت منه الارادة وتعثرت أفعاله
أما اتباعه الآلهة، ممن مشى معه
فقد زاغت ابصارهم لمرأى البطل الجبار
واطلقت تعامة زئيرها عالياً دون أن تدير رقبتها*
والثورة اللاهبة قد ارتسمت على شفتيها:
«من انت حتى تكسب جمع الآلهة**
فهبطوا إلى منزلتك وساروا معك»

فرفع مردوخ سلاحه الرهيب فيضان المطر
ولتعامة الهائجة توجه قائلاً:
«كفى ما رأينا من عجرفتك وتكبرك***
لقد شحنت البغضاء قلبك فحرضت على القتال
وأوقعت بين الآباء والأبناء
فنسيت حب من انجبت.
اعليت كنغو وجعلته زوجاً لك
وأعطيته منزلة آنو، دون حق.
ضد انشار، ملك الآلهة، وجهت شر أفعالك
ولآبائي الآلهة كشفت سوء طويتك.
فلتتركي الآن حشدك يتجهز بكل ما عندك من سلاح
ولتتقدمي إلى وحيدة، في معركة ثنائية».
فلما سمعت تعامة منه ذلك القول
انتابها السعار وضاع منها الرشد
في اهتياج اطلقت صراخها عالياً
وحتى الاعماق انتفضت ساقاها معاً
تلت تعويذة ووجهتها مراراً وتكراراً (ضد مردوخ)

* أي أنها بقيت ثابتة الجنان
** مزجت في هذين السطرين بين ترجمات ثلاث
*** ابتداء من هذا السطر ولغاية نهاية حديث مردوخ، راجع سبيسر.

بينما آلهة المعركة تشحذ اسلحتها
ثم تقدما من بعضهما، تعامة ومردوخ احكم الآلهة
اشتبكا في قتال فردي، والتحما في عراك (مميت)
نشر الرب شبكته واحتواها في داخلها
وفي وجهها افلت الرياح الشيطانية التي تهب وراءه
وعندما فتحت فمها لابتلاعه
دفع في فمها الرياح الشيطانية، فلم تقدر له اطباقا
وامتلأ جوفها بالرياح الصاخبة
فبطنها منتفخ، وفمها فاغر على اتساعه.
ثم اطلق الرب من سهامه واحداً مزق أعماقها
تغلغل في الحشا وشطر منها القلب
فلما تهاوت أمامه أجهز على حياتها
طرح جثتها أرضا واعتلى عليها.
وبعد أن قضت تعامة على يد مردوخ
تفرق ربعها وتشتت شمل جيشها
ارتعدت فرائص الجميع وولوا أدبارهم
كل يود النجاة بروحه

وما من سبيل، فهم محاصرون من كل جانب
ضيق عليهم (مردوخ) وحطم اسلحتهم
في شبكته وقعوا وفي الشرك استقروا
تكأكأوا في الزوايا وعلا نحيبهم
فصب عليهم جام غضبه وهم محتبسون.
أما المخلوقات الاحدى عشرة التي خلقتها والبستها الجلالة
وحشد العفاريت التي مشت إلى جانبها
فقد رماها جميعاً في الاصفاد، وربط ايديهم بعضهم ببعض
وداسهم بقدميه، رغم كل مقاومة
أما كينغو الذي وضع رئيساً عليهم

لقد كبله وأسلمه إلى اله الموت (سجينا)*
جرده من ألواح الأقدار التي حازها دون حق
فمهرها بخاتمه وزين بها صدره
وبعد أن عزز انتصاره على أعدائه
وسيطر على عدوه المتكبر العنيد
بسط سلطان انشار على أعدائه وعزز نصره
وحقق آمال نوديمود. انه مردوخ الشجاع
شدد الحراسة على الآلهة الحبيسة
ثم عاد إلى تعامة المقهورة
وقف على جزئها الخلفي
وبهراوته العتية فصل رأسها
وقطع شرايين دمائها
التي بعثرتها ريح الشمال إلى الأماكن المجهولة
فلما شهد أباؤه ذلك طربوا له وابتهجوا
وقدموا له نفائس الهدايا عربون ولاء
ثم اتكأ الرب يتفحص جثتها المسجاة
ليصنع من جسدها اشياء رائعة:
شقها نصفين فانفتحت كما الصدفة
رفع نصفها الأول وشكل منه السماء سقفا
وضع تحته العوارض وأقام الحرس
أمرهم بحراسة مائه فلا يتسرب**
ثم جال انحاء السماء فاحصاً ارجاءها
استقام في مقابل الـ «آبسو» مسكن نوديمود

قاس الرب أبعاد الآبسو
وأقام لنفسه نظيراً له، بناء هائلاً اسماه عيشارا

* راجع سبيسر.
** من الواضح ان نصفها الآخر بقي في مكانه مشكلاً مياه المحيطات.

جاعلاً اياه كالمظلة فوق الأبسو*

ثم اعطى لآنو وانليل وايا مساكنهم**

«حاشية».

١٤٦ سطراً ولما تكتمل الانيوما ايليش بعد. البقية تأتي
كتبت وفقاً للوح الذي فسد
نابور بيلشو ابن نعيد ـ مردوخ ابن حدر. كتبه لراحة نفسه
ولدوام بيته ومملكته. كتب في معبد ايزيدا

«اللوح الخامس»

خلق محطات لكبار الآلهة (يستريحون بها)***

اوجد لكل، مثيله من النجوم

حدد السنة وقسم المناخات

ولكل من الاثني عشر شهراً أوجد ثلاثة ابراج

وبعد أن حدد بالابراج ايام السنة

خلق كوكب المشتري ليضع الحدود****

فلا يتعدى نطاق، في السماء مكانه ولا يقصر عنه

وعلى جانبيه خلق محطتي انليل وايا*****

* بعد أن تجمعت مياه الجزء الاسفل من تعامة مشكلة المحيطات، صار الجزء الاسفل المقابل للسماء، في الكون عبارة عن مياه المحيطات المجاورة لمسكن ايا (نود يمود) الذي بناه كما رأينا، فوق الابسو (المياه العذبة). وهنا يقوم مردوخ ببناء الارض فوق مسكن ايا. وبذلك تكتمل صورة البسيطة التي تتألف من بحار ومياه جوفية وقشرة ارضية.

** مسكن انو هو السماء، وانليل سطح الارض، باعتباره الهواء. وايا الماء العذب، في باطن الارض.

*** والمحطات هنا هي النجوم

**** اعتقد البابليون ان كوكب المشتري يقع في الوسط بين النطاق السماوي الشمالي العائد لانليل والجنوبي العائد لايا.

***** القسم الشمالي والقسم الجنوبي من حزام المجرة

فتح بوابتين في كلا الجانبين*

دعمهما بأقفال قوية على اليمين وعلى الشمال

وفي المنتصف تماماً ثبت خط السمت

ثم أخرج القمر فسطع بنوره، وأوكله بالليل

وجعله حلية له وزينة، وليعين الايام:

«ان اطلع كل شهر دون انقطاع مزيناً بتاج

وفي أول الشهر عندما تشرق على كل البقاع

ستظهر بقرنين يعينان ستة أيام

وفي اليوم السابع يكتمل نصف تاجك

وفي المنتصف من كل شهر ستغدو بدراً في كبد السماء

وعندما تدرك الشمس في قاعدة السماء

انقص من ضوئك التام وابدأ بانقاص تاجك كما اكتمل

وفي فترة اختفائك ستسير في درب مقارب لدرب الشمس**

وفي التاسع والعشرين، ستقف في مقابل الشمس مرة أخرى،

إلى هنا وينتهي الجزء الواضح من اللوح الخامس وفقاً للنص الذي كان بين أيدي علماء المسماريات إلى وقت قريب ولكن اكتشافات جديدة في موقع مدينة آشور، قدمت لنا لوحاً اعتبره البعض تتمة للوح الخامس. وأنا بدوري اقدمه هنا باعتباره كذلك، مترجماً عن نص جريسون Gryson المنشور في: Ancient Near Eastern Texts ***

لقد عينت لك شارة، فاتبع دربها

.... تقرب واصدر حكمك....

* فتحة في الشرق وفتحة في الغرب وهما اللتان تمر منهما الشمس في الشروق والغروب.

** الدرب الذي تسير عليه الشمس في باطن الارض ليلاً لتشرق من جديد.

*** ولكنني اعتقد ان محتويات هذا اللوح لا تشكل تتمة لنفس النسخة التي قدمتها للقارىء هنا، بل ارجح انها تتمة لنسخة اخرى ضاعت الواحها الا واحداً. ويدعم وجهة نظري هذه تكرار اللوح لبعض الاحداث التي تم سردها في مواضع سابقة.

(يلي ذلـك واحد وعشرون سطراً مشوهة بشكل لا يسمح بترجمتها. يبدأ النص بالوضوح ابتداء من السطر الخامس والاربعين.

بعد أن أوكل بالايام شمش (اله الشمس)
وفصل بين تخوم النهار وتخوم الليل
أخذ من لعاب تعامة
وخلق منها مردوخ [. . . .]
خلق منها الغيوم وحملها بالمطر والزمهرير
دفع الرياح وأنزل المطر
وخلق من لعابها ايضاً ضبابا

ثم عمد إلى رأسها فصنع منه تلالاً
وفجر في أعماقها مياها
فاندفع من عينيها نهرا دجلة والفرات
ومن فتحتي أنفها. . [. . . .]
وعند ثديها رفع الجبال السامقة
وفجر منها عيونا، وأحيا آبارا
لوى ذيلها وثبته في الاعالي
[. . . .] (فانفتح) شقاها شق ثبت في الأرض.
فغطاها جميعا، وشق رسخ أرضا
[. . . .] في وسطها أسال مجرى عظيما
ثم نزع عنها شبكته تماماً
وقد تحولت إلى سماء وأرض
رسخت بينهما الحدود [. . . .]
وبعد أن أحكم شريعته وأرسى طقوسه
أوجد المعابد وأسلمها لايا
أما الواح الاقدار التي غنمها من كينغو
فقد أعطاها، هدية أولى، لآنو
ثم ساق أمامه الآلهة المقهورة

ودفعها مغلولة، إلى حضرة اباله
أما المخلوقات الاحدى عشر التي صنعتها تعامة
والتي حطم مردوخ أسلحتها وربط أيديها ببعض
فقد جمدها ونصبها تماثيل عند فوهة الأبسو (قائلاً):
«ليبق ما حدث لهم حيا لا يمحى ولا ينسى»
سر الآلهة بما رأوا سروراً عظيما
لخمو ولخامو وكل آبائه معهم
عبروا اليه، وأنشار الملك وقف مرحبا
أما آنو وانليل وايا فقد قاموا بتقديم الهدايا
وأمه دومكينا ايضاً خصته بهدية سرت فؤاده
وارسلت تقدمات أضاءت لها قسمات وجهه
(فعهد) إلى «أوسمي» الذي حمل هداياها
عهد اليه بسدانة الأبسو وخدمة الهياكل
ولما اكتمل جميع الايجيجي ركعوا أمامه
وقبل كل من الآنوناكي قدميه
فقد اجتمعوا لتقديم فروض الاحترام
انحنوا جميعاً وأعلنوا: مردوخ ملكا
وبعد أن متع آباؤه انظارهم برؤيته

(يلي ذلك ستة عشر سطراً غير قابلة للترجمة بسبب تشوه اللوح، وتصف هذه الاسطر جلوس مردوخ على العرش بكامل عدته. وعندما يبدأ النص بالوضوح نجد أمه وأباه يتوجهان بالحديث إلى الآلهة).

ايا ودومكينا [. . . .]
فتحا فمهما متحدثين إلى الايجيجي، الآلهة الكبرى
«فيما مضى، لم يكن مردوخ سوى ابناً محبوباً
ولكنه الآن ملك عليكم، فنادوه باسمه
ثم اعلنوا بصوت واحد:
«سيكون اسمه لوجال ديميرانكيا، به آمنوا»

وبعد أن وهباه السيادة والسلطان
توجها بالحديث اليه :
«أنت من يحمي حمانا منذ الآن
(ومنذ الآن) سنصدع بما تأمر به»
ففتح مردوخ فمه
ليقول كلمة لآبائه الآلهة
«فوق العيشارة التي بنيت
سأمهد مكاناً صالحاً للبناء*
هناك ابني بيتاً لي وهيكلاً**
به قدس الاقداس رمز جلالتي
وعندما تصعدون من الآبسو للاجتماع
سيكون مفتوحاً لاستقبالكم وبه تبيتون
أو تهبطون من السماء للاجتماع
سيكون مفتوحاً لاستقبالكم وبه تبيتون
سأدعوا اسمه بابل، أي بيت الآلهة الكبرى
وسينهض لبنائه، امهر البنائين»
فلما انتهى اباؤه من سماع كلمته
توجهوا لبكرهم مردوخ بالسؤال :
فوق كل ما صنعت يداك
لمن ستوكل سلطانك؟
فوق الأرض التي ابتدعتها يداك
لمن ستوكل حكمك؟
وبابل التي منحت لها اسماً مجيداً
وجعلتها مقراً لنا ابد الدهر

---

* دمجت الاسطر ١١٩، ١٢٠، ١٢١ في سطرين مع بعض الحذف، لكي لا أقع في التناقض، ففي نهاية اللوح الرابع وقفت الى جانب هيديل، من دون سبيسر وجريسون في تفسير العيشارة على أنها الارض.

** دمجت السطرين ١٢٢-١٢٣.

[. . . .] فيجلبوا لنا طعام يومنا*
[. . . . .]
هناك. . . . بعملهم [. . . . .]»
ابتهج مردوخ لما سمع
أجاب سؤال الآلهة .
أشرق وجه قاتل تعامة

وفتح فمه لحديث مقدس :
[. . . . .]
[. . . . .] سيوكل اليكم»
فركع الآلهة امامه وقالوا،

قالوا للاله لوجال ديميرانيكا :
«فيما مضى لم يكن الرب سوى ابناً محبوباً
ولكنه الآن مليكنا، فنادوه باسمه
لقد اعطتنا تميمته المقدسة الحياة
انه رب الصولجان المقدس
ايا، المتمرس بكل حرفة ومهارة
سيضع المخططات، وسنكون له عمال بناء

«حاشية»**
اللوح الخامس من «عندما في الاعالي»
قصر آشور بانيبال، ملك العالم، وملك آشور

---

* رغم عدم قيام جريسون باقتراح اي جمل لاملاء الفراغات في هذا الجزء الاخير من اللوح فان من الواضح ان الحديث هنا يدور حول البشر الذين سيستخلفهم الاله على الارض ليديروا شؤونها نيابة عنه، ويقدموا للآلهة طعامهم كما رأينا في النص السومري السابق. فاذا اقترحنا جملة تملأ الفراغ في هذا السطر يغدو على الشكل التالي :
[الن تستخلفوا فيها أحداً] فيجلب لنا طعام يومنا.

** هذه الحاشية تعود الى اللوح الخامس الاصلي لا الى الجزء الملحق الاخير.

فلما انتهى مردوخ من سماع حديث الآلهة
حفزه قلبه لخلق مبدع
فاسر لايا بما يعتمل في نفسه
واطلعه على ما عقد عليه العزم:
«سأخلق دماء وعظاما
منها سأشكل «لالو» وسيكون اسمه الانسان
نعم، سوف أخلق لالو الانسان
وسنفرض عليه خدمة الآلهة، فيخلدون للراحة
ثم أعمد إلى تنظيم أمور الآلهة
كلهم عظيم، ولكني سأجعلهم في فريقين»
فتوجه إليه بكلمة
مقدماً رأيه في ذلك الموضوع:
«ليقوموا بتسليم احدهم
فيقتل، ومنه تصنع الانسان
ليجتمع كبار الآلهة هنا
وليسلم الينا الآله المذنب، لراحة الباقين»
فقام مردوخ بدعوة الآلهة الكبرى
متوجهاً لهم بود ورحمة، مصدراً توجيهاته
فأعطى الآلهة له اذناً صاغية
قال المليك لهم كلمة:
«لقد صدق حقاً ما وعدناكم به*
والآن أريد منكم قول الحق، وقسمي لكم ضمان
من الذي خلق النزاع؟
من دفع تعامة للثورة، وأعد للقتال؟

* نهاية تعامة.

سلموا لي من خلق النزاع
ليلقى جزاءه، وتخلدون للراحة»
فأجاب الأيجيجي، الآلهة الكبار،
أجابوا سيدهم مردوخ، ملك السماء والأرض:
«انه كينغو، الذي خلق النزاع
ودفع تعامة للثورة، وأعد للقتال»
ثم قيدوه ووضعوه أمام ايا
انزلوا به العقاب فقطعوا شرايين دمائه
ومن دمائه جرى خلق البشر
ففرض (ايا) عليهم العمل وحرر الآلهة
بعد أن قام ايا الحكيم بخلق البشر
وفرض عليهم العمل وحرر الآلهة
ذلك الفعل الذي يسمو عن الافهام
والذي نفذه وفقاً لخطط مردوخ المبدعة،
قام مردوخ، ملك الآلهة، بتقسيم
جميع الأنوناكي، فجزء في الاعلى وجزء في الاسفل
وأوكلهم لآنو ليحرصوا على طاعته.
وضع في السماء ثلاثمائة لحراستها
وثلاثمئة أخرى في الأرض.
وبعد أن أنهى كل تنظيم
وقسم لكل من آلهة السماء والأرض نصيبه
فتح الأنوناكي فمهم
وقالوا لسيدهم مردوخ:
«والآن ايها الرب، يامن خلصتنا من العمل المفروض
ما الذي يليق بك عربون امتنان؟
سنبني لك هيكلاً مقدساً
مكاناً به نركن مساء لنستريح
هناك سنشيد لك منصة وعرشا

وكلما اتينا المكان ، نلجأ اليه لنستريح»
فلما سمع مردوخ ذلك
انفرجت اسارير وجهه كما النهار :
«كذا فلتكن بابل كما اشتهيتموها
لنشرع بتجهيز الحجارة ، ولتدع بالهيكل»
أعمل الأنوناكي معاولهم
فأنهوا الطوب اللازم في مدى سنة
ومع حلول السنة الثانية
رفعوا الايزاجيلا* الذي وصلت أساساته الآبسو
وبعد أن أنهوا برجه المدرج
بنوا في الداخل مسكناً لمردوخ وانليل وإيا
ثم جلس مردوخ أمامهم في جلال
ومن الاسفل شخصوا بأبصارهم لقرون البرج الرائعة**
وبعد الانتهاء من الايزاجيلا
قام الأنوناكي ببناء مقامات لهم
ثم التأم جمع الآلهة
والتقوا في حرم مردوخ السامي الذي بنوا
فاجلس آباءه الآلهة إلى مأدبة :
«هذه بابل مكان سكناكم المفضل
فاصدحوا وامرحوا في ارجائها»
ولما استقر الآلهة الكبار إلى المائدة
أخذوا يعبون الجعة وهم يأكلون
وبعد أن مرحوا وطربوا
أقاموا الطقوس في ا لايزاجيلا المهيب
وأرسوا اسس العبادات
ثم توزعوا فيما بينهم السماوات والأرضين

* معبد مردوخ ذو البرج العالي المدرج
** قرون من المعدن توضع في قمة ابراج المعابد، هي بقية من العبادات القمرية القديمة

اتخذ الآلهة الخمسون الكبار أماكنهم
ثم قام آلهة المصائر ، السبعة ، بوضع ثلاثمائة إله في السماء
ورفع انليل القوس ، سلاح مردوخ ، ووضعه امام الجميع
والشبكة التي صنعها كانت محط أنظار آبائه
ولما انتهوا من تأمل القوس ودقة صنعه
أثنوا على فعله ثناء حميداً
ثم رفعه آنو وتحدث إلى مجمع الآلهة
قائلاً وهو يقبل القوس هذا [. . .]
ثم أسبغ عليه الأسماء التالية :
العود الهائل ، اسمه الأول ، والدقيق ، اسمه الثاني
أما اسمه الثالث فهو القوس ـ النجم ، يشع في السماء
(يلي ذلك اثنا عشر سطراً في كل منها نقص يحجب المعنى)
وليبسط رعايته على البشر أجمعين
فيلهج باسمه لسانهم ويذكرون نعمته عليهم أبداً
ويقدمون القرابين لآبائه
فيقيمون أودهم ويرعون هياكلهم
ويصنعون لهم محرقات القرابين ، يتنسمون رائحتها ، ولتكن تعويذاتهم [. . . .]
وكما فعل في السماء ، لتكن كذلك مشيئته على الأرض
فيعلم البشر كيف يخشونه
ويكون حاضراً في قلوبهم أبدا
ويحفظون أبداً حدود إلههم ، وآلهتهم
ويرعون أمره في الانصياع له

ويبقون على تقدماتهم لالههم وآلهتهم
ويذكرون الههم دوماً ولا ينسونه
ثم فلينتشروا في الأرض ويزينوها بيوتاً لهم
وليقفوا بخشوع امام الهنا .

تعالوا نعلن أسماءه الخمسين
ولتبق دروبه وفعاله مشعشعة ابدا
مردوخ، هو اسم مولده الذي دعاه به جده آنو
واهب المرعى وموارد الماء، مالىء العنابر بالمؤن
من بسلاحه الرهيب، طوفان المطر، قد هزم الاعداء
من أنجد آباءه الآلهة وقت محنتهم
حقاً انه الساطع، ابن الشمس
وفي الق ضيائه فليرتع الآلهة على الدوام.
على البشر ممن خلق [. . . .]
قد فرض خدمة الآلهة الذين حررهم
فليكن في كلماته الخلق والفناء والسلوان والرحمة
وليرفع الجميع ابصارهم اليه
ماروكا، هو الاله الحق، خالق كل شيء
ممن أفرح قلوب الأنوناكي وطمأن خواطرهم
ماروتوكا، هو الملجأ والملاذ، سند العباد
وهو الذي يسبح الناس بحمده [. . . .]
باراشاكوشو، المكين القابض زمام الأرض
كبير القلب هو، عطوف رحيم*
لوجال ديميرانيكا، هو الاسم الذي دعوناه في مجمعنا
أمره سابق على أمر آبائه
حقاً انه رب الآلهة أجمعين، في السماء وفي الارضين
ملك يخشاه من في السموات ومن في الأرض
ناريلوجالدي ميرانكيا؛ أطلقنا عليه. شملت عنايته كل الآلهة
وهو الذي في زمن الشدة، مكن لنا في السماء والأرض
وخصص للأيجيجي والأنوناكي، محطات راحة
وهو الذي لذكره، يرتجف الآلهة في مساكنهم
أسار لوحي، الاسم الذي دعاه به جده آنو

* راجع سبيسر

حقاً، انه نور الآلهة، وانه الأمير الجليل
هو الروح الحارس للآلهة والأرض
في صراع مهيب، انقذ ديارنا يوم الشدة
وأسار لوحي أسميناه نامتيلاكو، الذي يحيي الموتى
وهو الذي استرد الآلهة البائدة، وكأنما خلقهم من جديد
الرب الذي بتعويذته المقدسة، قد بعث الآلهة الميتة،
القاهر فوق الخصوم الماكرين. فلنلهج بذكر شجاعته.
وأسار لوحي، اسميناه، ثالثاً، نامشوب
الاله الوضاء، ينير لنا طريقنا
وهكذا اعلن كل من انشار ولخمو ولخامو ثلاثة من اسمائه
ولأبنائهم الآلهة قالوا:
«لقد اعلن كل منا ثلاثة من اسمائه
وكما فعلنا، فليفعل كلكم، ولتعلنوا اسماءه»
فابتهج الآلهة وصدعوا بما أمروا
تشاوروا في قاعة المجلس قائلين:
«الابن العلي الذي انتقم لنا
سندنا وحافظنا، تعالوا نمجد اسمه»
ثم قعدوا لمجلسهم يعلنون اسماءه
وكلهم يذكر اسماءه في المكان المقدس

«اللوح السابع»

اسارو، واهب الأرض الخصبة، ومالىء عنابر القمح،
منبت الحبوب والبقول، ومحيي الأعشاب
اسار اليمنونا، الجليل نور آبائه
الذي يوجه قرارات آنو وانليل وايا،
وحده القائم بأودهم، الذي وقف لهم مساكنهم،
الذي افاضت حربته صيداً وفيرا.

توتو، بطل خلاصهم ونجاتهم هو،
فليطهر هياكلهم ويتركهم ينعمون،
ويجعل لهم تعاويذ، تطمئن بها نفوسهم،
فاذا اضطربوا انزل سكينة عليهم،
حقاً انه المجد بين الآلهة،
لا يدانيه منهم أحد ولا يقرن به.
وتوتو هو زيوكينا به يحيا كل الآلهة،
الذي جعل لهم سماء وضاء،
مالك مصائرهم وسيد مسالكهم،
حي ابدا في قلوب عباده، لا ينسون نعمته عليهم.
وتوتو هو ثالثاً زيكو، رب القداسة
اله النسمة الخالقة، سميع مستجيب الدعوات،
هو المعطي دون حساب،
الذي حقق رغباتنا وأفاض،
الذي تنسمنا أنفاسه ايام البلوى،
ليلهج بذكره الجميع وليسبحوا بحمده.
توتو، ليعظم اسمك، وليكن رابعاً أجاكو،
رب التميمة المقدسة، الذي بعث الموتى،
والذي رأف بالآلهة المقهورة،
أزاح عن أعدائه من الآلهة، عبء العمل المفروض،
فخلق الانسان لهم محرراً،
هو الرحيم الذي يهب الحياة،
كلماته باقية لا تنسى
عند البشر الذين كونتهم يداه.
وتوتو هو خامساً توكو الذي تردد الشفاه تميمته،
تميمته المقدسة التي اقتلعت الاشرار.
شازو، المطلع على افئدة الآلهة، وعالم الأسرار،
لا يهرب من بطشه الأشرار،

أسس مجمع الآلهة والفرح قلوبهم،
وبسط حمايته وأخضع العصاة،
أقام العدل ووضع حداً للغو الكلام،
أحق الحق، وأزهق الباطل.
شازو، فليمجد اسمك ثانياً على انه زيسى، الذي أخرس المتمردين
وآمن آباءه من خوف شل أجسامهم.
وشازو، هو ثالثاً سوحريم، أفنى بسلاحه كل الخصوم،
أحبط خططهم، وجعلهم نهباً للرياح
وقضى على من تصدى له من الأعداء،
فليمجده الآلهة في مجلسهم*
وشازو هو رابعاً صاحكوريم، خلق آباءه من جديد، وجعل لهم مكانة،
استأصل شأفة الأعداء، وقطع دابرهم،
حطم تدابيرهم ولم يبق منهم على أحد،
فلتتغن باسمه كل البلاد.
وشازو، هو خامساً زاحريم، رب كل شيء
الذي محق الأعداء جميعاً، والذي يجزي بالخير ويجزي بالشر،
أعاد الآلهة الآبقة إلى مساكنها

فليبق اسمه على مر الازمان
وسادسا فليعبد شازو في كل مكان على انه زاحجوريم
قاهر جميع الاعداء في ساح الوغى
اينبيلولو، واهب الخيرات هو
الجليل الذي اعطى لكل اسمه
نظم المرعى وموارد الماء
فجر الأرض عيونا، وأجرى المياه انهارا
ليمجد ثانيا على انه ابيادون، الذي يروى الحقول

* راجع سبيسر

حاكم السماء والأرض، موزع الزرع والكلأ
الذي نظم السدود والقنوات، ورسم خطوط المحراث
وليمتدح ثالثا على انه جوكال، حاكم مزارع الآلهة
رب الغلال الوفيرة والمحاصيل الكثيرة
واهب الثروة الذي اغنى المساكن
مانح الذرة، ومنبت الشعير.
واينبيلولو هو حيجال، يتولى أمور الخزن
يسقي الأرض بصيب من السماء فتنبت العشب
زير سير، الذي اقام جبلا فوق تعامة
والذي بسلاحه قد فلق جسدها
الراعي الأمين وحامي الديار

. . . .

الذي عبر البحر الغاضب بآبائه
وكجسر، مر إلى ساح المعركة
زير سير، ليكن اسمك ثانياً ملخ
البحر مجاله والموج مطية له
غيل، الذي يكدس القمح أكواماً
خالق الذرة والشعير، واهب البذور للأرض
غليما، خالق الأشياء الباقية
يحفظ تماسك العائلة، مصدر كل أمر حسن
اغليما، الذي مزق تاج [. . . .]
الذي سخر السحاب فوق المياه، ورفع السموات
زلوم، الذي حدد [. . . .]
مقسم الارزاق، الذي يسهر على [. . . .]
وزلوم ثانياً مومو، خالق السماء والأرض ومجري السحاب
الذي طهر السماء والأرض
لا يدانيه في قوته احد بين الآلهة

جيشنوموناب، خالق البشر أجمعين، وصانع اقاليم الأرض الاربعة

محق أتباع تعامة، وصنع من أجسادهم البشر.
لوجالادبور، حطم صنيع تعامة وفل سلاحها،
الذي رفع أساساته الراسخة من خلف ومن قدام.
باجليونا، له الصدارة في كل البلاد لاحد لقوته،
العلي بين اخوانه الآلهة، وسيدهم جميعا.
لوجال دورماخ، رباط الآلهة، الملك، سيد الدورماخ
ذو المقام الاعلى في منزل السلطان، الظاهر على الآلهة.
ارانونا، مشير ايا، وباعث آبائه الآلهة،
لا يدانيه في الصفات الملوكية إله، مهما علا،
دومودوكو، الذي جدد مسكنه المقدس في الدوكو،
دومودوكو، الذي لا يقطع انليل برأي دون مشورته.
لوجالانا، العظيم الرفعة بين الآلهة،
الرب الذي له قوة آنو، الذي فاق انشار.
لوجالوجا، الذي اجتاحهم جميعاً في الميدان*
مالك الحكمة كلها، واسع الفهم عميقه
اركينغو، الذي سحق كينغو في المعركة،
رقيب الآلهة، موجههم، واضع أسس المملكة.
كينما، قائد جميع الآلهة، مسدي النصح والمشورة،
لذكره يرتعش الآلهة فرقا، ولاسمه وقع العاصفة.
ايزيسكور، الا فليتبوأ مكاناً عالياً في بيت العبادة،
ألا فليتقدم الآلهة بالهدايا أمامه،
ومنه فليأخذ كل مهامه وصلاحياته،
وبدونه لا يقدر أحد على الخلق المبدع،
سكان الاقاليم الاربعة من صنع يديه،
ولا إله غيره يعرف يومهم الموعود.

* راجع سبيسر

جيرو، باني الـ [. . . .] للسلاح،
خلق في صراعه مع تعامة الاشياء البديعة،
واسع الفهم ملتمع الفكر،
خافي السريرة، لا يستطيع الآلهة مجتمعين سبر أغواره.
آدو، سيكون اسمه، يغطي مساحة السماء،
تمزق السحاب رعوده، وتعطي للناس الحياة.
اشارو، الذي يأخذ بيد آلهة الاقدار،
وسعت عنايته الناس والآلهة اجمعين.
نبيرو، القيم على مسالك السموات والأرض،
فكل ضال عن طريقه، من أعلى ومن أسفل، يأتي اليه.
فنيبرو هو النجم الساطع في السماء
اتخذ مكانه في نقطة الانقلاب المناخي، فارفعوا نحوه ابصاركم
وهو الذي يقطع عرض البحر دون توقف
اسمه نيبرو الذي يشغل مكان المركز
الا فليحفظ مسارات النجوم في السماء
الا فليرع جميع الآلهة كما ترعى الشياه
الا فليخضع تعامة وينكد عيشها ويختصر حياتها
الا فلترتد على أعقابها، الا فلتنسحب إلى الأبد
وبما أنه خالق المكان، وصانع الأر ض الراسخة
فقد دعاه الأب انليل بسيد الأرضين
وكل الاسماء التي دعاه بها الايجيجي
سمعها ايا وابتهجت بها نفسه
ثم قال: هو الذي عظم اسماءه اباؤه
سيكون نظيراً لي ويكون اسمه ايا
فيغدو قيماً على حقوقي جميعاً
ويغدو سيداً لقضائي
واخيراً بالاسم «خمسين» الآلهة العظام
دعوه، لأن اسماءه خمسون، فجعلوه العظيم

وقفة عند النص

يقف الدارس حائراً أمام هذا النص الذي أعتبره شخصياً أعظم نص اسطوري انتجه الانسان القديم. والحيرة تأتي من غنى النص وفيضه بالرموز النفسية والاجتماعية والتاريخية، وتعدد بواعث انتاجه، وتراكم خبرات انسانية شتى في تكوينه. فالملحمة قد تركبت من عدة أساطير سومرية بنت عليها العبقرية السامية ذلك الهيكل الشامخ، الذي يعطي خلاصة عن علم وفكر وفلسفة وفن الشعب الرافدي العريق، في مجالات هامة عدة. من هنا لا نستطيع اعطاء تفسير واحد للملحمة، فنبخسها بذلك حقها. فالملحمة لم توضع لغرض واحد، ولم تنشأ عن باعث واحد. ففي النص مستويات عدة متداخلة ومتآلفة، وعلى الدارس والمفسر، ان اراد الموضوعية والشمول، أن يفرق بين تلك المستويات مميزاً بعضها عن بعض، حذر الوقوع في أحادية النظرة.

الملحمة باعتبارها مغامرة فكرية فذة:

تتقدم الملحمة بمجموعة من التأملات المترابطة، التي تتخذ من النشوء والتكون والبدايات موضوعاً لها. فالشكل الحالي للوجود قد انبثق عن شكل سابق له، ولم ينبثق عن عدم. فعندما كانت تعامة وآبسو وممو يمزجون أمواههم معاً، لم يكن هناك زمان، لأن الزمان نتاج التغير، مرتبط بايقاعه، وتلك العناصر الثلاثة كانت في هدأة وصمت وسكون. كما لم يكن هناك مكان، لأن المياه المتمازجة كانت وحدها ولا موجود معها قبل أن تخلق السموات والأرض وتتحدد الأمكنة والاتجاهات. ان فكرة انبثاق الوجود الحالي عن وجود سابق له، تتخلل فكر المنطقة وتميز كل التأملات الخاصة بالتكوين. كما نجدها في سفر التكوين العبراني: «في البدء خلق الرب السماوات والأرض، وكانت الأرض خربة وخالية، وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الرب يرف فوق وجه الماء». وإلى يومنا هذا، لم يقبل العلم الحديث فكرة العدم المطلق، فكل نظريات التكوين العلمية تتحدث عن نشوء الكون من مادة ما، بدئية، ووجود ما سابق. كما اثبت القرآن الكريم فكرة الوجود السابق على الخلق عندما قال: «وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة

أيام وكان عرشه على الماء» سورة هود ـ ٦ . كما أشار محمد (ﷺ) في الحديث الشريف إلى نفس الموضوع عندما أجاب عن سؤال: أين كان ربنا قبل أن يخلق الخلق؟ فقال: كان في عماء. (والعماء هو الغيم الرقيق الذي يحول بين الناظر وبين الشمس)(٤).

بعد ذلك تتابع تفسيرات نشوء الكون في الملحمة. فمن الاطروحة ينبعث طباقها، ومن تناقضهما يظهر التركيب. فالقوى السكونية المتمثلة في الثالوث البدئي تنتج في صميمها القوى الحركية المتمثلة في الآلهة الجديدة، ومن صراعهما يظهر إلى الوجود الكون بكل مظاهره. الماء العذب موجود في بطن الأرض لأن اياً قد قهر آبسو وبنى مسكنه فوقه تاركاً اياه حبيساً في الاعماق. والضباب يتشكل فوق الماء لأن إيا قد خرم أنف ممو بحبل يجره به أينما ذهب، والسماء والأرض تكونتا من جسد الآلهة تعامة التي شطرها مردوخ إلى شطرين، والانسان خلق من دماء الإله كينغو واعطي الحياة ليكدح على الأرض ويقدم للآلهة طعامها، وبابل ظهرت للوجود لأن الآلهة بنوها لزعيمهم مردوخ. . . الخ.

الملحمة باعتبارها تاريخاً:

يعتبر انتقال البشرية من مرحلة الثقافة الأمومية إلى مرحلة الثقافة الأبوية، من أهم الانقلابات التاريخية الكبيرة. ورغم أن الاينوما ايليش قد كتبت في فترة متأخرة عن ذلك الانقلاب، إلا أنها تنطوي على ذكريات حية وغضة، عن تلك الحقبة الفاصلة. فالحالة السكونية للآلهة البدئية، هي تمثيل واضح لسكونية المجتمع الأمومي وابتعاده عن التغيرات السريعة والحثيثة التي ميزت المجتمع الابوي فيما بعد. أما الحالة الدينامية للآلهة الشابة بزعامة إيا أولاً ومردوخ فيما بعد، فهي تمثيل واضح لحركية المجتمع الأبوي واشارة لبدء الحضارة التي نعرفها الآن. ان الصراع بين المعسكر الذي تقوده تعامة، والمعسكر الذي يقوده مردوخ لم يكن إلا تمثيلاً للصراع بين ثقافتين متمايزتين. ثقافة مركزها المرأة، وأخرى مركزها المجتمع وتكريساً للثقافة الأبوية الطالعة.

لقد غادرت القوى الحضارية الجديدة مرحلة الوئام مع الطبيعة، التي ميزت

(٤) محي الدين بن عربي، الفتوحات المكية، القاهرة ١٩٧٢ جزء ١، ص ٤٩.

المجتمع الامومي، ودخلت مرحلة السيطرة على الطبيعة. ولم تكن سيطرة ايا على آبسو إلا رمزاً لسيطرة الانسان على الماء العذب وتسخيره لزراعته وريه، وذلك بحفر الآبار وبناء السدود(٥) وحفر القنوات. ولم يكن بناء الآلهة لمدينة بابل إلا رمزاً لشروع الانسان في بناء حواضره.

الملحمة باعتبارها نتاجاً نفسانياً:

يمثل صراع مردوخ ضد تعامة على مستوى الاسطورة، صراعاً آخر يقوده الفرد، على المستوى النفسي، ضد الاعتماد على الأم، بما يمثله هذا الاعتماد من اتكالية وتفكك في بنية الشخصية. ان صراعاً كهذا، لا يحدث، كما قد يظن البعض، في فترة مبكرة من حياة الفرد، بل قد يتأخر حدوثه إلى أواسط العمر. ويغدو قتل الأم، رمزاً لبناء الشخصية وتكاملها(٦).

الملحمة باعتبارها تأسيساً اجتماعياً وسياسياً:

يترافق تاريخ كتابة الملحمة مع تاريخ تأسيس الامبراطورية البابلية الأولى في عهد الملك حمورابي، الأمر الذي يدعونا للتأمل طويلاً في تتابع أحداث الملحمة التي تأخذ بيد مردوخ وترفعه من ابن للآلهة إلى سيد مطلق لها. لقد رفعت أساطير كثيرة من شأن آلهتها. ولكننا قلما نعثر في أي مكان على كبير للآلهة قد نال من السلطة ما ناله مردوخ ومن التقديس والتبجيل ما حازه. الأمر الذي يدفعنا للاعتقاد بأن سيرة مردوخ في الملحمة ليست إلا انعكاساً لسيرة الامبرطور البابلي وترسيخاً لسلطانه(٧). فما يحدث على مستوى الأسطورة، تأسيس لما يجب أن يحدث على مستوى الواقع. وبابل التي بنتها الآلهة منذ البدايات كأول مدينة على الأرض هي التي يجب أن تسود العالم باعتبارها أقدس مكان وأقدم مكان.

(٥) يوسف اليوسف، قراءة في ملحمة التكوين البابلي، مجلة المعرفة السورية. العدد ١٩٧، تموز ١٩٧٨.

(٦) ألمح الى مثل هذا التفسير «يونغ»:

C.G. Jung, Man and His Symbols, Newyork 1964

(٧) المرجع رقم ٥.

الملحمة باعتبارها تأسيساً لديانة جديدة:

تتوافق كتابة الملحمة مع سيادة بابل على وادي الرافدين والمناطق المتحضرة الجديدة. والسيادة العسكرية تتبعها سيادة ثقافية تثبتها وتمد في عمرها، فكانت الملحمة وسيلة لنشر الديانة البابلية وتثبيتاً لعبادة الهها مردوخ، الذي ساد الآلهة جميعاً وتفوق على آبائه وأقرانه. وقد خصص الجزء الأكبر من الملحمة لسيرة مردوخ ووصف مولده ونشأته وصعوده إلى السلطان وصراعه مع القوى الشريرة، وأعمال الخَلق التي استحق بها سلطاناً أبدياً على الآلهة والبشر والاكوان. وتقربنا أسماؤه الخمسون، كثيراً من المفاهيم التوحيدية اللاحقة. وكأن الآلهة السابقة اجتمعت في واحد، وكأنها تجليات له، وصور من صوره.

الملحمة باعتبارها تبريراً وترسيخاً لطقس قديم:

تأتي الملحمة لبث الروح في طقس معروف قديم، وهو الاحتفال برأس السنة، واعطائه المعنى وتثبيته. ففي اليوم الرابع من الاحتفالات بعيد رأس السنة البابلية «الايكيتو» الذي يستمر من الأول من نيسان إلى الحادي عشر منه، كانت الملحمة تتلى كاملة من قبل الكاهن الأعلى، أمام تمثال مردوخ بحضور جماهير العباد. وفي أيام أخرى من الاحتفال كان يجري تمثيل بعض مشاهد الملحمة، وربما شارك الملك وكبار الكهنة أنفسهم في اتخاذ الادوار الرئيسية في التمثيل. كما كانت مقاطع أخرى تنشد وتغنى من قبل العباد أنفسهم[8]. وذلك كله مساعدة من العباد لآلهتها في المعركة الدائرة مع قوى الفوضى والعماء. فالمعركة البدئية لم تحدث مرة واحدة وكفى، بل هي معركة متجددة، يشارك البشر فيها طقسياً، فيشدون ازر آلهتهم ويعطونها سنداً ومدداً.

الملحمة باعتبارها فناً رفيعاً:

تعتبر الاينوما ايليش من أجمل النصوص الأدبية القديمة، وهي إلى جانب

8 - Alexander Heidel, The Babylonian Gernesis, Phoenix Books, Chicago, 1970, p16.

ملحمة جلجامش وملحمتي هوميروس وبعض أسفار التوراة، ابدع ما انتج انسان الحضارات القديمة من أدب. فإلى جانب الصياغة الشعرية الجميلة، تتمتع الملحمة بحبكة روائية فذة. وهي في مجموعها أشبه بسيمفونية موسيقية مؤلفة من أربع حركات. الحركة الأولى عذبة وهادئة، لا نكاد نسمع فيها سوى أصوات مديدة خافتة، حيث الامواه البدئية تتمازج في حلم أزلي لذيذ. الحركة الثانية حوار بين النغم الخافت والنغم الصاخب، حيث يعلو الصوت حيناً، ويعم الصمت حيناً آخر، وتنتهي بنغم نشيط يمثل انتصار ايا على آبسو وتراجع الآلهة البدئية تراجعاً مؤقتاً. الحركة الثالثة قوية تتصارع فيها الألحان الصاخبة وتملؤها أصوات الظواهر الطبيعية من رياح وعواصف وصواعق، ويرتفع منها زئير المخلوقات العجيبة، ثم تنتهي بشكل عنيف وصاعق يمثل مصرع تعامة. الحركة الرابعة تبدأ مرتبة منظمة وتنتهي بنشيد فرح وصلاة لمردوخ.

ان التصوير البديع لبعض مشاهد الملحمة يجعلها أشبه بشريط حي تكاد تسمع فيه الاصوات وترى فيه الاشكال وتشم روائح الأشياء. وخصوصاً عندما يأتي النص لوصف تحرك مردوخ للقاء تعامة والصراع الذي دار بينهما. فها هو في عدته الكاملة يتقدمه البرق وتتبعه الرياح الأربعة ترفع اطراف شبكته الهائلة، ومن ورائه تعصف الرياح الشيطانية السبعة التي أعدها ليعصف بها أعماق تعامة. ومن تحته طوفان المطر الهادر يطير فوقه في مركبته العاصفة يجرها طاقم من أربعة أفراس الهية، اسنانها حادة وفي انيابها السم. اكتسى بدرع مهيب من الزرد واعتم بهالة تشيع الرعب والذعر، يتأرجح قوسه على كتفه؛ وترتفع الهراوة في يده والشعلة اللاهبة تندفع من جسده. أما مشهد التحام الالهين وانتهاؤه بسقوط تعامة في شبكة مردوخ ودفعه للرياح الصاخبة في فمها الفاغر وشطره، من ثم، قلبها بسهمه، فمن المشاهد التي تبقى حية في ذاكرة قارئها ابداً.

نصوص بابلية أخرى في التكوين

إلى جانب ملحمة التكوين الاساسية، قدمت لنا الأسطورة البابلية، نصوصاً أخرى تدور حول نفس الموضوع إلا أن معظم هذه النصوص ناقص، بسبب الحالة التي وصلتنا عليها الالواح الفخارية التي احتوت عليها. اضافة إلى ان النصوص نفسها لا ترقى إلى مستوى الاينوما ايليش من الناحية الجمالية.

١ ـ نص سيبار:

تم العثور على هذا النص في خرائب مدينة سيبار، ويعود تاريخه إلى الدولة البابلية الجديدة في القرن السادس قبل الميلاد. ويعتبر هذا النص من أهم تلك النصوص المتفرقة التي تقدم لنا تنويعات مختلفة لحكاية الخلق والتكوين. وقد كتب النص ليكون مقدمة لتعويذة سحرية بقصد تطهير المعبد. فقد اعتقد الفكر الأسطوري القديم أن العودة لذكر تفاصيل الخلق وبدايات الأشياء، من شأنها دوماً اعطاء التعويذة قوة، وذلك باستحضارها الزمن الغض، عندما كانت قوة الخلق تتخلل الوجود البكر.

يجري النص على النحو التالي[٩]:

9 - A. Heidel, The BabylonianGenesis,Phoenixs, Chicago 1970.

قبل أن يوجد للآلهة بيت مقدس في مكان مقدس
قبل أن يخلق القصب، ويظهر للوجود الشجر
قبل أن يصنع الآجر وتبتكر قوالبه
لم يكن هناك مدينة ولا بشر
قبل أن تظهر للوجود «نيبور» وتبنى «ايكور»
قبل أن تظهر «اوروك» ويبنى «ايانا»
لم يكن للآبسو وجود* واريدو لم تبن بعد
ولم يكن قد بني بعد مسكن للآلهة.
في تلك الأزمان، لم يكن سوى البحر..
ثم ظهرت «اريدو» وبني (معبد) الايزاجيلا
الايزاجيلا الذي وصلت أساساته إلى الآبسو
ظهرت بابل للوجود، وانتصب الايزاجيلا
وظهر الآلهة، الانوناكي سواسية
فدعوها بالمدينة المقدسة، مسكنهم، وقرة عينهم
ثم وضع مردوخ مغرفة من قصب وضعها على وجه الماء
وعجن طيناً وسكبه مستعملاً المغرفة
فلكي يخلد الآلهة ويهدأوا في مساكنهم

خلق لهم الانسان.
إلى جانبهم خلق لهم بذور البشر
ثم خلق حيوانات «سوموقان»*
وخلق الدجلة والفرات وحدد مجراهما
وأعلن اسميهما
خلق الاعشاب وطحالب الاهوار والقصب والخشب
خلق مراعي السهول الخضراء
والأرض والمستنقع وعيدان القصب

* المقصود هنا بيت الاله إيا
* سوموقان، اله الماشية.

البقرة والعجل والشاة وقطعان الزرائب
خلق البساتين والغابات
القطعان الوحشية والقطعان ذات الصوف

إلى هنا ويتشوه اللوح الآجري وعندما يبدأ النص بالوضوح نجد أن الأسطورة قد انتهت وأننا قد صرنا في قلب التعويذة السحرية التي كان النص مقدمة لها.

٢ ـ آدم وحواء:

يحكي هذا النص[١٠] قصة خلق الكائنات الحية. وقد وجد محفوراً على لوح شبه تالف في أنقاض مكتبة آشور بانيبال في نينوى. وقد أثارت السطور القليلة المتبقية منها اهتماماً كبيراً لاشارتها إلى خلق الزوجين البشريين الأولين. ولكن لسوء الحظ، فإن النص غير واضح في معظمه وتمتنع قراءته تماماً، في الموضع الذي يبدأ فيه بالقاء ضوء على الحكاية الخالدة.

عندما خلق الآلهة في مجمعهم كل الأشياء
كونوا السماء وشكلوا الأرض
وأخرجوا للوجود الكائنات الحية
خلقوا قطعان السهول، ووحوش الفلاة ومخلوقات المدينة
بعد [....] إلى المخلوقات الحية [....]
وعينوا نصيبهم من قطعان سوموقان ومن مخلوقات المدينة
[....] كل المخلوقات، كل الخلق [....]
[................]
قام ايا بخلق زوجين شابين
وأعلا من شأنهما فوق جميع المخلوقات.

هنـاك تفسيران ممكنـان لتعبير «مخلوقـات المدينـة». التفسير الأول أن مخلوقات المدينة هم البشر، وان في النص تقديماً وتأخيراً على عادة الاسلوب

10 - ibid

الأسطوري في التعبير، وعلى ما جرى عليه التوراة من ذكر روايتين متداخلتين عن خلق الانسان، الأولى تشير إلى خلق البشر دفعة واحدة، والثانية تأتي على ذكر الزوجين الأولين، وهي تلي الأولى في الترتيب. ولكني أميل للقول بأن المقصود بمخلوقات المدينة هم الآلهة لأن المدن قد بنيت في الأصل ليسكنها الآلهة كما هو شأن بابل.

٣ ـ في الطين حيث يتحد الانسان بالاله:

الخالق في هذا النص هو آلهة الامومة «مامي» أو كما تدعى أيضاً «ننماخ» أو «ننخرساج» أو «ننتو». وهي الأم الكبرى، وهي أيضاً الأرض والتربة الخصبة. يعادلها عند الكنعانيين «عشيرة» وعند الأغريق «جيا» وفي كريت «رحيا» وفي آسيا الصغرى «سيبيل». فكل الثقافات القديمة عبدت آلهة انثى كبيرة، هي الأرض ـ الأم التي كانت مركزاً للحياة الروحية. ورغم صعود الألهة المذكورة، ودفعهم الأم الكبرى إلى الوراء في الثقافات الابوية، إلا ان قوة وتأثير هذه الآلهة بقي قائماً في اعتى اشكال المجتمعات الذكرية[١١]. وفي بلاد الرافدين، تقاسمت وظائف الأم الكبرى الموروثة عن العصور السالفة، الهتان هما ننتو (مامي، ننماخ، ننخرساج) وعشتار. فبقيت ننتو الأم ـ الأرض وصارت عشتار الحب وروح الخصوبة الكونية.

يشكل النص الذي بين ايدينا[١٢] مقدمة لتعويذة سحرية تتلى لتسهيل ولادة الحوامل وتخفيف آلامهن. وكما هو الأمر فإن التعويذة تبدأ بتلاوة جوانب من حكاية التكوين لاستمداد القوة والفعالية:

(الجزء الاعلى من اللوح مكسور)
انت عون الآلهة، مامي، ايتها الحكيمة
انت الرحم الأم
ياخالقة الجنس البشري*

(١١) راجع مؤلفي «لغز عشتار» فصل عشتار ـ الام الكبرى

12 - E. A. Speiser, Akkadian Myths and Epics (in: James Pritchard, Ancient Near Eastern Texts, Newjersy 1969.

* باعتبار ما سيكون.

الخلقي الانسان ليحمل العبء
الخلقية، يحمل العبء [. . . .]
ويأخذ عن الآلهة عناء العمل
فتحت ننتو فمها
وقالت للآلهة الكبار
لن يكون لي أن انجز ذلك وحدي
ولكن بمعونة أنكي سوف يخلق الانسان
الذي سوف يخشى الآلهة ويعبدها*

فليعطني أنكي طيناً أعجنه
فتح أنكي فمه
قائلاً للآلهة الكبيرة
في الأول والسابع والخامس عشر من الشهر
سأجهز مكاناً طهورا
وسيذبح (هناك) أحد الآلهة
وعندها فليتعمد بقية الآلهة
وبلحمه ودمائه
ستقوم ننتو بعجن الطين
إله وانسان معاً
سيتحدان في الطين أبداً . .

٤ ـ ادم وحواء بدون طين :

يقدم لنا هذا النص[١٣] حكاية أخرى عن خلق الزوجين الأولين. وقد وجد النص محفوراً على لوح يعود للقرن الثامن قبل الميلاد. عثر عليه في خرائب مدينة آشور. ووفق هذا النص، فإن دماء الآلهة تستعمل في خلق الانسان بدون طين.

* السطر مترجم عن هيديل لا عن سبيسر.

13 - A. Heidel, The Babylonian Genesis, Phoenix, Chicago 1970

عندما تشكلت الأرض وأخرجت
عندما حددت مصائر الأرض والسماء
عندما استقرت شطآن دجلة والفرات
عندما آنو وانليل وايا
الآلهة الكبار
وبقية الآلهة المبجلين
جلسوا جميعاً في مجمعهم المقدس
واستعادوا ما قاموا به من أعمال الخلق:
أما وقد حددنا مصائر السماء والأرض
وجرت القنوات في مجاريها، وتوضعت الخنادق
واستقرت شطآن دجلة والفرات.
ماذا بقي علينا أن نفعل
ماذا نستطيع بعد، أن نخلق
يامجمع الآلهة، أيتها الانوناكي
ماذا بقي علينا أن نفعل؟
ماذا نستطيع، بعد، أن نخلق؟
فأجاب الحضور من الآلهة المبجلين
الانوناكي، الذين يحددون المصائر والاقدار
بقسميهما، توجهوا بالاجابة إلى انليل:
في «أوزوموا» عماد السماء والأرض

لنذبح بعض آلهة اللامجا*
ومن دمائهم فلنخلق الانسان
ولنوكله بخدمة الآلهة
على مر الأزمان
سيقوم على صيانة خنادق الحدود
ونضع في يده السلة والمعول

* آلهة اللامجا. هم آلهة الحرف ومن صغار الآلهة.

فيبني للآلهة العظام
هياكل مقدسة تليق بهم
سيميز الحقول بعضها عن بعض
على مر الأزمان
ويقوم على صيانة خنادق الحدود
ويحفر الخنادق الثابتة
ويعمل على صيانة احجار الحدود
سيسقي الأرض بأقاليمها الأربعة
ويخرج من جوفها الخيرات الوافرة
(خمسة اسطر مشوهة)
فيجعل حقول الانوناكي تنتج غلالاً وفيرة
سيحتفل باعياد الآلهة
ويستخرج الماء العذب
«اوليجار» و «الجار»*
سيكون اسماهما
وسيربيان الثيران والخرفان والاسماك والطيور
ويزيدان في عطاء الأرض
«انول» و «نينول»**
نطق فمهما المقدس
وارورو*** المقدسة سيدة الآلهة وذات السلطان
رسمت للبشر أقداراً رائعة

٥ ـ السوس ووجع الاسنان :

وهذا النص[١٤] ايضاً مقدمة لتعويذة مخصصة لشفاء آلام الاسنان. يحكي

* آدم وحواء البابليين.
** من آلهة الزراعة
*** ننتو ننماخ الآلهة الام

14 - E. A. Speiser, Akkadian Myths and Epics Cin: James Pritchaed, Ancient Near Eastern Tekts, Newjersy, 1969.

النص شطراً من حكاية التكوين، وبدايات الاشياء. ويعود لاصول وجع الاسنان وكيف ظهر.

بعد أن خلق انو السماء
وبعد أن خلقت السماء والأرض
وبعد أن خلقت الأرض الانهار
والانهار خلقت القنوات
والقنوات خلقت المستنقعات
والمستنقعات خلقت السوس
مضى السوس باكياً إلى «شمش»*
وذرف الدموع في حضرة ايا

ـ ماذا تعطيني لطعامي؟

ـ ماذا تعطيني لشرابي؟

ـ سأعطيك شجر التين الناضج

ـ أو اعطيك المشمش

بماذا يفيدني شجر التين
بماذا يفيدني المشمش
دعني أصعد وأتخذ لي مسكناً
بين الاسنان وعظام الفك
حيث امتص دماء الاسنان
وانخر فيها
عند جذور وعظام الفك
«ادخل الابرة وأمسك بالسوس»**
لانك نطقت بهذا ايها السوس

* اله الشمس.
** الكلام هنا موجه للطبيب المعالج.

فليسحقك ايا بجبروت
(وعزم) يديه
«تعويذة ضد وجع الاسنان»
«الطريقة: احضر بيرة وزيتاً وامزجهما معاً
واتل التعويذة ثلاث مرات وضع المزيج على الاسنان»

٦ - نصان باللغة اليونانية:

قبل اكتشاف الحضارة البابلية باجيال طويلة عرف العالم شيئاً عن اسطورة الخلق البابلية عن طريق نصين كتبا باللغة اليونانية. النص الأول، لآخر فلاسفة الافلاطونية الحديثة وهو «داماسكيوس» وتعني الدمشقي، المولود في دمشق حوالي ٤٨٠ بعد الميلاد. وقد تحدث هذا الفيلسوف عن بعض الأساطير البابلية في كتابه الرئيسي: صعوبات وحلول المبادىء الأولى. يقول داماسكيوس في روايته عن التكوين البابلي[١٥]:

«لا يقول البابليون بمبدأ واحد للكون، بل بمبدأين. الأول تاوت، والثاني أباسون. فتاوت هي زوجة أباسون وكانت تدعى بأم الآلهة. وقد ولد لهذين الالهين مولود واحد هو موميز، الذي نعتقد أنه يمثل العالم العقلي. وعنهم نشأ جيل ثان: داشي وداشوش. وعن هذين نشأ جيل ثالث: كيساري وارسوس. وهذان ولد لهما ثلاثة هم: آنوس وايلينوس وأوس. ومن أوس وداوكي ولد بيل الذي يقولون انه من صنع الكون».

ان التشابه لمدهش حقاً بين هذه الرواية وبين الاينوما ايليش، حتى لكأنها مقطع مقتبس عنها مباشرة. فتاوت هي تعامة، وأباسون هو آبسو، وموميز هو ممو، وداشي وداشوش هما لخمو ولخامو، وكيساري وارسوس هما انشار وكيشار، وآنوس هو آنو، وايلينوس هو انليل، وأوس هو ايا وداوكي هي زوجته دومكينا. أما بيل فهو الاسم التبادلي لمردوخ والذي دعي به دوماً.

النص اليوناني الثاني هونص بيروسوس، نسبة لكاتبه بيروسوس كاهن مردوخ في بابل. وقد عاش هذا الكاتب في فترة متأخرة من تاريخ بابل، بعد فتح الاسكندر، وخلال النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد. قام بيروسوس

15 - A. Heidel, The Babylonian Genesis, Phoenix, Chicago, 1970.

بكتابة تاريخ مملكة بابل اسناداً إلى الوثائق المكتوبة التي وصلت اليه من العصور القديمة، ونشر كتابه باللغه اليونانيه عام ٢٧٥ قبل الميلاد. وقد ضاعت أعمال هذا الكاتب بما فيها تاريخ بابل. إلا أن مقتبسات عن ذلك الكتاب ظهرت في أعمال الكاتب اليكسندر بوليستر، الذي عاش في القرن الأول قبل الميلاد. تجري رواية بيروسوس على الشكل التالي[١٦]:

«في البدء، لم يكن سوى الظلام والماء. ثم ظهرت إلى الوجود مخلوقات عجيبة التكوين: رجال ذوو أجنحة، جناحان وأحياناً أربعة، لهم وجهان بدل الواحد. وآخرون ذوو أجسام بشرية ورأسين، رأس امرأة ورأس رجل، وكانت أعضاؤهم الجنسية مؤنثة ومذكرة معاً. وآخرون لهم سيقان وقرون الماعز، أو حوافر وذيل الحصان. وبالمقابل كان هناك ثيران ذوو رؤوس بشرية وكلاب لهم ذيول السمك، وخيول لهم رؤوس الكلاب... وهكذا... مخلوقات كثيرة قد استعارت من بعضها خصائص واشكالا. وهذه المخلوقات كلها قد صورت على جدران معبد بل. وفوق أولئك جميعاً أمرأة اسمها اوموركا، وفي اللغة الكلدانية تامتي - أي البحر. إلا أن هذا الاسم في القيمة العددية* يعادل القمر. ثم جاء مردوخ - بل - فصارع المرأة وشطرها شطرين، جاعلاً من شطرها الواحد أرضاً ومن شطرها الآخر سماء، وقضى على جميع المخلوقات العجيبة، وأحل النظام في الكون. ولكن الأرض كانت خربة ومهجورة، فأمر مردوخ بقطع رأس أحد الآلهة، ومزج دمه بتراب الأرض، ومن ذلك المزيج صنع الانسان ليملأ الأرض. ثم صنع الحيوانات بأجناسها. وبعد ذلك خلق النجوم والشمس والقمر والكواكب السيارة الخمس».

رغم اختلاف هذه النصوص عن بعضها واختلافها عن الاينوما ايليش في ترتيب عمليات الخلق، إلا ان عناصرها جميعاً واحدة: الماء البدئي، الحالة السكونية الأزلية، ظهور القوى العقلية الفعالة المتمثلة بالاله أوالآلهة الشابة، صراع كوني حاسم، احلال النظام الشامل، خلق السماء والأرض، خلق الكواكب والنجوم، خلق الانسان والحيوان والحياة النباتية. كما تتفق معظم هذه النصوص على خلق الانسان من طين وعلى خلق زوجين بدئيين، عنهما تسلسل الجنس

16 - ibid.

* يقول الفيثاغورثيون بوجود قيمة عددية لكل اسم.

البشري . هذا وتعود كل هذه العناصر للظهور في الرواية التوراتية مما سيجري بحثه في التكوين التوراتي . وتذكرنا جملة : ولكن الأرض كانت خربة وخالية ، الواردة في نص بيروسوس بما ورد في سفر التكوين ، العهد القديم و «كانت الأرض خربة وخالية . . . الخ . . » .

وبعيداً عن الأساطير في المنطقة ، نجد كثيراً من اساطير الشعوب ، حتى البدائية منها ، تقول بتسلسل البشرية عن زوجين أوليين . فتقول أسطورة افريقية[17] ان الإله نزامي قد خلق الانسان الأول وأسماه سيكوم . ولما رأى أن هذا الانسان وحيد في العالم ، أمره أن يصنع لنفسه امرأة من غصن شجرة وأسماها مبونوى . وتقول اسطورة افريقية أخرى[18] انه في البدء لم يكن هناك سوى رجل وامرأة ، يعيش كل منهما دون أن يعرف بوجود الآخر ، إلى أن التقيا صدفة عند أحد الينابيع ، فتشاجرا وتصارعا ، ومن خلال ذلك اكتشفا الفعل الجنسي ومباهجه فتصالحا وانجبا خمسين فتى وفتاة . وتقول اسطورة فارسية[19] ان الذكر والانثى انبثقا عن شجرة وكانا متحدين في جسد واحد ، ثم جاء اليهما الإله آهورا مزدا وفصل كل منهما عن صاحبه وارسلهما إلى الأرض . وتروي الاسطورة المكسيكية ان الخالق لما فكر بصنع الانسان فكر في المادة المناسبة لذلك فاختار الطين ، ولكن هذه المادة اثبتت عدم صلاحيتها لانها ذابت في الماء عندما ذهب الزوجين الاولين للاستحمام ، ثم صنعهما من خشب ولكن المحاولة الثانية لم تكن ناجحة ايضاً ، ثم استقر على المعدن الذي اثبت نجاحه فاستوى المخلوقان كاملين وانجبا الجنس البشري .

17 - Philip Freund, Myths of Creation, W.H. Allen, London 1964

18 - ibid

19 - ibid

٣ | التكوين الكنعاني

سكن الكنعانيون سورية الشرقية والشريط الساحلي السوري منذ مطلع التاريخ المكتوب وأشادوا مراكز حضارية بقيت مشعة حتى الفترات الكلاسيكية المتأخرة . وبالاضافة إلى التأثير المتبادل بين الثقافة الكنعانية والثقافات السامية الأخرى المجاورة والثقافة المصرية ، فان الثقافة الكنعانية كانت ذات تأثير مباشر على الثقافة الكريتية والثقافة اليونانية المبكرة . ويمكن القول[1] أن الحضارة الكنعانية قد دخلت في أساس الثقافة اليونانية اللاحقة . يظهر هذا التأثير في الأساطير اليونانية التي تشير صراحة إلى التأثير الثقافي الشرقي . كأسطورة قدموس الإله الذي جاء من فينيقيا وعلم اليونانيين الكتابة ، وأسطورة اختطاف الالهة السورية يوروبا التي أعطت اسمها للقارة الاوروبية الجديدة . وقد اطلق اليونان على من احتكوا بهم من الشعوب الكنعانية اسم الفينيقيين .

حتى الربع الأول من هذا القرن ، بقيت معلوماتنا عن الميثولوجيا الكنعانية والأدب الكنعاني محدودة جداً ، ومعتمدة على مصادر مشكوك في صحتها وصدقها . وهذا الشك راجع اما إلى كون هذه المصادر معادية للكنعانيين ، كما

1 - C.H. Gordon, Ugarit and Minoan Crete, Norton Library, New York, 1967 p11.

هو الأمر في كتاب التوراة الذي نقل لنا كثيراً من أسماء الآلهة الكنعانية، وذكر لنا كثيراً من طقوسهم. أو لكون المصادر متأخرة تاريخياً، ومتأثرة بأساليب التفكير الاجنبية، كما هو حال المؤلفين الذين كتبوا باللغة اليونانية، في الفترة اللاحقة، مثل فيلو الجبيلي، الذي نقل لنا كثيراً من آراء ومعتقدات الفينيقيين، ولكن من خلال عقل مشبع بالثقافة اليونانية وأساليبها الفلسفية.

إلا أن اكتشاف مدينة اوغاريت على الساحل السوري، جعلنا نقف على أرض أكثر صلابة لأن الالواح الفخارية التي تم العثور عليها في أنقاض معبد بعل هناك، قد وصلتنا بالثقافة الكنعانية مباشرة دون وسيط أو ناقل. وبعد حل رموز الكتابة الاوغاريتية، ثبت بالدليل القاطع أن الكتابة المسمارية التي نقشت على تلك الالواح، هي كتابة ابجدية، وأنها أول ابجدية كتبها الانسان وتنتمي لعائلة اللغات السامية.

والاوغاريتية شديدة القرب للغة العربية. ولعل ايراد بعض المقاطع من اللغة الاوغاريتية مكتوبة بالحروف العربية، ومقارنتها بترجمتها العربية، يعطينا فكرة عن هذا القرب ونوعه. واليكم مقطعاً من ملحمة كرت : يعرب بحدره ويبكي (أي يدخل خدره ويبكي) بتن رجم ويدمع (أي يثني الكلام ويدمع) تنكتن ادمعته (أي ودموعه تنكت). كم شقلم أرصه (كما المثاقيل على الأرض).. تمنح مصت مطته (أي تبلل غطاء سريره). ايل يرد بظهرته (ويرد ايل بظهوره). أب آدم ويقرب (أي ويقترب أبو البشر). يسأل كرت (أي يسأل كرت) يدمع نعمن غلم ايل؟ (أي أيدمع الجميل غلام ايل؟) على لظهر مجدل* (أعلُ ظهر القلعة) ركب شكم صمت (أي اركب شكائم الجدار). سأيدك شم (أي ارفع يدك نحو السماء). دبح لثور ابك ايل (أي واذبح للثور أبيك ايل).

يظهر على رأس قائمة الآله الاوغاريتية الإله «أيل» كبير الآلهة ورب السماء، يعتلي عرشه في السماء السابعة. وقد شاعت عبادة هذا الإله لدى جميع الشعوب السورية. فنجده في الحواضر الفينيقية، والآرامية في الالف الثالث قبل الميلاد، كما نجده في مدينة تدمر وغيرها من الحواضر السورية في العصور الكلاسيكية

(٢) نسيب وهبة الخازن، اوغاريت، ملاحم وبطولات وأساطير.

* وكلمة مجدل ما تزال حتى الآن شائعة في تسمية بعض الاماكن في سورية.

المتأخرة. وقد عبده العبرانيون في مطلع تاريخهم ايضاً، وكان إله أجدادهم الأولين كما يحدثنا بذلك كتاب التوراة في سفره الأول. كما نجد الإله بعل أو حدد وهو رب المطر والسحاب والصاعقة. وكان الإله الاقرب لقلوب العباد لعلاقته المباشرة بمعاشهم، فهو سيد الدورة الزراعية التي يعتمد عليها البشر في حياتهم. وإلى جانب بعل نجد نقيضه الإله «موت» إله الجفاف والحرارة والعالم الأسفل، وهو في صراع دائم مع بعل.

ومن الآلهة المؤنثة عبد الكنعانيون «عشيرة» الأم الكبرى وزوجة ايل، وكانت تدعى ايضاً «ايلات» نسبة إلى ايل، من القابها سيدة البحر، ومازال اسمها حتى الآن يطلق على الخليج المعروف في البحر الاحمر باسم خليج ايلات. كما عبدوا عناة حبيبة الإله بعل وروح الخصوبة الكونية، وكانت تلقب بالعذراء، وعشتارت، وهي الهة أخرى للخصب تقاسمت مع عناة وظائف الهة الخصب البابلية عشتار. إلى جانب هذه الآلهة الرئيسية نجد آلهة تأتي في المرتبة الثانية مثل الإله «يم» وهو البحر الأول، «شبش، الهة الشمس، وهي انثى على عكس إله الشمس البابلي شمش. وداجون إله القمح وأبو الإله بعل.

تتجه الأسطورة الاوغاريتية لتفسير الطبيعة بطريقة تروي توق الانسان الكنعاني المستمر لاستمرار الخصب في الأرض والحيوان والانسان، ودوام اتصال دورة الطبيعة. وقد صيغت الأسطورة في قالب حركي مليء بالفعل وانطلاقاً من ذهنية بعيدة عن التجريد. فنجد الآلهة التي تمثل تشخيصاً لظواهر الطبيعة، وقد انهمكت في القيام بافعال حركية، بها ترتبط حركات الطبيعة. فعندما يقوم بعل، وهو إله الحياة والخصب، بمنازلة موت إله الموت والجفاف فإن أهمية هذا الصراع ونتائجه لا تقتصر على الإلهين المتصارعين، بل تشمل الظواهر الكونية كلها.

تقع الالواح الفخارية التي قدمتنا للأسطورة الكنعانية في ثلاث مجموعات. المجموعة الأولى وتضم الأساطير المتعلقة بالإله بعل، وعلاقته مع بقية آلهة المجمع الفينيقي، والمجموعة الثانية وتضم ملحمة «كرت» ملك حبور، والمجموعة الثالثة وتضم ملحمة «أقهات» وهو ملك كنعاني آخر، وتحتوي قصته كسابقتها على فيض من العناصر الأسطورية. وقد عثر على هذه الالواح جميعاً في أنقاض معبد بعل وهي في حالة يرثى لها من التشوه والتلف مما جعل مهمة الباحثين

على غاية من الصعوبة. يضاف إلى ذلك الصعوبات والمشاكل التي مازالت تثيرها اللغة الاوغاريتية إلى يومنا هذا. فحتى الآن مازال هناك كثير من النصوص الغامضة والعصية على التفسير.

وتواجهنا الصعوبات بشكل خاص في الواح بعل، فكاتب الالواح لم يعطها تسلسلاً ما، فجاء كل لوح باسطورة قد يكون لها علاقة بغيرها أو لا يكون. فالالواح لا تقول لنا مثلاً، هل وقع صراع بعل وموت قبل أو بعد صراع بعل مع يم. وهذا ما جعل باب الاجتهاد مفتوحاً على مصراعيه، الأمر الذي وضعنا امام ترجمات مختلفة ومتباعدة عن بعضها لأساطير بعل، فالتغيير في تسلسل الالواح يغير من القصة تغييراً جوهرياً. فاذا أضيف إلى ذلك الاجتهادات الواسعة في تفسير اللغة الاوغارتية نفسها، صار واضحاً مدى الصعوبة التي تواجه الباحث في تقديم صورة واضحة لمسلسل بعل. وقد اطلعت على التسلسل الذي قدمه L. Delaporte [3] والتسلسل الذي قدمه J. Gray [4] والتسلسل الذي قدمه C. H. Gordon وخرجت بتسلسل أقرب لوجهة نظر الأخير. ولكني قسمت الألواح إلى مجموعتين: المجموعة الأولى اعتبرتها فصلاً في التكوين الكنعاني، وسيرى القارىء مشروعية هذه النظرة. أما المجموعة الثانية فأساطير في الخصب الحقتها في باب «الإله الميت» الذي عالجت فيه أساطير الخصب في المنطقة. ونظراً للتلف الكبير الحاصل في الألواح، فقد قدمت ترجمة أمينة للمقاطع الواضحة ومختصرات نثرية للمقاطع المشوهة كيلا اثقل على القارىء بكثرة من السطور غير الواضحة والمليئة بالفراغات. والنص مترجم عن C.H.Gordon في كتابه ـ Ugarit and Minoan Crete, Norton, New York 1967 الذي قدم فيه ترجمة كاملة لألواح أوغاريت.

ـ ١ ـ «بعل» و «يم» السيطرة على المياه الاولى:

يلعب إله الخصب بعل في هذه الأسطورة نفس الدور الذي لعبه مردوخ في الاينوما ايليش في قهر المياه الأولى واحلال نظام الكون. والمياه البدئية هنا يمثلها

3 - L.Delaport, Phoenician Mythology, in Larousse Encyclopedia of Mythology, Hamlyn, London 1977

4 - John Gray, The Canaanites; Fredrick A. Praeger. Newyork 1964.

يم* ابن ايل. ونص الأسطورة الشعري يستخدم الكثير من المترادفات والتشابيه على طريقة الشعر العربي.

عندما يصبح اللوح الفخاري واضحاً للقراءة، نجد الإله يم وقد بدأ النزاع مع بعل، فهو يتلو على رسوليه كتاباً موجهاً لمجمع الآلهة، يطلب فيه تسليم بعل ليصبح عبداً له، والظاهر أن بعل قد تحاشى الصدام مع يم في البداية ولجأ إلى مجمع الآلهة. ولكن المجمع نفسه لا يستطيع أن يحمي بعل من سطوة يم الذي كان يتمتع بقوة فائقة وسلطة واسعة:

امضيا أيها الشابان
امضيا ولا تتقاعسا
(انطلقا) ويمما وجهكما
شطر مجمع الآلهة
في وسط جبال الليل
عند قدمي ايل لا تسجدا
وأمام مجمع الآلهة لا تركعا، بل اعلنا ما لديكما
قولا لـ «ثور» قولا لايل ابي**
واعلنا أمام مجمع الآلهة
رسالة يم سيدكما
رسالة السيد «نهر»***
سلموا إليّ، ذاك الذي تؤون
ذاك الذي كلكم تؤون
سلموا إليّ بعل وأنصاره
ابن داجون، حتى أرث ذهبه».
فانطلق الشابان
ودونما تقاعس

* ما زالت هذه الكلمة في اللغة العربية تدل على البحر.

** الثور من القاب الاله ايل

*** نهر من اسماء يم وتعني كما في العربية المياه العذبة الجارية في الانهار. فالاله يم كان اله المياه المالحة والمياه الحلوة ايضاً.

(توجها) وبهما وجههما

شطر جبال الليل

شطر مجمع الآلهة

وقبل أن يلتئم مجمع الآلهة

قبل أن يجلسوا للمائدة

كان بعل واقفاً قرب ايل

فلما رأى الآلهة الرسولين

مبعوثا السيد نهر

احنوا رؤوسهم حتى الركب

نعم . . وهم على عروش جلالهم

فوبخهم بعل قائلاً :

«لماذا أطرقتم أيها الآلهة؟

(لماذا أحنيتم) رؤوسكم حتى الركب؟

نعم (لماذا) وأنتم على عروش جلالكم

دعوا الألهين القادمين يقرآن*

دعوهما يقرآن الواح يم

الواح السيد نهر

وارفعوا رؤوسكم ايها الآلهة

(ارفعوا رؤوسكم) من انحناءتها

نعم (ارفعوها) وانتم على عروش جلالتكم

وسأنبرى أنا للرد

على رسل يم

على رسل السيد نهر

فرفع الآلهة رؤوسهم

وعندما يصل الالهان الرسولان يتوجهان مباشرة للمجمع بالرسالة دون أن يقدما فروض الطاعة والاحترام لاحد، ويقرآن مطالب يم :

* ترجم جوردن هذا السطر على النحو التالي : دعو اثنين من الآلهة يقرآن. ولكني ارتأيت من سياق النص ان الآلهين هنا هما رسولا بعل لا غيرهما.

«سلموا اليّ ذاك الذي تؤون

ذاك الذي كلكم تؤون

سلموا إليّ بعل وأنصاره

ابن داجون، حتى أرث ذهبه»

فأجابه ايل، أجابه أبوه، الثور، قائلاً :

«ليكن بعل عبداً لك أيها الامير يم

ليكن بعل عبداً لك إلى الأبد

ابن داجون ليكن اسيرك»

وكجميع الآلهة، سوف يقدم لك الطاعة

نعم، وسيبذل لك التقدمات كأبناء القداسة

فيثور بعل، ويقفز إلى سلاحه لقتل الرسولين إلا ان الالهتين عناة وعشتارت تحولان دون بغيته، لأن العرف يقضي بصيانة حياة الرسل :

فامسك بيده سكينا

وانتضى بالأخرى خنجرا

ولوح بهما معتزماً قتل الشابين

إلا أن حديث الالهتين يضيع مع تشوه اللوح الفخاري الذي يستمر إلى نهاية النص. أما بقية القصة فنعثر عليها في لوح آخر ناله التشوه ما نال اللوح الأول. تحدثنا المقاطع الواضحة في اللوح عن تعاون الالهين الحرفيين «كوثر» و«حاسيس» مع الإله بعل، اذ يصنعان له سلاحين ماضيين يستخدمهما ضد يم، حيث يقوم السلاح الأول بشل حركة يم ويتكفل الثاني بالقضاء عليه. وبعد الانتهاء من صنع السلاحين يتقدم الالهين لبعل بنبؤتهما :

الم نقل لك يابعل، أيها الأمير؟

الم نعلن لك ياراكب الغيوم؟

هؤلاء اعداؤك يابعل

هؤلاء اعداؤك الذين سوف تقتل

هؤلاء اعداؤك الذين ستقضي عليهم

ولسوف تقبض على الملك إلى الأبد

وتبسط على الكل سيادتك

ثم يتقدم كوثر بالسلاح ويعطي له اسمه:

لتكن، وليكن اسمك «العاصف»*
اعصف، اعصف بـ «يم»
ادفع به عن عرشه
ادفع «نهر» عن كرسي سيادته
ولسوف تنطلق من يد بعل
وكالصقر تندفع من بين اصابعه
فتصيب منكبي الامير يم
فانطلق السلاح من يد بعل
وكالصقر اندفع من بين اصابعه
وضرب منكبي الامير يم
في المنتصف، بين ذراعي السيد نهر
ولكن يم كان قويا
فلم يهن ولم يقهر
ولم تتخاذل مفاصله
لا ولم تهو قامته

وهنا يندفع حاسيس ويضع بين يدي بعل السلاح الثاني ويعطيه اسمه:

لتكن وليكن اسمك الصاعق
اصعق يم على عرشه
ادفع بنهر عن كرسي سيادته
ولسوف تنطلق من يد بعل
وكالصقر تندفع من بين أصابعه.
اضرب رأس الامير يم
ولتكن اصابتك في المنتصف بين العينين
يتهاوى يم •
ويخر ساقطاً
فانطلق السلاح من يد بعل

---

* اسم السلاحين غير واضح الدلالة في الأوغاريتية.

وكالصقر اندفع من بين اصابعه
وضرب رأس الامير يم
في المنتصف بين عيني السيد نهر
فخرٌ يم وتضعضع
وتهاوى ساقطاً
تخاذلت مفاصله
وهوت قامته

وهنـا تضطرب الآلهة لهذا الحدث وينقسمون بين راض وساخط. وتتوجه عشتارت بالقول إلى بعل:

مزقه يابعل العلي* بعثره ياراكب الغيوم**
لقد مات يم وقضى نحبه
فليسد بعل ويحكم

وإلى هذين اللوحين يمكن أن نلحق لوحاً ثالثاً، ربما كان استمراراً لترتيبنا المفترض للالواح. حيث نجد عناة وقد دعت الآلهة إلى وليمة فاخرة، ربما احتفالاً بانتصـار بعل المؤزر على المياه وتوطيده مُلكه. وتقابل هذه الوليمة، في افتراضي، الوليمة التي اقيمت لمردوخ البابلي بعد انتصاره على المياه. يأتي الآلهة جميعاً إلى مأدبة عناة، حيث يقدم اللحم والخمر، وينشد المنشدون وتصدح الموسيقى. وبعد ذلك يمضي بعل إلى جبل صفون:

ومضى بعل صاعداً إلى مرتفعات صفون
وهناك التقى بيناته
متع النظر بـ «بدرية» ابنة النور
«وطلية» ابنة المطر
وأرصية ابنة الأرض

---

* في الاوغارتية بعل عليان وما زالت كلمة عليان في اللغة السورية الدارجة تدل على العلو وقد حافظ جوردن على الكلمة باعتبارها اسماً لا صفة.

** ترجمة السطر والذي سبقه مأخوذ عن Gray أما جوردن فيأتي بهما على الشكل التالي: عار عليك ما فعلت يا بعل. وهذا الاختلاف يظهر مدى التباين الشاسع في فهم اللغة الاوغاريتية.

اسماء بنات بعل مثال اخر على قرب الأوغاريتية للعربية، فبدرية اسم مازال شائعاً في سورية والنسبة هنا للبدر وهو القمر الكامل. وطلية هنا هي الطل أو الندى، وأرصية هي الأرض والتربة الخصبة

٢ - بعل يبني بيتاً له :

بانتصار بعل على المياه، تنتصر قوى النظام والحضارة على قوى الفوضى والعماء. ونستطيع أن نفترض أن بعل بعد انتصاره ذاك قد قام بتنظيم الكون ووضع اسس الحضارة. ولكن بعل بعد انتصاره يلزمه بيت لسكناه، كما هو شأن الآلهة الكبرى. وهنا يحدثنا نص آخر عن سعي بعل لبناء مثل هذا البيت، تماماً كما حصل مردوخ على بيته بعد انتصاره. وفي هذا النص نجد بعل يطلب المعونة من حبيبته عناة في الحصول على بيته :

ليس لبعل بيت كبقية الآلهة
ولا هيكل كأبناء عشيره
(ليس له) كمسكن ايل
(ولا) كبيوت ابناء ايل
(ولا) كمسكن عشيرة سيدة البحر
(ولا) كبيت بدرية ابنة النور
أو طلية بنت المطر
أو ارصية بنت الأرض
أو بيوت الحوريات العظيمات
فأجابت عناة العذراء :
سيهتم أبي ايل، الثور، بالأمر
من أجلي سيهتم أبي بالأمر
والا رميته إلى الأرض كحمل صغير
وجعلت الدم يجر ي (في نسغ) شعره الاشيب
وفي شعيرات لحيته البيضاء.
سيعطي بعل بيتاً كبقية الآلهة
نعم ويعطيه هيكلاً كأبناء عشيرة
ثم قفزت على ساقيها

وغادرت الأرض
ميممة شطر ايل
عند منبع النهرين
في وسط التيارين
ودخلت على ايل في مقره
دخلت حرم الملك «ابو شنم»*

وعندما اقتربت من مقر أبيها، وصله صوتها مهدداً متوعداً، فلجأ إلى غرفته الثامنة التي تقع خلف غرف أخرى سبع :

فاجابها ايل من وراء غرفه السبع
من داخل غرفته الثامنة :
«أعرفك عنيفة متهورة ياابنتي
وأعرف ان لارادَّ لما تشائين**
فماذا تريدين، أي عناة، أيتها العذراء؟»
فاجابت عناة العذراء
«عاقلة هي كلمتك ياايل
وابدية هي حكمتك
وسعادة مقيمة ما تلفظ به
ملكنا هو بعل العلي
سيدنا الذي لا يعلو أحد عليه

وبعد أن تعرض عناة قضيتها على ايل تتطوع زوجة ايل وأولادها لتأييد دعوى عناة :

وهنا صاحت عشيرة واولادها
صاحت الآلهة ومن لف لفها
هو ذا بعل بلا بيت كبقية الآلهة
ولا هيكل كأبناء عشيره
وليس له كمسكن ايل

---

* ابو شنم، من القاب ايل. والامر تماماً كما في العربية عندما تقول ابو فلان.

** السطر مترجم بتصرف.

ولا كمسكن عشيرة سيدة البحر
ولا كبيت بدرية ابنة النور
أو طلية ابنة المطر
أو أرصية ابنة الأرض
أو بيوت الحوريات العظيمات

وعندما ينزل ايل عند رغبة عناة، يجري ارسال مبعوثي الآلهة عشيرة وهما «قادش» و«امرار» إلى الإلهين الحرفيين «كوثر» و«حاسيس» يحملان الأمر ببناء البيت:

امض ياصياد عشيره
امض ياقادش ـ امرار*
[. . . . .]
انحن امام قدمي كوثر واسجد له
اسجد امامه وبجله
واعلن أمام الصانع الماهر رسالة بعل العلي
رسالة علي المحارب**

وتتكفل عناة بنقل الخبر إلى بعل الذي جلس ينتظر حضور الاله الصانع.
وعندما يصل كوثر ـ حاسيس إلى صفون قادماً من موطنه في كريت، يستقبله بعل بالحفاوة والترحيب، ويذبح لأجله ثوراً ويقيم مأدبة عامرة، يبدأ على أثرها بناء البيت. إلا أن خلافاً يقع بين بعل وكوثر حول تصميم البناء. فبينما يقترح كوثر أن يكون للبيت نوافذ، يصر بعل على أن يكون البيت خلواً منها. ويحسم الخلاف لصالح كوثر، وعندما ينتهي الهيكل، يأتي آية في الجمال والابداع، كتلة من خشب الارز والفضة والذهب يعتلي قمة صفون.

٣ ـ بعل وعناة:

نتعرف في مطلع هذا النص على الوجه المدمر للالهة عناة، فهي ككل آلهات الخصب القديمة تمتلك مجموعتين من الخصائص المتناقضة. فمن جهة

* يجري هنا وفي اماكن اخرى من النصوص الاوغارتية، التحدث الى زوج من الآلهة بصيغة المفرد.
** وردت هنا صفة العلي على انها اسم على مرادف لبعل ـ راجع بهذا الخصوص الصفحة ٥٨ من كتاب Gordon السابق الذكر

هي ربة الحب والجنس والخصب وربة الحياة ومن جهة أخرى هي ربة الحرب والدمار والكوارث، ربة الظلام(٥). محبة رقيقة رؤوم، وقوية جبارة متسلطة. وقد رأينا في النص السابق كيف دخلت على أبيها ايل إله السموات الذي ارتعد لقدومها واختبأ في غرفته، واستمعنا إلى تهديدها له ووعيدها. أما في هذا النص فنجدها وقد خاضت مذبحة دموية تقتل فيها من الاعداء بيديها وتغوص في دمائهم:

هي ذي عناة تقاتل بضراوة
انها تذبح ابناء المدينتين
انها تصارع أبناء شاطىء البحر
وتبيد ابناء مشرق الشمس
تحتها الرؤوس تتطاير كالنسور
وفوقها تتناثر الاذرع كالجراد

وابناء شاطىء البحر هم سكان الغرب. أما ابناء مشرق الشمس فهم سكان الشرق. أي ان عناة كانت تمعن تقتيلا في الناس كافة. فلسبب غير معلوم، قررت عناة افناء الجنس البشري واتبعت في ذلك الوسيلة المباشرة، أي تنفيذ المهمة بيديها، على عكس الإله انليل الذي اتخذ قراراً مشابهاً في بلاد الرافدين ولكنه استعمل في حملته الامراض والاوبئة الفتاكة كما استعمل الطوفان العظيم.

انها تخوض في دماء الابطال حتى الركب
انها تغوص في دماء الناس حتى العنق

ولكن الجولة الاولى لم تكن كافية، فنراها تكر مرة أخرى:

انها تقاتل بضراوة
انها تعارك ابناء المدينتين
. . .   .
تقاتل (وتقف) فتجيل النظر
تذبح (وتقف) فتتأمل
كبدها يتفجر سروراً
وقلبها يمتلىء حبوراً
في يدها راية الانتصار

(٥) للتوسع في هذا الموضوع، راجع مؤلفي «لغز عشتار» فصل عشتار السوداء.

تخوض في دماء الابطال حتى الركب

وتغوص في دماء الناس حتى العنق.

وما أن انتهت عناة من مهمتها وهدأت ثائرتها حتى بدأت :

تغسل يديها في دماء الجنود

وأصابعها في دماء البشر

[.........]

تجمع المياه وتغتسل

بندى السماء

بزيت الأرض

بامطار راكب الغيوم (تغتسل)

وهنا يقوم بعل بارسال مبعوثيه إلى الآلهة الغاضبة، طالباً منها أن تضع السلاح وترفع راية السلام، واعداً اياها بكشف اسرار الطبيعة ان هي اتت لزيارته في مسكنه الجبلي :

عند قدمي عناة انحنيا واركعا

اسجد أمامها بجلاها

وقولاً للعذراء عناة،

اعلنا لسيدة الابطال،

رسالة بعل العلي

اعلنا كلمة «علي» المحارب :

«أن ضعي في الأرض خبزاً

وضعي في التراب لفاحاً*

واسكبي في الأرض قربان السلام

والتقدمات في وسط الحقول

[...........]

وإلي فلتسرع قدماك

إلي فلتسرع ساقاك

فعندي كلمة، أود لو قلتها لك

---

* نبات مقدس عند القدماء اعتقدوا بامتلاكه لخواص سحرية كثيرة.

ومسألة لو اطلعتك عليها

هي كلمة الاشجار (والاوراق)

هي همسة الصخور (والحجارة)

وشوشة السماء للأرض

وغمغمة الاغوار للنجوم

فانا عليم بالبرق الذي لا تدرك كنهه السموات

وعندي من الاسرار ما لا يعرفه البشر

ولا جموع الأرض به تعرف

هلمي إلي، فاريك كل ما لدي

هلمي إلى مقري، أنا رب صفون، هلمي إلى حرمي*

إلى جبالي، إلى المكان المقدس

إلى تلال القوة (والمنعة)

وعندما يقترب الرسولان تتطير عناة وتظن ان مكروهاً ما قد اصاب بعل فتبادرهما بالسؤال ملهوفة :

أي «جوبار» و «وأوغار» ما الذي أتى بكما

أي عدو قام في وجه بعل؟

وأي خصم قد ناهض راكب الغيوم؟

الست التي محقت يم حبيب ايل؟**

الست التي قضت على نهر، الاله العظيم؟

الست التي افنت التنين؟

وسحقت الحية الملتوية ذات الرؤوس السبعة

لقد قضيت على موت مختار آلهة الأرض.

ودمرت بيت ايل «زبوب»***

لقد قاتلتهم جميعا وحزت على ذهبهم

اولئك الذين أزاحوا بعل عن أعالي صفون

---

* سطر مترجم بتصرف.

** نلاحظ هنا أن عناة تدعى لنفسها نفس البطولات التي قام بها بعل في الواح أخرى

*** وهو غير الاله ايل

الذين دفعوا به عن كرسي ملكه،
وأبعدوه عن عرش جلالته
نعم، أي عدو قام في وجه بعل؟
وأي خصم قد ناهض راكب الغيوم؟
فأجابها الشابان قائلين:
لم يقم في وجه بعل عدو
لا ولم يناهض راكب الغيوم خصم
ولكن هي ذي رسالة من بعل العلي،
وكلمة من علي المحارب:
«ضعي في الأرض خبزاً
وضعي في التراب لفاحاً
واسكبي في الأرض قربان السلام
والتقدمات في وسط الحقول»

يكرران الرسالة حرفياً إلى آخرها. وعندما ينتهيان تجيبهما ملهوفة:

سأضع في الأرض خبزاً
وسأضع في التراب لفاحاً
وسأسكب في الأرض قربان السلام
والتقدمات في وسط الحقول

ثم انها لا تنتظر عودة الرسولين بجوابهما، بل تطير لتوها قاطعة مئات الاميال تطوي الفيافي والقفار. وعندما يراها بعل قادمة من بعيد يرسل جمعاً من النساء لاستقبالها، ويذبح من أجلها ثوراً، ويحتفل بها احتفالاً مشهوداً. وبقدومها تبتهج الطبيعة، فيرقص النبات، ويتكاثر الحيوان.

٤ ـ نص باللغة اليونانية ـ سانخو نياتن والنظرية الزائفة:

في غمرة المد الثقافي الهيليني الذي اجتاح شرقي المتوسط منذ القرن الثالث قبل الميلاد، كانت تقوم أصوات متفرقة، تدعو للتذكير بثقافة المنطقة والوقوف في وجه تيار الثقافة اليونانية الذي بدأ يطبع العالم المتحضر بطابعه في ذلك الوقت. من تلك الاصوات كان صوت الكاتب السوري فيلو الجبيلي الذي عاش في نهاية القرن الأول الميلادي، ووضع مؤلفاً ضخماً في تاريخ الفينيقيين

اشتمل على تسعة أجزاء ضاعت جميعها، ولم يبق منها سوى مقاطع متفرقة أوردها مؤلفون آخرون نقلاً عنه.

في حديثه عن الميثولوجيا حاول ان يثبت أن الأساطير الاغريقية قد بنيت في معظمها على أصول كنعانية شرقية، وأرجع معظم آلهة الاغريق إلى جذورهم الفينيقية. وقد وضع معظم أفكاره على لسان كاتب فينيقي قديم عاش في القرن الرابع عشر قبل الميلاد اسمه «سانخونياتن» مدعياً أن مؤلفه الكبير ليس إلا ترجمة لافكار ذلك الكاتب العظيم.

ولعل أهم ما بقي لنا من كتاب فيلون ـ سانخونياتن، هو النظرية الفينيقية في التكوين، التي وصلتنا بسبب تصدي بعض الكتاب المسيحيين لنقدها، في حملتهم التي شنوها ضد المعتقدات القديمة وتفنيدها. وهكذا نجد أن نظرية سانخونياتن التي نقلها فيلو، لم تصلنا إلا عن طريق المصادر المعادية، التي استعملتها وسيلة للنقد والمحاجة، وتثبيتاً للفكر المسيحي الجديد. وهذا الوضع برمته، يترك مجالاً واسعاً للشك في صحتها مما سأتحدث عنه لاحقاً.

تقول النظرية[6] أنه في البدء، لم يكن هناك سوى ريح عاصفة، وخواء مظلم. ثم ان هذه الريح وقعت في حب مبادئها الخاصة وتمازجت. ذاك التمازج كان «الرغبة» وهي مبدأ خلق جميع الأشياء. ولم يكن للريح معرفة بما فعلت. نتج عن تمازج الريح «موت» الذي كان عبارة عن كتلة من الطين أو مجموعة من العناصر المائية المتخمرة. وكان بذرة الخلق. وكان لموت شكل البيضة عندما تتكون. غدا مضيئاً وأنتج الشمس والقمر والنجوم والمجموعات النجمية الكبرى.

ثم التهب الهواء بتأثير التهاب اليابسة والبحر وتشكل الهواء والسحاب وهطل على الأرض ماء مدرار. وبتأثير حرارة الشمس، انفصلت الأشياء وطارت من مكانها لتلتقي في الهواء وتتصادم، فنشأت البروق والرعود، وعلى صوتها أفاقت الحيوانات مذعورة وراحت تتنقل على اليابسة وفي البحر، ذكوراً واناثاً.

وتتابع النظرية سرد انساب البشر بدءاً من الزوجين «كوليبا» و«باو» وتعزو لكل جيل فضل اكتشاف من اكتشافات الحضارة، كاكتشاف النار والزراعة وتربية الحيوان وما إلى ذلك وتشرح كيف عبد البشر اصحاب تلك الاكتشافات وجعلوهم من الآلهة بعد موتهم، إلى أن تصل إلى أورانوس ـ السماء، وزوجته جيا الأرض،

6 - L. Delaport. Phoenician Mythology (in Larousse Encyclopedia of Mythology).

ابني عليون، أي العالي أو السامي. ويشرح النص هنا نفس القصة الاغريقية المعروفة عن قسوة أورانوس على أولاده ومحاولته قتلهم، إلى أن يأتي كرونوس، أحد أولاده، الذي يتغلب عليه بمعونة صديقه هرمس ويأخذ سلطانه. وهو الذي بنى أول مدينة فينيقية وهي جبيل. ولكن أباه أرسل له ثلاث بنات لقتله، فما كان من كرونوس إلا أن استمالهن وتزوج بهن. فولدت له الأولى وهي عستارت سبع بنات وولدين احدهما يوثوس، والآخر ايروس. وولدت له الثانية وهي رحيا، أيضاً سبع بنات. ولما تابع أورانوس الحرب ضد ابنه كرونوس، قام الأخير بمفاجأته في كمين وقبض عليه وأخصاه ففاض دمه في الجداول والينابيع.

ولا أريد المضي في سرد مزيد من التفاصيل حول هذه النظرية، مكتفياً بما سردته. ان زيف النص يبدو واضحاً للعيان دون كبير مشقة أو جهد في تمحيصه. وسأنطلق في نقده من ثلاث زوايا. الزاوية الأولى، ما يقدمه لنا النص نفسه، بصرف النظر عن أية عناصر خارجية. والزاوية الثانية، ملابسات وصول النص الينا، والقنوات غير المتعمدة التي سلكها. والثالثة ما قدمته لنا حفريات رأس شمرا من مقارنات مفيدة مع امثال هذه النصوص المتأخرة.

أولاً: ان قراءة أولى للنص تظهر لنا أنه قد كتب بروح وخلفية وثقافة يونانية. فروح الفلسفة الاغريقية تشع من كل حرف من حروفه، وخاصة في مقدمته. عندما كان هناك ريح عاصفة وخواء مظلم، وعندما وقعت الريح في حب مبادئها الخاصة . . . الخ. كما أن التركيز على فكرة المنشأ المادي للدين وعلى أن الألهة التي عبدها البشر، لم تكن إلا رجالاً صالحين قدموا للبشرية خدمات جلى فتم تأليههم وعبادتهم، يدل دلالة واضحة على التأثر الكبير بالاتجاهات الفلسفية المتأخرة، ويبتعد بنا عن منحى التفكير الديني الأسطوري الذي كان سائداً في الفترة التي عزا ناقل النص اليها انتاجه. لقد كان القرن الرابع عشر قبل الميلاد زمناً ما زال الفكر الأسطوري فيه منتعشاً، وفيه كتبت الواح رأس شمرا، وأساطير بعل وعناة وملاحم كرت وأقهات، مما كشفت عنه حفريات موقع مدينة أوغاريت. ولا يمكن بحال أن تكون العقلية التي انتجت تلك النصوص، هي نفسها التي انتجت نص سانخونياتن. والمشكلات التي كانت مطروحة وقتها، لم تكن مشكلة وجود الآلهة أم لا، بل مشكلة أي إله يُعبد. والتساؤل عن وجود الآلهة لم يطرح إلا في العصور الفلسفية اللاحقة. كما أن الفترة نفسها هي التي شهدت الصراع بين

وحدانية الإله وتعدد الآلهة، حيث قامت ديانة أخناتون في مصر، وتبعتها ديانة موسى في سورية.

ثانياً: أخبرنا فيلو الفينيقي (٤٢ ميلادية) عن سانخونياتن، ونقل لنا عنه تاريخ فينيقية، مدعياً انه انما يترجم لليونانية فقط، ما كتبه سانخونياتن قبل ذلك بالف وأربعمائة عام. دون أن نعثر لسانخونياتن قبل ذلك على ذكر إلا عند كاتبين سوريين آخرين هما، ادريان الصورى (١٥٠ ميلادية) وفورفيوس الصورى (٤٤٨ ميلادية) وكلاهما لاحقان لفيلو الجبيلي. وليس مستبعداً ان يكونا قد استندا في ذكرهما لسانخونياتن على فيلو نفسه. كما تغدو مسألة تحقيق النص اصعب اذ أن اعمال فيلو قد ضاعت كلها، وان ما نعرفه عنها قد وصل الينا عن طريق اقلام يونانية أو مسيحية. والنص الذي بين أيدينا الآن قد نقله أوزيب الكاتب المسيحي ناقداً، ومدافعاً عن المسيحية. فما الذي بقي لنا من سانخونياتن اذاً؟

لقد لعب سانخونياتن في اعمال فيلو دوراً مشابهاً لما لعبه سقراط في محاورات أفلاطون. فلقد بات مؤكداً منذ زمن بعيد أن سقراط، في محاورات أفلاطون، لم يكن إلا شخصية تتحرك لتعبر عن آراء افلاطون وفلسفته، مع الخلاف الواضح بين المثالين لأن الادلة قائمة على وجود شخص اسمه سقراط، ولأن أعمال افلاطون قد وصلتنا مباشرة. بينما لا وجود لأي دليل تاريخي على وجود سانخونياتن، وأعمال فيلو قد ضاعت تماماً.

ثالثاً: لقد كان جل ما نعرفه عن لاهوت الكنعانيين عبارة عن متفرقات وردت في أعمال المؤلفين اليونان إلا أن اكتشاف رأس شمرا على الساحل السوري في مطلع هذا القرن، وحل ابجديتها السباقة، جعلنا على اتصال مباشر بالفكر والأدب واللاهوت الكنعاني. فالالواح تتحدث عن نفسها دون وسيط. ولقد غدا من نافلة القول التحدث عن أي نص منقول، يتعارض مع ما تنطق به المكتشفات. فما الذي تقوله لنا الالواح الاوغاريتية عن نص فيلو؟

ان بعض أسماء الألهة الفينيقية قد ورد في نص فيلو. إلا أن هذا النص قد امتلأ باسماء الألهة اليونانية فكاد لا يترك إلهاً اغريقياً إلا وذكره. وكل هذه الأسماء لم نعثر لها على ذكر في الواح اوغاريت التي تعود إلى نفس الفترة التي عزا ناقل النص اليها انتاج نظرية سانخونياتن. اضافة إلى تناقضات واضحة بين وظائف بعض الألهة عند سانخونياتن ووظائفها في الواح أوغاريت.

وبشكل عام يمكن القول، أن فيلو قد أراد الدفاع عن الثقافة السورية باستعمال المنظور الأغريقي، والقوالب الفكرية الاغريقية، فاتى بنظرية تلفيقية، هي قبل كل شيء نظريته الخاصة لا نظرية الفينيقيين. وقد وقع بعض دارسي الأسطورة العرب* في الفخ السهل، وتبنوا نص فيلو باعتباره عملاً فكرياً فذاً معبراً عن الفكر الكنعاني القديم وصرفهم الحماس لهذا النص الفلسفي الجميل عن النظرة الموضوعية.

* راجع كتاب يوسف حوراني، نظرية التكوين الفينيقية، دار النهار بيروت ١٩٧٠.

٤ | التكوين التوراتي

لمحة تاريخية:

اذا كان لنا ان نأخذ ما كتبه العبرانيون عن أنفسهم في توراتهم، باعتباره تاريخاً، لتتبعنا ظهور العبرانيين في المنطقة، من خلال ثلاث حركات بشرية أساسية. الأولى، هجرة ابراهيم الجد الأول، من مدينة أور الكلدانية في أرض الرافدين واستقراره في أرض كنعان بفلسطين: «وقال الرب لابرام، اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت ابيك، إلى الأرض التي اريك، فاجعلك أمة عظيمة، واباركك وأعظم اسمك»[1] وبعد وصول ابراهم وأهله إلى كنعان، يبرم معه الرب ميثاقاً، فيعطيه الأرض له ولنسله من بعده: «في ذلك اليوم قطع الرب مع ابرام ميثاقاً قائلاً: لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات»[2]. والحركة الثانية تظهر بقيادة يعقوب أو اسرائيل ابن اسحق وحفيد ابراهيم، وعن يعقوب هذا تصدر أسباط اسرائيل الاثنا عشر ومعه يجدد الرب عهد

(١) العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح ١٣: ١-٢.
(٢) العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح ١٥: ١٨.

ابراهيم: «والأرض التي أعطيت ابراهيم واسحاق، لك أعطيها ولنسلك من بعدك أعطي الأرض»[٣]. أما الحركة الثالثة، فتقوم بها جموع اليهود الفارين من مصر بقيادة موسى، تلك الشخصية الغامضة في التاريخ، غموض شخصية ابراهيم، وذلك في أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد.

دخلت هذه الجموع الرعوية الجائعة أرض فلسطين من الجنوب بعد أن تاهوا في صحراء سيناء اربعين سنة، جزاء خوفهم من دخول الأرض أول مرة. لقد أرهبتهم أرض كنعان بما رأوا فيها من منعة وثروة وحضارة فقفلوا راجعين إلى الصحراء: «فارسلهم موسى ليتجسسوا أرض كنعان. . . قد ذهبنا إلى الأرض التي ارسلنا اليها. وحقاً انها تفيض لبناً وعسلاً وهذا ثمرها. غير أن الشعب الساكن في الأرض معتز، والمدن حصينة عظيمة جداً. . . . . . وجميع الشعب الذي رأينا فيها اناس طوال القامة. وقد رأينا هناك الجبابرة بني عناق، فكنا في اعينهم كالجراد. . . . فرفعت كل الجماعة صوتها وصرخت، وبكى الشعب تلك الليلة وتذمر على هرون وموسى جميع بني اسرائيل وقال لهما كل الجماعة، ليتنا متنا في أرض مصر» وهنا يغضب يهوه الههم، ويقرر حرمانهم من دخول الأرض التي وعدهم بها، إلى أن يتطهروا من أدرانهم: «في هذا القفر تسقط جثثكم. . . . وأما اطفالكم فاني سأدخلهم، فيعرفون الأرض التي أحتقرتموها. فجثثكم انتم تسقط في القفر، وبنوكم يكونون رعاة في هذا القفر اربعين سنة، ويحملون فجوركم حتى نفنى جثثكم في القفر»[٤].

كان تقدم العبرانيين في أرض كنعان بطيئاً جداً. إلا أن سياسة الافناء التي اتبعوها لم يذكر لها تاريخ مثيلاً: «رجع جميع اسرائيل إلى العي وضربوها بحد السيف. وكان جملة من قتل في ذلك اليوم، رجل وامرأة، اثني عشر الفا، جميع أهالي العي. وأحرق يشوع العي، وجعلها تل ردم إلى الابد خراباً»[٥] «وعاد يوشع في ذلك الوقت وافتتح حاصور وقتل ملكها بالسيف، وضربوا كل نفس فيها بحد السيف، ولم تبق نسمة، وأحرق حاصور بالنار»[٦] «وقال صموئيل لشاول، اياي ارسل

(٣) العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح ٣٥: ١٣.
(٤) العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح ١٣-١٤.
(٥) العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح ٨: ٢٤-٢٨.
(٦) العهد القديم، يوشع، الاصحاح ١١: ١٠.

الرب لمسحك على شعبه اسرائيل. والآن فاسمع كلام الرب. . . اذهب واضرب عماليق ولا تعف عنهم بل اقتل رجلاً وامرأة، طفلاً ورضيعاً، بقراً وغنماً، جملاً وحماراً»[٧].

وعندما تم لهم الاستيلاء على فلسطين انقسموا إلى مملكتين: اسرائيل في الشمال ويهوذا في الجنوب. وبقي العبرانيون عالة على الثقافات المجاورة. ففي أوج ازدهار دولتهم، ايام الملك سليمان، نجد هذا الملك يستعين بالحرفيين والصناع الفينيقيين لبناء هيكله المشهور، ويستورد له المواد اللازمة من فينيقيا: «وأرسل سليمان إلى حورام ملك صور قائلاً، كما فعلت مع داود ابي اذ ارسلت له ارزاً ليبني بيتاً يسكن فيه، فها أنذا أبني بيتاً لاسم الرب الهي. . . فالآن ارسل لي رجلاً حكيماً في صناعة الذهب والفضة والنحاس والحديد والارجوان والقرمز ماهراً في النقش. . . وأرسل لي خشب الارز وصندل وسرو لبنان لاني اعلم ان عبيدك ماهرون في قطع خشب لبنان»[٨].

وما أن يقارب القرن السادس قبل الميلاد على نهايته حتى يدمر نبوخذنصر البابلي مملكة اسرائيل، ويحمل رجالها اسرى إلى بابل. وبعد ذلك يأتي الفتح اليوناني ثم الروماني ويتلاشى الكيان السياسي لليهود تماماً. ويتبع ذلك تفكك وجودهم الاجتماعي والديني بانتشار المسيحية وتحول الشعوب السورية اليها.

الخلفية الثقافية:

لم يحضر اليهود إلى سورية الجنوبية معهم ثقافة خاصة بهم، فقد عاشوا في مصر عيشة العبيد والاذلاء، وفروا منها استجابة لدعوة رجل فولاذي هو موسى. وقد تضاربت الآراء حول هذه الشخصية الفذة. ولعل أكثر هذه الآراء اثارة، النظرية القائلة ان موسى مصري الاصل وليس عبرانياً[٩]، وانه قائد عسكري من اتباع ديانة اتون، وهي أول ديانة توحيدية معروفة تاريخياً، اسسها الفرعون اخناتون. ولما هلك اخناتون، ودمر كهنة الديانات التقليدية كل ما بناه، تفرق اتباعه واهله. إلا

(٧) العهد القديم، صموئيل ١، الاصحاح ١٥: ١-٣.
(٨) العهد القديم، اخبار الايام ٢ الاصحاح الثاني: ٣-٨.
(٩) سيجموند فرويد، موسى والتوحيد.

ان موسى التابع المخلص لاخناتون أخذ على عاتقه متابعة الرسالة فقام باختيار اليهود، تلك الفئة الغريبة المضطهدة، للتبشير بينهم، وقادهم، لقاء اهتدائهم، في مسيرتهم الطويلة للخلاص من العبودية. ولعل هذا الاختيار الذي قام به موسى، هو الذي اعطى فكرة اختيار الاله يهوه لشعبه في التوراة. وتتابع هذه النظرية منطقها فتقول ان اليهود بعد خيباتهم المتلاحقة وضياعهم الطويل، قد قتلوا قائدهم في ثورة من ثورات الغضب، وهذا الفعل الشنيع هو الذي ادخل على اليهودية فكرة المسيح المنتظر، لأن الندم قد اعتصر قلوب المغتالين، وترسخ بعد ذلك في لا شعور الجماعة، ونشأت الامنية بعودة القتيل، الذي لم يمت وانما اختفى، ليعود في نهاية العالم لقيادة شعبه.

رغم قلة ما نعرفه عن الديانة الاتونية، بسبب الانتقام الشامل الذي تعرضت له من قبل الكهنة الثائرين فاننا نستطيع أن نلمح أوجه التشابه بين الديانتين، الاتونية والموسوية، وذلك رغم ما خضعت له الاخيرة بعد موسى. فأولاً، تصر الديانتان، ولأول مرة في التاريخ، على وحدانية الإله. إلا أن وحدانية اخناتون أعم وأشمل، لأنه يرى آتون الهاً للأمم كلها، بينما بقيت اليهودية فترة طويلة من تاريخها، على الاعتقاد بيهوه إلهاً للشعب اليهودي، يتجلى في المعارك والانتصارات، لا كما يتجلى آتون في الازهار والاشجار وجميع اشكال النماء والحياة.

ثانياً، تمنع الديانتان أي نوع من أنواع التصوير أو النحت للاله الواحد. لذلك فقد حطمت كل التماثيل ابان حكم اخناتون ومسحت عن جدران المعابد كل صور واسماء الآلهة القديمة. وكانت الاشارة الوحيدة المسموح بها كرمز للاله، هي اشعة الشمس التي كانت جميع الصلوات تحث على النظر للقوة الكامنة خلفها. فاتون ليس قرص الشمس ذاته بل خالق اشعته التي يمدها بالطاقة. وليس ما في الكرة الملتهبة من مجد مشرق، إلا رمز للقدرة المستورة. كذلك نقرأ في التوراة: «لا تصنع لك تمثالاً، صورة مما في السماء من فوق، وما في الأرض من اسفل، وما في الماء تحت الأرض»[10].

ثالثاً، لا نجد في الديانتين أثراً لفكرة البعث والحساب والحياة الآخرة. فاخناتون في صراعه مع الديانات القائمة آنذاك، اراد أن يحرم أوزوريس، وهو

(١٠) العهد القديم، التثنية، الاصحاح ٥: ٧.

الإله الشعبي الأول، ملكوله في العالم الآخر، لأنه كان رب البعث والحساب الذي يزن الحسنات والسيئات في العالم الأسفل، ومالك قلوب العباد الباحثين عن السعادة في الحياة الثانية. فعمد اخناتون إلى الغاء فكرة البعث والحساب. وعلى منواله نسجت الديانة اليهودية التي لا نجد عندها أفكاراً واضحة عن الحياة بعد الموت* بل ان هذه الفكرة قد اعتبرت لفترات طويلة ضلالاً مبيناً، ولم تبدأ في السيطرة على عقول بعض المتدينين إلا في الفترات المتأخرة وقبل ظهور السيد المسيح.

رابعاً، نظراً لاتصال الديانات المصرية بالسحر، فقد حاربت الآتونية السحر والسحرة وابطلت تأثيرهم في المجتمع. كذلك الأمر في الديانة اليهودية التي حرمت السحر.

ان تأثر الديانة اليهودية بالديانة الآتونية هو أمر منطقي وممكن، بصرف النظر عن حكاية موسى المصري. فالديانة اليهودية نشأت في زمن لا يبعد كثيراً عن زمن ازدهار الآتونية. ونستطيع بسهولة أن نفترض أن الديانة الآتونية بعد انهيارها، قد تحولت إلى ديانة سرية انتشرت بين المضطهدين الغرباء وخضعت لتحولات اساسية عبر الوقت، إلى أن اتخذت شكلها الجديد على يد موسى. وقد استمرت بعض الصلوات الآتونية حية في كتاب التوراة. ومن ذلك مثلاً احدى صلوات اخناتون في تسبيح إلهه التي نجدها في المزمور ١٠٤ من سفر المزامير في التوراة:

صلاة اخناتون[11]

- العالم في ظلام كأنه الموت. الاسود تخرج من عرينها
والحيات من جحورها
والظلام يسود

- وعندما تشرق في الافق يتلاشى

* لمزيد من التفاصيل عن وجهة نظر اليهودية في موضوع الحياة الآخرة، راجع سفر العالم الاسفل من هذا الكتاب.

(١١) الاسطر التالية منتخبة من صلاة اخناتون. من أجل النص الكامل للصلاة راجع.
- William H. McNeill, The Anceint Near East, Oxford London, 1968.

الظلام. وكل يذهب إلى عمله
- تزهر كل الاشجار والنباتات وتتفتح
والطيور ترفرف في أعشاشها، والخرفان
ترقص وتثبت على أرجلها
- السفن تمخر عباب الماء صعوداً أو هبوطاً
والاسماك في النهر تقفز أمامك، وأشعتك
في وسط البحر العظيم
- كم هي متعددة اعمالك.. لقد خلقت
الارض وفقاً لمشيئتك. وكل ما عليها
من ناس وحيوان
- لقد خلقت نيلا في السماء
يرسل الماء على المخلوقات، فيسقي
حقولهم ويجعل الجبال تفيض سيولاً
فتروي الناس والقطعان في الأرض

- انت الذي خلق الفصول. وخلقت السماء
البعيدة تسطع فيها وتشرق وتغرب يوماً بعد يوم
- العالم كله بين يديك. عندما تسطع على المخلوقات
تحيا. وعندما تغرب عنها تموت، وبك يعيش الانسان

المزمور ١٠٤

تجعل ظلمة فيصير ليل، فيه تدب
كل حيوان الوعر
الاشبال تزمجر لتخطف وتلتمس من الرب
طعامها
- تشرق الشمس فتجتمع في مآويها وتربض.
الانسان يخرج إلى عمله وإلى شغله؟ إلى المساء

- تشبع اشجار الرب أرز لبنان الذي نصبه
حيث تعشعش هناك العصافير أما اللقلق فالسرو؟
بيته. الجبال العالية للوعول، والصخور ملجأ للوبار
- هذا البحر الكبير الواسع الاطراف
هناك دبابات بلا عدد. صغار الحيوانات مع كبار
، هناك تجري السفن
- ما اعظم اعمالك يارب. كلها
بحكمتك صنعت. ملآنة الأرض بغناك
- الساقي الجبال من علاليه. من ثمر؟
أعمالك تشبع الأرض. المنبت عشباً
للبهائم، وخضرة لخدمة الانسان لاخراج
خبز من الأرض
وخمر تفرح قلب الانسان
- صنع قمراً للمواقيت.
الشمس تعرف مغربها.
كلها اياك ترتجي لترزقها قوتها في حينه.
تعطيها فتلتقط، وتفتح يدك فتشبع خبزاً، تحجب وجهك
فترتاع تنزع أرواحها فتموت وإلى ترابها تعود.
ترسل روحك فتخلق وتجدد وجه الأرض.

هذا وربما كنا اقدر على ايجاد مزيد من المشابهات لو وصلنا من تراث الآتونية أكثر مما وصل. ولكن الانتقام الشامل الذي تعرضت له هذه الديانة بعد وفاة مؤسسها، قد جعل التاريخ لا يعرف عنها إلا القليل.

واذا كانت الآتونية قد أعطت اليهودية دفعتها الأولى، فان المناخ الثقافي الذي نمت فيه وترعرعت، فيما بعد، وأعني به الثقافة السورية المجاورة، قد كان له أكبر الاثر في تشكلها وتطورها البطيء. وقد كتب التوراة عبر مسافة زمنية تبدأ في القرن العاشر قبل الميلاد وتنتهي في القرن الأول. فالاسفار الخمسة الأولى قد كتبت على مدى ثلاثة قرون ابتداءاً من القرن العاشر. أما آخر أسفار التوراة، وهي

سفر المكابيين الأول، وسفر المكابيين الثاني، فقد حررت خلال القرن الأول قبل الميلاد. والتوراة هو المأثرة الثقافية الوحيدة للشعب اليهودي.

ومع هذا التطور البطيء تطورت فكرة اليهود عن الإله. وكان على الههم يهوه أن ينتظر طويلاً قبل أن ينتقل من مجرد إله خاص بشعب اسرائيل، يصارع ويقارع آلهة الشعوب الأخرى للحفاظ على وحدانيته لدى شعبه المختار، إلى إله مطلق للعالم. فآيات التوراة تتحدث عن يهوه دائماً كأعظم الآلهة شأناً: «والبيت الذي انا بانيه عظيم لأن الهنا اعظم من جميع الآلهة»[١٢]. ويهوه نفسه على ما يبدو كان إلهاً كنعـانياً. فقـد وجدت في أرض كنعان عام ١٩٣١، بين المكتشفات، قطع من الخزف، من بقايا عصر البرونز، مكتوب عليها اسم إله هو «ياه» أو «ياهو». كما نسمع الإله ايل يقول في بعض الواح أوغاريت: اسم ابني ياو. وهذا الإله ربما حمله العبرانيون معهم إلى مصر، وعادوا به وقد اختلط بالإله آتون بعد هربهم من هناك، أو طردهم*.

وفي اسفار التوراة الأولى نجد، ان اليهود ينادون الههم باسم «ايل» وهو رب الاربـاب عند الكنعانيين والآراميين وإله السماء. نقرأ في سفر التكوين: «وبكر يعقوب في الصباح وأخذ الحجر الذي وضعه تحت رأسه وأقامه عموداً، وصب زيتاً على رأسه، ودعا المكان بيت ايل. . . . . . وهذا الحجر الذي اقمته يكون بيت الرب»[١٣] وفي مكان آخر نقرأ «فأتى يعقوب إلى لوز التي في أرض كنعان هو وجميع القوم الذين معه، وبنى هناك مذبحاً ودعا المكان بيت ايل، لأنه هناك ظهر له الرب حين هرب من وجـه اخيه»[١٤]. هذا ونجـد اسم ايل في كثير من اسماء الاعلام اليهودية مثل، رعوئيل، اسماعيل، اسرائيل. . . الخ. وهي اسماء مركبة، رعو ـ ايل، اسماع ـ ايل، اسرا ـ ايل.

وفي المـراحـل التـالية نجـد يهوه ينفصل عن ايل ويحاول انتزاع صفات

(١٢) العهد القديم، أخبار الايام ٢، الاصحاح الثاني: ٥.

* ينقل المؤرخ يوسيفوس عن مانتيون، وهو مؤرخ مصري عاش في القرن الثالث قبل الميلاد، أن اليهود قد طردوا من مصر بسبب وباء تفشى بينهم. وان موسى كان كاهناً مصرياً خرج للتبشير بين اليهود وتعليمهم قواعد النظافة على نسق ما هو متبع بين الكهنة المصريين.

(١٣) العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح ٢٨: ١٨-٣٢.

(١٤) العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح ٣٥: ٤-٨.

وسلطات الاله السوري «بعل» إله المطر والصاعقة والرعود، والإله الأكثر محبة في قلوب السوريين. فالرعد هو صوت بعل الذي يعلن قدومه، والغيوم مركبته التي تقله، والصاعقة سلاحه، والبرق هيبته، والمطر نعمته. هذه الرموز كلها ادعاها يهوه لنفسـه: «صوت الرب على المياه، إله المجد أرعد، الرب فوق المياه الكثيرة، صوت الرب بالجلال»[١٥] وكذلك، «الجاعل السحاب مركبته، الماشي على أجنحة الريح»[١٦] فيهوه هنا يتخذ لنفسه صفة أساسية من صفات بعل وهي، راكب الغيوم. وحتى عندما يأتي يهوه لمصارعة التنين والقضاء عليه، فان تنين يهوه هو نفس تنين بعل. نقرأ في الواح أوغاريت، وفي سفر اشعيا:

النص الاوغاريتي[١٧]	سفر اشعيا ٢٧: ١
والآن تريد أن تقتل «لوتان»	في ذلك اليوم يعاقب الرب
الحية الهاربة.	بسيفه القاسي العظيم الشديد
الآن تريد أن تجهز على الحية الملتوية	«لوتان» الحية الهاربة.
«شالياط» العتيه	«لوتان» الحية المتحوية
ذات الرؤوس السبعة	ويقتل التنين الذي في البحر

ويأتي المزمور ٩٢ بسرد مشابه، لسرد النص الاوغاريتي عن صراع بعل ضد اعدائه

النص الاوغاريتي[١٨]	المزمور، ٩
هو ذا اعداؤك يا بعل	هو ذا اعدؤك يا رب
هو ذا اعداؤك تبيدهم	هو ذا اعداؤك تبيدهم
هو ذا خصومك تبيدهم	تبيد كل فاعلي الاثم

وكمـا تغلب بعـل على المياه الأولى يم كذلك يهوه، «أنت متسلط على كبرياء البحر، أنت سحقت رهب مثـل القتيل»[١٩]. وكمـا طالب بعل ببناء بيت له بعد انتصاره، كذلك

(١٥) سفر المزامير ـ المزمور ٢٩.

(١٦) سفر المزامير ـ المزمور ١٠٤.

(١٧) النص الاوغاريتي ترجمة انيس فريحة: أوغاريت، دار النهار، بيروت ١٩٨٠ ص ١٥٦. وقد ارجعت كلمة «لوياتان» فيه الى أصلها الاوغاريتي «لوتـان» وفق ترجمة غوردن.

18 - C.H. Gordon, Ugarit, Norton Library, Newyork 1962. P 48.

(١٩) العهد القديم، سفر المزامير ٨٩.

يفعل يهوه، «وفي تلك الليلة كان كلام الرب إلى ناثان قائلاً، اذهب وقل لعبدي داود، هكذا قال الرب، أأنت تبني لي بيتاً لسكناي، لأني لم أسكنْ في بيت منذ يوم أصعدت بني اسرائيل من مصر إلى هذا اليوم، بل كنت اسير في خيمة»[20].

وكان اليهود لدى قراءتهم في التوراة يتهيبون لفظ اسم يهوه، فعندما يصلون في قراءتهم للاسم يلفظون بدلاً عنه اسم أدوناي وهو من القاب بعل، كما ان اسم أدوناي يرد تبادلياً مع اسم يهوه في أكثر من موضع في الكتاب المقدس.

واذا كان يهوه قد حاول التشبه بالآلهة السورية والبابلية، فانه قد بز قساتهم بما جنته يداه من أعمال الدمار والفتك والقتل. فهو إله حقود لا يكتفي بعقوبة المذنب وحده، بل انه يتابع انتقامه من ذرية المذنب، ويحل عليهم غضبه وانتقامه، «افتقد ذنوب الآباء في الابناء، وفي الجيل الثالث والرابع من الذين يبغضونني»، وغضبه لا يهدأ إلا بالتضحيات التي تحرق على المذبح ويسر لرائحتها كثيراً «ويرتب بنو هرون، الكهنة، القطع مع الرأس والشحم فوق النار التي على المذبح. أما أحشاؤه وأكارعه فيغسلها في الماء، ويوقد الكاهن على المذبح محرقة وقود، رائحة سرور للرب»[21] «وتوقد كل الكبش على المذبح، هو محرقة للرب، رائحة سرور، وقود هو للرب»[22].

وغضب يهوه لا يزول بالتضحية الحيوانية فقط، بل لابد من التضحية الانسانية ايضاً. نقرأ في سفر صموئيل الثاني من العهد القديم.. ان جوعاً وقحطاً شديدين قد عما البلاد مدة ثلاث سنوات، وكان ذلك ايام الملك داود فيطلب داود وجه الرب، ويفهم منه أنه حاقد من اجل شاول الذي قتل الجبعونيين، فيقوم داود بتقديم سبعة رجال قرباناً للرب حتى يهدأ: «وسلمهم إلى يد الجبعونيين، فصلبوهم على الجبل أمام الرب، فسقط السبعة معاً، وقتلوا في أيام الحصاد»[23].

ورغم قسوة يهوه وجبروته، فان اليهود لم يتوقفوا عن عبادة آلهة السوريين طيلة تاريخهم. فهذا يعقوب نفسه يطلب من أهل بيته أن ينزعوا الآلهة السورية من وسطهم: «فقال يعقوب لبنيه ولكل من كان معه، اعزلوا الآلهة الغريبة التي بينكم

(٢٠) العهد القديم، سفر صموئيل الثاني، الاصحاح ٧: ٣.
(٢١) العهد القديم، سفر اللاويين، الاصحاح ١: ٦..
(٢٢) العهد القديم، سفر الخروج، الاصحاح ٢٩: ١٧
(٢٣) العهد القديم، سفر صموتيل ٢، الاصحاخ ٢١: ٩.

وتطهروا وابدلوا ثيابكم.... فاعطوا يعقوب كل الآلهة الغريبة التي بين أيديهم، والاقراط التي في أذانهم، فطمرها يعقوب»[24]. وهؤلاء بنو اسرائيل، وموسى بعد بين ظهرانيهم، يتركون يهوه ويتجهون لعبادة بعل: «وتعلق اسرائيل ببعل، فحمي غضب الرب على اسرائيل، فقال الرب لموسى خذ جميع رؤوس الشعب وعلقهم للرب مقابل الشمس، فيرتد حمو غضب الرب»[25].

والملك سليمان، أعظم ملوك اليهود قاطبة، كان من عبدة الآلهة السورية «ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود ابيه. فذهب سليمان وراء عشتاروت إلهة الصيدونيين، وملكوم رجس العمونيين. وعمل سليمان الشر في عيني الرب، ولم يتبع الرب»[26]. وبعد سليمان كان معظم ملوك اليهود يعبدون مع يهوه آلهة سوريين «وعمل آخاب الشر في عيني الرب أكثر من جميع الذين قبله، وسار وعبد البعل وسجد له، وأقام مذبحاً للبعل في بيت البعل الذي بناه بالسامرة»[27].

وهكذا نجد أن مطلب يهوه المتواضع في الوصية الأولى من الوصايا العشر لم يتحقق له، وهو أن يكون مقامه فوق سائر الارباب. لقد كانت رحلة مضنية، تلك التي مشاها يهوه، عبر تاريخ طويل امتد أكثر من ألف سنة، قبل ان يصبح من خلال الديانة المسيحية، الهاً واحداً مطلقاً. لقد ابتدأ يهوه بداية وثينة متواضعة، ثم شق طريقه بدأب نحو الوحدانية. ولعل علاقته المبكرة مع موسى تظهر تلك البداية المتواضعة. فيهوه لا يدعي العلم المطلق عندما يطلب إلى اليهود أن يميزوا بيوتهم بدهنها بدماء الخرفان المضحاة، فلا يهلكوا مع من يريد اهلاكهم من المصريين: «ويكون لكم الدم علامة على البيوت التي انتم فيها، فارى الدم واعبر عنكم، فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين اضرب أرض مصر»[28]. وهو إله متردد يخشى شماتة الناس به وبشعبه، ويستطيع موسى بذكائه أن يدفعه لتغيير رأيه. «إلى متى يهنني هذا الشعب، وحتى متى لا يصدقونني، انني سأضربهم بالوباء، وأبيدهم. فقال موسى للرب: فان قتلت هذا الشعب، يتكلم الشعوب الذين سمعوا بخبرك

(٢٤) العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح ٣٥: ٢.
(٢٥) العهد القديم، سفر العدد، الاصحاح ٢٥: ٢-٣.
(٢٦) العهد القديم، سفر الملوك ٢، الاصحاح ١١: ٤-١.
(٢٧) العهد القديم، الملوك ٢، الاصحاح ١٦: ٣٠-٣٢.
(٢٨) العهد القديم، سفر الخروج، الاصحاح ١٢: ١٣.

قائلين، لأن الرب الذي لم يقدر أن يدخل هذا الشعب إلى الأرض التي حلف لهم، فقتلهم في القفر. اصفح عن ذنب هذا الشعب وكما غفرت لهذا الشعب من مصر إلى هنا، فقال الرب قد صفحت حسب قولك»(٢٩).

وهو إله مشخص يمكن رؤيته بالعين المجردة. فهذا موسى يلمح قفاه: «فقال أرني مجدك. . . . فقال الرب هو ذا عندي مكان فتقف على الصخرة، ويكون متى اجتاز مجدي، اني أضعك في نقرة من الصخرة واسترك بيدي حتى اجتاز، ثم ارفع يدي، فتنظر الى ورائي، وأما وجهي فلا يرى»(٣٠). وهو بطل يصارع الوحوش والتنانين تماماً كآلهة السوريين والبابليين والاغريق: «انت شققت بعزتك يم* وشدخت رؤوس التنانين على المياه، انت رضضت رؤوس لوياتان، جعلته مأكلاً لزمر القفار»(٣١).

وقصارى القول، ان كتاب التوراة، وهو المأثرة الثقافية الوحيدة للشعب اليهودي، قد نشأ وتطور انطلاقاً من أرضية ثقافية سورية وبابلية ومصرية. وان مسيرة الفكر العبراني، في سعيه لبناء ديانة مستقلة، لم تتكلل بالنجاح إلا عن طريق استيعاب وتمثل الديانات السابقة، والآلهة القوية التي لم يستطع يهوه زحزحتها إلا باستعارتها لنفسه.

لقد بدأت المشابهات بين التوراة وآداب الشرق القديم تظهر، عندما بدأت الحضارات القديمة للمنطقة تتكشف من تحت التراب بواسطة الحفريات الاثرية التي أحيت آداباً قد فقدت منذ عهد بعيد. ان ضوءاً قوياً قد سلط الآن على التوراة ومنشئه. وأصبح في وسع القائلين بالمعجزة التوراتية ان يدركوا أن آداب التوراة لم تظهر كاملة النمو، وانما مدت جذورها عميقاً، لتشرب نسغ حضارات معاصرة لها وأخرى سابقة عليها. وأن التربة التي أمدت مؤلفي التوراة بمادتهم الأدبية كانت تربة كنعان وآرام وأرض الرافدين.

(٢٩) العهد القديم، سفر العدد، الاصحاح ١٤: ١١-٢٠.

(٣٠) العهد القديم، سفر الخروج، الاصحاح ٣٣: ٢٠-٢٣.

* بعض الترجمات العربية للتوراة تترك اسم يم كما هو وبعضها يستبدله بالبحر. والاول أصح لان النص التوراتي الاصلي يعني بيم المياه الاولى كما وردت في النصوص السورية القديمة.

(٣١) العهد القديم، المزمور ٧٤: ١٣-١٤.

اسطورة التكوين التوراتية:

لنقرأ الآن اسطورة التكوين التوراتية، كما وردت في مطلع كتاب التوراة: سفر التكوين، الاصحاحان الأول والثاني:

الاصحاح الأول: في البدء خلق الرب السماوات والأرض. وكانت الأرض خربة وخالية، وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح الرب يرف فوق وجه الماء. وقال الرب ليكون نور فكان نور. ورأى الرب النور أنه حسن، وفصل الرب بين النور والظلمة، ودعا الرب النور نهاراً والظلمة ليلاً، وكان مساء وكان صباح يوماً واحداً. وقال الرب ليكن جلد في وسط المياه، وليكن فاصلاً بين مياه ومياه. فعمل الرب الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد، وكان ذلك. ودعا الرب الجلد سماء. وكان مساء وكان صباح يوماً ثانياً. وقال الرب لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد ولتظهر اليابسة، وكان كذلك. ودعا الرب اليابسة أرضاً، ومجتمع المياه دعاه بحراً، ورأى الرب ذلك أنه حسن. وقال الرب لتنبت الأرض عشباً وبقلاً يبزر بزراً وشجراً ذا ثمرٍ يعمل ثمراً كجنسه بزره فيه على الأرض، وكان كذلك فاخرجت الأرض بقلاً وعشباً وبقلاً يبزر بزراً كجنسه وشجراً يعمل ثمراً بزره فيه كجنسه، ورأى الرب ذلك انه حسن. وكان مساء وكان صباح يوماً ثالثاً. وقال الرب لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بن النهار والليل، وتكون انواراً في جلد السماء لتنير على الأرض، وكان كذلك. فعمل الرب النورين العظيمين، النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل، والنجوم، جعلها الرب في جلد السماء لتنير على الأرض. ولتحكم على النهار والليل، ولتفصل بين النور والظلمة، ورأى الرب ذلك حسن. وكان مساء وكان صباح يوماً رابعاً. وقال الرب لتفض المياه زحافات ذات نفس حية وليطر طير فوق الأرض على وجه جلد السماء. فخلق الرب التنانين العظام وكل ذوات الانفس الحية الذبابة التي فاضت بها المياه كاجناسها، وكل طائر ذي جناح كجنسه ورأى الرب ذلك انه حسن. وباركها الرب قائلاً أثمري وأكثري واملأي المياه في البحار، وليكثر الطير على الأرض. وكان مساء وكان صباح يوماً خامساً. وقال الرب لتخرج الأرض ذوات أنفس حية كجنسها، بهائم ودبابات ووحوش أرض كأجناسها وجميع دبابات الأرض كأجناسها، ورأى الرب ذلك حسن. وقال الرب نعمل الانسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلطون على سمك

البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض. فخلق الرب الانسان على صورته، على صورة الرب خلقه، ذكراً وأنثى خلقهم. وباركهم الرب وقال لهم اثمروا وأكثروا واملأوا الأرض واخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض. وقال الرب اني اعطيتكم كل بقل يبزر بزراً على وجه الأرض وكل شجر فيه ثمر شجر يبزر بزراً. لكم يكون طعاماً. ولكل حيوان الأرض وكل طير السماء وكل دبابة على الأرض فيها نفس حية اعطيت عشباً أخضر طعاماً، وكان كذلك. ورأى الرب كل ما عمله فاذا هو حسن جداً وكان مساء وكان صباح يوماً سادساً.

الاصحاح الثاني: فأكملت السماوات والأرض وكل جندها. وفرغ الرب في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل. وبارك الرب اليوم السابع وقدسه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الرب خالقاً. هذه مبادىء السموات والأرض حين خلقت، يوم عمل الرب الإله الأرض والسموات، كل شجر البرية ولم يكن بعد في الأرض وكل عشب البرية لم ينبت بعد، لأن الرب الإله، لم يكن قد أمطر على الأرض، ولا كان انسان ليعمل على الأرض، ثم كان ضباب يطلع من الأرض ويسقي كل وجه الأرض. وجبل الرب آدم تراباً من الأرض ونفخ في انفه نسمة الحياة فصار آدم نفساً حية. وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقاً ووضع هناك آدم الذي جبله. وانبت الرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل، وشجرة الحياة في وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر. وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة، ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس. اسم الواحد فيشون، وهو المحيط بجميع أرض الحويلة حيث الذهب. وذهب تلك الأرض جيد، هناك المقل وحجر الجزع. واسم النهر الثاني جيحون وهو المحيط بجميع أرض كوش. وأسم النهر الثالث حداقل، وهو الجاري شرقي آشور، والنهر الرابع الفرات. وأخذ الرب الآلهة آدم ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها.

يقتفي التكوين التوراتي اثر اساطير التكوين السومرية والبابلية والكنعانية، في خطوطه العامة وفي تفاصيله. فالحالة البدئية السابقة للخلق حالة عماء مائي وظلمة سرمدية. ومن هذه المياه تم التكوين، حيث قام يهوه بتقسيم المياه إلى قسمين رفع الأول إلى السماء، وترك الثاني في الأسفل فصار بحاراً منها برزت

اليابسة. وعلى هذه اليابسة تابع يهوه افعاله الخلاقة، فاخرج النبت والمرعى والشجر المثمر، وخلق الحيوان. وفي السماء خلق الشمس والقمر والنجوم، وفي البحر خلق الحيوانات المائية، وفي الجو خلق الطير، وأخيراً خلق الانسان.

واذا كان صراع يهوه مع التنين البدئي لم يظهر في هذه الأسطورة كمقدمة للخلق، كما هو الشأن في اسطورة التكوين البابلية، فان مثل هذا الصراع يظهر في نصوص أخرى تتحدث عن افعال يهوه الخلاقة، وفيها نجده قبل الخلق وقد انهمك في الصراع مع تنينه لوياتان. من ذلك مثلاً المزمور الرابع والسبعون: «أنت شققت البحر بقوتك، كسرت رؤوس التنانين على المياه، أنت رضضت رؤوس لوياتان، جعلته طعاماً للشعب، لاهل البرية. أنت فجرت عيناً وسيلا، أنت يبست أنهاراً دائمة الجريان، لك النهار ولك الليل ايضاً. أنت هيأت النور والشمس. أنت نصبت كل تخوم الأرض. الصيف والشتاء أنت خلقتهما».

على ان القراءة المتأنية لنص التكوين التوراتي، تظهر لنا تناقضاً واضحاً في احداثه. ففي البدء خلق الرب السماوات والأرض. ثم نجده يخلقهما مرة ثانية بفصل المياه عن بعضها. ومرة نجده يخلق البشر دفعة واحدة «ذكراً وانثى خلقهم وباركهم الرب وقال لهم اثمروا وأكثروا واملأوا الأرض» وفي المرة الأخرى يخلق الرب الانسان بدءاً من زوجين أوليين مقتفياً بذلك اثر الأساطير البابلية والسومرية. وفي الواقع فان هذا النص، ونصوصاً أخرى كثيرة في التوراة قد كتبت بعد التوفيق بين روايتين توراتيتين. دعا علماء التوراة الرواية الأولى بالرواية اليهودية، والثانية بالرواية الالوهيمية. في الرواية الأولى يظهر الإله تحت اسم يهوه وفي الثانية تحت اسم ايلوهيم*. وقد جرى المزج بين الروايتين بعد العودة من الأسر البابلي عام ٥٣٨ ق. م. عندما قام كهنة اليهود بصياغة موحدة لاسفار التوراة. فاذا حللنا رواية التكوين إلى مكوناتها، استطعنا تمييز الروايتين عن بعضهما وفق التالي[٣٢]:

النص اليهوي:

١ ـ الحالة الأولى للكون، عماء مائي.

* ويذكرنا اسم ايلوهيم بلفظ الجلالة اللهم. كما أن الشق الاول منه مأخوذ من ايل اله السماء الكنعاني.

32 - S.H. Hooke, Middle Eastern Mythology, Pelican Book, London, 1968.

٢ ـ يعزى الخلق إلى ايلوهيم الذي قام به في ستة أيام منفصلة، في كل يوم عمل.

٣ ـ تتسلسل مراحل الخلق وفق التالي:

ـ النور
ـ السماء
ـ اليابسة
ـ الزرع
ـ الاجرام السماوية
ـ الاسماك والطيور
ـ الحيوانات والبشر رجالاً ونساء

النص الايلوهيمي:

١ ـ الحالة الأولى للكون قفر وخراب لا حياة فيه ولا زرع ولا ماء.
٢ ـ يعزى الخلق إلى يهوه، دون أي تقسيم زمني.
٣ ـ تتسلسل مراحل الخلق وفق التالي:

ـ الانسان، آدم من تراب
ـ جنة في شرقي عدن
ـ الأشجار من كل نوع بما فيها شجرة المعرفة
ـ الحيوانات والوحوش والطيور (لا ذكر للاسماك)
ـ المرأة تخلق من الرجل

هذا ولعل أكثر المشابهات اثارة، بين اسطورة التكوين التوراتية وبقية الأساطير في المنطقة، هي المشابهات مع الاينوما ايليش. مما سأتحدث عنه مفصلاً فيما يلي

٥ الواح التكوين السبعة و أيام التكوين السبعة

اضافة للاحتكاك الطويل مع الثقافات السورية المجاورة، فإن السبي البابلي قد قدم لليهود فرصة للاطلاع على آداب وديانة وأساطير ثقافة أرض الرافدين. وعندما عادوا إلى اورشليم، وقاموا بتدوين نصوص التوراة المتفرقة في كتاب جامع شامل، دخلت خبراتهم ايام السبي، بشكل تلقائي وطبيعي، فيما دونوه من نصوص. وكانت الاينوما ايليش درة الأدب والفكر البابلي، عميقة التأثير فيهم. ولا يقتصر تأثير الاينوما ايليش على افكار العبرانيين في مسائل الخلق والتكوين، بل يتعداها إلى جوانب أساسية وهامة في فكرهم الديني. من ذلك مثلاً، تأثرهم الكبير بفكرة شمولية الإله مردوخ التي ابرزتها الاينوما ايليش من خلال شرحها لمضمون أسمائه الخمسين، فظهر مردوخ، رغم وجود بقية الآلهة، الهاً أوحداً مطلقاً. إلا اننا سنقتصر في هذا المجال على دراسة التأثر الخاص بموضوعات التكوين. فنقارن النقاط الاساسية لكلا الاسطورتين واحدة واحدة.

١ ـ طبيعة المبدأ الأول:

المبدأ الأول في كلا النصين هو المياه. وانطلاقاً من هذه المياه البدئية تتم

كل عمليات الخلق. وهي ازلية غير مخلوقة، في النص البابلي هي جسد آلهة ثلاثة، آبسو وتعامة وممو. وفي النص التوراتي نجدها إلى جانب الإله دون أن يوضح لنا النص أيهما اقدم.

٢ ـ الظلام البدئي:

يأتي النصان على ذكر الظلام البدئي، غير أن الاينوما ايليش لا تذكره بوضوح، بل يأتي ذكره صراحة في نص بيريسوس الذي يقول أنه في البدء، لم يكن هناك سوى الظلام والماء.

٣ ـ الضوء قبل النجوم والأجرام السماوية المشعة:

يقول النصان بوجود الضوء واختلاف الليل والنهار، قبل خلق الاجرام السماوية. فالانيوما ايليش تتحدث عن وجود الايام والليالي منذ عهد آبسو، وغضبه على ابنائه، عندما كان لا يستطيع النوم ليلاً ولا الراحة نهاراً. كما ان مردوخ نفسه كان يشع بالنور. وفي الفصل الأول من سفر التكوين يخلق الرب النور ويميز الليل من النهار قبل أن يخلق الاجرام المنيرة والنجوم والكواكب.

٤ ـ خلق السماء:

يتفق النصان على أن السماء أتت نتيجة فصل المياه الأولى إلى قسمين. ففي النص البابلي يشطر مردوخ تعامة شطرين ويرفع أحدهما سماء وفي النص التوراتي: «وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد، وكان ذلك. ودعا الرب الجلد سماء».

٥ ـ خلق الأرض:

قام مردوخ بقياس أبعاد الأبسو وأقام لنفسه نظيراً له، بناءً هائلاً دعاه عيشارا أي الأرض. ولقد صنع ذلك بنصف تعامة الآخر. كذلك الأمر في سفر التكوين التوراتي، فبعد أن يرفع الرب نصف المياه الأولى إلى الأعلى، تتجمع المياه

السفلى إلى جانب مشكلة البحار، ولتظهر الأرض منبثقة من تحتها: «وقال الرب لتتجمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد، ولتظهر اليابسة، ودعا الرب اليابسة أرضاً، ومجتمع المياه دعا بحراً».

٦ ـ خلق الاجرام المنيرة:

بعد أن شكل مردوخ السماء والأرض، التفت إلى خلق الاجرام المضيئة، وقسم الوقت فرسم خط السمت، وحدود السنة وجزأها إلى أشهر وأيام، وأمر القمر بالسطوع وأوكله بالليل، جعله حلية وزينة ومنظماً لشهور السنة، وخلق الشمس محددة لأيام الأرض. وفي سفر التكوين، بعد ان ينتهي الرب من تشكيل السماء والأرض «وقال الرب لتكن أنوار في جلد السماء لتنير على الأرض، وكان كذلك. فعمل الرب النورين العظيمين، النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل. والنجوم. وجعلها في جلد السماء لتنير على الأرض».

٧ ـ خلق الحيوانات والنبات:

لا تحتوي ملحمة التكوين البابلية في أجزائها المقروءة شيئاً عن خلق الحيوان والنبات، ويعتقد أن الاجزاء المفقوْدة من اللوح الخامس تتحدث عن مثل هذا الخلق. أما النص التوراتي فيتحدث عن خلق الحيوانات في اليوم الخامس. أما نبات الأرض فلم يظهر إلا بظهور الانسان.

٨ ـ خلق الانسان:

تتفق الروايتان على أن خلق الانسان هو آخر عمل في سلسلة الخلق التي قام بها الإله. كما تتفقان على الأهمية البالغة لهذا العمل. ففي بداية اللوح السادس نجد مردوخ وقد حدثته نفسه بخلق أشياء مبدعة. وقد وصف هذا العمل في مكان آخر من اللوح بأنه العمل الذي يسمو على الافهام. أما أهمية خلق الانسان في نص التوراة، فتظهر في كونه قد خلق على صورة الإله، وأعطي السيطرة على الأرض، وسخرت له حيواناتها ونباتاتها.

وفي نصوص بابلية أخرى تتعلق بالتكوين، وجرى ذكرها سابقاً، تتحدث الأسـطورة عن خلق الانسان انطلاقاً من زوجين أولين، وكذلك الأمر في الرواية التوراتية. وقد تم صنع الانسان الأول في الأسطورة، اما من دم الإله وحده، أو من دم الإ له ممـزوجاً بالطين، ثم تعلق عليه صورة الآلهة فيأتي على شبهها. وفي الرواية التوراتية يصنع الانسان من طين على صورة الإله.

هدفت الآلهة البابلية من خلق الانسان، إلى تحميله عبء العمل الذي كان مفروضاً على الآلهة. ورغم ان هذا الهدف لا يظهر واضحاً في النص التوراتي، إلا ان النتيجة النهائية الاخيرة تتطابق مع غايات الاسطورة البابلية، عندما يطرد آدم من الجنة ويفرض عليه العمل كعقوبة: «وقال للمرأة: تكثيراً أكثر اتعاب حبلك، بالوجع تلدين أولاداً وإلى رجلك يكون اشتياقك، وهو يسود عليك. وقال لآدم: لانك سمعت قول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً لا تأكل منها، ملعونة الأرض بسببك، بالتعب تأكل منها كل ايام حياتك، وشوكاً وحسكاً تنبت لك، وتأكل عشب الحقل. بعرق وجهك تأكل خبزاً، حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها، لانك تراب وإلى تراب تعود»[٣٣].

أطلقت الرواية التوراتية على الانسان الأول اسم آدم والواقع أن هذه الكلمة أوغـارتية فينيقية وتعني: البشـر أو الانسـان[٣٤]. وقد وردت هذه الكلمة في عدة نصوص أوغارتية ومنها ملحمة كرت، عندما يظهر الإله ايل للملك كرت في الحلم:

وبينما هو يبكي وقع في غفوة
بينما هو يذرف الدموع غلبه النعاس
نعم لقد غلب كرت النعاس
وغاب في سبات عميق
ولكنه ما لبث أن أجفل
اذ ظهر له في الحلم «ايل»
في رؤاه ظهر ابو آدم

وكاختصار لما سبق نضع تسلسل الخلق في كلا النصين جنباً إلى جنب:

(٣٣) العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح الثالث: ١٦-١٨.

34 - C.H. Gordon, Ugarit, Norton Library, Newyork 1967, P. 102.

الاينوما ايليش	سفر التكوين
١ ـ العماء الأول تمامة الماء المالح وزوجها الماء الحلو. يحيط بهما ظلام	١ ـ الظلام يغلف المياه الاولى وروح الرب يرف فوق المياه
٢ ـ النور يشع ويتولد من الآلهة	٢ ـ خلق النور
٣ ـ خلق السماء	٣ ـ خلق السماء
٤ ـ خلق الأرض	٤ ـ خلق الأرض
٥ ـ خلق الاجرام السماوية	٥ ـ خلق الاجرام السماوية
٦ ـ خلق الانسان	٦ ـ خلق الانسان
٧ ـ مردوخ ينتهي من الخلق والآلهة تحتفل به	٧ ـ يهوه يستريح

تفسيرات حول تشابه النصين:

١ ـ التفسير الأول: النص البابلي قد اعتمد على النص التوراتي. وهذا بعيد الاحتمال لاسبقية الاينوما ايليش على أية نصوص مدونة للتوراة. فتاريخ تدوين الملحمة البابلية يعود إلى تاريخ قديم، حدده دارسوها بحوالي ١٨٠٠ قبل الميلاد، أي قبل ولادة موسى بأربعة أو خمسة قرون. ولاشك ان اصولها ترجع إلى مصادر موغلة في القدم. أما التوراة العبرانية فقد دونت أقدم أسفارها وهي أسفار موسى الخمسة بعد العودة من الاسر البابلي في القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد. ولم يقر النص النهائي للتوراة إلا في القرن الأول قبل الميلاد. وقد علقت مصادر دينية مسؤولة على هذا التشابه في بعض المناسبات بقولها ان موسى قد استعمل وثائق مخطوطة وتقاليد شفوية سابقة، ونقل ما يوافق الغاية التي استهدفها بالهام الروح القدس.

٢ ـ التفسير الثاني: النص التوراتي قد اعتمد النص البابلي. وهناك الكثير من المبررات التاريخية التي تدعم هذا الرأي. فاللغة البابلية قد شاعت في المنطقة وانتشرت غرباً حتى الساحل السوري، وشمالاً حتى آسيا الصغرى وذلك منذ مطلع الالف الثاني قبل الميلاد. فقد تم العثور في خرائب عاصمة الحثيين على نصوص

أدبية بابلية مكتوبة باللغتين الحثية والبابلية، منها أجزاء الواح تحتوي على مقاطع من ملحمة جلجامش. كما تم العثور في خرائب تل العمارنة في مصر، على مراسلات بين ملوك فينيقيا وملوك مصر باللغة البابلية، مما يدل على أن اللغة البابلية قد غدت، في زمن ما، حوالي منتصف الالف الثاني، لغة الدبلوماسية في المنطقة. كما عثر في تل العمارنة ايضاً على نصوص من الاساطير البابلية، كأسطورة أدبا، وأسطورة ملكة العالم الأسفل، وقد كتبت بلغة بابلية وبطريقة أقرب للتمارين المدرسية. ويغلب الظن أنها كانت تستعمل لتدريس اللغة.

وهكذا نرى أن العبرانيين كانوا معرضين للاطلاع على الأدب البابلي في أماكن مختلفة وأزمنة مختلفة. ولكن أفضل مكان وأنسب زمان لمثل هذا الاطلاع، كان ابان الاسر البابلي خلال القرن السادس قبل الميلاد. ومن ناحية أخرى اذا اردنا أن نعتبر ابراهيم، الجد الأول، شخصية تاريخية، وهذا ما لم تثبت عليه بينة حتى الآن، فإننا نستطيع متابعة التأثر إلى تاريخ ابعد، إلى أوائل الالف الثاني، عندما هاجر ابراهيم من أرض الرافدين، حاملاً معه تقاليد دينية بابلية.

٣ ـ التفسير الثالث: كلا النصين قد اعتمدا نصاً اقدم، وتقاليد دينية أعرق، وربما متح الفكران، البابلي والعبراني، من ديانة توحيدية قديمة، وهي الديانة التي تسلسلت من نوح إلى ابراهيم. وهذا التفسير ربما قامت عليه بينة في المستقبل.



«وقلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول، ومن آمن، وما آمن معه إلا قليل»

قرآن كريم: سورة هود ـ ٧

«وقال الرب لنوح ادخل السفينة أنت وجميع أهلك فإني اياك رأيت باراً أمامي في هذا الجيل»

العهد القديم: سفر التكوين، الاصحاح السابع ـ ١

«قوض بيتك وابن سفينة، اهجر ممتلكاتك، وانج بنفسك اترك متاعك وانقذ حياتك. واحمل فيها بذرة كل ذي حياة»

اسطورة بابلية

بعد فترة، ليست بالطويلة، من خلق العالم وظهور الحياة. تكتشف الآلهة أن الانسان لم يحقق تماماً الغاية التي من أجلها قد خلق. وانه قد عاث في الأرض التي استخلف فيها فساداً وسفك الدماء. فتقرر افناء الحياة على الأرض، وغسلها بطوفان شامل، تبدأ بعده تاريخاً جديداً. ولكن الانسان خلال عهده القصير على الأرض، قد حقق بعض غاياته، وترك منجزات حضارية وثقافية لا يستهان بها. ولذا لابد من الحفاظ على ذلك الجزء الصالح ونقله للعالم الجديد ليكون أساس البناء الثاني. ولن يتسنى ذلك إلا بانقاذ مجموعة صغيرة من البشر، تحمل معها منجزات العمل الانساني لتبدأ منها عهداً ثانياً، على أرض تطهرت من فساد الاجيال السالفة. ويقود ملحمة النجاة هذه، رجل حكيم صالح تختاره الآلهة لهذه المهمة الفريدة، وتوكل اليه مهمة بناء سفينة هائلة، يحمل فيها أهله والمقربين اليه من الصالحين ومن كل زوجين من الحيوانات اثنين. فيقلع بها عند انداح الطوفان، وقد حمل فيها من المؤن ما يكفي. وعند جفاف المياه يطلق حيواناته للجهات فتملأ الأرض مرة ثانية، ويؤسس بمن تبقى من البشر مدينة جديدة.

تتكرر هذه الخطوط العريضة للأسطورة، مع بعض التنويعات، لدى السومريين والبابليين والعبرانيين. ومع السفن الفينيقية تنتقل إلى اليونان، فتروي لنا

الاسـطورة الاغـريقية(1) أن كبير آلهـة الاوليمب «زيوس» قرر تدمير الحياة على الأرض، فارسل طوفاناً عارماً استمر تسعة ايام قضى على الناس أجمعين إلا رجلاً وامرأة هما «ديكليون» وزوجته «فرحة»، طافـا بسفينـة استقرت بهما على قمة جبل البرناس. وقـد رأى زيوس، بعد ذلك، ان يسرع باعادة الحياة إلى الأرض، فأمر الـزوجين أن يقـوما برمي الاحجار الصغيرة خلفهما، فتحولت هذه الاحجار إلى مخلوقات حية.

ومن المثير للتأمل، أن أسطورة الدمار الشامل شائعة في أماكن متفرقة من العالم، وبين شعوب لايربط بينها مكان أو زمان. ففي بوليفيا نجد لدى السكان الاصليين أسطورة عن دمار العالم بواسطة نار سماوية(2) قضت على جميع مظاهر الحياة عدا رجل واحد لجأ إلى كهف حريز، وتزود بالماء والمؤن الكافية، وبين الفينة والأخرى كان يمد عصا طويلة من ثقب صغير في باب كهفه، فتعود العصا مسودة ساخنة، فيعرف أن النار مازالت ملتهبة في الخارج. إلى أن مدها مرة فعادت باردة، فعرف أن طوفان النار قد انحسر عن الأرض. ففتح باب كهفه ليرى الأرض محروقة موحشة وأنه الكائن الوحيد على سطحها.

وفي نيوزيلنـدة أسـطورة مشـابهـة عن حريق سماوي(3)، اذ يقوم أحد الابطال من البشر بسرقة النار السماوية والفرار بها إلى الأرض. يقوم هذا البطل بالقضاء على العملاق حارس النار، ويسلبه الشعلة المقدسة ويأتي بها قومه. ولكنه لجدة عهده بهـا يسقطها من يده، فينسكب لهيبها ويطغى على الأرض. يرفع الرجل صلاته مستنجداً باله المطر الذي يحاول اطفاء النار ولكن عبثاً. ثم يلجأ لإله العواصف والاعـاصير فلا يستـطيع حيال النـار شيئـاً، فتتابع التهامها للأرض والبحر على السواء. إلى أن يجتمع كل الآلة فيسلطون فيضاناتهم التي تغمر العالم وتطفىء النار. تذكرنا هذه الاسطورة بقصة برومثيوس اليوناني، الذي سرق النار الالهية من السماء، وما تبع ذلك من كوارث حلت بالبشر.

ولدى هنود كاليفورنيا، اسطورة مماثلة، حيث يقوم أحد الأبطال بسرقة النار

1 - Robert Graves, Greek Myths, Penguins 1974. PP 138 - 139.

2 - F. Freudn, Myths of Creation, W. H. Allen, London, 1961.

3 - ibid.

من السماء، ولكنها تقع من يده وتحرق العالم. وتتناقل قبائل البرازيل حكاية طوفان عظيم، وكذلك قبائل غينيا البريطانية، وامريكا الوسطى الشمالية، وبعض القبائل الاوروبية قبل اعتناقها المسيحية. وفي اسطورة هندية، أن فيضاناً غمر العالم ولم ينـج منـه سوى رجل وامرأة كانا على أعلى قمة. وبعد انحسار الفيضان، جعلا يرتجفان من البرد فعطف عليهما اهل القمر وأرسلوا لهما ناراً ليتدفآ(4).

ان شيوع أساطير الطوفان والدمار الشامل في جميع أنحاء العالم يثير مسائل شتى تتعلق بتفسير هذا النـوع من الأسـاطير وبواعث نشأتها. فهل تنقل لنا هذه الروايات المرعبة احداثاً تاريخية وقعت في أزمان سحيقة قبل التاريخ المكتوب، وتـرسخت في ذاكـرة البشـر. ان هذا التفسير رغم جاذبيتـه لا تؤكـده الدراسات الجيولوجية والاركيولوجية حتى الآن. أم هل تشف هذه الأساطير عن حقائق نفسية ونوازع خافية باطنه؟ هل هي طغيان النزعات التدميرية الكامنة في لا شعور البشر ورغبة لا واعية في تدمير الذات؟ هل هي احساس عارم بالاحباط من حضارة تسير دومـاً في اتجـاه مخـالـف لسعادة الانسان، حضارة يجب تدميرها كلما أحكمت حلقاتها وضيقت خناقها على صانعيها؟ . . . اسئلة أتركها بلا جواب.

4 - ibid

١ الطوفان السومري

تؤسس لنا الأسطورة السومرية لأقاصيص الطوفان التي شاعت في المنطقة، كما اسست من قبل اقاصيص التكوين. فنص الطوفان الذي تم العثور عليه في خرائب مدينـة «نفر» السومرية، يقدم لنا الخطوط العريضة لكل أساطير الطوفان اللاحقة في بابل وسورية وبلاد الاغريق، وفي كتاب التوراة. وذلك رغم الحالة السيئة التي وجد عليها اللوح الفخاري الحاوي على الأسطورة، ورغم تشوه النص ونقصه في معظم مواضعه. وتتلخص الخطوط العريضة للأسطورة في أربع نقاط تتكرر كلها، مع بعض التنويعات، في بقية الأساطير اللاحقة:

١ ـ قرار إلهي بدمار الأرض بواسطة طوفان شامل.

٢ ـ اختيار واحد من البشر لانقاذ مجموعة صغيرة من البشر وعدد محدود من الحيوانات.

٤ ـ انتهاء الطوفان واستمرار الحياة من جديد بواسطة من نجا من الانسان والحيوان.

يمنع النقص الحاصل في بداية النص، من حصولنا على فكرة واضحة عن مطلع الأسطورة. وما أن يصبح النص واضحاً حتى يبدأ الحديث عن خلق الانسان وظهور خمس مدن إلى الوجود هي: اريدو، باديتيرا، لاراك، شروباك. وهي من

أوائل المراكز الحضرية السومرية. بعد توزيع هذه المدن على مجموعة من الأبطال والملوك، يتشوه النص ويغيب معناه. وعندما يبدأ اللوح، نجد الألهة وقد قررت افناء البشر بواسطة طوفان يغمر الأرض. إلا أن بعض الألهة تظهر عدم رضائها عن ذلك القرار. فهده «أنانا» إلهة الحب والخصب تنوح وتبكي مصير البشر المفجع، وهذا انكي إله الحكمة يخرج عن اجماع الآلهة ويأخذ على عاتقه انقاذ بذرة الحياة على الأرض. يتصل انكي بالملك زيوسودرا، وكان انساناً تقياً صالحاً، فيحدثه من وراء حجاب، كاشفاً له نوايا الألهة، شارحاً له خطته لانقاذ الحياة، والتي تتلخص في قيام زيوسودرا ببناء سفينة كبيرة لحمل الزمرة الصالحة من البشر وبعض الحيوانات. ورغم أن المقاطع الواضحة من النص لا تشير إلى بناء سفينة، وهوية الناجين وعدد الحيوانات، إلا أن المقاطع الباقية تصف لنا السفينة أثناء الطوفان، وتحدثنا عن قيام زيوسودرا بذبح ثور وكبش قرباناً للآلهة بعد نجاته. وهذا يدل على أنه حمل معه في السفينة بعض الحيوانات. وبعد انتهاء الطوفان يكافأ زيوسودرا على عمله باعطائه نعمة الخلود واسكانه في أرض دلمون، جنة السومريين. وهذه ترجمة للمقاطع الواضحة من الأسطورة[٥]:

في ذلك الحين بكت «ننتو»* كامرأة في المخاض
وانانا المقدسة ناحت على شعبها
انكي فكر ملياً، وقلب الأمر على وجوهه
آنو وانليل وانكي وننخرساج [....]
آلهة الأرض وآلهة السماء دعوا باسم آنو وانليل
في تلك الايام زيوسودرا كان ملكاً وقيماً على المعبد
قام بتقديم [قربان] عظيم
وجعل يسجد بخضوع [ويركع] بخشوع
ودونما كلل توجه للآلهة [في المعبد]
فرأى في أحد الأيام حلماً لم ير له مثيلاً

---

5 - S.N. Kramer, Sumerian Mythology, Harper, Newyork, 1961

- A. Heidel, The Gilgamesh Epic, Phoenix Books, Chicago, 1970.

* ننخرساج، الالهة الام.

الإله [. . . .] جدار [ ]
وعندما وقف زيوسودرا قرب الجدار سمع صوتاً:
«قف قرب الجدار على يساري واسمع
سأقول كلاماً فاتبع كلامي
اعط اذناً صاغية لوصاياي
انا مرسلون طوفاناً من المطر [....]
فيقضي على بني الانسان [....]
ذلك حكم وقضاء من مجمع الآلهة
أمر آنو وانليل
[فنضع حداً] لملكوت البشر»

يتبع ذلك تشوه في النص. إلا أن المفقود يصف ولا شك تعليمات الإله حول بناء السفينة ومواصفاتها ونوعية ركابها، ثم قيام زيوسودرا ببنائها. وعندما يتضح النص للقراءة نجد أنفسنا وسط الطوفان:

هبت العاصفة كلها دفعة واحدة
ومعها انداحت سيول الطوفان فوق [وجه الأرض]
ولسبعة أيام وسبع ليال
غمرت سيول الامطار وجه الأرض
ودفعت العواصف المركب العملاق فوق المياه العظيمة.
ثم ظهر «أوتو»* ناشراً ضوءه في السماء على الأرض
فتح زيوسودرا كوة في المركب الكبير
تاركاً أشعة البطل أوتو تدخل منه.
زيوسودرا الملك
خر ساجداً أمام أوتو
ونحر ثوراً وقدم ذبيحة من غنم

يعود النص للتشوه مرة أخرى. ومن المحتمل أن يكون الجزء الناقص هنا يتحدث عن جفاف المياه وهبوط السفينة على الأرض الجافة وحضور بقية الألهة

---

* اوتو: اله الشمس.

وسـرورهم بنجـاة الحياة من الدمار الكامل، والانعام على بطل الطوفان بالحياة السرمدية في أرض دلمون:

زيوسودرا الملك،
سجد أمام آنو وانليل
ومثل إله وهباه حياة أبدية
ومثل إله وهباه روحاً خالدة
عند ذلك زيوسودرا، الملك
دعي باسم حافظ بذرة الحياة
وفي أرض [. . . .] أرض دلمون
حيث تشرق الشمس، أسكناه

ودلمـون، جنـة السـومريين، ليست مكاناً لأرواح الصالحين، لأن الحياة الأخرى لم تكن معروفة لدى السومريين، وحالة الموت هي حالة أبدية يدخلها كل البشر بصرف النظر عما قدمت أيديهم في الحياة الدنيا، حيث يدلفون إلى العالم الاسفـل، عالم الـظلمـة الأبـدية، في استمرارية ليست بالحياة وليست بفقدان الحواس والشعور والادراك. وسنبحث هذه النقطة في باب العالم الأسفل لاحقاً. أما الجنة فهي مرتع الآلهة، وقلة قليلة من البشر الذين انعم عليهم الخلود. نقرأ عنهـا في لوح آخـر وصفاً حياً، فهي مكان طاهر نظيف ومضيء، حيث لا تنعق الغـربـان ولا تصـرخ الشـوحـة، ولا يفتـرس الأسد ولا الذئب، وحيث لا تلتهم الحيوانات الزرع، ولا يعرف أحد الألام والمرض والعجز والشيخوخة، حيث لا مكان للحزن والبكاء*.

* من أجل النص راجع فصل الجنة السومرية.

٢ الطوفان البابلي

كمـا فعـل البابليون في رائعتهم الأولى «الاينوما ايليش» كذلك فعلوا في رائعتهم الثانية «ملحمة جلجامش» فملحمة جلجامش هي تأليف أدبي رائع، بين مجمـوعـة نصـوص سومرية قديمة تتحدث عن بطل سومري حكم الفترة النضرة الأولى التالية للطوفان. فكانت تلك الاقاصيص السومرية نواة بنت عليها العبقرية الادبية البـابلية درة من درر الأدب القـديم، وحملتها الكثير من تصورات الثقافة البابلية، الفكرية والدينية والفلسفية. وإلى جانب نصوص جلجامش السومرية، استفاد البابليون من نص الطوفان السومري فادخلوه في سياق الملحمة التي جاءت نسيجاً متميزاً في معانيها ومراميها.

كان نص الطوفان، هو أول ما تم اكتشافه من ملحمة جلجامش. ففي عام ١٨٧٢ أعلن عالم الآثار البريطاني جورج سميث عن توصله لحل رموز أحد ألواح مكتبة بانيبال الحاوي على نص عن الطوفان مشابه للنص التوراتي. وقد أثار هذا الاعلان الكثير من الحماس، فتتابعت البعثات الاثرية على المنطقة، إلى أن تم الكشف عن ألواح ملحمة جلجامش الاثني عشر، والتي تغطي أسطورة الطوفان معـظم اللوح الحادي عشر منها. ورغم أن قصة الطوفان تبدو للوهلة الأولى وقد أقحمت على أحداث الملحمة، إلا أنها، في الواقع، قد جاءت في انسجام تام

مع الايقاع المأساوي للملحمة، وأضافت اليها ابعاداً ومعاني خاصة، مؤكدة أن الخلود سراب لن يناله أحد من البشر.

جلجامش، بطل مدينة أوروك وملكها، ثلثه إله، وثلثاه بشر قضى حياته في الصيد واللهو والبطش بالناس، منتشياً بقوته الخرافية وطاقته المتفجرة. ثم يتعرف على أنكيدو، نده، وتغير الصداقة العميقة التي ربطت بينهما مجرى حياته، فيقرر تحويل قواه وطاقاته للعمل المجدي الذي ينفع الناس، يقوم الصديقان بمغامرات عديدة ذات أهداف سامية، إلا أن انكيدو يموت نتيجة احدى هذه المغامرات. وهنا يصحو جلجامش على المأساة الحقيقية في حياة البشر ويهيم على وجهه في الصحاري والبراري تاركاً عرشه ومملكته باحثاً عن سر الخلود واكسير الحياة، يدفع به قدر الانسان الفاني. فهو رغم ثلثه الالهي، فان نسبه البشري يشده إلى القدر المشترك لبني الانسان. وبعد صعاب ومشاق لا يقدر عليها بشر، وصل جلجامش إلى اوتنابشتيم، الانسان الذي منت عليه الآلهة بالحياة الخالدة، يسأله عن سر الخلود، وكيف الحصول عليه. فيقص عليه اوتنابشتيم قصته مؤكداً أن ما حصل له هو أمر فريد لن يتكرر بسهولة لاحد من الناس، ويكشف له خبايا وأسرار واقعة الطوفان الكبير[6]:

قال جلجامش لاوتونابشتيم البعيد:
انظر اليك يااوتونابشتيم،
فأرى شكلك الرقيق لا يختلف عن شكلي
نعم. انك لا تختلف عني في شيء
لقد صورتك في نفسي كبطل على اهبة القتال
ولكن ها أنت مستلق بتراخ أو متكيء
اخبرني كيف حصلت على رفقة الآلهة ونلت الخلود؟
فقال اوتونابشتيم لجلجامش:
جلجامش... سأكشف لك أمراً كان مخبوءاً،
وابوح لك بسر من أسرار الآلهة،
«شوريباك» مدينة أنت تعرفها،

6 - E. A. Speiser, Akkadian Myths and Epics (in: J. Pritchard, Ancient Near Eastern rexts, Edited, Princeton. 1969).

تقع على شاطىء نهر الفرات،
لقد شاخت المدينة والآلهة في وسطها،
فحدثتهم نفوسهم ان يرسلوا طوفاناً،
كان هناك أنو ابوهم،
كما كان «انليل» مستشارهم،
و«ننورتا» ممثلهم،
و«اينوجي» وزيرهم،
و«ننجيكو» الذي هو «ايا» كان حاضراً ايضاً،
فنقل حديثهم إلى كوخ القصب*:
«ياكوخ القصب، ياكوخ القصب، جدار ياجدار،
اصغ ياكوخ القصب، وتفكر ياجدار
رجل شوريباك ياابن اوبارا - توتو،
قوض بيتك وابن سفينة،
اهجر ممتلكاتك وانج بنفسك،
اترك متاعك وانقذ حياتك،
اعمل على حمل بذرة كل ذي حياة،
والسفينة التي انت بانيها،
ستكون وفقاً لمقاسات مضبوطة،
فيكون عرضها معادلاً لطولها،
وغطها كما هي المياه السفلى».
عندما فهمت ذلك قلت لـ «ايا» مولاي،
[سأضع نصب عيني] ما قد أمرتني به
واعمل على تنفيذه
[ولكن بماذا] اجيب المدينة والناس والشيوخ؟
ففتح ايا فمه وقال
متوجهاً بالحديث إلى انا خادمه:

* كوخ القصب هو بيت اوتونابشتيم.

** والجدار هنا يذكرنا بالنص السومري عندما يتحدث إنكي الى زيوسودرا من خلف حائط.

واليك ما ستقوله لهم :
لقد علمت ان انليل يكرهني،
وعلي بعد الآن الا ابقى في مدينتكم،
وألا ادير وجهي نحو أرض انليل،
سأهبط إلى «آبسو» اعيش مع مولاي ايا،
اما انتم فسينزل عليكم مطر وافر،
[. . . .] من الـ/ طيور. . . من الاسماك،
[. . . .] غلال الحصاد،
وفي المساء رب العاصفة،
سينزل عليكم خيراته مطراً من القمح»*
وما ان [لاح اول قبس من نور الصباح]
حتى تجمع الناس حولي،
[. . . . . . .]
(سطران مشوهان)
جلب الاطفال القار [بينما] جلب الكبار [كل ذي] فائدة،
وفي اليوم الخامس انهيت هيكل [السفينة].
كانت ارضيتها «ايكو»** واحد، وارتفاع جدرانها مائة
وطول كل جانب من جوانب سطحها مائة وعشرين ذراعاً***
حددت شكلها الخارجي وشكلته،
وستة سطوح سفلية بنيت فيها،
وبذلك قسمتها لسبعة طوابق،
كما قمت بتقسيم ارضيتها لتسعة اقسام،
وثبت على جوانبها مصدات المياه،
زودتها بالمؤن والذخيرة،
وسكبت في الفرن ستة وزنات من القار،

* من الوضح ان «ايا» يحاول تغطية مقاصده عن الناس وتضليلهم.
** مقياس للمساحة يعادل ٣٦٠٠م٢.
*** وبذلك يصبح شكل السفينة مكعباً منتظماً.

وثلاث وزنات من الاسفلت،
ثلاث وزنات من الزيت الى بها حاملو السلال،
واحدة استهلكها نقع مصدات المياه،
واثنتان قام ملاح السفينة بخزنها،
ذبحت للناس عجولاً،
ورحت انحر الخراف كل يوم،
عصير العنب والخمر الاحمر والزيت والخمر الابيض،
اعطيت الصناع فشربوا كما من نهر ماء،
واحتفلوا كأعياد رأس السنة.
و[. . . .] المرهم وضعت يدي.
[. . . .] اضحت السفينة جاهزة.
[. . . .] كان صعباً للغاية.
[. . . .] من فوق ومن تحت.
[. . .]. . ثلثاها.
حملت اليها كل ما املكه.
كل ما املكه من فضة حملت اليها.
كل ما املك من ذهب حملت اليها.
كل ما لدي من بذور كل شيء حي حملت اليها
وبعد ان ادخلت اليها اهلي وأقاربي جميعاً،
وطرائد البرية ووحوشها وكل اصحاب الحرف
عين لي الإله «شمش» وقتاً محدداً:
«عندما يرسل سيد العاصفة* مطراً مدمراً في المساء،
ادخل الفلك واغلق عليك بابك».
وما أن ازف الموعد،
حتى أرسل سيد العاصفة مطراً مدمراً في المساء
قلبت وجهي في السماء، كان الجو مرعباً للنظر،

* انليل

دخلت السفينة وأغلقت علي بابي،
اسلمت قيادها للملاح بوزور ـ أموري،
اسلمته الهيكل العظيم بكل ما فيه.
وما ان لاحت تباشير الصباح،
حتى علت الافق غيمة كبيرة سوداء،
يجلجل في وسطها صوت «حدد»*
ويسبقها «شوللات» و «خانيش»**
اقتلع اريجال*** الدعائم،
وقام ننورتا بفتح السدود.
رفع «الانوناكي» مشاعلهم،
حتى أضاءت الأرض ببريقها.
الا أن ثورة حدد بلغت حدود السماء،
احالت إلى ظلمة ما كان مضيئاً،
وقام بتحطيم الأرض كما تحطم الجرة.
عصفت الريح العاتية يوماً كاملاً،
بعنف عصفت و [......]
اتت على الناس وحصدتهم كما الحرب،
حتى عمي الأخ عن أخيه،
وبات اهل السماء لا يرون اهل الأرض.
حتى الألهة ذعروا من هول الطوفان،
وهربوا صاعدين إلى سماء «آنو»****
انكمشوا كالكلاب الخائفة وربضوا في أسى.
صرخت «عشتار» كامرأة في المخاض

---

* حدد اله البرق والرعد والصواعق والامطار.

** مساعدا الاله حدد

*** هو نرجال اله العالم السفلي

**** انو كما نعرف هو سيد السماء، وبما ان السماء كانت في تصور البابليين سبعاً طباقاً فان آنو قد اتخذ السماء السابعة مقراً له.

ناحت سيدة الآلهة ذات الصوت العذب:
«لقد الت إلى طين تلك الأيام القديمة،
ذلك بأنني نطقت بالشر في مجمع الآلهة،
فكيف استطعت ان امر بمثل هذا الشر.
كيف استطعت أن آمر بالحرب لتدمير شعبي،
تدمير من اعطيتهم انا الميلاد،
وها هم يملأون اليم كصغار السمك»
وبكى معها آلهة الأونانكي.
جلسوا يندبون وينوحون،
وقد غطوا افواههم.
ستة ايام وستة ليال،
والرياح تهب والعاصفة وسيول المطر تطغى على الأرض.
ومع حلول اليوم السابع. العاصفة والطوفان،
خففت من وطأتها وكانت قبل كأنها الجيوش المحاربة.
واخذ البحر يهدأ والعاصفة تسكن. والطوفان يتوقف.
فتحت نافذة. فوقع النور على وجهي.
نظرت إلى البحر. كان الهدوء شاملاً
وقد عاد البشر إلى الطين.
كان الـ [....] بمحاذاة السقف،
جلست وانحنيت أبكي،
وانسالت دموعي على وجهي،
ثم نهضت وتطلعت في كل الاتجاهات،
مستطلعاً حدود البحر.
على بعد اثنتي عشرة ساعة مضاعفة، انبثقت قطع من الأرض،
واستقرت السفينة على جبل (نصير).
امسك الجبل بالسفينة ومنعها من الحركة.
ومضى اليوم الأول والثاني والجبل ممسك بالسفينة.
ومضى اليوم الثالث والرابع والجبل ممسك بالسفينة.

ومضى اليوم الخامس والسادس والجبل ممسك بالسفينة .
وعندما حل اليوم السابع ،
اتيت بحمامة وأطلقتها في السماء .
طارت الحمامة بعيداً وما لبثت ان عادت الي
لم تجد مستقراً فآبت .
فأتيت بسنونو واطلقته في السماء ،
طار بعيداً وما لبث ان عاد اليّ .
لم يجد موطئاً لقدميه فآب ،
ثم اتيت بغراب واطلقته في السماء ،
فطار الغراب بعيداً ولما رأى ان الماء قد انحسر ،
أكل وحام وحط ولم يعد .
عند ذلك اطلقت الجميع للجهات الاربع وقدمت اضحية .
سكبت خمر القربان على قمة الجبل .
اقمت سبعة قدور وسبعة أخر ،
وجمعت تحتها قصب السكر الحلو وخشب الارز والآس .
فتشمم الآلهة الرائحة الذكية ،
تجمعوا على الاضحية كالذباب ،
وعندما وصلت الآلهة العظيمة ، (عشتار)
رفعت عقدها الكريم الذي صنعه آنو وفق رغباتها وقالت :
«أيها الآلهة الحاضرون . كما لا أنسى هذا العقد اللازوردي
الذي يزين عنقي
فانني لن أنسى هذه الايام قط وسأذكرها دوماً
تقدموا جميعاً وقربوا من الذبيحة ،

الا انليل وحده لن يقترب ،
لأنه سبب الطوفان دونما ترو ،
واسلم شعبي للدمار» .
وعندما وصل انليل ،

ورأى السفينة انتابه الغيظ الشديد ،
واستشاط غضباً من آلهة الايجيجي
أنجا أحد من الفانين؟ الم يكن مقدراً ان يهلكوا جميعاً؟
ففتح ننورتا* فمه وقال مخاطباً انليل المحارب :
«من يستطيع أن يقوم بأمر دونما ايا
ان ايا وحده يعي كل الأمور»
ففتح ايا فمه وقال مخاطباً انليل المقاتل :
«ايها المحارب ، أيها الحكيم بين الآلهة .
كيف ، آه كيف دونما تفكر جلبت هذا الطوفان؟
حمل المذنب ذنبه ، والآثم اثمه .
امهله حتى لا يفنى ، ولا تهمله كي لا يفسد .
كنت تستطيع بدل الطوفان ان تسلط الاسود لتنقص عدد البشر .
كنت تستطيع أن تطلق الذئاب فتنقص من تعدادهم .
أو تحدث القحط الذي يهلك البلاد .
أو تأتي بـ ايرا** فيحصد الناس .
ثم انني لست الذي افشى سر الآلهة العظام .
لقد أريت أتراحيس*** حلماً فاستشف منه السر .
والآن اعقد أمرك بشأنه»
فصعد انليل إلى السفينة ،
وأخذ بيدي وأصعدني معه
كما اصعد زوجتي ايضاً وجعلها تركع إلى جواري ،
ثم وقف بيننا ولمس جبهتينا مباركاً :
«ما كنت يااوتونابشتيم إلا بشراً فانياً
ولكنك وزوجك منذ الآن ستغدوان مثلنا (خالدين)

---

* ننورتا ، اله السدود والري والقنوات .

** اله الطاعون .

*** اسم آخر لزيوسودرا أو أوتونابشتيم

وفي القاصي البعيد عند فم الانهار ستعيشان».

ثم أخذوني واسكنوني في البعيد حيث فم الانهار.

يعتبر هذا النص اهم نصوص الطوفان في أرض الرافدين، وذلك للعثور عليه كاملًا دونما نقص أو تشويه، ولدقة تعبيره وجمال أدائه الأدبي، ونصاعة لغته الشعرية. فهو جزء من ملحمة ذائعة الصيت في العالم القديم ترجمت إلى معظم لغات المنطقة القديمة. إلا انه ليس النص الوحيد. فقد وصلتنا اساطير طوفان أخرى من أرض الرافدين سنتعرض لها فيما يلي من هذا الفصل.

نص نيبور:

يقدم لنا هذا النص أقدم رواية سامية عن الطوفان، فهو يعود إلى الدولة البابلية القديمة. وتم العثور عليه في خرائب مدينة نيبور مكتوباً على لوح آجري تالف ومكسور. ولم تسمح حالة اللوح باستعادة أكثر من بضعة أسطر منه. ولكن هذه الأسطر الباقية تعطي فكرة واضحة عن مضمونه[٧]:

سأقوم بافلات [المياه..]
[....] سوف يأخذ الناس أجمعين.
[....] قبل ان يحل الطوفان
[....] سأسبب الخراب والدمار والفناء.
[....] قم ببناء السفينة
[....] سيكون هيكلها
سفينة عظيمة، وسيكون اسمها حافظة الحياة.
[....] قم بتغطيتها بغطاء متين
وإلى السفينة التي صنعت
اجلب وحوش البر وطيور السماء

ان هذه الأسطر على قلتها تعطينا فكرة واضحة عن مضمون القصة. فهناك طوفان قادم، وإله يصطفي أحد البشر لينقذ الحياة، ويأمره ببناء سفينة وحمل

7 - A. Heidel. The Gilgamesh Epic. Phoenix Books. Chicago. 1970.

أصناف الحيوان اليها. **ولا لمك ان هذا النص يشكل النواة التي بني عليها نص طوفان جلجامش.**

ملحمة أتراحيسس:

وهي النص البابلي الثالث عن الطوفان ورغم انها وصلتنا موزعة على عدة كسرات ألواح فإن سياقها العام واضح، ويمكن متابعتها دونما اشكال ولا ابهام. وقد سبق الطوفان في هذه الرواية بالامراض والاوبئة التي ارسلها «أنليل في محاولة للتقليل من تعداد البشر الذين بدأ تكاثرهم وضجيجهم يقض عليه مضجعه ويمنع النوم عن جفونه[٨]:

لقد عمرت الأرض وتكاثر الناس
تكاثروا حتى تخمت بهم الأرض كما تتخم الشاة
وتزايدوا حتى ازعجوا الإله «انليل» بتجمعاتهم
لقد وصل ضجيجهم اليه (في عليائه)
فقال للآلهة الكبرى*
لقد ازداد صخب البشر
وجعل النوم بعيداً عن عيوني
فلتقع الاشجار التي تطعمهم
ولتعو بطونهم طلباً للطعام
وليمنع «حدد» في الاعالي مطره عنهم.
وفي الاعماق فلتنضب مياه الينابيع
وليتوقف سيل المياه من العيون
ولتهب الرياح
[........]
لتحرم السماء من غيومها
وتبق الأرض دونما مطر

8 - ibid

* وهي الآلهة الخالقة عند البابليين وعددها سبعة.

لتمنع الحقول غلالها

ولتحجب «نيسابا»* صدرها الخصب

(يتبع ذلك تشويه كبير حتى السطر ٣٨٧ ثم يتابع النص على الشكل التالي):

ففتح انكي فمه

وقال مخاطباً انليل :

لماذا امرت [. . . .]

سأمد يد المساعدة إلى البشر [. . . .]

والطوفان الذي قد امرت به

(مجموعة اسطر مشوهة يصعب ترجمتها يليها مباشرة سطر استدراكي ثم التذييل المعهود الذي ينهي به النساخ كل لوح).

فتح أتراحيسس فمه

وقال لمولاه

(تذييل):

واللوح الثاني من: عندما الانسان الاله مجموع سطوره ٤٣٩ سطراً

نسخها: ايليت ـ ايا ـ النساخ المساعد ٢٨ شباط

في السنة التي قام بها الملك آميزادوجا باعادة بناء

دور ـ افيزادوجا

عند فم الفرات

الكسرة الثانية :

(البداية مفقودة)

فتح اتراحيس فمه وقال لمولاه :

هلا اعطيتني شرحاً لاحلامي

[. . . . .]

وحسناً فلتصغ إلي

اسمع ياجدار

* الهه القمح والحبوب. وهي صورة أخرى من صور الالهه ـ الأم ننخرساج.

ولتصل كلماتي باكوخ القصب :

قوض بيتك وابن سفينة

اهجر ممتلكاتك

وخلص حياتك

والسفينة التي انت بانيها

(يتبع ذلك تشويه كبير حتى نهاية الكسرة حيث نجد نفس التذييل الذي رأيناه في الكسرة السابقة).

[. . . . .]

الكسرة الثالثة :

وفي الوقت المحدد الذي سأعينه لك

ادخل الفلك واغلق عليك بابك

احمل اليها الحبوب والمتاع والمواشي

زوجك وعائلتك واقرباءك واصحاب الحرف

طرائد البرية ووحوشها، وما استطعت من آكلة الاعشاب

سأدفع بها اليك، وتقبع عند ابوابك تحرسها لك

ففتح اتراحيس فمه وقال

محدثاً «ايا» مولاه :

لم يسبق لي أن بنيت سفينة

فهلا رسمت لي شكلاً لها على الأرض

استعين به على بنائها

[. . . .] على الأرض [. . . .]

ثم اني سأعمل على تنفيذ كل ما أمرتني به .

(البقية مكسورة).

الكسرة الرابعة :

(البداية مفقودة)

وعندما حلت الـ [سنة الثانية]

وتبعتها السنة الثالثة

تبد الناس في [ ] سهم

وعندما حلت السنة الرابعة [. . . .] في ضيق

[. . . .] الواسع غدا ضيقاً

وهام الناس في الطرقات باكتئاب

وعندما حلت السنة الخامسة طرقت البنت باب امها*

ولكن الأم لم تفتح لابنتها بابها

وراقبت البنت ميزان امها

وراقبت الأم ميزان ابنتها*

وعندما حلت السنة السادسة. اعدت الابنة لتكون طعاماً

كما هيء الاطفال ليكونوا طعاماً الـ [. . . .] مليئاً

وراح البيت [يفترس] البيت الآخر

وصارت وجوه الناس كوجوه اشباح الموتى

[وعاشوا] بانفاس خفيضة (مكتومة تكاد لوهنها تتوقف)

ولكنهم تلقوا رسالة [. . . .]

(بقية العمود تالفة، ولكننا نستنتج مما ورد في العمود الثاني ان البشر قد منحوا استراحة مما يعانون فعادت احوالهم للأزدهار، ولكنهم عادوا لاقلاق انليل من جديد فشن عليهم حملة جديدة).

في الاعالي [امسك حدد امطاره]

وفي الاعماق نضبت (الينابيع) ولم تصل المياه لأبارها

وضنـ[ت الحقو]ل بخيراتها

(لأن) نيسابا قد حجبت صدرها [. . . .]

فاضت السهول بالـ [ملح . . . .]

ولم يظهر الزرع ولا ازهر النبت

واجتاحت الامراض والاوبئة الناس اجمعين

اغلقت الارحام وباتت بلا حبل ولا ولادة

* والواضح من هذا المعنى ان النساء قد هجرن ازواجهن فعدن الى اهلهن.

* اي ان العلاقات صار يسودها الشك وعدم الثقة والمحاسبة الدقيقة في جميع الامور.

[. . . . .]

وعندما حلت السنة الثانية [. . . .] المؤن

وعندما حلت السنة الثالثة

تغير الناس في [. . . .]

وعندما حلت السنة الرابعة [. . . .] في ضيق

[. . . .] الواسع غدا ضيقا

وهام الناس في الطرقات باكتئاب

وعندما حلت السنة الخامسة طرقت البنت باب امها

ولكن الأم لم تفتح لابنتها بابها

وراقبت البنت ميزان امها

وراقبت الأم ميزان ابنتها

وعندما حلت السنة السادسة اعدت الابنة لتكون طعاماً

كما هيء الاطفال ليكونوا طعاماً وكان الـ [. . . .] مليئاً

وراح البيت يفترس الآخر

وصارت وجوه الناس كوجوه اشباح الموتى

وعاشوا بانفاس خفيضة (مكتومة تكاد لوهنها تتوقف)

ولكن اتراحيس الرجل [الحكيم]

توجه بقلبه [إلى ايا سيده]

[وتكلم] مع إلهه

[وسيده ايـ]ـا تكلم معه

[. . . .] باب إلهه

وإلى جانب النهر اقام سريره

[. . . .] الامطار [. . . .]

(يلي ذلك نقص ولكننا نفهم من سياق ما يلي ان ايا قد استجاب لاتراحسيس بعد ان اقام هذا إلى جانب النهر يصلي ليكون قريباً من انكي إله الماء. ولكن الناس عادوا لسابق عهدهم فعاد انليل إلى افانينه في افنائهم والتقليل من توالدهم).

بسبب ضوضائهم غدا «انليل» منزعجاً

وبسبب ضجيجهم لم يطرأ الكرى جفونه
فعقد انليل اجتماعاً
وقال للآلهة ابنائه :
«عظيمة صارت ضوضاء البشر
وبسببها انا متزعج
وبسببها لا يطرأ الكرى جفوني
[. . . .] فلتكن هناك ملاريا
وبلحظة خاطفة فلتضع الاوبئة حداً لضجيجهم
وتهب عليهم كما العواصف (والاعاصير)
علل وأمراض وأوبئة وحمى»
[. . . .] فكانت ملاريا
وبلحظة خاطفة وضعت الاوبئة حداً لضجيجهم
وكالعواصف هبت عليهم (وحصدتهم)
علل وامراض وأوبئة وحمى
ولكن اتراحيس توجه بقلبه إلى سيده «ايا»
وتكلم مع إلهه
وسيده ايا تكلم معه
فتح اتراحيس فمه وقال
مخاطباً ايا سيده :
«ياالهي ان البشر يئنون
وقد طغى على الأرض غضب الآلهة
[. . . .] وانت يامن خلقتنا
هلا اجتثثت العلل والأمراض والاوبئة والحمى
ففتح ايا فمه وقال له لما سمع نداءه :
[. . . .] في الأرض
[. . . .] وصل لآلهتك
[. . . . .]
[. . . . .]

فعقد انليل اجتماعاً وقال للآلهة ابنائه :
«[. . . .] لا تطعموهم
لم ينقص البشر بل ازدادوا عما قبل
ضوضاؤهم تزعجني (وتؤرقني)
وضجيجهم يمنع عن عيني الكرى
فلتمنع الاشجار عنهم اثمارها
ولتعو بطونهم طلباً للخضار
في الأعالي فليمسك حدد مطره عنهم
وفي الأعماق فلتنضب الينابيع ولا تصل المياه لآبارها
ولتبخل الحقول بخيراتها
ولتحجب نيسابا صدرها (الخصب) . . .
ولتنتج السهول العريضة ملحاً
فلا يظهر الزرع ولا يزهر النبت
ولتعصف الأمراض والأوبئة بالناس اجمعين
ولتغلق الأرحام فلا حبل ولا ولادة»
(فكان ما قال)
منعت الأشجار ثمارها عن الناس
وعوت بطونهم طلباً للخضار
وفي الأعالي امسك حدد مطره عنهم
وفي الأعماق نضبت الينابيع ولم تصل المياه لآبارها
وضنت الحقول بخيراتها
وحجبت نيسابا صدرها (الخصب)
وعصفت الأمراض والأوبئة بالناس اجمعين
واغلقت الارحام فلا حبل ولا ولادة

(يلي ذلك نقص. وعندما يكتمل اللوح للقراءة نجد مساعي انليل في افناء البشر عن طريق اغلاق الارحام تبوء بالفشل. لأن اتراحيس وآخرون معه يمضون إلى ربة الولادة «مامي» أو «ماما» التي تجدد الخلق عن طريق ارحام طينية.

والمقطع يشوبه الغموض بعض الشيء. وقد عمدت إلى ترك ترجمة بعض الأسطر للحفاظ على المعنى العام.

[....] قبلوا اقدامها
قائلين: اليك ندعو ياخالقة بني الانسان
ياسيدة جميع الآلهة
ومضوا إلى بيت الاقدار
نتجيكو (الذي هو) ايا و «ماما» الحكيمة

....

وقال ايا [....] بينما يتلو التعويذة ويكررها
وطلب من «مامي» ان تتلو التعويذة وهو جالس امامها
فتلتها «ماما» وعندما انهتها
صبتها على (ما جمعه) من طين
واقتطعت منه اربع عشرة قطعة. ووضعت سبعاً على اليمين
ووضعت سبعاً على اليسار وبينهما اقامت قطعة من الآجر

....

وفتحت لكل منهما سرة (في وسطه)
سبعة ارحام وسبعة أخر. سبعة انتجت رجالاً
وسبعة انتجت نساء

إلى هنا وينتهي ما وصلنا من ملحمة «أتراحيسس». والواقع ان الصورة التي ظهر بها انليل لصورة مهولة. وهو وان ارتبط اسمه بأهم حوادث الدمار والخراب في المنطقة فإن له جانباً آخر لا علاقة له بالدمار والخراب بل بالبناء والنظام. وكيف لا وهو الذي اخرج العالم من وسط العماء وخلق الشكل من الهيولى، والنظام من لجة الفوضى، وأورد هنا ترتيلة من احدى الصلوات الكثيرة التي وجدت في تمجيده وتعظيمه باعتباره محور الكون:

لولا انليل الجبل العظيم
لما بنيت المدن ولا اقيمت المواطن
ولما شيدت الزرائب والحظائر.
ولما اقيم ملك، ولا ولد كاهن اعظم

ولما اختير كاهن الـ «ماخ» ولا الكاهنة العليا...
ولفدا العمال وليس عليهم رئيس ولا مشرف
والانهار لولاه ما جلبت مياهها الفيض والارواء
ولولاه ما وضع السمك بيضه في الأهوار
ولما بنت اطيار السماء اعشاشها في الأرض الواسعة
وفي السماء لولاه ما جاءت بمائها السحب العابرة
ولولاه ما نمت النباتات والاعشاب التي يزهو بها السهل
وفي الحقل والمرعى ما ازدهرت الغلة الوافرة
وما انتجت الاشجار في الغابات اثمارها

نص بيروسوس:

قلنا في فصل التكوين ان «بيروسوس» هو كاهن مردوخ في بابل في النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد بعد فتح الاسكندر وطغيان التأثير الهليليني وقد قام هذا الكاهن بكتابة تاريخ «بابل» عن طريق جمعه من المخطوطات والوثائق المدونة، ونشره باللغة اليونانية عام ٢٧٥ ق. م. وقلنا ان اعمال هذا الكاتب قد ضاعت كلها. غير ان مقتبسات منه قد ظهرت في أعمال الكاتب الكسندر بوليستر في القرن الأول قبل الميلاد. ومن جملة تلك المقتبسات رواية بيروسوس عن الطوفان[٩]:

بعد موت الملك «اردييتس» تولى الحكم بعده ابنه «اكسوثروس» الذي وقع في عهده الطوفان الكبير. ففي ذات ليلة تجلى «كرونوس»* للملك في الحلم وأنبأه انه سيقوم في الخامس عشر من شهر تموز باهلاك الحياة على الأرض بواسطة طوفان مدمر لا يبقى على شيء. ثم امره أن يشرع بكتابة الواح عن بداية كل شيء وتطوره ونهايته* وطمر هذه الالواح في «سيبارا» مدينة إله الشمس. كما امره ان يبني سفينة ويقلع فيها مع عائلته واقربائه، وان يخزن فيها الماء والطعام ويحمل اليها

9 - A. Heidel, The Gelgamesh

* يقوم الكاتب اليوناني هنا بتغيير اسم الاله من «ايا» الى كرونوس الاله اليوناني المعروف.

** ويقصد «ايا» بذلك الى حفظ منجزات الحضارة من الضياع.

الحيوانات الحية من كل ما يطير أو يدب على الأرض. فإذا سئل إلى اين يبغي الذهاب عليه ان يقول: «إلى الآلهة لاصلي لها عسى ان تكون رفيقة بالبشر» فصدع الملك بما امر وبنى سفينة طولها خمسة (اسناديا) وعرضها اثنتا (اسناديا) وملأها وفق المشيئة الإلهية ثم صعد مع زوجه واولاده والمقربين اليه.

وبعد ان هدأ الطوفان ارسل «اكسوثروس» بعض الطيور. فلما لم تجد مكاناً تهبط اليه أو طعاماً تلتقطه عادت إلى السفينة. فانتظر فترة ثم ارسل الطيور مرة اخرى. ولكنها عادت إلى السفينة ايضاً وعلى ارجلها آثار من طين. وعندما اطلقها للمرة الثالثة طارت ولم تعد. فعرف اكسوثروس ان الأرض قد انكشفت. وما لبثت السفينة ان استوت على احد الجبال ولم تعد تتحرك. نزل الملك من السفينة ومعه زوجته وابنته وملاح السفينة. فسجد على الأرض وبنى مذبحاً وقدم قرباناً للآلهة.

ولما تأخر عن العودة إلى السفينة نزل ساكنوها وبحثوا عنه ومن رافقه فلم يقفوا لهم على اثر. وبينما هم في حيرة من امرهم اتاهم صوت من السماء يأمرهم بالتقوى والصُلاح ويخبرهم بأن اكسوثروس رفع إلى الآلهة ليعيش معهم عيشة خالدة لأنه كان تقياً صالحاً، كما شاركته في هذه النعمة زوجته وابنته وملاح السفينة. واخبرهم الصوت ان المكان الذي هبطوا فيه هو احدى بقاع ارمينيا. وان عليهم ان يعودوا منه إلى بابل وان يستعيدوا الالواح المطمورة في «سيبارا».

وعندما سمع القوم ما قاله لهم الصوت السماوي، قاموا بتقديم اضاح للآلهة ومضوا إلى بابل سيراً على الاقدام. وقبل وصولهم عرجوا إلى حيث الالواح فاسترجعوها ثم تابعوا فبنوا المدينة من جديد، واشادوا مدناً كثيرة اخرى وأقاموا المعابد والهياكل.

٣ الطوفان التوراتي

اذا كان الدارس بحاجة إلى اعمال الفكر ليظهر التشابه القائم بين نصوص التكوين السومرية والبابلية والسورية من جهة، والنص التوراتي من جهة أخرى، فإن نصوص الطوفان تعفيه من كثرة التمحيص والتدقيق والبحث عما خفي من المعاني والرموز: ان التشابه بين النصوص البابلية والنص التوراتي يدعو لكثير من التأمل والتفكير. ومرة ثانية تطرح نفسها، مسألة التفسير، بقوة أكبر. لقد كتب مؤلفو التوراة نص الطوفان معتمدين بشكل واضح على أكثر من نص بابلي، مع بعض التعديل والتغيير، ومعظم التعديلات تتعلق بشخصية الإله الرئيسي في الرواية فبينما تزدحم الرواية البابلية بالآلهة المتناقضة الاهواء والرغبات، يتفرد يهوه بالفعالية الرئيسية في الرواية التوراتية. وفيما عدا ذلك فإن الرواية التوراتية تتبع نفس المخطط العام الذي أسست له الأسطورة السومرية. وسأعمد بعد سرد النص التوراتي إلى اجراء مقارنة شاملة بين جميع النصوص التي قدمتها.

طوفان نوح ـ سفر التكوين

الاصحاح السادس:

«ـ ١ ـ ولما ابتدأ الناس يكثرون على وجه الأرض وولد لهم بنات. ـ ٢ ـ رأى

بنو الله بنات الناس انهن حسنات فاتخذوا لهم نساء من جميع من اختاروا . ـ ٣ ـ فقال الرب لا تحل روحي على الانسان ابداً لانه جسد وتكون أيامه مئة وعشرين سنة . ـ ٤ ـ وكان على الأرض جبابرة في تلك الايام ، وأيضاً بعد أن دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم اولاداً اولئك هم الجبابرة المذكورون منذ الدهر .
ـ ٥ ـ ورأى الرب شر الناس قد كثر على الأرض وان كل تصوز افكار قلوبهم انما هو شر في جميع الايام . ـ ٦ ـ فندم الرب انه عمل الانسان على الأرض وتأسف من قلبه . ـ ٧ ـ فقال الرب امحو الانسان الذي خلقت على وجه الأرض، الانسان والبهائم والدبابات وطير السماء لاني ندمت على خلقي لهم . ـ ٨ ـ اما نوح فنال حظوة في عيني الرب . ـ ٩ ـ وهؤلاء مواليد نوح . كان نوح رجلاً براً كاملاً في أجياله وسلك نوح مع الله . ـ ١٠ ـ وولد نوح ثلاثة بنين ساما وحاما ويافث . ـ ١١ ـ وفسدت الأرض أمام الله وملئت جوراً . ـ ١٢ ـ ورأى الله الأرض فإذا هي قد فسدت لأن كل جسد قد أفسد طريقه اليها . ـ ١٣ ـ فقال الله لنوح قدرنا أجل كل بشر بين يدي فقد امتلأت الأرض من أيديهم جوراً فهأنذا مهلكهم مع الأرض . ـ ١٤ ـ اصنع لك تابوتاً من خشب قطراني واجعله مساكن واطله من داخل ومن خارج بالقار . ـ ١٥ ـ كذا تصنع ، ثلاث مائة ذراع طوله وخمسون ذراعاً عرضه ، وثلاثون ذراعاً سمكه .
ـ ١٦ ـ وتجعل طاقاً للتابوت وإلى قد ذراع تكمله من فوق واجعل باب التابوت من جانبه ومساكن سفلى وثواني وثوالث تصنعه . ـ ١٧ ـ وها انذا آت بطوفان مياه على الأرض لاهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء وكل ما في الأرض يهلك .
ـ ١٨ ـ واقيم عهدي معك فتدخل التابوت انت وبنوك وامرأتك ونسوة بنيك معك .
ـ ١٩ ـ ومن كل حي من كل ذي جسد اثنين من كل تدخل التابوت لتحيا معك . ذكراً وانثى تكون . ـ ٢٠ ـ من الطير باصنافها ومن البهائم باصنافها ومن جميع دبابات الأرض باصنافها يدخل اليك اثنان من كل لتحيا . ـ ٢١ ـ وانت فخذ لك من كل طعام يؤكل وضمه اليك فيكون لك ولهم مأكلاً . ـ ٢٢ ـ فعمل نوح بحسب ما أمره به هكذا فعل .

الاصحاح السابع :

ـ ١ ـ وقال الله لنوح ادخل التابوت انت وجميع أهلك فاني إياك رأيت باراً امامي في هذا الجيل . ـ ٢ ـ وخذ من جميع البهائم الطاهرة سبعة سبعة ذكوراً واناثاً . ومن

البهائم التي ليست طاهرة اثنين ذكراً وانثى . ـ ٣ ـ وخذ ايضاً من طير السماء سبعة ذكوراً واناثاً ليحيا نسلها على وجه الأرض . ـ ٤ ـ فانني بعد سبعة أيام ممطر على الأرض اربعين يوما واربعين ليلة وماح كل قائم مما صنعته عن وجه الأرض .
ـ ٥ ـ فعمل نوح بحسب كل ما أمره الرب به . ـ ٦ ـ وكان نوح ابن ست مئة سنة حين كان ماء الطوفان على الأرض . ـ ٧ ـ ودخل نوح التابوت هو وبنوه وامرأته ونسوة بنيه معه من ماء الطوفان . ـ ٨ ـ ومن البهائم الطاهرة ومن البهائم التي ليست بطاهرة ومن الطير وجميع ما يدب على الأرض . ـ ٩ ـ دخل التابوت اثنان اثنان إلى نوح ذكوراً واناثاً كما أمر الله نوحاً . ـ ١٠ ـ وبعد سبعة ايام كانت مياه الطوفان على الأرض .
ـ ١١ ـ في السنة الست مئة من عمر نوح في الشهر الثاني في اليوم السابع عشر منه في ذلك اليوم تفجرت غيوم الغمر العظيم وتفتحت كوى السماء . ـ ١٢ ـ وكان المطر على الأرض اربعين يوماً واربعين ليلة . ـ ١٣ ـ في ذلك اليوم نفسه دخل نوح التابوت هو وسام وحام ويافث بنوه وامرأة نوح وثلاث نسوة بنيه معهم . ـ ١٤ ـ هم وجميع الوحوش باصنافها وجميع البهائم كل طائر كل ذي جناح . ـ ١٥ ـ ودخلت التابوت إلى نوح اثنين من كل ذي جسد فيه روح حياة . ـ ١٦ ـ والداخلون دخلوا ذكوراً واناثاً من كل ذي جسد كما أمره الله وأغلق الرب عليه . ـ ١٧ ـ وكان الطوفان اربعين يوماً على الأرض فكثر الماء وحمل التابوت فارتفع عن الأرض . ـ ١٨ ـ وكثرت المياه جداً وتعاظمت على الأرض فسار التابوت على وجه الماء . ـ ١٩ ـ وكثرت المياه جداً على الأرض فغطت جميع الجبال الشامخة التي تحت السماء كلها .
ـ ٢٠ ـ وعلت المياه خمسة عشر ذراعاً على الأرض وتغطت الجبال . ـ ٢١ ـ فهلك كل ذي جسد يدب على الأرض والناس كافة . ـ ٢٢ ـ كل من في انفه نسمة حياة من كل من في اليبس ماتوا . ـ ٢٣ ـ ومحا الله كل قائم على وجه الأرض من الناس والبهائم والدبابات وطير السماء فانمحت من الأرض وبقي نوح ومن معه في التابوت فقط . ـ ٢٤ ـ وتعاظمت المياه على الأرض مئة وخمسين يوماً .

الاصحاح الثامن :

ـ١ ـ وذكر الله نوحاً وجميع الوحوش والبهائم التي معه في التابوت . فأرسل الله ريحاً على الأرض فتناقصت المياه . ـ ٢ ـ وانسدت عيون الغمر وكوى السماء واحتبس المطر من السماء . ـ ٣ ـ وكانت المياه تتراجع عن الأرض كلما مرت

وعـادت ونقصت المياه بعـد مئة وخمسين يوماً . ـ ٤ ـ واستقر التابوت في الشهر السابع في اليوم السابع عشر منه على جبال آراراط . ـ ٥ ـ وكانت المياه كلما مرت نقصت إلى الشهر العاشر وفي أول يوم منه ظهرت رؤوس الجبال . ـ ٦ ـ وكان بعد أربعين يوماً ان فتح نوح كوة التابوت التي صنعها . ـ ٧ ـ واطلق الغراب فخرج وجعل يتردد إلى أن جفت المياه عن الأرض . ـ ٨ ـ ثم أطلق الحمامة من عنده لينظر هل غاصت المياه من وجه الأرض . ـ ٩ ـ فلم تجد الحمامة مستقراً لرجلها فرجعت اليه إلى التابـوت اذ كانت المياه على وجه الأرض كلها فمد يده فأخذها وادخلها إلى التـابـوت . ـ ١٠ ـ ولبث ايضاً سبعة ايام أخر وعاد فاطلق الحمامة من التابوت .
ـ ١١ ـ فعادت اليه الحمامة وقت العشاء وفي فيها ورقة زيتون خضراء فعلم نوح ان المياه قد جفت عن الأرض . ـ ١٢ ـ ولبث ايضاً سبعة ايام أخر ثم اطلقها فلم تعد ترجع اليه ايضاً . ـ ١٣ ـ وكان في سنة احدى وست مائة في اليوم الأول من الشهر الأول ان جفت المياه عن الأرض فرفع نوح غطاء التابوت ونظر فإذا وجه الأرض قد نشف . ـ ١٤ ـ وفي الشهر الثاني في اليوم السابع والعشرين منه جفت الأرض .
ـ ١٥ ـ فخاطب الله نوحاً قائلاً . ـ ١٦ ـ اخرج من التابوت انت وامرأتك وبنوك ونسوة بنيك معك . ـ ١٧ ـ وجميع الوحوش التي معك من كل ذي جسد من الطير والبهائم وسـائر الدبيب السـاعي على الأرض اخرجهن معك ليتوالدوا في الأرض وينمون ويكثـرون عليها . ـ ١٨ ـ فخرج نوح وبنوه وامرأته ونسوة بنيه معه . ـ ١٩ ـ وجميع الـوحوش والـدبـابـات والطيور وكل ما يدب على الأرض باصنافها خرجت من التابوت . ـ ٢٠ ـ وبنى نوح مذبحاً للرب وأخذ جميع البهائم الطاهرة ومن جميع الـطير الطاهرة فأصعد محرقات المذبح . ـ ٢١ ـ فتنسم الرب رائحة الرضا وقال الرب في نفسه لا أعيد لعن الأرض ايضاً بسبب الانسان بما تصور قلب الانسان شرير منذ حداثته ولا أعود اهلك كل حي كما صنعت . ـ ٢٢ ـ وأبدا مادامت الأرض فالزرع والحصاد والبرد والحر والصيف والشتاء والنهار والليل لا تبطل .

وكما رأينا في اسطورة التكوين التوراتية، فإن قصة الطوفان تقدم لنا ايضاً فرصة لملاحظة النسج الذي قام به كتاب التوراة، بعد العودة من الاسر في بابل لنوعين من النصوص التوراتية. الأول ويظهر الرب فيه تحت اسم يهوه، والثاني تحت اسم ايلوهيم . ولذا دعونا النصوص الأولى باليهويـة والثانية الايلوهيمية .

ان قراءة الطوفان التوراتي دون أخذ هذه الحكاية بعين الاعتبار توقع القارىء

في حيرة لمـا في الحـوادث من تناقض. لأن مؤلفي التـوراة قد جعلوا النصين يتداخلان مع بعضهما دونما التفات لالغاء التناقضات بينهما. ولايضاح ذلك لابد من العودة إلى النص مرة اخرى، لايراد اوضح النقاط التي يبدو التعارض فيها محيراً للوهلة الأولى .

ورد في الاصحاح السادس: ١٩ ـ ٢٠ «ومن كل حي من كل ذي جسد اثنين من كل تدخـل التابوت لتحيا معك، ذكراً وأنثى تكون. من الطير بأصنافها ومن البهـائم بأصنـافها ومن جميع دبابات الأرض بأصنافها يدخل إليك اثنان من كل لتحيا» أما في الاصحاح السابع: ٢ ـ ٣ فنقرأ «وخذ من جميع البهائم الطاهرة سبعة سبعة، ذكوراً واناثاً. ومن البهائم التي ليست طاهرة اثنين ذكراً وأنثى». إن الفقرتين تطرحـان تعليمـات متنـاقضة تماماً. ففي الأولى يتوجب على نوح أن يحمل من الحيوانـات والطيور والدبابات اثنين بصرف النظر عن نوعها أو طهارتها، أما في الفقرة الثانية فعدد الحيوانات المحمولة يتوقف على نوعها وطهارتها.

وفي الاصحاح السابع: ١٢ «وكان المطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة» وفي نفس الاصحاح: ١٧ «وكان الطوفان أربعين يوماً على الأرض». وفي الاصحـــاح الثـامن ٣ «ونقصت المياه بعـد مئـة وخمسين يومـاً». وفي نفس الاصحاح: ٦ «وكان بعد أربعين يوماً أن فتح نوح كوة التابوت التي صنعها وأطلق الغراب لينظر هل غاصت المياه عن وجه الأرض».

هنـا أيضـاً نواجـه بروايتين، الأولى تجعل مدة الطوفان مائة وخمسين يوماً وانحساره مائة وخمسين، والثانية تجعل مدة الطوفان أربعين يوماً وانحساره أربعين مضـافاً إليها فترات كل منها سبعة أيام. كما تختلف الروايتان في اطلاق الطيور ومكان الرسو. فبينما تنص الأولى على رسو السفينة على جبل آرارات دون التعرض للطيور، تتحدث الثانية عن اطلاق الغراب والحمامتين وتغفل مكان الرسو.

بين النص التوراتي والنصوص السومرية والبابلية

سنـأتي الآن إلى اجـراء المقارنة بين النص التوراتي والنصوص السومرية والبابلية السابقة عليها. وذلك بتتبع العناصر الرئيسية في رواية الطوفان.

إله الطوفان :

في سفر التكوين، يقوم إله اليهود يهوه بارسال الطوفان. ولكن مجمع الآلهة السومري والاكادي من قبله هو الذي يقرر الطوفان. وهذا القرار ليس اجماعياً بدليل ان آلهة الولادة «ننتو» في النص السومري تنوح على أولادها البشر. وانكي الحكيم يقرر بينه وبين نفسه مد يد المعونة للناس وانقاذ الحياة عن طريق زيوسودرا التقي الاثير لديه. كذلك الأمر بالنسبة للنص البابلي فعشتار ندمت على انصياعها لقرار البعض في مجمع الآلهة، وأياً قام بكشف سر القرار الإلهي لاوتنابشتيم. ثم اننا بطريقة غير مباشرة نعرف في آخر النص، ان انليل هو المسؤول الرئيسي عن الطوفان، شأنه في ذلك شأن يهوه، ويبدو انه هو الذي اقترحه وحمل الآلهة للموافقة عليه، ومن ثم قام بادارته حتى النهاية وتبدو مسؤولية الطوفان واقعة بكليتها على انليل من كلام ايا: «كيف دونما تفكر جلبت هذا الطوفان» ومن كلام عشتار: «تقدموا جميعاً وقربوا من الذبيحة. إلا انليل وحده لن يقترب لأنه سبب الطوفان دونما ترو. واسلم شعبيَ للدمار».

٢ ـ اسباب الطوفان :

يؤكد التوراة صراحة على الاسباب الاخلاقية وراء قرار دمار الانسان. فالأرض قد فسدت وامتلأت بالعنف والشر. اما النص البابلي فيعطي تلميحاً بالاسباب الاخلاقية، حيث نجد «ايا» في آخر النص يخاطب انليل قائلاً: «حمل المذنب ذنبه والأثم اثمه... امهله كي لا يفنى ولا تهمله كيلا يفسد». وهذا يدل بوضوح على أن غرض انليل الاساسي من الطوفان كان القضاء على الشرور والآثام فدمر الجميع دون تمييز بين الصالح والطالح.

وعلى العكس من هذين النصين فإن ملحمة أتراحيسس تطرح سبباً غريباً للطوفان يذكرنا بالسبب الاساسي للصراع بين الآلهة في اسطورة التكوين. فانليل يشعر بالانزعاج من صخب البشر وضوضائهم فيقرر افناءهم بعد ان اعيته الحيل في التقليل من عددهم. ولكنه بعمله هذا يناقض العلة الرئيسية لخلق البشر، الا وهي حمل عبء الكدح عن الآلهة. فهل كان يخطط لخلق جديد يعقب الطوفان. كما

فعل زيوس في الأسطورة اليونانية؟ هذا ما لا تستطيع الاسطورة، بنصها الذي وصلنا، الاجابة عليه.

٣ ـ بطل الطوفان :

«زيوسودرا» كان بطل الطوفان السومري. والكلمة تعني «الذي وضع يده على العمر المديد»، وذلك اعتماداً على ما أعطته له الآلهة من حياة سرمدية عقب الطوفان. اما اسم «اوتنابشتيم» بطل القصة البابلية فيعني «الذي رأى الحياة»، والاسم مشتق هنا ايضاً من طبيعة المكافأة التي نالها لانقاذه الحياة على الأرض. وفي ملحمة اتراحيس فإن الاسم يعني «الواسع الحكمة». اما سفر التكوين فلم يعن بايجاد علاقة ما بين اسم «نوح» وبين التجربة التي مر بها البطل. فقد فسرت كلمة نوح احياناً بانها تعني الراحة. إلا ان الحياة المديدة التي عاشها نوح تضعه إلى جانب زيوسودرا الذي وضع يده على العمر المديد، واوتنابشتيم الذي رأى الحياة، فلقد عاش نوح تسعمائة سنة.

عاش اوتنابشتيم في «شوروباك» وهي من أقدم المدن في جنوبي الرافدين وقد ورد ذكرها بين المدن الخمسة التي ظهرت للوجود عقب خلق الكون السومري. اما زيوسودرا فإن نقص النص يمنع من معرفة المدينة التي عاش فيها. ولم يخصص التوراة مدينة بذاتها عاش فيها نوح.

كانت نجاة زيوسودرا راجعة لكونه رجلاً تقياً صالحاً. وكذلك الأمر فيما يتعلق باكسوتروس ونوح. ومن سياق النص البابلي نفهم ايضاً ان اوتنابشتيم كان كذلك.

٤ ـ الاعلام عن الطوفان :

تتفق جميع النصوص على أن الاعلام عن الطوفان قد جاء من جهة إلهية. وتختلف في كيفية ايصال الخبر. فزيوسودرا رأى حلماً لم ير شبيهاً له قط. فأخذ يتضرع للآلهة عسى ان تظهر له معناه، ثم انه سمع صوتاً يأمره أن يقف خلف حائط ليتلقى من خلاله رسالة الإله الذي انبأه القرار. كذلك اوتنابشتيم الذي رأى حلماً يخاطبه فيه «ايا» من وراء جدار كوخه القصب، ويكشف له فيه سر الآلهة. ويؤكد نص بيريسوس كذلك على الحلم كواسطة للاتصال.

اما في التوراة فنجد الإله يتصل بنوح مباشرة دونما ستار أو حجاب ودون الحاجة لوساطة الحلم. وفي شخص يهوه تتحد شخصيتا «ايا» و «انليل» فيهوه الذي أمر بالطوفان وهو الذي ابلغ نوح واختاره للنجاة. بينما يقوم بهذه المهمة في بقية الأساطير الهان منفصلان احدهما يرسل الطوفان والثاني يتولى اعلام من يختارهم للنجاة دون علم الأول.

٥ ـ السفينة :

كما تباينت اسماء بطل الطوفان تباينت كذلك تسميات السفينة التي بناها فالقصة السومرية أشارت للسفينة بأنها «ماجور» أي السفينة العملاقة ونص نيبور استعمل كلمة مشابهة. اما نص جلجامش فسماها «ايليبو» التي تعني مجرد سفينة أو مركب، ولكنه يصفها في أماكن متفرقة على أنها «الهيكل العظيم». بينما لا يستعمل سفر التكوين سوى كلمة واحدة «يتبا» التي تعني بالعبرية الصندوق أو التابوت.

تحتوي سفينة اوتنابشتيم على سبعة طوابق وتنقسم عمودياً إلى تسعة اقسام. واثناء بنائها لا نعرف ما اذا قد جعل لها نوافذ وفتحات وابواب، ولكننا نقرأ بعد انتهاء الطوفان ان اوتنابشتيم قد فتح نافذة فسقط النور منها على وجهه. أما سفينة نوح فتحتوي على ثلاثة طوابق وتتألف من عدد غير محدد من الاقسام. ولها باب في جانبها وفتحة للنور تحت السقف مباشرة تدور حول السفينة من كل الجوانب. وبينما ينفرد اوتنابشتيم باستعمال الزيت عندما قام بنقع مصدات المياه بوزنة واحدة وخزن الوزنتين الباقيتين، فإنه يتفق مع نوح على استعمال القار الذي طلى به السفينة. ولكنهما يعودان للاختلاف بشأن الشكل الخارجي والابعاد.

وعلى كل فإن ابطال الطوفان يؤمرون كل بدوره ببناء سفينة عظيمة تحمل بذور الحياة وتتدخل الشخصية الإلهية كثيراً أو قليلاً بتحديد شروط بنائها. . ويبدو أن اوتنابشتيم كان اكثرهم حرية في ذلك.

٦ ـ ركاب السفينة :

بعد ان فرغ من عمله، قام اوتنابشتيم بنقل كل ما يملكه من ذهب وفضة إلى السفينة. كما نقل اليها أهله وأقاربه وجميع أهل الحرف. ودفع اليها طرائد البرية

ووحوشها، وأقام عليها ملاحاً أسلمه قيادها. ويأتي عمل اوتنابشتيم في حمل اصحاب الحرف مشابهاً في مغزاه لعمل اكسوتروس في طمر الالواح الحاوية على سجلات لبداية كل شيء وتطوره. فالبطلان يحاولان حفظ حضارة الانسان وثقافته من الضياع ونقلها للأجيال التالية التي تعقب الطوفان، حتى لا تجد نفسها مضطرة للبدء من جديد. ويبدو من سياق النص ان اوتنابشتيم قد حمل معه طيوراً لأنه قام باطلاق بعضها على سبيل الاستطلاع. كما قام بحمل المؤن والذخائر.

ونستدل من المقاطع الباقية من النص السومري، ان زيوسودرا قد حمل معه بعض الحيوانات، بدليل أنه قام بتقديم ذبائح الشكر للآلهة من الثيران والخرفان. وكذلك فعل اتراحيس الذي حمل إلى السفينة طرائد البرية ووحوشها وما استطاع من آكلي الاعشاب، ونقل اليه أهله وأقاربه واصحاب الحرف وجرى أكسوتروس على نفس المنوال فنقل زوجه واولاده واصدقاءه المقربين وخزن فيها الطعام والشراب وحمل فيها مخلوقات حية مجنحة وذوات اربع.

تتفق التوراة مع قصص أرض الرافدين من حيث نقل الأشخاص والطعام والحيوان. إلا ان العدد الهائل للافراد يتقلص إلى ثمانية فقط، هم نوح وزوجته واولاده الثلاثة وزوجات أولاده. اما الحيوانات المحمولة والاطعمة حسب أوامر الرب فكانت: «من كل حي من كل ذي جسد اثنين من كل تدخل الصندوق لتحيا معك ذكراً وانثى تكون. من الطير باصنافها ومن البهائم باصنافها ومن جميع دبابات الأرض باصنافها يدخل اليك اثنين من كل لتحيا. وأنت فخذ لك من كل طعام يؤكل فيكون لك ولهم مأكلاً» ويتبع ذلك تفصيل بالحيوانات الطاهرة وغير الطاهرة.

أما كيف سيعمل بطل الطوفان على جمع كل هذه الحيوانات فيبدو أن الشخصية الإلهية هي التي تكلفت بدفعها اليه ليحملها إلى السفينة، كما يبدو من ملحمة اتراحيس ومن سفر التكوين. ففي ملحمة اتراحيس نرى ايا يقول لعبده «طرائد البرية ووحوشها وما استطعت من آكلي الاعشاب سأدفع بها اليك» كذلك في سفر التكوين نجد ان الحيوانات تأتي إلى نوح دونما جهد منه لجمعها وحصرها «وتدخل الصندوق لتحيا معك» «يدخل اليك اثنين من كل لتحيا».

٧ ـ يوم ابتداء الطوفان :

«في السنة الستمائة من عمر نوح، من الشهر الثاني في اليوم السابع عشر

منه. في ذلك اليوم تفجرت عيون الغمر وتفتحت كوى السماء» ومن المعروف ان السنة العبرية الزراعية تبدأ في الخريف في أواخر تشرين الأول. فيكون الشهر الثاني والحالة هذه، هو كانون الأول بداية موسم الامطار في سورية.

اما قصة بيروسوس فتجعل الطوفان يبدأ في اليوم الخامس من شهر مايس. بينما تصمت بقية النصوص عن ذكر أي موعد معين لبدء الطوفان.

٨ ـ علل الطوفان :

تسبب الطوفان في النص البابلي عن العاصفة والامطار والمياه السفلية «فحدد» إله الرعود والبروق والصواعق والامطار قد انطلق يسبقه مساعداه. ونرجال فتح فوهات العالم الأسفل فانطلقت مياه الاعماق الحبيسة. وننورتا إله السدود والري فتح سدوده وقنواته ففاضت دونما ضابط. وفي التوراة كذلك، تسبب الطوفان عن الامطار الغزيرة وانبثاق المياه السفلية. أما النص السومري فيؤكد على الامطار كعنصر أساسي.

وقد قام الجيولوجي النمساوي E. SUESS في نهاية القرن التاسع عشر بمحاولة ايجاد تفسير علمي لرواية الطوفان فقال ان الطوفان ربما تسبب اساساً عن عاملين، اولهما موجات عملاقة من البحر سببها اضطراب زلزالي في اقليم الخليج العربي أو إلى الجنوب منه. وثانيهما اعصار عنيف نشأ في خليج البنغال، ثم عبر الهند متجهاً شمالاً نحو الخليج العربي. وقد صادف ذلك كله في موسم الفيضان السنوي في حوض الدجلة والفرات. وتشققت الأرض بتأثير الزلزال واندفعت منها المياه. وهكذا فإن الطوفان قد نشأ بتأثير مياه البحر الطاغية بصورة رئيسية. اما المياه السفلية ومياه الفيضان فلم تكن إلا عناصر مساعدة.

ولا نريد هنا أن نناقش هذه النظرية أو غيرها. بل نقول ان علل الطوفان كانت متشابهة في النصين البابلي والتوراتي. وذلك بصرف النظر عن تأكيد كل نص على عناصر معينة دون أخرى.

٩ ـ مدة الطوفان :

اعطى التوراة فواصل زمنية محددة بين الحوادث المؤلفة للقصة. فلقد دام

الطوفان اربعين يوماً. ثم ابتدأت المياه بالتناقص بعد مائة وخمسين يوماً. . .الخ. وبجمع الأزمنة بعضها إلى بعض نستنتج ان المدة الفاصلة بين بدء الطوفان وخروج نوح من السفينة قد امتدت قرابة السنة الكاملة. أما النص البابلي فلم يأت على تفصيل للفواصل الزمنية، بل اكتفى بالقول ان الطوفان استمر سبعة ايام وسبعة ليال. وكذلك الأمر في الأسطورة السومرية، حيث استمر الطوفان ستة ايام وست ليال. لذلك لا نستطيع استنتاج مدة معينة لدوام الطوفان البابلي، ولكنه قطعاً قد دام مدة اقصر بكثير من طوفان نوح.

١٠ ـ اين استقرت السفينة :

استقرت سفينة اوتنابشتيم على جبل «نصير» أي جبل الخلاص. وقد ورد اسم هذا الجبل في حوليات الملك آشور بانيبال التي حددت موقعه في جنوب نهر الزاب الادنى، وهو أحد روافد الدجلة.

اما سفينة نوح فقد استقرت على جبل آراراط. وآراراط في الواقع ليس اسماً لجبل بل هو اسم يطلق على بلاد ارمينيا. ويبدو أن السفينة قد رست على أعلى قمة في بلاد آراراط. ومن هنا جاءت التسمية، وقد وردت كلمة آراراط في مواضع أخرى من التوراة للدلالة على قطر وبلاد لا على جبل. من ذلك مثلاً ما ورد في سفر أشعيا ٣٧ : ٣٨ ـ «وفيما هو ساجد في بيت نصروك إلهه، قتله (ادرملك) و(شرآصر) ابناه بالسيف وهربا إلى أرض آراراط. وملك اسرحادون ابنه مكانه». وما ورد في سفر ارميا الاصحاح الحادي والخمسون: ٣٧ ـ «انصبوا الراية في الأرض وانفخوا في البوق في الامم قدسوا عليها الأمم ونادوا عليها ممالك آراراط ومني واشنكار».

١١ ـ اطلاق الطيور :

في اليوم السابع لبدء الطوفان اطلق اوتنابشتيم حمامة لاستطلاع المحيط. وما لبثت ان عادت اليه لانها لم تجد مستقراً لقدميها. وبعد فاصل زمني غير محدد اطلق سنونو فطار ثم عاد ايضاً. فانتظر فترة أخرى ثم اطلق غراباً فطار ولم يعد. فاستدل من ذلك ان الأرض قد اصبحت صالحة للهبوط فحرر سكان السفينة

واطلقهم للجهات الأربع. اما نوح فقد بدأ بالغراب. وقد أظهر بهذا التصرف حكمة أكثر من زميله اوتنابشتيم. ذلك ان الغراب يهوى المرتفعات دون السفوح والسهول. لذلك فإن غيابه لا يدل على انحسار الماء عن جميع الأرض. ثم أنه ارسل الحمامة ذلك الطائر الذي لا يطير إلا في السهول والمنخفضات. فحامت الحمامة ثم عادت، فانتظر سبعة ايام اطلق بعدها الحمامة الثانية فطارت وعادت في المساء، وفي منقارها غصن زيتون طري. ويبدو أنها وجدت مكاناً تهبط فيه وطعاماً إلا أن الوضع بشكل عام لم يكن مشجعاً على قضاء الليل خارج السفينة. فانتظر سبعة ايام أخر، واطلق الحمامة الثالثة فطارت ولم تعد. مما دل نهائياً على ان السهول قد غدت جافة كما المرتفعات.

وهكذا تتفق الروايتان في ارسال الطيور ولكنها تختلف في نوعيتها وعددها. فبينما يرسل اوتنابشتيم حمامة وسنونو وغراباً، يقوم نوح بارسال غراب وثلاث حمامات. ونستطيع أن نلمح تشابهاً من حيث المغزى بين عودة حمامة نوح وفي منقارها غصن زيتون، وعودة طيور اكسوتروس وعلى مخالبها آثار من طين.

١٢ ـ مغادرة السفينة:

انتظر نوح فترة أطول قبل الخروج من السفينة. وكانت هذه الفترة كافية لنمو النباتات من جديد لاعالة جيل ما بعد الطوفان من الناس والحيوان، أما خروج باقي أبطال الطوفان فقد كان سريعاً لأن دوام الطوفان لم يكن بالطول الكافي لدمار الطبيعة دماراً تاماً كما هو الأمر في الطوفان التوراتي. وقد جاء خروج نوح بناء على أمر من الإله كما كان الحال لدى دخوله. أما اوتنابشتيم والآخرون فقد خرجوا بناء على تقديرهم الخاص.

١٣ ـ تقديم الذبيحة والعهد الالهي:

يرفع كل ابطال الطوفان الشكر للآلهة على نجاتهم، ويقدمون الاضاحي والقرابين. فزيوسودرا خرَّ ساجداً امام اوتو ونحر ثوراً وقدم ذبيحة من غنم. واكسوتروس سجد على الأرض وبنى مذبحاً وقدم قرباناً للآلهة. واوتنابشتيم اطلق الركاب للجهات الأربع وقدم أضحية. ونوح بنى مذبحاً للرب، واخذ من جميع البهائم الطاهرة، ومن جميع الطير الطاهرة، فأصعد محرقات على المذبح. وهنا يتطابق

حرفياً النص البابلي مع التوراة، فبعد حرق الاضاحي نقرأ في نص اوتنابشتيم «تنشق الآلهة الرائحة الذكية» ونقرأ في التوراة «فتنسم الرب رائحة الرضى».

يتقبل الرب تقدمة نوح ويندم على فعلته، ويقطع على نفسه عهداً ابدياً بألا يدمر الأرض ثانية بطوفان مماثل: «وقال الرب لا أعيد لعن الأرض... ولا أعود أهلك كل حي كما صنعت... واقيم عهدي معكم... تلك قوسي جعلتها في الغمام فتكون علامة عهد بيني وبين الأرض». وفي نص اوتنابشتيم ينسى الآلهة غضبهم على البشر عندما يشمون رائحة الاضحية، ويتجمعون على صاحبها وقد سروا بنجاة الحياة على الأرض. ولا توجد هنا اشارة مباشرة لعهد ما مع الانسان. إلا أن كلام عشتار يوحي لنا بشيء قريب جداً من العهد الألهي، ومن اشارته التي كانت عند يهوه قوس قزح، كلما رآه تذكر عهده مع البشر. فعندما وصلت عشتار رفعت عقدها الكريم الذي صنعه آنو وفق رغبتها وقالت: «أيها الألهة الحاضرون كما أنني لا أنسى عقد اللازورد الذي يزين عنقي. فإنني لن أنسى هذه الأيام قط سأذكرها دوماً» ان رفع عشتار لعقدها يقترب كثيراً في مضمونه من قوس قزح الذي يعطيه يهوه اشارة وعهد.

اما عن الندم فتعبر عنه عشتار عندما تقول: «تقدموا جميعاً وقربوا من الذبيحة إلا انليل وحده لن يقترب لانه سبب الطوفان دونما تردد اسلم شعبي للطوفان» كما يعبر عنه ايا عندما يخاطب انليل: «كيف... آه كيف دونما تفكر جلبت هذا الطوفان» وبالنهاية فإن انليل نفسه يعبر عن ندمه عندما يهدأ غضبه. فيصعد اوتنابشتيم وزوجه ويمنحهما بركاته الالهية وخلوداً لنفسيهما، ويسكنهما في القاصي البعيد عند فم الانهار. وينال ابطال الطوفان الآخرون جزءاً مماثلاً. فيمنح زيوسودرا حياة ابدية في أرض دلمون واكسوتروس ينال نفس النعمة. اما نوح فينال ايضاً بركات إلهية من يهوه ولكن هذه البركات لا تصل حد اسباغ نعمة الخلود: «وبارك الرب نوحاً وبنيه وقال لهم انموا واكثروا واملأوا الأرض».

إلا أن نوحاً يتكشف فيما بعد في التوراة عن انسان سكير عربيد. فبعد ان غرس كرماً، حصد وشرب من خمره فسكر واخذ يرقص ويتعرى من ثيابه: «وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه فأبصر حام ابو كنعان عورة ابيه واخبر أخويه خارجاً. فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على اكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة ابيهما ووجهاهما إلى الوراء فلم يبصروا عورة ابيهما. فلما استيقظ نوح من خمره،

علم ما فعل به ابنه الصغير. فقال ملعون كنعان. عبد العبيد يكون لاخوته. وقال مبارك الرب إله سام. وليكن كنعان عبداً لهم» التكوين ٩: ٣١ - ٣٥.

ويلاحظ هنا ان العبرانيين قد ادخلوا هذا الفاصل في القصة لتبرير امتلاكهم لأرض الكنعانيين وطردهم اهلها الذين لعنهم يهوه بسبب رؤية جدهم كنعان لعورة ابيه. . .

نتيجة:

لقد قمنا بسرد ما عثر عليه حتى الآن من أساطير الطوفان في المنطقة، واجرينا مقابلة بين هذه النصوص، موجهين النظر احياناً إلى نقاط اللقاء وتاركين احياناً اخرى لذهن القارىء ان يعقد المقارنة ويكشف نقاط اللقاء والخلاف. والسؤال الأخير الذي يطرح نفسه: هل اعتمد النص التوراتي على النص البابلي أو أي من النصوص الأخرى؟ والجواب الذي اراه بالدراسة الموضوعية للنصوص هو نعم. مع بقاء الاحتمال قائماً في رجوع النصوص جميعاً إلى نص أقدم، أو إلى رواية بقيت في اذهان شعوب المنطقة من ديانة توحيدية سابقة. والواقع ان الهيكل العام للرواية التوراتية ينطبق بكل خطوطه العريضة، وبكثير من تفاصيله على النص البابلي حتى ان بعض التعابير تكاد تنطبق بحرفية مطلقة. واذا اخذنا بعين الاعتبار ان يهوه انما يقوم في الرواية التوراتية بجميع الادوار المتناقضة للآلهة، لزالت إلى حد كبير شقة الخلاف بين الروايتين. فيهوه يقرر منفرداً ارسال الطوفان، ثم انه هو الذي يتسبب في علله، من طغيان مياه السيول والامطار وانبثاق المياه السفلية، وهو الذي ينقذ بعض الاثيرين لديه، وهو الذي يندم ويعد بالا يفعل ذلك ثانية.

اما من ناحية الصياغة الادبية، فان النص البابلي يتفوق بشكل واضح على نص التوراة. ويكفي ان نستعيد قراءة وصف اهوال الطوفان، لنرى التصوير الفني البديع والصنعة الادبية الرفيعة. ويبلغ النص قمة روعته في النهاية عندما يقترب انليل من اوتنابشتيم وزوجته في مشهد درامي رائع فيصعدهما إلى السفينة، ويجعلهما يركعان امامه فيلمس جبهتيهما مباركاً: ما كنت قبل اليوم إلا بشراً فانياً ولكنك منذ الآن، ستغدو وزوجتك مثلنا نحن الآلهة، وفي القاصي البعيد ستعيشان عند فم الانهار.

وأخيراً وقبل أن أغادر اسطورة الطوفان، أريد أن أقف وقفة عابرة مع تفسير

اسمح للبعض ان لا يأخذه مأخذ الجد. ولكن علم الفضاء الحديث، ورحلات الفضاء التي قام بها الانسان في العشرين سنة الاخيرة، قد أثبتت الامكانية العملية للسفر بين العوالم. يضاف إلى ذلك ان دراسات تجري في انحاء شتى من العالم، تفتح نتائجها الباب واسعاً امام تساؤلات مشروعة عن وصول كائنات عاقلة من عوالم اخرى إلى الأرض، حاملة معها اصولاً حضارية من عوالمها. الا يحتمل ان أسطورة الطوفان الذي قضى على كل شيء، الا نخبة مختارة حملت معها اصول الحضارة، هي واقعة حدثت في كوكب آخر خارج مجرتنا؟ الا يحتمل ان سفينة نوح هي سفينة فضاء أبحرت بعد دمار ذلك الكوكب حاملة معها مجموعة مختارة فحطت رحالها على الأرض حيث تابع ركابها حياتهم عليها؟

قد يبدو هذا التفسير ضرباً من الخيال العلمي، ولكن مسألة وصول سكان الكواكب الأخرى إلى الأرض في فترة مبكرة من تاريخ الحضارة الانسانية، قد خرجت من حيز الخيال العلمي، إلى حيز الدراسة العلمية الجادة.

٤ | أساطير الدمار

لم تكن أساطير الطوفان وحدها التي اخبرتنا عن احداث الدمار، والكوارث العـامة التي حلت بانسان الحضارات القديمة. فلقد وصلتنا مجموعة أخرى من الأساطير تروي احداثاً لا تقل رهبة وروعة عن احداث الطوفان، ولكنها لا تقص عن دمار شامل يفني البشر والحيوان، بل عن دمار جزئي يتوقف في منتصف الطريق وقبل أن يقضي على الحياة قضاء مبرماً. ولعل هذا النوع من الأساطير، قد لعب في العهود القديمة ما لعبته المأساة على المسرح في العالم الكلاسيكي، فيما بعد. لعلها كانت نوعاً من تطهير المشاعر، يحسه المستمع وهو يصغي إلى ما ترويه من أهوال ومآسي فتكون له بمثابة المتنفس لكل أنواع العنف الداخلي المضطرم الذي يحسه البشر ويحارون في كيفية اطلاقه. ولعلها نوع من انواع التعبير عن طاقات البشر التدميرية الكامنة، والتي لا تكفي شتى أنواع الحروب لافراغها من شحناتها.

وفي نطاق التفسير التاريخي والايتيولوجي، ربما كانت هذه الأساطير تبريراً وتعليلاً، لكوارث حقيقية حلت بالانسان، وحار في أسبابها ودواعيها وأغراضها، فجاءت الأسطورة تروي تساؤلاته. فهذه أسطورة سومرية تعزو دماراً حل بالبلاد إلى انتقام الإلهة أنانا من بستاني اغتصبها، وهذه أسطورة بابلية تعزو العواصف التي اجتاحت البلاد طولاً وعرضاً، إلى غضب إله العاصفة انليل، وأخرى تعزو انتشار

المرض الفتاك إلى إله الطاعون ايرا الذي يستفيق من كسله بين الأونة والأخرى ليمارس مهامه في نشر الأوبئة والامراض السارية .

انانا والبستاني :

تروي اسطورة سومرية، أن بستانياً، اسمه شوكا ليتودا، زرع شجرة وتعهدها بالـرعاية والعناية حتى كبرت ونشرت ظلها الواسع على معظم أجزاء حقله الذي حمته من العواصف الهوجاء. إلى أن كان يوم :

وذات يوم، بعد أن عبرت سيدتي السماء وقطعت الأرض
انانا، بعد أن عبرت السماء وقطعت الأرض
بعد أن قطعت أرض عيلام وبلاد شوبر
بعد أن قطعت [. . . .]
دخلت الكاهنة انانا البستان وغلبها النوم تعباً .
فرآها شوكاً ليتودا من طرف بستانه
فقبلها وضاجعها وعاد إلى طرف بستانه .
فلما صار الصبح وأشرقت الشمس
تلفتت الفتاة حولها خائفة
تلفتت انانا حولها فزعة
فانظر الاذى الذي اوقعته الفتاة من أجل فرجها
انانا من اجل فرجها ماذا فعلت
لقد ملأت جميع آبار البلاد بالدم
ففاضت كل الغابات والبساتين بالدم .

وصار الناس اذا أرادوا نضح الماء من آبارهم لا يجدون ما يشربونه سوى الدم . فتلفت المزروعات وعم الجوع . ولما لم تجد الذي جامعها، قامت بتسليط الرياح والعواصف المدمرة، ولكن دون جدوى

لقد قالت سأجد الذي ضاجعني في انحاء البلاد
ولكنها لم تجد الذي ضاجعها .

فتـرسل كارثة ثالثة إلا أن كسور اللوح الآجري وتشوهه، تمنعنا من معرفة ماهية هذه الكارثة، ولا نعرف على أي وجه انتهت الأسطورة.

انليل والعاصفة :

عندما يسكن الهواء، يكون انليل في حالة هدوء ودعة واطمئنان، واذا هب النسيم العليل فان انليل يسرح ويمرح. واذا هبت العاصفة فانليل في حالة حركة وانفعال. اما اذا اشتدت العاصفة وثار الاعصار فان انليل في حالة غضب وهياج، كما هو الأمر في الأسطورة السومرية التالية[10]:

دعا انليل العاصفة
والناس ينوحون
اخذ من الأرض الرياح المنعشة
والناس ينوحون
اخذ من سومر الرياح الطيبة
والناس ينوحون
ودعا (بدلاً منها) الرياح الشيطانية
والناس ينوحون
وأوكلها لـ «كينغالودا» راعي العواصف
دعا العاصفة لتفني البلاد
والناس ينوحون
ودعا العواصف المدمرة
والناس ينوحون
عين الإله «جبيبل»*مساعداً له
ودعا اعاصير السماء
والناس ينوحون
والاعاصير المعولة المنقضة من السماوات

10 - Henri Franfort, Before Philosophy, Pelican Books, 1964.

* جبيبل: اله النار.

والناس ينوحون
العاصفة العتية تزمجر مكتسحة البلاد
والناس ينوحون
العاصفة القاسية كموج الطوفان
تهشم سفن المدينة وتلتهمها
والناس ينوحون
كل هذا جمعه عند أساس السماء
والناس ينوحون
أشعل نيراناً كانت نذير العاصفة
والناس ينوحون
وألهب جوانب الرياح الغاضبة
بحر الصحراء اللافح
فكانت تحرق كهجير الظهيرة اللاهب
والعاصفة التي أمرها انليل في حقد
(العاصفة) التي تلتهم البلاد
غطت «اور» كما الثوب، ولفتها كما القماط
وفي اليوم الذي تركت به العاصفة البلاد
غادرتها والمدينة خراباً
آه يا أيها الأب «نانا»*
لقد ترك المدينة يبابا
والناس ينوحون
في اليوم الذي تركت به العاصفة البلاد
والناس ينوحون
(جثث) البشر لا كسرات الجرار
كانت تغطي الطرقات
والجدران كانت متصدعة
البوابات العالية والمسالك

* نانا: اله القمر.

قد تكدست فيها الموتى
وفي الشوارع العريضة حيث تعود الناس الاحتفال
تكدست هناك الموتى
في جميع الطرق والسبل تناثرت الجثث
وفي الحقول الطلقة التي كانت تملأ بالراقصين
تراكم هناك الموتى
وملأ دم البلاد ثقوبها
وكمعدن في قالب
ذابت الاجسام كالدهن تحت الشمس.

إله الطاعون يجتاح العالم:

وفي الأسطورة البابلية يقوم «ايرا» إله الطاعون والاوبئة الفتاكة بدور أساسي في الكوارث والبلايا العظيمة التي تحل على الأرض. فنراه مشغولاً على الدوام بما يتوجب عليه تنفيذه من أعمال الخراب والابادة. وفي الأسطورة التي سنأتي على ذكرها فيما يلي نجد ايـرا وقد مرت عليه فترة طويلة لم يلعب فيها دوراً هاماً على مسرح الاحداث. فنال منه الكسل وفترت همته. ولكن «سيبي» سلاحه الفتاك ذا الشعاب السبع، المرعب الذي ينفث الموت الزؤام يخاطبه وقد نال منه الملل والضجر[11]:

انهض وسر قدماً يا «ايرا»
ايها المتسكع في ارجاء المدينة كعجوز مريض
ايها الزاحف في البيت كطفل هرم
لقد بتنا نأكل طعام النساء، كمن لم يركب السهل ابداً
وصرنا نخشى الوغى كمن لم يعرف يوم كريهه، قط
انهض ايها البطل الراكب السهول.
اصرع الانسان والحيوان.

11 - S. N. Kramer, Mythology of the Ancient World, Anchor Books, Newyork. (His Charter on Sumerson Mythology).

اما الآلهة فستسمع (بفعالك) وتخشى (بأسك)
والملوك ستسمع (عن بطولاتك) وتفزع (سطوتك)
والعفاريت ستسمع (بمآثرك) وتتقي (جبروتك)،
سيسمع كل عظيم ويرتعد
ستسمع بك البحار المتلاطمة وتضطرب
ستسمع بك الجبال الراسيات وتضطرب
أي «ايرا» لقد قلت كلمتي فهل سمعت؟
مشدود هو القوس وحادة هي السهام،
ومسلول هو السيف قد تهيأ للفتك (فهلا نهضت).

وهنا تشتد عزائم ايرا فيستدعي وزيره «ايشوم» صائحاً به:

اوسعوا لي فاني سأقتحم الدروب
وإلى جانبي سيمشي «سيبي» البطل الذي لا قرين له،
ومن خلفي ستمشي انت يامساعدي.

فاستمع «ايشوم» لكلمات « ايرا » بقلب حزين. وشعر بالأسى لما ينتظر البشر من مصير:

ايها الالهة. لقد أزمعت شراً للبشر والآلهة
لقد اضمرت للأرض دماراً.
فهل من وسيلة لردك (عما انتويت)
ففتح «ايرا» فمه وقال:
مخاطباً مساعده «ايشوم»
صمتاً ياايشوم. وانصت لما أقول
دعني انبئك بمصير الانسان (وقدره)
أي مساعدي ياايشوم الحكيم اسمع كلماتي:
في السماء أنا فأس وحشية.
في الأرض انا أسد (هصور)
في البلاد أنا ملك فوق الجميع
انا الجليل بين الآلهة،
وأنا المقدام بين «الايجيجي»،

وأنا القوي بين «الانوناكي».
لأن الانسان لم يخش كلماتي،
ولم يأبه بتعاليم «مردوخ»*
بل عمل وفق مشيئة قلبه (ورغباته).
فاني سأدعو مردوخ ان يخرج من مسكنه،
(فان فعل) سأقوم بتدمير الانسان.

فلأن مردوخ سيد البشر والآلهة. لا يستطيع ايرا أن يتصرف وفق هواه ما لم يغض الطرف عنه فيمضي اليه بخدعة ليترك مسكنه في معبد «الايزاجيلا» ويمضي إلى مكان ستطهر ناره عباءته، فيستحم ويتجدد ويعود اقوى مما كان واقدر على تصريف شؤون الكون والانسان:

إلى بابل مدينة ملك الآلهة يمم «ايرا» شطره.
دخل «الايزاجيلا» قصر السموات والأرض ومثل امامه.
فتح فمه وقال مخاطباً ملك الآلهة:
ايها الرب ان الهالة النورانية رمز الوهتك،
المشعة ابداً كنجم سماوي،
قد كسدت وخبا لونها،
وتاج سيادتك قد مال (عن رأسك)
اترك مكان سكنك وانطلق
ونحو الدار التي ستطهر نارها عباءته شد الرحال.

ولكن مردوخ يخشى ان هو ترك الايزاجيلا مركز الكون في بابل، ان يعود العالم إلى العماء وتطغى الفوضى الكونية التي تلجمها قوة مردوخ وجبروته، وتربعه على عرش الكون في معبده ذي البرج العالي. كما يخشى ان يخلو الساح لآلهة العالم الاسفل فتنطلق لتلتهم جميع الاحياء دونما رادع أو وازع. ولكن ايرا يطمئنه بأنه سيأخذ عنه المسؤولية كاملة خلال غيابه وينوب عنه حتى عودته. فيترك مردوخ قصره ويمضي للاستجمام في المكان الذي اقترحه ايرا. وما ان يغيب الإله الأكبر حتى يستدعي ايرا وزيره ايشوم قائلاً:

* وهذا مشابه لاسباب كل افعال الدمار الذي قام به يهوه ضد شعبه المختار الذي كان ينسى على الدوام كلمات الرب.

اوسعوا لي فاني سأقتحم الدرب .
لقد حان اليوم وازفت الساعة .
سأهيب بالشمس فتترك شعاعها،
واغطي بالظلام الدامس وجه النهار .
فمن ولدته امه في يوم ماطر،
ستدفنه في يوم مسغبة .
ومن مضى من طريق مروية خضراء،
سيتخذ في عودته طريق غبار ورمال .
(يتجه بالحديث لمردوخ الغائب)
«ابق حيث انت في الدار التي دخلت،
وسأسهر باخلاص على تنفيذ شرائعك .
فان سمعت اصوات ذوي الشعور السود* تناديك،
لا تعط توسلاتهم اذناً صاغية» .
سأضع نهاية لجميع مراكز الحياة،
فاحيلها ركاماً،
سأدمر كل المدن،
فأحيلها خراباً،
سأهدم كل الجبال،
وامسح عنها القطعان،
سأزلزل المحيطات،
وأفرغ منها الخيرات
سأقتلع الاشجار وغيضات القصب،
سأسحق كل عظيم،
واصرع الانسان ارضاً،
وامحق كل شيء حي .
ثم ينطلق إله الطاعون والاوبئة الفتاكة والخراب غير عابيء بمحاولات ايشوم

* ذوو الشعور السود أو ذوو الرؤوس السود تعبير استعمله السومريون والاكاديون في وصف انفسهم .

اسنيه عن عزمه ليهدم اولاً بابل ويقضي على سكانها، ثم ينتقل إلى «ايريك» مدينة البغايا المقدسات والغلمان والمخصيين واللوطيين، حيث معبد عشتار بما فيه من مخنثين نالت عشتار من رجولتهم . فيهدم المدينة ولكنه يبقى متعطشاً للفتك راغباً في المزيد من الخراب :
سأظهر مزيداً من الفتك والانتقام،
فأستلب روح الأبن
ويدفنه أبوه .
ثم استلب روح الأب،
ولا يجد أحداً ليدفنه . فمن بنى لنفسه بيتاً وقال :
هذا مكان راحتي (واقامتي)،
فاني جاعل بيته هذا مستقراً لي،
عندما تحملني الاقدار اليه، فالبث في وسطه،
حاملاً الموت لصاحبه،
ثم ادمر بيت راحته واقامته .
فاذا صار خراباً (يباباً)،
وهبته لشخص آخر .
على ان ايشوم يفزع اشد الفزع من هذا الفتك الاعمى دون تمييز بين الصالح والطالح فيتوجه لايرا قائلاً :
ايرا ايها الجليل .
قد سقيت التقي الردى،
كما سقيت الضال الردى
قد سقيت الخاطىء الردى،
كما سقيت الطاهر الردى .
قد سلبت حياة من رفع الاضاحي للآلهة،
وسلبت حياة حاشية الملوك ورجالهم،
سلبت حياة كبير القوم،
وسلبت حياة الفتاة الغضة .
ومع هذا ترفض ان تستريح وتقول لنفسك :

سأسحق كل عظيم ،

وأصرع ارضاً كل ضعيف .

سأقتل سيد القوم،

فأجعل قومه في حيرة من امرهم ،

سأهدم البيوت العالية ودعائم الجدران ،

سأمحق كل ثروات المدينة ،

سأخلع الصواري فتضل السفن سبيلها .

وامزق الاشرعة فلا تصل سفينة شاطئها .

سامزق الجبال ارباً رافعاً عنها راياتها

سأجفف الصدور حتى يموت الصغار .

واجفف الينابيع حتى تتوقف الأنهار عن الجريان .

سأطفيء نور الكواكب والنجوم واتركها دونما رعاية*

سأتلف جذور الاشجار فلا تنمو بعد (ولا تورق) .

سأخلع اساسات الجدران فتهتز اعاليها (وتتداعى) .

وإلى مسكن ملك الآلهة سوف امضي حيث لن يعارضني احد

ويبـدو ان خطاب «ايشوم» قد طامن من ثورة «ايرا» قليلاً فيقرر العفو عن الاكاديين فقط وتدمير كل ما عداهم :

ارض ارض ومدينة مدينة .

كل بيت سيهاجم البيت الآخر .

ولن يعفو الأخ عن أخيه ،

فيقتل بعضهم بعضاً .

وعند ذلك سينهض الاكاديون فيخضعوهم جميعاً .

وبذلك يجد «ايرا» الهدوء والسكينة ، ويخبر الآلهة بأن مخططه في البدء كان افناء البشر جميعاً بسبب خطاياهم ، ولكن حديث ايشوم قد غير رأيه فأنقذ الاكاديين فقط وجعل لهم الغلبة على اعدائهم :

ستنقلب القلة الباقية في الأرض إلى كثرة ،

* نور النجوم ليس دائماً بل انها تشعل كل ليلة من قبل الآلهة المعنية .

وسيجد كل السان منهم فرجاً .

سيقبض الاكاديون على اعدائهم العظماء ،

ليحمل كل منهم سبعة كما تحمل الخرفان .

ستحولون مدنهم إلى خراب وتجعلون جبالهم ركاماً ،

وتؤوبون بابل بثمين الغنائم (والاسلاب) ،

(وتجعلون) آلهة البلاد الغضبى ،

ترجع إلى مساكنها (راضية) هادئة .

ستتكاثر القطعان وتنمو الحبوب .

والأرض التي تركت يباباً ،

ستجعلونها منتجة خصيبة .

وجميع الحكام من وسط مدائنهم ،

سيجلبون إلى بابل اتاواتهم .

اما معابد «ايكور» التي دمرت ،

فستشع بالنور قممها كالشمس الصاعدة ،

ويفيض الدجلة والفرات بالمياه الغزيرة

ولأيام طويلة ستحكم بابل فوق البلاد

وتنتهي القصيدة بخاتمة تؤكد على عنصر الوحي في الأسطورة فكاتب النص يقول انه قد دون ما اوحي اليه من قبل الآلهة دونما زيادة أو نقصان . وهذه الالتفاتة تكشف لنا اوجهاً هامة في الأسطورة ودورها ونظرة الجماعة لها . فليس مدون الأسطورة في نظر نفسه ونظر الجماعة المؤمنة به إلا كاتب وحي والهام يلعب دور الوسيط بين الإله والناس .

(الا) من اجل مجد «ايرا»

فلننشد هذه الاغنية سنوات لا عد لها .

وكيف ثار غضب «ايرا» ،

فقرر خراب البلاد ،

وافناء الناس والحيوان .

وكيف قام مستشاره «ايشوم» بتهدئته ،

فجرى انقاذ قلة قليلة .
وإلى كاتبي ـ عيلاني مردوخ* حافظ الالواح ابن دابيبي،
عرضها (الانشودة) ايشوم في حلم ليلي،
فعندما نهض من نومه صباحاً لم ينس سطراً واحداً،
ولم يزد عليها سطراً واحد،

وبعد ان سطر الكاتب هذه الانشودة سمعها «ايرا» و«ايشوم» وبقية الآلهة فنالت استحسانهم:

لقد سمعها «ايرا» ونالت اعجابه .
راقت له انشودة ايشوم،
وعظمها معه جميع الآلهة .
وهكذا نطق ايرا الجليل:
ستغمر الخيرات بيت من يقدس هذه الانشودة،
ولن يتنسم من يهملها رائحة ذكية قط .
سيحكم الجهات الاربع من يرفع اسمي من الملوك،
اما من يرتل انشودتي من المغنيين فلن يموت قتلاً،
وتبقى كلماته حلوة الوقع في آذان الملوك والامراء .
والكاتب الذي يعلمها عن ظهر قلب سينجو من ايدي العدو
وفي مجمع المتعلمين حيث يذكر اسمي دون انقطاع،
سأفتح الآذان واسعاً .
اما البيت الذي يخزن هذا اللوح،
فلن يلقى ثورة ايرا وغضب ايشوم،
ولن يقرب منه سيف القتل،
فنصيبه السلام والرغد .
الا فلتبق هذه الانشودة ابد الدهر،
ولتسمعها كل البلاد وتقدسها،
ولتنطق باسمي كل الأرض المسكونة وتبجله .

---

* اسم كاتب النص.

يهوه والكوارث الشاملة :

ولعل إله العبرانيين يهوه من أكثر الآلهة ولعاً بالدماء والكوارث الشاملة . ففي سفر الخروج نجد موسى يحاول اقناع فرعون عبثاً بالسماح لشعبه بمغادرة أرض مصر إلى الأرض الموعودة في كنعان، وبعد أن ينال منه اليأس يلجأ إلى ربه الذي يشن حملة من الفتك الشامل بفرعون وقومه، لاجباره على اطلاق العبرانيين وهو يبدأ بما بدأت به «انانا» السومرية فيملأ آبار المصريين بالدم : «خذ عصاك ومد يدك على مياه المصريين وأنهارهم وخلجهم ومناقعهم وسائر مجامع مياههم فتصير دماً ويكون دم في جميع أرض مصر» ثم ينتقل لفنون تدميرية أخرى : «فمد هارون يده على مياه مصر فصعدت الضفادع وغطت أرض مصر» وبعد ذلك «مد هارون يده بعصاه فضرب تراب الأرض فكان البعوض على الناس والبهائم . كل تراب الأرض صار بعوضاً» . «ودخلت الذباب بيت فرعون وبيوت عبيده وجميع أرض مصر بكثرة وفسدت الأرض من قبل الذباب» «فماتت مواشي المصريين بأسرها ومن مواشي بني اسرائيل لم يمت احد» «فأخذ من رماد الاتون ووقف بين يديّ فرعون وذراه موسى إلى السماء فصار قروحاً وبثوراً منتفخة في جميع أرض مصر» «فكان برد ونار متواصلة بين البرد شيء عظيم جداً . . . فضرب البرد في جميع أرض مصر جميع ما في الصحراء من الناس والبهائم وضرب البرد جميع عشبها وكسر جميع اشجارها . » «وساق الرب ريحاً شرقية على الأرض ذلك اليوم وطول الليل، وعند الصباح حملت الريح الشرقية الجراد على جميع أرض مصر . . . فغطى جميع وجه الأرض حتى أظلمت الأرض وأكل جميع عشبها وجميع ما تركه البرد من ثمر الشجر» «فكان ظلام مدلهم في جميع أرض مصر ثلاثة أيام لم يكن الواحد يبصر أخاه» «فلما كان نصف الليل ضرب الرب كل بكر في جميع أرض مصر، من بكر فرعون الجالس على عرشه إلى بكر الاسير الذي في السجن وجميع أبكار البهائم . فقام فرعون ليلاً هو وجميع عبيده وسائر المصريين، وكان صراخ عظيم في مصر حيث لم يكن بيت إلا وفيه ميت» وعند هذا الحد فقط يقتنع فرعون بضرورة اطلاق بني اسرائيل فيفعل ذلك وهو مكره على أمره .

ومن عادة يهوه افناء المدن بكاملها فلا يترك منها احداً فينجو ليحدث باهوال ما حدث لها .

نقرأ في سفر التكوين الاصحاح ١٩ : ١٢ ـ ٣٦ «وقال الرجلان للوط من لك ايضاً هنا اصهارك وبنيك وبناتك وكل من لك في المدينة أخرج من المكان . لاننا مهلكان هذا المكان اذ قد عظم صراخهم امام الرب فارسلنا الرب لنهلكه . فخرج لوط وكلم أصهاره الآخرين وبناته وقال قوموا أخرجوا من هذا المكان ، لأن الرب مهلك المـدينة . فكان كمازح في اعين اصهاره . ولما طلع الفجر كان الملاكان يعجلان لوطاً قائلين قم خذ امرأتك وابنتك الموجودتين لئلا تهلك باثم المدينة . ولما توانى امسك الرجلان بيده وبيد امرأته وبيد ابنته لشفقة الرب عليه واخرجاه ووضعاه خارج المدينة . «وكان لما أخرجاهم إلى الخارج انه قال اهرب لحياتك ، لا تنظر إلى ورائك ولا تقف في كل الدائرة ، اهرب إلى الجبل لئلا تهلك . فقال لهما لوط لا ياسيد . هو ذا عبدك قد وجد نعمة في عينيك وعظمت لطفك الذي صنعت لي باستبقاء نفسي ، وأنا لا أقدر أن أهرب إلى الجبل لعل الشر يدركني فأموت هوذا المدينة هذه قريبة للهرب اليها وهي صغيرة اهرب إلى هناك . فقال له اني قدرفعت وجهك في هذا الأمر ايضاً ان لا أقلب المدينة التي تكلمت عنها . اسرع اهرب إلى هنـاك ، لأني لا استـطيع شيئاً حتى تجيء إلى هناك ، لذلك دعي باسم المدينة صوغر . واذ أشرقت الشمس على الأرض ، دخل لوط إلى صوغر . فأمطو الرب على سدوم وعمورة كبريتاً من عند الرب من السماء وقلب كل المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الأرض . ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح» .



«في ذلك الوقت ستقتل لوتان
الحية الهاربة ، وتضع نهاية
للحية الملتوية ، ذات الرؤوس السبعة»

أسطورة أوغارتية

«في ذلك اليوم ، يعاقب الرب بسيفه
القاسي العظيم ، لوياتان الحية الهاربة
لوياتان الحية الملتوية ، ويقتل التنين الذي في البحر»

التوراة : اشعيا ـ ٢٧ : ١

لقد أقامت الآلهة الفتية نظام الكون، ودفعت عجلة الحضارة، بعد أن قضت على قوى العماء البدئية. فأحلت النظام والترتيب محل الفوضى القديمة، وبدأ العالم معها عهداً جديداً، واضح المعنى والهدف والغاية. الا ان قوى العماء لم تعلن بعد استسلامها الكامل. وها هي قوى جديدة تنتسب لها، تندفع بين الوقت والآخر، للهدم والخراب والقضاء على منجزات الانسانية، في محاولة يائسة لارجاع العالم الى حالته السكونية الاولى. وهذه القوى الجديدة، تلبس لبوس القوى القديمة، فتعيد الى الذاكرة تعامة ووحوشها الرهيبة. فهي وحوش جبارة، وهولات ضخمة لا تنتمي للعالم البشري أو العالم الحيواني المعروف. نراها على شكل حيات هائلة ذات رؤوس متعددة، أو تنانين بحرية مريعة، أو طيور عملاقة. وتكاد هذه القوى أن تثأر للعالم القديم الذي تنتمي إليه، لولا تصدي أحد الابطال لقتالها وارغامها على التراجع، والحفاظ، من ثم، على أمن العالم، ونظامه، واستقراره.

واسطورة التنين، شائعة في كل مناطق الشرق القديم، كما أنها شائعة في معظم الاساطير العالمية. الامر الذي يجعل ربطها برمز معين على قدر كبير من الصعوبة، دون الوقوع في ورطة التعميم واحادية النظرة. ولكن التفسير النفساني

يبدو مغرياً وجذاباً، خصوصاً اذا علمنا ان التفسير التاريخي لا تثبته الوقائع المستمدة من الانثروبولوجيا والتاريخ الطبيعي . ذلك ان ظهور الانسان قد تأخر فترة زمنية كبيرة عن زمن انقراض الديناصورات الضخمة، التي سيطرت على الارض فترة لا بأس بها من الزمن. فشاء حسن حظه الا يجتمع بها أو يراها، الا هياكل عظمية في متاحف العصر الحديث.

وعلى هذا اذا اتبعنا المنطق الفرويدي، نستطيع النظر الى هذه التنانين باعتبارها تمثيلاً لقوى اللا شعور الفردي، الذي يضطرم على الدوام بكل ما يناقض الوضع الحضاري للانسان، تلك القوى التي تحاول دوماً اقتحام عالم الشعور. وهنا نستطيع اعتبار البطل الذي يقهر التنين بمثابة الفرد السوي داخل المجتمع، الذي يستطيع كبح جماح لا شعوره والسيطرة عليه ليحيا متوازناً مع قيم الجماعة، أما اذا اتبعنا المنطق اليونغي، فاننا ننظر الى عملية الصراع مع التنين باعتبارها عملية بناء للشخصية الفردية individuation يتخلص الفرد من خلالها من تأثيرات الطفولة واعتماده على شخص الام.

على أن حكاية البطل والتنين، لا تقف عند حدود الاسطورة القديمة. فنحن نجدها في جميع حكايا الشعوب الفولكلورية، وقصص الاطفال، كما أنها محببة لنفوس الناس في العصر الحديث ايضاً، حيث نرى الموضوع يتكرر في كثير من أفلام السينما التي تقص عن وحش مائي يخرج من اعماق المحيطات، أو قرد عملاق يأتي المدينة من جوف الغابات دون أن تستطيع أحدث الاسلحة القضاء عليه إلا بصعوبة بالغة.

١ التنين السومري

بعد ان تم تنظيم الكون السومري؛ وبعد فترة ليست طويلة من فصل السماء عن الارض، يندفع من باطن الارض تنين العالم الاسفل «كور» الاله المطلق لعالم الموت والظلام، في محاولة لمد نفوذه على بقية العالم، وارجاع الحياة الى جماد، والحركة الى سكون، والنور الى ظلمات. ولكن الآلهة الشابة التي وطدت، حديثاً، سلطتها تتصدى له وتعيده الى عالمه. وقد تصدى لكور على التوالي، وفي مواقع مختلفة، كل من انانا الهة الحياة والحب والخصب، وأنكي اله الماء واهب الحياة، وننورتا ابن انليل اله الهواء والحركة.

والنصوص السومرية التي روت عن صراع آلهة الحياة والحركة، ضد تنين العالم الاسفل، وصلتنا في حالة سيئة من التشوه والنقص، الامر الذي يمنع من معرفة مصير كور النهائي. الا أن بقية الاساطير السومرية تتحدث عن كور باعتباره مكاناً لا باعتباره تنيناً أو الهاً، مما يدل على أن كور التنين قد قتل في احدى هجماته، وترك اسمه يطلق على العالم الاسفل الذي كان يسكنه.

كور يختطف اريشكجيال:

يتحدث هذا النص عن قيام الاله كور باختطاف الإلهة اريشكيجال لتصبح

زوجة له في العالم الأسفل، وعن تصدي الإله إنكي له والمعركة التي دارت بينهما[1].

بعد أن ابعدت السماء عن الارض
وفصلت الارض عن السماء
وتم خلق الانسان
وأخذ «آنّ» السماء
وانفرد انليل بالارض
أخذ الاله كور الالهة اريشكيجال غنيمة
ولكن (انكي) أبحر، لكنه أبحر
أبحر الاب أنكي الى كور
قصد الى كور مبحراً
رماه بالحجارة الصغيرة
كما رماه بالحجارة الكبيرة
كان يرمي الحجارة الصغيرة باليد
والحجارة الكبيرة ب (. . . .) القصب.

وبما أن هذا النص لم يكن مكرساً لرواية قصة كور واريشكيجال، فانه لم يعن بإكمال القصة التي افترض أنها معروفة في ذلك الحين ومفصلة في نصوص أخرى. والواقع فان هذا النص قد ورد كمقدمة لنص آخر هو نص جلجامش وانكيدو والعالم الأسفل، حيث جرت العادة في معظم النصوص السومرية أن يبدأ الكاتب بفقرة تتحدث عن الاصول والبدايات والاحداث الجسام التي وقعت في تلك الازمان الاولى. على أننا نعثر على اريشكيجال في النصوص اللاحقة، وخصوصاً البابلية منها، وهي ربة للعالم الاسفل من دون كور. فهل يدل ذلك على فشل انكي في انقاذها، أم ان انقاذها قد تم ثم هبطت الى العالم الاسفل في وقت لاحق ومن خلال أحداث مختلفة؟، هذا ما لا تجيب عليه النصوص التي بين ايدينا.

كور وانانا:

بطل التنين هنا هو الالهة أنانا، الهة الخصب والحب، والهة الحرب والدمار

1 - S. Noah Kramer, Sumerian Mythology, Harper, Newyork, 1961.

ايضاً. تتصدى للاله كور فتتغلب عليه، فتحمل لقب «قاهرة كور» الذي نعتها به كثير من الروايات السومرية. والنص غامض وبه كثير من النقص، ولكننا نستطيع اقتباس بعض فقراته[2]

سأرميه بالحربة الطويلة
وسأوجه ضده كل أسلحتي
وبالغابات المحيطة به سأضرم النار
وفي [. . . .] سوف أغرس فأسي البرونزي
وكجبل آرارتا، سأنزع عنه هيبته
وكما يفعل جيبيل أله النار المقدسة سأجفف ماءه
وكمدينة لعنها آن لن تعود سيرته الاولى
وكمدينة نبذها انليل، لن ينهض ثانية.

ورغم أن «آن» يحذرها من مغبة المخاطرة، الا انها في حماسة شديدة، تشهر القتال وتوجه أسلحتها في صراع ناجح ضد كور لتطأه أخيراً بقدميها.

ننورتا يصارع آساج:

ننورتا ابن انليل اله الهواء والعاصفة. وهو اله الرياح الجنوبية العاصفة، وايضاً اله القنوات والسدود والري. وهو في هذا النص يعتزم التصدي لآساج عفريت العالم الأسفل واله العلل والامراض والساعد الايمن لكور. وقبل أن يتوجه للقتال يقوم سلاحه شارور (ولا يوضح لنا النص نوع هذا السلاح) بتشجيعه وحثه على بدء الهجوم. وعندما تبدأ المعمعة، يبدي أساج من الشدة والمراس، ما يجعل ننورتا يفر وكأنه طائر. ولكن سلاحه العنيد يعود لحثه على مواصلة القتال. وفي هذه المرة يستطيع ننورتا قهر أساج والتغلب عليه. الا أن سلسلة من الكوارث تلي ذلك. فالعالم السفلي يتزعزع لهذه الحادثة، وتثور ثائرة كور، فيبتلع أولاً المياه العذبة من الينابيع والآبار والانهار:

سادت المجاعة واستحال الانتاج
غاضت الأنهار الصغيرة حتى لا تستطيع فيها غسل اليدين

2 - ibid.

وحرمت الحقول السقاية، ولم تحفر قنوات للري

واختفت الزراعة عن وجه الأرض، تاركة مكانها للطحالب

بعد هذه المرحلة التخريبية الاولى، يدفع كور بمياه الأعماق بقوة الى سطح الارض لتكتسح أمامها كل شيء. وهنا يتصدى ننورتا مرة اخرى لقوى العالم الاسفل، فيعمل على بناء سد عظيم من الحجارة في وجه المياه، وينجح في صد هجومها المدمر وينقذ سومر.

أما ما فاض فقد جمعه

أما ما خرج من كور

فقد جمعه ودفعه إلى نهر دجلة

من تلك المياه التي غمرت الحقول

فانظر الآن تر كل شيء على الارض

يبتهج بمآثر ننورتا، ملك البلاد

الحقول تعطي حبوباً وافرة

والبساتين والكروم تحمل الثمار

والرب مسح الحزن عن البلاد

وأبهج نفوس الآلهة[3]

وقد سمعت ننماخ بفعال ابنها ننورتا، فقامت لرؤيته. ناجته من بعيد أن يأذن لها برؤيته، وعندما تحضر اليه يهديها جبل الحجارة الهائل الذي ردمه في وجه كور، فتحمل اسم سيدة الجبل أي ننخرساج، وهو اسم من أسماء الأم ـ الأرض.

يقيم بعض البحاثة، في تفسير أساطير كور الثلاثة التي أوردناها، تشابهاً بين كور السومري وتعامة البابلية. من هؤلاء السيد س. ن كريمر، الذي ندين له بمعظم ما نعرف من النصوص السومرية، والذي يطرح رأياً مفاده أن كور السومري هو أصل تعامة البابلية. وفي الحقيقة فاني لا أرى أية رابطة تجمع بين الاثنين للاسباب التالية:

أولاً: في الاسطورة السومرية كان كور الهاً للعالم الاسفل، وبعد زواله بقي اسمه للدلالة على عالم الظلمات والاموات. أما تعامة فلم يكن لها علاقة بالعالم الأسفل لا في حياتها ولا بعد مماتها.

---

3 - ibid.

ثانياً: كانت تعامة في **الاسطورة البابليه الهاً بدئياً** يمثل العماء والهيولي الأولى. وكان لا بد من **القضاء عليها** لبزوغ العالم المنظم. أما كور السومري فلم يكن كذلك.

ثالثاً: كانت تعامة **الهة كونية، صنع مردوخ** من جسدها الكون. أما كور السومري فقد تلاشى ولم يبق منه سوى اسمه، يطلق على مملكته التي غادرها.

رابعاً: كان صراع مردوخ مع تعامة، صراعاً سبق الخلق والتكوين. أما قتل التنين كور فيحدث بعد التكوين بفترة لا بأس بها، ولا قيمة لهذا الصراع بتاتاً فيما يتعلق بعملية الخلق.

جلجامش وأرض الأحياء:

جلجامش بطل اسطوري ورد اسمه في ثبت ملوك سومر كملك لمدينة أور، من الأسرة التي حكمت بعد الطوفان. ونراه في أحد النصوص التاريخية السومرية في حرب مع آجا ملك المدينة السومرية المجاورة «كيش» إلا أن قصصاً كثيرة حيكت حول هذه الشخصية التاريخية، فرفعتها من مقام الواقع إلى عالم الاسطورة ونرى، جلجامش فيما بعد، وقد انتقل الى الادب البابلي، حيث قامت العبقرية الادبية الأكادية بجمع حكايات جلجامش السومرية وحياكتها في نسيج رائع مع اضافات من ابتكار الكتاب الأكاديين الذين خرجوا علينا بملحمة متكاملة، هي درة الادب القديم.

والاسطورة التي سنقدمها هنا[4]، هي احدى تلك الاساطير التي دخلت في نسيج الملحمة البابلية. ونرى فيها جلجامش الملك، يمضي لصراع وحش رهيب، سعياً وراء تخليد ذكره ورفع اسمه. فلقد أدرك جلجامش أن الموت قادم لا محالة، وأن نسبه الالهي لن ينجيه من مصير البشر، فقرر القيام بفعل مجيد يخلد به اسمه بعد موته. لان الخلود هو خلود الذكر وعمل الانسان الصالح:

الى ارض الاحياء، تاق السيد الى السفر

الى أرض الاحياء، تاق جلجامش الى السفر

---

4 - S. Noah Kramer, Sumerian Myths and Epic Tales, (in: J. Pritchards Ancient Near Eastern Texts, Edited, Princeton, Newyork, 1969).

فقال لتابعه أنكيدو:

أي انكيدو. ان الختم والآجر، لم يأتيا، بعد، بالمصير المحتوم
ولسوف أدخل أرض الاحياء، وأخلد لنفسي هناك اسماً
ففي الاماكن التي رفعت فيها الاسماء سأرفع اسمي
وفي الاماكن التي لم ترفع فيها الاسماء سأرفع اسمي

فأجابه تابعه أنكيدو:

بلغ أوتو، البطل أوتو
فتلك الارض في رعاية أوتو
أرض الارز المقطوع، في رعاية أوتو، بلغ أوتو.
فرفع جلجامش بيديه جدياً تام البياض
وضغط الى صدره جدياً اسمر، قرباناً
وبيده أمسك العصا الـ [. . .] الفضية
وقال مخاطباً أوتو السموات:
«أي أوتو، أني لداخل أرض الاحياء، فكن نصيري
اني لداخل أرض الارز المقطوع، فكن نصيري»

فأجابه أوتو:

انك لـ[. . . .] حقاً، ولكن ما بغيتك من تلك الأرض؟
«أي أوتو، سأتوجه لك بكلمة علك تصغي إلي
وكلاماً أسمعه لك، علك تصغي إلي
في مدينتي يموت الرجل كسير القلب
يفنى الرجل حزين الفؤاد.
انظر من فوق السور
فأرى الاجسام الميتة طافية في النهر
وأرى أني سأغدو مثلها حقاً.
فالانسان مهما علا، لن يبلغ السماء طولاً
ومهما اتسع، لن يغطي الارض عرضاً
وان الختم والآجر، لم يأتيا، بعد، بالمصير المحتوم
سأدخل أرض الاحياء، وأخلد لنفسي هناك اسماً

ففي الاماكن التي رفعت فيها الاسماء سأرفع اسمي
وفي الاماكن التي لم ترفع فيها الاسماء سأرفع اسمي.
فتقبل أوتو دموعه قرباناً
وكرجل رحيم، أظهر له من رحمته
(ثم أسلمه) سبعة جبابرة، ابناء من أم واحدة
الأول [. . . . .] الذي [. . . . .]
الثاني، الافعى السامة التي [. . . . .]
الثالث التنين الذي [. . . . .]
الرابع، النار الحارقة التي [. . . . .]
الخامس، الحية الهائلة التي تخلع الافئدة و[. . . . .]
السادس، الطوفان المدمر الذي يطغى
السابع، البرق الوامض لا يصده شيء

يلي ذلك تسعة وعشرون سطراً، معظمها يحتوي على نقص في موضع أو أكثر. ولكن المعنى الاجمالي كامل الوضوح فبعد أن يضع أوتو تحت تصرفه تلك الجبابرة السبعة، ينطلق جلجامش الى مدينته طالباً خمسين متطوعاً لمرافقته في رحلته. ويشترط في مرافقيه أن يكونوا بلا بيوت يملكونها أو زوجات أو أولاد، فيكون له ما أراد. ثم يمضي الى الحدادين فيصنعون له ولمرافقيه أجود أنواع الاسلحة. وعندما تكتمل عدته يشرع في مغامرته. يقطع جلجامش بجماعته ستة جبال هائلة، وعند عبور الجبل السابع يجلس الركب للراحة، فيقع جلجامش في سبات عميق طويل. وعبثاً يحاول أنكيدو ايقاظه:

هزه فلم يتحرك
تحدث اليه فلم يلق جواباً:
«أيها المضطجع، أيها المضطجع
اي سيدي جلجامش، الى متى ترقد؟
أظلمت الارض، وانتشر الليل في كل مكان
وها هو الغسق يرسل شعاعه الأخير
وأوتو قد مال رافع الرأس الى حضن أمه نيجال*

* نيجال هي ننخرساج الأرض ـ الأم

فيا سيدي جلجامش الى متى ترقد؟
هل تترك من رافقك من ابناء مدينتك
يقفون في انتظارك عند سفح الجبل؟
هل تترك أمك التي ولدتك تجرر اذيال الخيبة في ساح المدينة؟»
وهنا انتبه من غفوته
نهض وقد جللته الهيبة كرداء
ضم الى صدره عباءته التي تزن ثلاثين شاقلاً
وانتصب على الارض كثور عتي
ثم انحنى حتى لامس فمه الارض وبرزت أسنانه :
«أقسم بحياة أمي ننسون التي ولدتني، وبأبي لوجال بندا المقدس
أني سأجابه ذلك الرجل، ان كان رجلاً، أو ذلك الاله ان كان كذلك
ستتوجه خطواتي قدماً نحو الامام، لا وراء نحو المدينة. »
وهنا ناشده تابعه المخلص قائلاً :
«أي سيدي، انت لم تر ذلك الرجل. ولم تعرف منه الخوف
ولكني رأيته ونالني منه الهلع الشديد
ان لذلك الرجل أسنان كأسنان التنين
ووجهه يشبه وجه الاسد
وله انقضاض كسيل دافق
من جبهته التي تلتهم القصب والاشجار لا ينجو أحد.
فيا سيدي تابع رحلتك نحو تلك الارض فأنا عائد الى المدينة
لأخبر أمك بأمجادك فتهلك (ابتهاجاً)
وأخبرها بموتك المتوقع فتذرف الدمع الغزير».

ولكن جلجامش يشجعه ويحثه على المضي قدماً فيما قدما من أجله، فيتابع الركب سيره حتى يصل الى غابة حواوا وحش الارز. فيشرع رجال الحملة بقطع الاشجار حول عرين حواوا الذي يخرج للانقضاض على مهاجميه ولكنه سرعان ما يقع في قبضة البطلين، ويبدأ في الاستعطاف لكسب حياته :

«أي اوتو، لم أعرف لي أماً ولدتني، ولا أباً رعاني.
فأنت من أوجدني، وأقامني في هذه الارض ورعاني».

ثم التفت الى جلجامش واستحلفه بالسماء والارض والعالم الاسفل
أخذه من يده وشده اليه
فأخذت جلجامش الشفقة به
وقال لتابعه أنكيدو :
«أي انكيدو، لندع الطائر الحبيس يرجع الى مقره
لندع الرجل الأسير يعود إلى حضن أمه»
فقال أنكيدو لجلجامش :
«ان من لا حصافة عنده
سرعان ما يلتهمه «نمتار»* الذي لا تمييز عنده
اذا عاد الطائر الحبيس إلى حضن أمه
فلن ترى ثانية، مدينة أمك التي ولدتك».
وهنا قال حواوا لانكيدو:
«لقد أوغرت صدره ضدي يا أنكيدو
أيها الأجير [. . . .] لقد أوغرت صدره ضدي».
عندما صدر منه هذا القول
قطعا منه العنق
وقدماه قرباناً لانليل وننليل

جلجامش وثور السماء :

وهذه اسطورة أخرى بطلها جلجامش ايضاً. ولكن اللوح الذي حملها الينا قد وجد على درجة كبيرة من التشوه والنقص، الامر الذي يمنع تقديم ترجمة كاملة لها. ولذا سأكتفي باعطاء فكرة عامة عن هذه الاسطورة، مع الاستعانة بالنص البابلي المتأخر الذي أدمجها ايضاً في نسيجه، كما أدمج أسطورة جلجامش وأرض الأحياء.

بعد النقص الحاصل في بداية اللوح، تطالعنا الالهة انانا وهي تخاطب جلجامش، وتعدد له الهدايا والاعطيات التي ستغدقها عليه. ونستطيع هنا أن

* عفريت العالم الاسفل، قابض الارواح. ويقابل عزرائيل.

نستنتج اعتماداً على النص البابلي اللاحق أن الالهة تعرض عليه هنا حبها والمنافع التي ستعود عليه ان هو اتخذها زوجة له . وعندما يعود النص للوضوح نجد أنانا في حضرة ابيها آن، رب السماء، تطلب منه أن يعطيها ثور السماء لتقتل به جلجامش . لذا نستطيع الاستنتاج أن جلجامش قد رفض حب الالهة وركل عرض الزواج الذي تقدمت به . ولكن الاله آن يتردد في اعطاء ابنته المتهورة ثور السماء، فتلجأ الى تهديده بخلعه عن العرش وادارة الكون مع بقية الآلهة من دونه . فيخضع آن للتهديد ويسلمها قيادة ثور السماء الذي يهبط الى الارض يعيث فيها فساداً وينشر الخوف والهلع بين ظهرانيها . وهنا ينتهي الكم الواضح من النص السومري . ولكن النص البابلي يؤكد انتصار جلجامش على ثور السماء حيث يواجهه مع صديقه أنكيدو فيقطعان رأسه ويقدمانه هدية للاله شمش .

٢ | التنين البابلي

قتل اللابو:

تتحـدث هذه الاسطورة عن وحش جبار يدعى بـ«اللابو» . وقد خرج هذا الوحش من الأعماق المائية الى ديار الحضارة محاولاً تدمير كل ما بناه الانسان، الى أن ينجح أحد الآلهة في القضاء عليه . يجري النص على النحو التالي :(٥)

تنهدت المدينة و[. . . .] الناس
تناقصت أعداد البشر [. . . .]
ولم يكن لنواحهم أحد لـ[. . . .]
ولا لصراخهم أحد لـ[. . . .]
من [الذي أنجب] الحية؟
تعامة [من أنجب الحية]*
قام انليل برسم شكل (للتنين) في السماء**

---

5 - L.W. King, The Seven Tablets of Creation, London, 1902. (Cited by A. Heidel in his Babylonian Genesis).

* وفي ترجمة أخرى: البحر من انجب الحية . راجع هيديل

** الشكل الذي رسمه انليل في السماء هو درب المجرة وما زال قائماً الى يومنا هذا .

كان طوله خمسين ساعة مضاعفة وارتفاعه ساعة مضاعفة*
وكان اتساع فمه ستة اذرع و[. . . .] اثنتي عشرة ذراعاً
أما محيط اذنه فستة اذرع
كان يستطيع قنص الطيور عن بعد ستين ذراعاً
وتسعة أذرع في العمق يستطيع الانسلال تحت الماء
كان يرفع ذيله [. . . . »
وجميع آلهة السماء [. . . .]
سجد الآلهة أمام سن في السماء،
وبلهفة أمسكوا بأذيال ردائه :
«من ذا الذي سيمضي لقتل اللابو
وتخليص الارض الواسعة
فتكون له السيادة من بعد على الجميع»
(فقال الاله سن)**
ـ «امض يا تيشباك واقتل اللابو
خلص الارض الواسعة من شره
فتكون لك السيادة من بعد على الجميع
ـ لقد أرسلني سيدي لقتال وحش النهر
ولكني لا أعرف اللابو»

وهنا يصيب اللوح كسور وتشوهات تمنع من فهم محتوياته. فنقف عند خوف تيشباك وتردده في قتال التنين. وهذا ما يعيد الى أذهاننا أجواء التحضير لقتال تعامة في الاينوماايليش، عندما يتهيب البعض نزالها قبل أن يتطوع مردوخ. وعندما يعود النص للوضوح، نجد أنفسنا في معمعان المعركة، دون أن نعرف أي اله قد تجرأ على المضي للقاء اللابو:

[. . . .] فتح فمه وقال للاله [. . . .]:
«حرك الغيوم، اصنع زوبعة
وخاتم حياتك (ضعه) أمام وجهك

* الساعة المضاعفة مقياس بابلي ويعادل ما يقطعه الانسان في ساعتين (عشرة كيلومترات).

** سن: آله القمر.

أطلق سهماً واصرع اللابو [. . . .]»
فحرك الغيوم وصنع زوبعة
وخاتم حياته (وضعه) أمام وجهه
أطلق سهماً (وصرع) اللابو [. . . .]
ولثلاث سنوات، وثلاثة اشهر، ليل نهار
جرى دم اللابو [. . . .]

ينطبق على هذه الاسطورة التفسير العام الذي تقدمت به في فاتحة هذا السفر. فالتنين هنا نتاج القوى البدئية السابقة لتنظيم الكون، دفعت به المياه، التي ترمز في الاسطورة لقوى العماء، والفوضى، الى الكون المرتب لزعزعة بنيانه واعادته الى حالته السابقة. كما ينطبق على النص تفسيرنا للاسطورة باعتبارها مغامرة للعقل الباحث عن الاسباب والغايات، وذلك في جزئها الخاص بشكل التنين. فعندما اتى انليل لشرح خطة المعركة للآلهة، قام برسم شكل اللابو في السماء، يوضح عظمته وقوته، فكان درب المجرة الذي يقطع السماء المعتمة من أقصاها إلى أقصاها. وقد بقي ذلك الرسم محفوراً في الأعالي الى يومنا هذا. ومن ناحية أخرى ينطبق على الاسطورة التفسير الذي يؤكد أن التنين ليس الا قوى اللا شعور المكبوتة. ذلك أن اللابو قد اندفع من أعماق المياه التي ترمز في الاسطورة الى أغوار اللاشعور.

ويذكرنا التفسير البابلي لوجود درب المجرة في السماء، باسطورة أغريقية عن طفولة هرقل. فعندما تأتي الالهة هيرا زوجة زيوس لارضاع الطفل الخارق، يمتص من ثديها مصة قوية كانت كافية ليندفع الحليب منه الى السماء مشكلاً درب المجرة المعروف في اللغات الاوروبية باسم درب اللبن Milkyway نسبة الى لبن الالهة هيرا الذي انتثر في الأعالي وما زال عالقاً هناك.

الطائر «زو»:

كان الطائر العملاق زو من قوى العالم الاسفل المدمرة. نرى رسومه على العديد من الاختام التي عثر عليها في أرض الرافدين، ويبدو فيها في هيئة هي مزيج من الانسان والطائر. كما ورد اسمه في كثير من النصوص الطقسية وهو في صراع

مع بعض كبار الآلهة. فأحد النصوص يصف مردوخ بأنه من حطم رأس زو بينما يعزو نص آخر هذا العمل الى الالهة ننورتا. أما النص الذي نحن بصدده الآن، فقد وصلنا في روايتين متشابهتين، الاولى من نينوى، والثانية من سوسه.

وسأقوم فيما يلي بترجمة نص نينوى لانه الأوضح والأكمل، مع الاستعانة بنص سوسة لتوضيح مواضع النقص في الاول[٦].

تتلخص الاسطورة في أن زو يرغب في السيطرة على الآلهة جميعاً واحتلال مركز الصدارة. ولن يتيسر له ذلك الا اذا سرق الواح الاقدار التي يحملها انليل، تلك الالواح التي تعطي حاملها سلطة مطلقة في الآلهة والبشر والاكوان. ينجح طائر العالم الاسفل في مسعاه ويهرب بالالواح بعيداً تاركاً الآلهة في جزع شديد للحادث الجلل الذي أسلم مصائر الأكوان للقوى العمياء. وكما هو الأمر في أساطير التنين السابقة، فان مهمة القضاء على الوحش توكل الى العديد من الآلهة ولكنهم يتنصلون منها. الى أن يتطوع أحدهم ويحقق نصراً مؤزراً. الا أن تشوه اللوح الفخاري ونقصه يمنعنا من معرفة اسم الاله الذي نجح في تلك المهمة. والنص بمجمله ذو أصل سومري واضح، نظراً الى أن الاله انليل يظهر فيه كرئيس لمجمع الالهة وحامل لالواح الاقدار:

(بداية النص تالفة)

لقد شهدت عيناه سر سيطرة انليل وقوته.
رأى تاج ملكه ورداء ألوهيته
ورأى الواح الأقدار وتملاها مراراً
وكلما رأى أبا الآلهة، رب الدورناكي
(كلما) طمعت نفسه في مركز انليل:
«سأحصل على ألواح الأقدار
وأمسك بمصائرهم جميعاً
سأرسي دعائم ملكي واتحكم في الأقدار

---

6 - E. A. Speiser, Akkadian Myths and Epics (in: J. Pritchard, Ancient Near Eastern Texts, Edited Princeton, New York 1969).

A. Heidel, The Babylonian Genesis, Phoenix Books, Chicago, 1970.

سأحكم فوق جميع الايجيجي»
وهكذا، بعد أن صمم على التحرك
انتظر طلوع النهار عند باب غرفة انليل
وعندما مضى انليل ليستحم في الماء الصافي
وخلع تاجه فوضعه على العرش
خطف ألواح الأقدار
فاغتصب السلطة والملك والسيادة
ثم طار زو حيث اختفى في جباله
فساد الوجوم وعم الصمت
وانليل أبو الآلهة، قد شلت حركته
فالحرم المقدس، قد سرقت هيبته وضاعت روعته
انطلقت الآهة هنا وهناك للمشاورة
فتح آنو فمه وقال
مخاطباً أبناء الآلهة:
«ليقم ذلك الاله فيصرع زو
ويجعل اسمه عالياً في العالم المعمور»
فدعوا باسم الامير حدد ابن آنو
لما تكلم الآمر الناهي آنو:
«حدد، أيها المنتصر الجليل، ليكن انقضاضك حاسماً
وبسلاحك فلترسل البرق يصرع زو
فيغدو اسمك عالياً في مجمع الآلهة العظام
ولا نظير لك بين اخوتك الآلهة
وستبنى لك المعابد وتشاد
وفي جهات الارض الاربعة ستقام هياكل لعبادتك
وستبنى هذه الهياكل حتى في ايكور
فتكون جليلاً في حضرة الآلهة ويعلو اسمك»
فأجاب حدد متحدثاً الى آنو أبيه:
«أي أبت، من يستطيع الاقتراب من تلك الجبال الرهيبة؟

وهل بين الآلهة ابنائك شبيه لزو؟
لقد أمسك بين يديه بألواح الأقدار
واغتصب السلطة والملك والسيادة
وطار بعيداً مختبئاً في جباله
فكلمته اليوم نافذة ككلمة رب الدورناكي
من يعترضه يؤول إلى تراب
ورؤيته تثير في الآلهة الرهبة والقنوط
وهنا طلب منه آنو أن لا يمضي في الطريق

يلي ذلك تشوه وكسور في اللوح، وعندما يتضح النص، نجد آنو جاداً في اقناع اله آخر في المضي الى زو.

فدعو إليه «شارا» ابن عشتار
فتكلم إليه الآمر الناهي:
«شارا أيها المنتصر الجليل ليكن انقضاضك حاسماً
فيغدو أسمك عالياً بين الآلهة العظام
ولا نظير لك بين اخوتك الآلهة
وستبنى لك المعابد وتشاد
وفي جهات الارض الاربعة ستقام هياكل لعبادتك
وستبنى هذه الهياكل حتى في ايكور
فتكون جليلاً في حضرة الآلهة ويعلو اسمك»
فأجاب شارا متحدثاً إلى أبيه آنو:
«أي أبت، من يستطيع الاقتراب من تلك الجبال الرهيبة؟
وهل بين الآلهة أبنائك شبيه لزو؟
لقد أمسك بين يديه ألواح الأقدار
واغتصب السلطة والسيادة

الى هنا ينتهي الجزء المقروء من النص. الا أننا نستطيع الاستنتاج بأن واحداً من الآلهة قد تطوع لقتال زو وأكمل مهمته بنجاح، ذلك أن لقب قاهر زو قد الصق بأكثر من عمل فني قد صور مصرع ذلك الوحش الجبار.

٣ التنين التوراتي

لم يترك اله اليهود «يهوه» صفة من صفات آلهة السوريين، أو فعلاً من أفعالهم، أو صلاحية من صلاحياتهم، الا وادعاها لنفسه، كما المحنا الى ذلك في سفر البداية. فهو ايل نفسه اله السموات السوري، لم يكتف بنقل صفاته وصلاحياته، بل ادعى لنفسه الاسم ذاته. وهو آدون (ادونيس)، ادعى لنفسه الاسم وناداه به عباده في مواضع كثيرة من الكتاب المقدس. وهو مذلل المياه الاولى كمردوخ وبعل، نقرأ في التوراة «صوت الرب على المياه، اله المجد أرعد، الرب فوق المياه الكثيرة، وصوت الرب بالجلال.»[٧] «أنت متسلط على كبرياء الماء»[٨] وهو يركب السحاب كما يفعل بعل «والجاعل السحاب مركبته، الماشي على أجنحة الريح»[٩]. كما لم يتورع يهوه عن مصارعة الوحوش الهائلة والتنانين وحيات البحر. وهو في سبيل ذلك يتخلى عن الشمولية والاطلاق، لأن الخالق لا يصارع مخلوقاته، بل يصارع أنداده.

وبدافع من غيرته العظيمة من الاله بعل، الذي بقي اليهود وملوكهم يعبدونه

(٧) العهد القديم، سفر المزامير، المزمور التاسع والعشرين.
(٨) العهد القديم، سفر المزامير، المزمور التاسع والثمانين.
(٩) العهد القديم، سفر المزامير، المزمور أربعة ومائة.

الى فترات متأخرة جداً من تاريخهم، نجد يهوه يجدد مرة أخرى الصراع القديم الذي خاضه بعل مع التنين لوتان، وذلك في نص توراتي يتطابق حرفياً مع النص الاوغاريتي. وقد اوردنا النصين في فصل التكوين التوراتي، ونوردهما هنا مرة اخرى:

النص الاوغاريتي	سفر اشعيا ٢٧ : ١
والآن تريد أن تقتل «لوتان»	**في ذلك اليوم يعاقب الرب**
الحية الهاربة	**بسيفه القاسي العظيم الشديد**
الآن تريد أن تجهز على الحية الملتوية	**«لوتان» الحية الهاربة**
«شالياط» العتيه	**«لوتان» الحية المتحوية**
ذات الرؤوس السبعة	**ويقتل التنين الذي في البحر**

وفي نصوص اوغاريتية أخرى نجد أن عناة، حبيبة بعل، تقوم أيضاً بقتل التنين وسحق الحية الملتوية[10]

أي جوبار وأوغار ما الذي أتى بكما هنا
أي عدو قد قام في وجه بعل
وأي خصم ناهض راكب الغيوم
الست التي محقت «يم» حبيب ايل
ألست التي قضت على نهر الاله العظيم
ألست التي افنت التنين
وسحقت الحية الملتوية ذات الرؤوس السبعة؟

وفي أماكن أخرى من التوراة، نجد اشارات أخرى لنفس التنين:[11]

أنت شققت البحر بقوتك
كسرت رؤوس التنانين على المياه

10 - C.H. Gordan, Ugarit, Norton Library Newyork 1967.

(١١) العهد القديم، سفر المزامير، المزمور ٧٤.

أنت رضضت رؤوس لوياثان
جعلته طعاماً للشعب، لأهل البرية
أنت فجرت سيلاً وعيناً
أنت يبست أنهاراً دائمة الجريان
لك النهار ولك الليل ايضاً
أنت هيأت النور والشمس
أنت نصبت كل تخوم الارض
الصيف والشتاء أنت خلقتها

في هذا النص نجد قصة أخرى للتكوين. فعملية الخلق تلي التغلب على المياه وعلى لوياثان وبقية التنانين وهذا الجو يذكرنا بصراع مردوخ مع تعامة، وقهره لها ولجيشها المؤلف من تنانين وأفاع ومخلوقات عجيبة.

وفي نص توراتي آخر، نقرأ وصفاً حياً للوياثان، يعيد الى ذاكرتنا وصف تعامة وجبروتها:[12] «من يفتح مصراعي فمه، دائرة اسنانه مرعبة. عطاسه يبعث نوراً، وعيناه كهدب الصبح. من فيه تخرج مصابيح، شرار نار تتطاير منه. من منخريه يخرج دخان كأنه من قدر منفوخ، أو من مرجل. نفسه يشعل حجراً. ولهيب يخرج من فيه. قلبه حجر وقاس كالرحى. عند نهوضه تفزع الاقوياء. يحسب الحديد كالتبن، والنحاس كالعود النخر. حجارة القلاع ترجع عنه كالقش. يضيء السبيل وراءه، فيحسب اللج أشيب، ليس له في الارض نظير»

والى جانب لوياثان، هناك تنانين أخرى يصارعها يهوه ويتغلب عليها. منها «رهب» الذي نقرأ عنه في أكثر من موضع في العهد القديم: «استيقظي، استيقظي، البسي قوة يا ذراع الرب. استيقظي كما في أيام القدم، كما في الادوار القديمة، الست انت القاطعة رهب، الطاعنة التنين، ألست أنت هي المنشفة البحر، مياه الغمر العظيم، الجاعلة أعماق البحر طريقاً لعبور المفديين»[13]. وهذا النص يذكرنا بحديث عناة في النص الاوغاريتي السالف الذكر: الست التي محقت يم... الخ

(١٢) ايوب، الاصحاح ٤١ : ١٤-٢٣.

(١٣) اشعيا، الاصحاح ٥١ : ٩-١٠.

وفي مكان آخر في العهد القديم نقرأ عن رهب ايضاً: «من يشبه الرب بين أبناء الله. اله مهوب جداً في جماعة القديسين، ومخوف عند الذين حوله. يا رب، اله الجنود، من مثلك قوى، رب، وحقك من حولك. أنت متسلط على كبرياء البحر، عند ارتفاع لججه أنت تسكنها. أنت سحقت رهب مثل القتيل بذراع قوتك بددت أعداءك. لك السموات لك الارض ايضاً. المسكونة وملؤها أنت أسستها. الشمال والجنوب أنت خلقتهما.»(١٤). يحتوي هذا النص على أصداء وثنية واضحة. فالرب واقف في مجمع الآلهة، أي ابناء الله، ولا نظير له بينهم كبعل أو مردوخ. وهو عظيم لأنه انتصر على المياه. وعلى التنين رهب، ثم يتابع أعمال الخلق، تماماً كمردوخ.

وعن رهب نقرأ أيضاً «الرب لا يرد غضبه، ينحني تحته أعوان رهب»(١٥). «بقوته يزعج البحر، وبفهمه يسحق رهب. بنفحته السماوات مسفرة، ويداه ابادتا الحياة الهاربة»(١٦).

. . . .

هذا، وقد انتقل «رهب» الى الأساطير المسيحية فيما بعد. ولكن الاله هنا لا يباشر بنفسه قتال التنين بل يترك ذلك لأحد القديسين، وهو القديس جاورجيوس الذي تمثله الأعمال الفنية المسيحية في القرون الوسطى وهو يطعن بحربته التنين الرهيب.

(١٤) المزامير، المزمور ٨٩: ٦-١٢.
(١٥) ايوب، الاصحاح ٩: ١٣-١٤.
(١٦) ايوب، الاصحاح ٢٦: ١٢-١٣.

سفر الفردوس المفقود

﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتماولا تقربا هذه الشجرة﴾

قرآن كريم: البقرة - ٢٤

«وأخذ الرب الاله آدم ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها. وأوصى الرب الاله آدم قائلاً: من شجر الجنة تأكل أكلاً وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها»

العهد القديم - سفر التكوين، ١٥: ١٧

١ الجنة السومرية

منذ أن زالت المشاعة الابتدائية، وفقد الفرد سلطته على وسائل انتاجه لصالح الآخرين، تحول العمل من متعة وتحقيق للذات، الى عبودية واغتراب، ومن طقس جماعي مرض، الى وحدة قاسية بلا هدف أو غاية الا لقمة عيش يومية تدفع للاستمرار يوماً آخر. ومع نضوج المجتمعات الابوية التسلطية واحكام حلقاتها على الافراد، صار الانسان الى حالة احباط دائمة هي شرطه الاساسي في حياة تبدو بلا معنى ولا تسعى الى غاية، سوى موت يضع حداً لفصل مؤلم. ولكن المجتمع التسلطي استطاع أن يحرم الفرد من كل شيء إلا من رغبة في التغيير بادية أو كامنة و. . حلم. تجلت رغبة التغيير في ثورات البشر عبر التاريخ في سبيل حياة أفضل وحرية أكثر. وتجلى الحلم، بديلاً عن الفعل، في أدبيات البشر التي تصف عالماً قادماً، هو حرية كاملة ومساواة مطلقة وراحة من لعنة العمل المفروض على الانسان. عالم لا مرض فيه ولا عناء ولا شيخوخة ولا موت. فكانت أساطير الجنة لدى كل الشعوب، تعبيراً سلبياً عن رغبة في التغيير لم تخرج الى حيز الفعل، أو فعل تم احباطه فصار حلماً ينتظر.

أسطورة العصر الذهبي:

عبر السومريون عن ذلك الحلم في نص جميل يصف العصر الذهبي للانسان قبل هبوطه الى دنيا العبودية والعمل المغترب، حيث كان سيداً لنفسه وسيد الطبيعة: [1]

في تلك الأيام، لم يكن هناك حية ولا عقرب ولا ضبع
لم يكن هناك أسد ولا كلب شرس ولا ذئب
لم يكن هناك خوف ولا رعب
لم يكن للانسان من منافس
في تلك الايام كانت «شوبور» أرض المشرق، أرض الوفرة وشرائع العدل
وسومر أرض الجنوب، ذات اللسان الواحد، أرض الشرائع الملكية
و«أوري» أرض الشمال، الأرض التي يجد فيها كل حاجته
و«مارتو» أرض الغرب، أرض الدعة والأمن
وكان العالم أجمع يعيش في انسجام تام
وبلسان واحد يسبح الكل بحمد انليل.

أسطورة دلمون:

أما الجنة، بمفهومها الذي تجلى، فيما بعد، في التوراة، فتحدثنا عنها أسطورة أخرى هي أسطورة دلمون[2]:

أرض دلمون مكان طاهر، أرض دلمون مكان نظيف
أرض دلمون مكان نظيف، أرض دلمون مكان مضيء
في أرض دلمون لا تنعق الغربان
ولا تصرخ الشوحة صراخها المعروف
حيث الأسد لا يفترس أحداً
ولا الذئب ينقض على الحمل

1 - S.N. Kramer, Sumerian Mythology, Harper and Row. Newyork 1961.

2 - ibid.

ولا الكلب المتوحش على الجدي
ولا الخنزير البري يلتهم الزرع
والطير في الأعالي لا [.....] صغارها
والحمامة لا [.....] رأسها
حيث لا أحد يعرف رمد العين
ولا أحد يعرف ألام الرأس
حيث لا يشتكي الرجل من الشيخوخة
ولا تشتكي المرأة من العجز
حيث لا وجود لمنشد ينوح
ولا لجوال يعول

في هذا الفردوس، كان يعيش انكي إله الماء العظيم، وزوجته ننخرساج الارض - الأم، كما عاش في الفردوس التوراتي فيما بعد آدم وحواء. وقد أخرج انكي ماءه وسقى تربة زوجته الأرض، فحول دلمون الى جنة الهية خضراء. ومن اتحاد الماء (انكي) بالتربة (ننخرساج) يمتلىء الفردوس بالحقول والاشجار والثمار، كما تظهر مجموعة من الهات النبات يقوم انكي باغوائهن تاركاً زوجته.

ثم ان ننخرساج تقوم بخلق ثمانية أنواع من النباتات العجيبة. وقبل أن تفرغ بعملها، يرسل انكي رسوله ايسمند الذي يقطف له تلك النباتات فيأكلها جميعاً. وما أن تعلم الخالقة بذلك، حتى تغضب غضباً شديداً، وترسل على انكي لعنة مقيمة: «الى ان يوافيك الموت، لن أنظر إليك بعين الحياة». إلا ان الآلهة الآخرين يجزعون لهذا الأمر، ذلك أن اللعنة على انكي تعني شح المياه وغوصها الى باطن الارض تدريجياً. ويحار مجمع الآلهة في كيفية معالجة الأمر خصوصاً وأن ننخرساج قد غابت عن الانظار حتى لا تغير رأيها أو تخضع لضغط أحد. أما أنكي فتشتد عليه الأمراض وتهاجمه ثمانية علل بعدد النباتات التي أكلها وأخذ ينهار تدريجياً. وأخيراً ينقذ الثعلب الموقف عندما يتطوع للبحث عن ننخرساج ويجدها في النهاية. وتخضع ننخرساج لمشيئة الالهة وتقوم بشفاء انكي عن طريق خلق ثمانية آلهة. كل اله يختص بشفاء أحد أعضاء أنكي العليلة.

- ننخرساج: ما الذي يوجعك يا أخي
- إنكي: ان فكي هو الذي يوجعني

ـ ننخرساج: لقد أوجدت لك الاله ننتول
ـ ننخرساج: ما الذي يوجعك يا أخي
ـ إنكي: ان ضرسي هو الذي يوجعني
ـ ننخرساج: لقد أوجدت من أجلك الاله ننسوتو

وهكذا يتابع تعداد أوجاعه وتتابع ننخرساج خلق الهة الشفاء من أجله. الى أن يصل الى ضلعه:

ـ ننخرساج: ما الذي يوجعك يا أخي
ـ إنكي: ان ضلعي هو الذي يؤلمني
ـ ننخرساج: لقد أوجدت من أجلك الآلهة ننتي

هذا ويناقش بعض علماء السومريات في ان كلمة «تي» في السومرية تعني ضلع، ولكنها تعني ايضاً «أحيا» أو «جعله يحيا» أما كلمة «نن» فتعني سيدة، كما رأينا سابقاً من تحليل اسم ننخرساج التي تعني سيدة الجبل. وعلى هذا يكون اسم الالهة «ننتي» يعني سيدة الضلع أو السيدة التي تحيي. وهذه السيدة شبيهة بحواء التوراة التي أخذت من ضلع آدم فهي سيدة الضلع وهي حواء بمعنى التي تحيي.

لقد أسست الاسطورة السومرية لاساطير الجنة، اللاحقة في المنطقة، ولأسطورة سقوط الانسان، وفقدانه عالمه الذهبي القديم. ورغم أنه لا توجد بين أيدينا أسطورة سومرية تحكي كيفية فقدان الانسان لعصره الذهبي وهبوطه الى عالم الذل والهوان، الا أننا نستطيع افتراض وجود مثل هذه الاسطورة استناداً لما تقصه اسطورة العصر الذهبي السومرية علينا من أوضاع الانسان السابقة على الهبوط.

٢ الجنة البابلية

لم يعثر حتى الآن على أسطورة بابلية مشابهة لأسطورة دلمون، رغم الاشارات الدالة على وجود مثل هذه الأسطورة. فنحن نعلم من أسطورة الطوفان البابلية أن أرض دلمون هي مكان الخالدين، لان اتونابشتيم وزوجته بعد أن ينقذا الحياة على سطح الأرض من الطوفان، يكافئهما انليل بجعلهما من الخالدين، وكانا قبلاً من البشر الفانين، ويسكنهما في «دلمون» حيث منابع الأنهار. فدلمون اذن هي الجنة السومرية البابلية، وهي مرتع الآلهة الخالدين، ولكنها في نفس الوقت مسكن البشر ممن اسبغت عليهم نعمة الخلود. وتحدثنا الواح اوغاريت عن جنة مماثلة. فالاله ايل يسكن عند منبع الأنهار ايضاً، كما هو الأمر في دلمون وفي فردوس التوراة حيث تنبع انهار فيشون وجيحون وحداقل والفرات.

أما سقوط الانسان فتنقله لنا أسطورة أخرى وهي أسطورة «آدابا» وآدابا هنا هو الأنسان الاول الذي خسر الخلود بسبب غلطة، وهذه الغلطة رغم ا نها ترجع الى سوء تفاهم، وسوء نية الاله ايا الذي خلقه، الا انها في نتائجها تتلاقى مع نتائج خطيئة آدم. فكلاهما خسر الحياة الابدية وجلب الموت على ذريته. ونلاحظ هنا تشابه الاسمين، آدم ـ آدبا. . .

قام الاله «ايا» بخلق آدبا لخدمة معبده، وصيد السمك للالهة، وجعله عاقلاً وأسبغ عليه الحكمة الكاملة غير أنه لم يهبه الحياة الابدية. وفي أحد الايام بينما كان آدبا يصطاد على شاطىء الخليج العربي، هبت رياح الجنوب وقلبت قاربه ورمت به في الماء. فغضب لذلك ولعنها على ما فعلت، فانكسر أحد جناحيها ولم تستطع الهبوب مرة أخرى. وبعد سبعة أيام من اختفاء ريح الجنوب، دعي آدابا للمثول أمام آنو كبير الآلهة، لاستجوابه على ما فعله. وقبل صعوده زوده خالقه «ايا» بعدد من النصائح، وأشار عليه أن يطيل شعره، ويلبس ثياب الحداد، للتأثير على الالهين تموز وجيزيدا حارسا بوابة السماء، عندما يسألان عن سبب حداده، فيجيب أنه حزناً على تموز وجيزيدا اللذين كانا يعيشان على الارض ثم اختفيا. ان ذلك سيسرهما وسيسمحان له بالمرور. كما قال له ان طعام الموت وماء الموت سيقدمان له في السماء وعليه الا يأخذ منهما شيئاً.

وعندما مثل آدبا أمام آنو واستجوبه قام تموز وجيزيدا بالوقوف الى جانبه، ويبدو أن المسألة سارت في صالحه، فلم يكتف آنو بالعفو عنه بل قرر مكافأته بضمه الى صف الخالدين، طالما انه دعي للمحكمة وأطلع على أسرار السماء. فأبر له بطعام الحياة ليأكل الا أن آدبا ملتزماً بوصية ايا لم يمد يده الى الطعام. وعندما أمر له بشراب الحياة امتنع عن الشرب. فدعاه آنو للاقتراب منه ضاحكاً وقال له: لماذا فعلت ذلك يا آدبا؟ لماذا لم تأكل ولم تشرب؟ أليست صحتك على ما يرام؟ ثم التفت إلى حاشيته وقال: خذوه وأعيدوه إلى الأرض. خسر آدبا الحياة الأبدية لانه لم يأكل ولم يشرب مما قدم له فأعيد إلى الأرض الفانية يعمل ويتعذب هو وذريته من بعده.

عثر على الأسطورة في نسختين في مكتبة آشور بانيبال، وكل نسخة مكتوبة بخط مغاير، وتختلف قليلاً في روايتها عن الأخرى. كما عثر على نسخة منها بالخط المسماري في ارشيف الفرعون المصري امنحوتب الثالث، الى جانب النصوص السامية الأخرى التي وجدت هناك، والتي كانت تشكل جزءاً من التبادل الثقافي بين الحضارتين. وقد كتبت كل من النسختين على لوحين الا أن الالواح قد وصلتنا في حالة مشوهة مع فقدان معظم اجزائها.

أسطورة آدبا ـ النسخة الاولى: (٣)

اللوح الأول:

لقد أعطي كل الحكمة [....]
وامره من أمر آنو وكلمته [....]
لقد زود بالفهم الكامل لانفاذ كلمة الآلهة على الأرض
لقد أعطي الحكمة ولكنه لم يمنح الحياة الابدية
في تلك الازمان ابن اريدو الحكيم.
ايا. خلقه ليكون اول البشر ورائداً لهم.
وأمر إيا الحكيم كان نافذاً لا راد له.
فهو البارع والفائق الحكمة بين الآلهة.
خلق آدبا الطاهر حافظاً للمعبد وقيماً على الشعائر.
فكان خبازاً يصنع الخبز.
كان خبازاً يقدم الخبز لأريدو*
كان يقدم الطعام والماء كل يوم لأريدو
وبيده الكريمة خط الالواح المقدسة،
التي لم تكن لتوجد لولاه
كان يشرع مركبة ويصطاد السمك لأريدو.
في تلك الأزمان آدبا ابن أريدو،
آدبا ابن ايا كان يؤوب مساء الى بيته.
ويقصد بوابة المدينة في نهاية كل يوم،
ويرسي مركبه على رصيفها في ميناء القمر الجديد.
وذات مرة هبت الريح ودفعت بمركبه بعيداً.
فراح يضرب بمجذافيه بقوة

---

3 - E.A. Speiser, Akkadian Myths and Epics (in: Ancient Near Eastern Texts, Edited) Princeton, Newjersy 1969.

A. Heidel, The Babylonian Genesis, Phoenix Books, Chicago, 1970.

* في تلك الازمان كانت المدن مسكونة بالآلهة فقط.

[. . . .] في البحر الواسع .

(بقية اللوح مفقودة)

الكسرة الثانية :

(البداية مكسورة)

لقد هبت ريح الجنوب واغرقته .
دافعة اياه الى عالم إيا .
ريح الجنوب [. . . . .]
«سأكسر لك جناحك» وما أن نطق فمه بذلك ،
حتى كسر جناح الريح ، ولسبعة أيام
لم تهب على أرض آنو
استدعى وزيره «لابرات» قائلاً :
«لماذا لم تهب رياح الجنوب في الايام السبعة الاخيرة
فأجابه وزيره لابرات قائلاً : مولاي ،
ان آدبا ابن ايا قد كسر جناح رياح الجنوب .
فلما سمع آنو هذا القول ،
نهض عن عرشه وصاح قائلاً : ليأتوا الي به
وهنا عرف ايا بالامر ، وهو المطلع على مجريات السماء
فألبس آدبا شعراً طويلاً ،
وزوده بوشاح الحداد يضعه عليه .
وقال له : أي آدبا ، ستمضي الى آنو ، الملك .
وفي صعودك ستأخذ طريق السماء ،
وتقترب من بوابة آنو .
وسيكون في حراستها «تموز» و «جزيدا»
وعندما يريانك سيسألانك قائلين : أيها الانسان ،
من أجل من تبدو في هذه الهيئة؟
من أجل من ترتدي وشاح الحزن؟ فتجيب .
لقد غاب عن الأرض الهان .
ولذا تجدانني حزيناً عليهما . فيسألان :

ومن هما الالهان الغائبان؟ فتجيب :
انهما تموز وجيزيدا . وهنا سينظران لبعضهما ،
وسيبتسمان ويقولان لك قولاً كريما ،
وسيتحدثان من أجلك في حضرة آنو ،
وسيقفان الى جانبك لدى مثولك أمام آنو
ولسوف يقدم لك طعام الموت ،
فلا تأكله ، وشراب الموت سيقدم اليك ،
فلا تشربه . وسيعطونك ، عباءة
فالبسها وزيتاً فادهن به نفسك .
هذه وصاياي فاعمل بها والكلمات ،
التي أقولها لك فاحفظها .
ثم وصل رسول آنو وقال : لقد كسر آدابا .
جناح رياح الجنوب وعليه ان يمثل أمام آنو .
ثم أعطاه طريق السماء ، والى السماء دفع به .
وعندما وصل الى بوابة آنو .
كان تموز وجزيدا يقفان على البوابة
وما أن شاهداه حتى صاحا به .
أيها الانسان من أجل من تبدو في هذه الهيئة؟
آدابا من أجل من ترتدي وشاح الحزن؟
ـ «لقد غاب عن الأرض الهان ولذا فأنا حزين
انهما تموز وجزيدا» فنظرا الى بعضهما ،
وابتسما . وعندما دخل آدابا على آنو الملك ،
رفع آنو صوته لما رآه قائلاً :
اقترب مني يا آدابا . لماذا كسرت جناح رياح الجنوب؟
فأجاب آدابا قائلاً «مولاي .
لقد كنت أصطاد السمك في عرض البحر لبيت سيدي ،
وكان البحر هادئاً كأنه المرآة .
ثم هبت رياح الجنوب وأغرقتني .

دافعة بي الى عالم سيدي*، وفي ثورة غضبي،
لعنت رياح الجنوب» تموز، وجيزيدا
وقفا الى جانبه وقالا لآنو كلمات حسنة
فهدأت خواطر آنو ولبث ساكناً:
ـ «لماذا كشف أيا لانسان غير مقدس
مكنونات السماء والأرض؟**
لقد جعله قوياً وجعل له اسماً
فماذا نصنع به؟ هاتو له.
بطعام الحياة ليأكل منه»
فجلبوا طعام الحياة. ولكنه لم يقربه. وشراب الحياة
فلم يشرب منه. وعباءة
جلبوا له فلبسها. وزيتاً
جلبوا له فدهن به نفسه
فنظر آنو اليه وضحك منه:
تعال الي يا آدابا. لماذا لم تأكل ولم تشرب.
أليست صحتك على ما يرام؟: «لقد أمرني ايا سيدي
ألا آكل أو أشرب»
ـ: خذوه وأعيدوه إلى الأرض.

وهكـذا فعـل ايا كما فعل يهوه في الاسطورة التوراتية. لقد خلق الانسان وحجب عنه الخلود، صنعه كاملاً وحكيماً وسيداً ولكنه دفعه للخطيئة المميتة، لأن الحياة الأبدية يجب أن تبقى وقفاً على الآلهة وحدهم. ونستطيع أن نلمح تشابهاً

---

* عالم اله المياه.

** ربما كان هذا السطر يشير الى مقدرة آدابا على كسر جناح الريح بقوة كلمته السحرية المستمدة من إيا. أو ربما كان يشير الى نتائج الحادث حيث صعد آدابا الى السماء وتعرف على ما لا يجب من الاسرار.
ويذكر هذا السطر بقول يهوه في اسطورة الفردوس التوراتية: «هوذا الانسان صار كواحد منا عارفاً الخير والشر، والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة ايضاً ويأكل ويحيا الى الابد».

بين العباءة التي اعطيت لآدابا ليلبسها وبين الردائين اللذين اعطيا لآدم وزوجه ليلبساهما عشية خروجهما من الجنه «وصنع الرب الاله لآدم وامرأته أقمصة من جلد والبسهما».

النسخة الثانية:

اللوح الأول:
(البداية تالفة)
عندما سمع آنو هذه الامور
[. . .] وفي سورة غضبه وحنقه
[. . .] أرسل من عنده رسولاً
[. . .] غير أن ايا العليم بسرائر الآلهة العظيمة
[. . .] أرسل كلمة لآدابا
[. . . .] فحضر آدابا الى ايا الملك
[. . . . .]
ثم أن ايا العليم بما تخفي صدور الآلهة
دله على معارج السماء
وأسدل عليه شعراً طويلاً
[. . . .] وألبسه وشاح الحزن
وأخذ ينصحه قائلاً له:
«أي آدابا ستمضي الآن الى آنو الملك
فاسمع وصاياي واحفظ كلماتي
عندما تصعد الى السماء وتقرب بوابة آنو
ستجد تموز وجيزيدا على بوابة آنو.
البقية مكسورة)

اللوح الثاني:

(البداية تالفة)
امر له بالزيت فدهن به نفسه

وطلب له العباءة فلبسها
فضحك آنو عالياً من فعال آدابا:
يا آلهة السماء جميعاً من حفزه على ذلك؟

ثم يمنع النقص الحاصل في السطور من اعطاء فكرة واضحة عن بقية اللوح، الا اننا نعلم أن فعلة آدابا قد جرت الامراض والعلل على جنسه. غير أن هذه الأمراض والعلل قابلة للشفاء عن طريق الآلهة «نن كارا» آلهة الشفاء. ويبدو أن هذه الاسطورة كانت تتلى كجزء من تعويذة لشفاء المرضى.

ولقد عثر على ختم بابلي أثار كثيراً من الجدال بسبب تمثيله لقصة شبيهة جداً بقصة سقوط الانسان التوراتية، نجد في الرسم رجلاً وامرأة يجلسان متقابلين وبينهما شجرة يمدان يديهما الى ثمارها، وخلف المرأة تنتصب حية طويلة في وضع أشبه بوضع الهامس في أذن المرأة.

فهل يحكي لنا هذا الرسم فعلاً اسطورة السقوط الاصلية؟؟ وهل سنجد في المستقبل النص الذي يحدثنا عنه؟ في الواقع ان شدة قرب الرسم للرواية التوراتية يجعلني أميل للرأي القائل بأن هذا الختم يصور لنا رواية فقدت نصوصها لتظهر في التوراة من جديد.

متوازيات في أساطير الشعوب:

ان الحديث عن ابتلاء الانسان بالشرور والامراض والأوبئة نتيجة خطئه، يحضر للأذهان عدداً من الامثلة الموازية في ميثولوجيا الحضارات الاخرى، ومنها أسطورة باندورا اليونانية[4]. فقد عهدت الآلهة الى بروميثيوس وأخيه أمر تجهيز المخلوقات بما يلزمها لمواجهة عوامل الطبيعة، ومشاق الحياة على الأرض، فقام اخوه منفرداً بهذه العملية وأعطى كل شيء للحيوانات من شعر وصوف وأنياب وأظافر.. الخ.. وترك الانسان عارياً لا سلاح ولا كساء. لكن بروميثيوس، احساساً منه بالمسؤولية، قام بسرقة النار الآلهية من السماء، وافشى سرها لبني البشر. فيغضب زيوس أشد الغضب لفعلة بروميثوس، ويقرر الانتقام منه فيوعز الى ابنه هيفستوس (فولكانو) ان يصنع نموذجاً من طين اعطاه زيوس الحياة ودعاه (المرأة)

4 - M. S. Shapiro, A Dictionary of Mythology. Granada, London and New York 1981 PP 14, 161.

ثم جاءت الالهات فأعطينها من حسنهن وجمالهن وعذوبتهن، واطلق عليها اسم (باندورا) أي سيدة النعم، وأرسل بها زيوس الى بروميثيوس واخيه. أما الأول فقد كان حذراً من هدية زيوس ولم يقبلها، بينما قبلها الثاني واتخذها زوجة له. فما كان منها بعد أن استقر بها المقام، حتى جاءت الى الجرة الكبيرة التي كان زيوس قد أودعها لدى الاخوين قائلاً لهما الا يفتحاها ففتحتها.. ومنها خرجت الى الأرض كل الاوبئة والامراض والشرور، التي ما زال الانسان مبتلياً بها حتى الآن بسبب المرأة.

وتشترك اساطير شعوب عديدة في القول بمسؤولية المرأة عن فقدان الانسان للحياة الأبدية وابتلائه بالأوبئة والامراض، منها بعض الاساطير البدائية كأسطورة قبائل في مونتانا. تقول الاسطورة:[5]

كان في قديم الزمان اله عجوز. ثم ان هذا الاله فكر في أن يخلق الاشياء والانسان ومظاهر الطبيعة المختلفة، فقام الى عمله مرتحلاً من الجنوب الى الشمال، صانعاً في طريقه الحيوانات والطيور والجبال والانهار والوديان والشلالات، مشكلاً صورة العالم كما نراه الآن. ثم أنه صنع نموذجين من الطين على شكل امرأة وذكر صغير هو ابنها، وغطاهما بغطاء قائلاً يجب أن تصبحا بشراً. ثم تركهما وعاد اليهما في اليوم التالي، ورفع عنهما الغطاء، فوجد أنهما قد تغيرا قليلاً، فتركهما وعاد في اليوم الثاني والثالث ثم الرابع، حيث وجد أن التحول قد تم، وان باستطاعتهما الآن أن يكونا رجلاً وامرأة، فقال لهما انهضا وامشيا، ففعلا ذلك وسارا الى جانب صانعهما الى ضفة النهر، وهناك تساءلت المرأة هل نعيش للابد أم ستكون هناك نهاية لهذه الحياة؟ فقال الاله: في الواقع لم افكر بذلك بعد. ولكن انظرا الي، سأرمي بهذه القطعة من روث الجاموس، فان هي عامت على سطح الماء فان الانسان سيموت اربعة ايام فقط ثم يعود للحياة مرة أخرى، وأما اذا غرقت فسيكون هناك نهاية لحياته. ورمى القطعة فعامت، ولكن المرأة كانت طماعة وشرهة للحياة، قالت: بل سأرمي هذه القطعة من الحجر فان هي عامت سنعيش ابداً، وان غاصت سنموت. ورمت بالحجر فغاص الى القاع. فقال الاله: حسناً. لقد قمت بالاختيار وسيكون هناك نهاية للانسان.

5 - Philip Freund, Myths of Creation, W. H. Allen, London, 19646

٣ | الجنة التوراتية

في رواية الجنة التوراتية، تعود للظهور معظم العناصر الاسطورية التي وجدناها في الاسطورة السومرية والبابلية والكنعانية. فالجنة في التصور التوراتي، هي مكان زرعه الاله في شرقي عدن، مكان راحة له ونزهة وأسكن فيه آدم الذي خلقه. ويتطابق هذا المكان في كثير من صفاته وخصائصه مع ما رأينا من وصف الأسطورة. فهو مكان أمن وسلام يعيش الانسان فيه بدعة واطمئنان، غير مضطر للعمل من أجل تحصيل قوته اليومي، حيث لا يعرف مرضاً ولا حزناً ولا موتاً. ويقع هذا المكان عند فم الانهار، تنبع منه أربعة أنهار هي فيشون وجيحون وحداقل والفرات، تماماً كالجنة الكنعانية حيث يعيش الاله ايل، رب السموات، كما مر معنا في أسطورة بعل وعناة: «ثم قفزت عناة على ساقيها، وغادرت الأرض، ميممة وجهها شطر أيل، عند منبع النهرين العظيمين، في وسط التيارين، ودخلت على ايل في مقره». وكالجنة البابلية ايضاً، سكن الخالدين «ما كنت قبل اليوم الا بشراً فانياً (يا اوتنابشتيم). ولكنك وزوجك منذ الآن ستغدوان مثلنا خالدين. وفي القاصي البعيد عند فم الانهار ستعيشان».

كما نجد العناصر الاسطورية الخاصة بخلق الانسان الاول، تدخل في الرواية التوراتية عن خلق الانسان. فقد خلق آدم من طين ومنه خلقت زوجته حواء.

وقد عددنا في سفر التكوين الروايات السومرية والبابلية التي تتحدث عن خلق الزوجين الأولين من طين أو من دم الاله الممزوج بالطين. واسم آدم نفسه كما رأينا ليس الا كلمة اوغاريتية تعني البشر أو الانسان. وبالاضافة الى ذلك تروي لنا حكاية آدم وحواء التوراتية عن العصر الذهبي للانسان كما روته الاسطورة السومرية، وعن سقوطه وخسارته الخلود، كما روت أسطورة آدبا البابلية. فآدبا، والاسم هنا شديد الشبه بآدم، هو الانسان الأول، الذي خسر الخلود بسبب غلطة صغيرة. تماماً كآدم. فان كليهما قد خسر الحياة الابدية، وجلب الموت على ذريته من بعده.

ولنأت الآن الى الرواية التوراتية كما وردت في سفر التكوين، الاصحاحين الثاني والثالث: «وغرس الرب الاله جنة في عدن شرقاً ووضع هناك آدم الذي جبله. وانبت الرب الاله من الارض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل، وشجرة الحياة في وسط الجنة، وشجرة معرفة الخير والشر. وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة، ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس. اسم الواحد فيشون، وهو المحيط بجميع ارض الحويلة حيث الذهب، واسم النهر الثاني جيحون، وهو المحيط بجميع أرض كوش، واسم النهر الثالث حداقل وهو الجاري شرقي آشور، والنهر الرابع الفرات. وأخذ الرب الاله آدم ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها. وأوصى الرب الاله آدم قائلاً: من شجر الجنة تأكلا أكلاً. وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها. لانك يوم تأكل منها تموت. وقال الرب الاله ليس جيداً ان يكون آدم وحده فاصنع له معه نظيره، وجبل الرب الاله من الارض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء، فاحضرها الى آدم ليرى ماذا يدعوها وكل ما دعا آدم ذات نفس فهو اسمها. فاوقع الرب سباتاً على آدم فنام، فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحماً. وبنى الرب الاله الضلع التي أخذها من آدم امرأة واحضرها الى آدم. فقال آدم هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي، هذه تدعى امرأة لانها من امرىء اخذت، لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً. وكانا كلاهما عريانين آدم وامرأته وهما لا يخجلان.

وكانت الحية أحيل جميع الحيوانات البرية التي عملها الرب الاله، فقالت للمرأة أحقاً قال الرب لا تأكلا من كل شجر الجنة. فقالت المرأة للحية من ثمر شجر الجنة نأكل، وأما ثمر الشجرة في وسط الجنة فقال الرب لا تأكلا منه ولا تمساه

لئلا تموتا. فقالت الحية للمرأة لن تموتا. بل الرب عالم انه يوم تأكلان منه تتفتح أعينكما وتكونان كالرب عارفين الخير والشر، فرأت المرأة ان الشجرة جيدة للأكل وانها بهجة للعيون وان الشجرة شهية المنظر، فأخذت من ثمرها وأكلت واعطت رجلها فأكل. فانفتحت اعينهما وعلما أنهما عريانين. فخاطا أوراق التين وصنعا لانفسهما مآزر. وسمعا صوت الرب الاله ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار. فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الاله في وسط شجر الجنة، فنادى الرب الاله آدم وقال له اين أنت. فقال سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاختبأت. فقال من أعلمك أنك عريان، هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها، فقال آدم المرأة التي جعلتها معي هي اعطتني من الشجرة فأكلت. فقال الرب الاله للمرأة ما هذا الذي فعلت، فقالت المرأة الحية أغرتني فأكلت. فقال الرب الاله للحية لانك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية، على بطنك تسعين وتراباً تأكلين كل أيام حياتك، واصنع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها، هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه. وقال للمرأة تكثيراً اكثر أتعاب حبلك، بالوجع تلدين أولاداً، والى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك. وقال لآدم لأنك سمعت أقوال امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً لا تأكل منها ملعونة الأرض بسببك، تأكل منها كل أيام حياتك. وشوكاً وحسكاً تنبت لك وتأكل عشب الحقل. بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود الى الارض التي اخذت منها. لانك تراب والى تراب تعود. ودعا آدم امرأته حواء لانها ام كل حي. وصنع الرب الاله لآدم وامرأته اقمصة من جلد والبسهما. وقال الرب الاله هوذا الانسان صار كواحد منا عارفاً الخير والشر والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة ايضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد. فأخرجه الرب الاله من جنة عدن ليعمل الارض التي أخذ منها. فطرد الانسان وأقام شرقي جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة.

بالاضافة لما طرحناه سابقاً من متوازيات مع الاسطورة البابلية، أريد فيما يلي تحليل عنصرين هامين في الرواية التوراتية، كانا قد ظهرا في ملحمة جلجامش البابلية. العنصر الاول، فكرة الحصول على المعرفة عن طريق الطقس الادخالي (initiation) للفعل الجنسي. والعنصر الثاني دخول الحية كمسؤولة عن خسارة الخلود.

فيما يتعلق بالعنصر الاول، تحدثنا ملحمة جلجامش أن أحد الرعاة قد شاهد وهو يسوق قطيعه نحو نبع المياه، رجلاً متوحشاً يضاهي جلجامش قوة وجبروتاً، وهو انكيدو ابن البرية الذي عاش حياته مع وحوش الفلاة دون أن يعرف له أباً أو أماً. فمضى الراعي الى جلجامش يخبره بأمر ذلك المخلوق الفريد. تاق جلجامش الى رؤية ذلك الرجل، وهو الملك الفخور بقوته التي لا يضاهيها أحد، فتفتق ذهنه عن حيلة يروض بها أنكيدو ويأتي به إلى المدينة. أرسل له احدى البغايا المحنكات بفنون العشق والغرام، فكمنت له عند نبع المياه، وعندما أتى انكيدو مع قطيع الغزلان لشرب الماء برزت له المرأة كاشفة مفاتنها. ترك أنكيدو قطيعه ولبث مع المرأة أياماً وليالي يطارحها الغرام، مما كان له كبير الاثر في تحويله عن حياته الوحشية السابقة، فيصف النص البابلي أنكيدو بعد الفعل الجنسي مع المرأة، بأنه قد صار واسع الفهم والمعرفة:

تعثر أنكيدو في جريه، لم يعد كما كان
ولكنه صار ذكياً واسع الفهم والمعرفة[6]

كذلك آدم، تحول عن حياة البداءة التي عاشها في الجنة الى حياة الارض، حياة الحضارة التي يتعب فيها الانسان ويكد. تحول آدم بعد أكل الثمرة المحرمة، ومباشرة الفعل الجنسي مع حواء، من مغمض العينين، كليل الذهن، مغلقه، الى كاشف البصيرة، عارف: «فقالت الحية للمرأة: لن تموتا بل الله عارف أنه يوم تأكلان منه، تتفتح أعينكما وتكونان كالله». وهكذا بعد مرور آدم بالطقس الادخالي (أكل الثمرة المحرمة ـ الجنس) دفع بالعقل الانساني الى محنته الكبرى، التساؤل، التفكير، الكشف، تجاوز المعطى، ارتياد الارض المحرمة. بالطقس الادخالي، هبط آدم من الحلم إلى الواقع، باع روحه لقاء المعرفة والحقيقة.

أما العنصر الثاني، وهو ظهور الحية كمسؤول عن خسارة الخلود، فان ملحمة جلجامش تحدثنا أن جلجامش العائد من سفره المضني ومعه نبتة الحياة التي تجدد الشباب قد:

رأى جلجامش، بركة ماء بارد
نزل فيها واستحم بمائها

6 - Alexander Heidel, The Gilgamesh Epic, Phoenix Books, Chicago, 1970.

فتشممت الحية رائحة النبتة
تسللت صاعدة من الماء وخطفتها
وفيما هي عائدة، تجدد جلدها.
وهنا جلس جلجامش وبكى[7]

فرحلته التي طاف خلالها أصقاع العالم قد انتهت الى لا شيء، وسرقت الحية نبتة الخلود. ورغم أن الرواية التوراتية، تختلف شكلاً عن ملحمة جلجامش، الا أن الروايتين تتفقان مضموناً على أن الخلود وقف على الآلهة، وخسارة الانسان له ليست نتاج غلطة، كما يبدو ظاهراً، بل أمر مقدر منذ البداية. ولم يكن الانسان ليرتكب غلطته تلك، الا تنفيذاً لمشيئة الهية سابقة. وفي كلا الروايتين تلعب الحية دوراً أساسياً في البناء الدرامي للقصة.

أخيراً أريد التوقف قليلاً عند كلمة «عدن» الواردة في النص التوراتي على أنها المكان الذي زرع فيه يهوه جنته. فالكلمة ربما كانت تحويراً بسيطاً لاسم الاله «ادون» السوري، رب النبات والخصب والخضرة. وتعبير جنة عدن، ربما كان مشتقاً من جنات آدون المعروفة تماماً في طقوس الخصب السورية القديمة. يحدثنا جيمس فريزر في كتابه «الغصن الذهبي»[8] عن ذلك بقوله أن النساء السوريات في أعياد أدونيس، كن يصنعن سلالاً عريضة يملأنها بتراب ضحل، ويزرعن فيها أنواعاً متعددة من النباتات والازهار، ثم يأخذن في العناية بهذه الحدائق الصغيرة مدة ثمانية أيام، حتى تورق وتزهر. الا انها لا تلبث أن تموت نظراً لضحالة الطبقة الترابية، وعدم تمكن النبات من مد جذوره في العمق. وهنا تحمل النساء حدائق أدونيس هذه، وقد علقت عليها صورة الاله، نحو البحر أو الانهار حيث ترمى هناك. والمغزى من هذا الطقس واضح. فالنمو السريع للنباتات في السلال هو رمز القوة الاخصابية الفائقة للاله أدون وموت هذه النباتات السريع، هو رمز لمصرع الاله الشاب وتأثير ذلك على الحياة النباتية التي تتعطل بموته. أما رمي النباتات في الماء مع صورة الاله، فهو فعل من أفعال السحر التشاكلي، يقصد به الايحاء للمطر كي يهطل ويروي الطبيعة التي ماتت، وبعث ادون من مرقده. هذا ويورد السيد فريزر طقوساً مسيحية مشابهة كانت ما تزال قائمة في أوربا، وخصوصاً

7 - ibid.

8 - Sir James Frazer, The Golden Bough, Mcmillan, Newyork 1971, p. 396.

في حوض البحر المتوسط، حيث كانت تقوم النساء في عيد الفصح ويوم الجمعة الحزينة بزرع حدائق صغيرة في أطباق، توضع عليها صورة السيد المسيح بدلاً من صورة أدونيس.

وفي اللغة العربية، نستعمل تعبير جنات عدن «وجنات النعيم» تبادلياً. وهنا نستطيع أن نلمح تشابهاً بين كلمة «النعيم» وكلمة «النعمان». والنعمان من اسماء ادونيس وبقي في العربية من أصوله الآرامية وتسمى به العرب وما زالوا. وعليه تكون جنات عدن «أدون» وجنات النعيم «النعمان» تسميتان لمسمى واحد هو جنات أدونيس.

ولكلمة النعيم والنعمان أصداء في القواميس العربية، حيث نجد كلمة نعم تعني نضر واخضوضر(٩) وكذلك كلمة«الناعمة»(١٠) التي تعني الروضة أو الحديقة وكلها ربما اشتقاقاً من النعمان أو أدونيس اله الزراعة والخضرة والخصب. والى يومنا هذا نطلق على بعض أنواع الزهور الربيعية الحمراء اسم «شقائق النعمان» أي جراح أدونيس. وذلك بقية من الاعتقادات القديمة التي كانت ترى على هذه الازهار دم الاله القتيل الذي افترسه الخنزير البري.

يفسر فرويد ومدرسة التحليل النفسي أسطورة الجنة على أنها انعكاس للحالة التي عاشها الفرد في رحم أمه. ان وضع الانسان الاول في الجنة وعيشه السهل دونما مشقة أو جهد أو قلق، هو صورة لما كان عليه الطفل قبل الولادة ملتصقاً برحم أمه، يأتيه غذاؤه عن طريق الحبل السري، في حالة من الاستقرار والدعة والطمأنينة، حالة سوف يفتقد اليها في حياته التالية كلها وحتى مماته. وسوف يبقى في حالة حنين دائم لها. وقد تجلى حنينه هذا في كل ما أنتج لا شعوره من أساطير تتعلق بفردوس قادم سيؤوب إليه بعد نهاية عناء هذه الحياة.

وهناك تفسير تاريخي للاسطورة، يقول به آرنولد توينبي(١١). فمنذ عهود سحيقة، تحركت جماعات من المتوحشين العراة، من موطنهم الدافىء في المنطقة الحارة، واندفعت قدماً نحو الشمال، عند بداية الربيع وحتى نهاية الصيف. ولم يفطن هؤلاء الى أنهم قد خلفوا أرض الدفء الدائم. وعندما انتهى

(٩) القاموس المحيط صفحة ١٨٣ سطر ١٤.

(١٠) القاموس المحيط صفحة ١٨٤ سطر ٢٠.

(١١) ارنولد توينبي، دراسة للتاريخ، المجلد الأول، مترجم، القاهرة.

شهر ايلول، بدأوا يشعرون ببرد غير مستحب في الليل، واستمرت الحالة تسوء يوماً بعد يوم. ولما كانوا لم يدركوا علة هذا التغيير، أخذوا يرتحلون في هذا الطريق أو ذاك هرباً من البرد. اتجه بعضهم شطر الجنوب راجعاً الى موطنه الاصلي، ومازال جزء من ذرياتهم على حالتهم القديمة تلك الى يومنا هذا. أما من بقي هائماً على وجهه في الاتجاهات الاخرى، فقد هلك الا جماعة صغيرة ارتأت الا سبيل الى الهرب من الهواء القارس، وأنه لا بد من مواجهة الموقف. فاستعان افرادها بملكة الابداع، وهي اسمى ملكات الانسانية جمعاء، فحاول بعضهم أن يجد ملاذاً بحفر الارض، وجمع آخرون أغصاناً وأوراقاً لاقامة أكواخ دافئة، واكتسى آخرون بجلود الحيوانات. وما لبث هؤلاء المتوحشون أن نجحوا في اجتياز بضع خطوات، تعتبر من أكبر الخطوات في سبيل الحضارة. وهكذا نالوا البقاء حيث ظنوا في البداية أنهم هالكون. وفي غضون عملية تكييف أنفسهم للبيئة القاسية، تقدموا للأمام خطوات هائلة مخلفين وراءهم بعيداً الجانب المداري من الانسانية.

ان صورة آدم وحواء في جنة عدن، ما هي الا ترديد للمرحلة الاقتصادية القائمة على التقاط الطعام في فترة ما قبل الحضارات. أما السقوط الناتج عن الأكل من شجرة المعرفة، فيرمز الى قبول تحدٍ يهدف الى ترك هذا التكامل التام، والشروع في عملية تفاضل جديدة قد تسفر عن تكامل جديد. كما أن الطرد من الجنة الى عالم غير صديق، يفرض على المرأة فيه أن تلد بالحزن، وعلى الرجل أن يأكل بعرق جبينه، هو تجربة ترتبت على قبول تحدي الحية. وما المعاشرة الجنسية بين آدم وحواء، التي تلت ذلك، الا فعل الخلق الاجتماعي اثمرت ثمرتها في انجاب ولدين يمثلان حضارتين: هابيل راعي الغنم، وقابيل زارع الارض.

سفر قابيل وهابيل

﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق اذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال انما يتقبل الله من المتقين﴾

قرآن كريم : المائدة - ٢٧

«فنظر الرب هابيل وتقدمته وإلى قايين وتقدمته لم ينظر»

العهد القديم - سفر التكوين ٤-٥

الى عهـد قريب جداً (أواخر الاربعينات) كانت المجتمعات الزراعية في سورية ما زالت تعاني من غزوات البدو المتكررة، وخصوصاً تلك القرى الزراعية الواقعة على حافة الصحراء، في فصول القحط وشح الامطار، عندما تختفي مراعي بادية الشام، موئل البداوة منذ فجر التاريخ. وما زلت شخصياً أذكر كيف كنا نتحلق صغـاراً حول جدي الـذي كان يعود إلى المدينة في نهاية فصل البذار أو انتهاء الحصاد، ليحدثنا عن «الغزو». هكذا كا نوا يسمون هجوم البدو السريع والصاعق على شريط الخضرة الممتد على حدود البادية ا لمترامية. ولا شك أن ذلك «الغزو» لم يكن ليتكرر كل عام، وأن جدي المسكين كان مضطراً لابتكار قصص جديدة بعضها وقع وبعضها لم يقع.

ولقد طوت سنوات الخمسينات في مجتمعنا السوري فصلاً دامياً، طوي في أوربـا منذ قرون طويلة. فصلاً ابتدأ منذ مطلع التاريخ المكتوب عندما اختارت بعض القبـائـل البـدوية الاستقـرار على شطآن الدجلة والفرات والعاصي لتزرع الارض وتبني المراكز الحضارية، وتوسع بالتدريج مساحات الاراضي المزروعة على حساب براري الرعاة. ولقد ساعد تراكم الثروة لدى المجتمعات الحضرية، نتيجة العمل المثمر في الارض، على زيادة قوتها، وسيرها قدماً أشواطاً بعيدة في

طريق التقدم التقني ، مخلفة وراءها المجتمع البدوي يدور في حلقته المفرغة مع دورات الفصول الى يومنا هذا. كما ساعدت ثروة وتكنولوجيا المجتمع الزراعي على اخلال توازن القوى لصالحه ، فراح يزحف تدريجياً نحو أراضي الرعاة ، كلما تناقصت غلة الاحواض الخصبة التي كان يزرعها ، وكلما ضاقت تلك المساحات القديمة بسكانها. كان التقدم بطيئاً ولكنه ثابت ومستمر ، كلما ربح المزارع أرضاً بنى عليها وثبت أقدامه ومواقعه بانتظار وثبة جديدة يقوم بها جيل قادم . عدوان مستمر دام آلاف السنين ، تم بهدوء ودون ضجيج ، دون أن يسمع التاريخ أو يسطر صرخات البدو المنعزلة ، وهم يذبحون فرادى أو جماعات ، دفاعاً عن أرضهم ، أو أثناء طغيانهم على الاراضي المزروعة لاشباع قطعانهم الجائعة . أما صرخات المراكز الحضارية فقد سجلها التاريخ باحرف من نار ودم . ذلك أن هجوم البدو اتسم دوماً بالسرعة والمفاجأة والتدمير السريع ولم يكن هجومهم الدفاعي ، ليهدف الى استعادة ما فقد من أرض ، بل كان هجوماً انتقامياً ، يتخذ شكل هجوم الحيوان الجريح المحاصر. لقد حدثنا التاريخ مطولاً ، وأثار اشفاقنا ، عن غزوات البدو الكبرى على بابل ونينوى وروما ومصر ، وفيما بعد على بغداد ودمشق عندما تدفقت عليهما جموع التتار الجائعة من أعماق الصحاري الآسيوية . ولم يحدثنا عن صراخ البدوي المنعزل وهو يذبح على يد أخيه المزارع . حدثنا التاريخ عن قابيل وهو يذبح أخيه هابيل ولم يحدثنا عما فعله هابيل بأخيه ليستحق منه ذلك . ان أذن التاريخ لا تسمع الا الاصوات العالية ، أما الاصوات الخافتة فلا تصل أسماعه .

ولقد انعكس هذا الصراع الاجتماعي بين الثقافتين الزراعية والرعوية ، بين قابيل المزارع وهابيل الراعي ، في أسطورة المنطقة . وبين أيدينا الآن ثلاثة نصوص سومرية ونص توراتي ، وكلها تبحث موضوعاً واحداً .

١ ثلاثة نصوص سومرية

حلت الثقافة السومرية ، كما يمكن أن نتوقع من أول ثقافة زراعية في التاريخ ، حلت التناقض بين المزارع والراعي ، لصالح المزارع في ثلاثة أساطير معروفة . وفي هذه الاساطير يذهب المزارع والراعي إلى الآلهة يحتكمان فيما شجر بينهما من خلاف ، حيث تحكم الآلهة للمزارع بالغلبة والتفوق والافضلية على أخيه الراعي .

١ـ ايميش وانتين :

وجد هذا النص في عدد من الألواح تحتوي على ٣٠٨ أسطر. ولكن الألواح في حالة سيئة من التلف بشكل يمنع من سرد حوادثه بشكل متسلسل ومتصل . الا أننا بربط الاجزاء الواضحة مع بعضها نستطيع التوصل الى الخطوط العامة للأسطورة[1] .

يرغب الاله انليل في غمر الارض بالخضرة والمزروعات والاشجار ، وتربية الحيوان والماشية عليها والاكثار من منتوجاتها ، فيخلق لهذه الغاية الاخوين

1 - S.N. Kramer. Sumerian Mythology. Harper and Row, NewYork 1961.

«ايميش» الـراعي و«انتين» المزارع. يقوم الاول بتكثير المواشي وانتاج الحليب والسمن والبيض ومـا اليهـا. بينما يقوم الثاني بنشر المزارع على الارض وتنمية الحبوب ورعاية الاشجار. ولكن خصاماً مجهول المصدر والسبب (بنتيجة النقص الحاصل) ينشأ بينهما، ويدخلان في مشادات ومناظرات عديدة، تنتهي بأن يتحدى ايميش الراعي أخاه المزارع ويذهبا الى انليل ليعرفا من هو المفضل عنده. فيمضيا الى نيبور ويعرض كل منهما قضيته على انليل. الا ان انليل يعلن صراحة أنه يفضل المزارع:

لقد أجرى «انتين» ماء الحياة في كل بقاع الأرض
وانتج للآلهة كل شيء انه مزارع الآلهة
فيا ايميش يا بني كيف تقارن نفسك بأنتين أخيك
هذه كانت كلمات انليل المقدسة العميقة المعبرة
فانحنى ايميش وركع انتين

ثم أن الأخوين يتعايشان معاً ويتعاونان، لأن أي خصام بينهما لن يؤدي الى نتيجة طالما أن انليل قد اتخذ قراراً، وقراره لا راد له. وينتهي النص بمديح للأب انليل.

أي انليل أيها الأب نسبح بحمدك.

لهار واشنان:

رأينا عندما بحثنا في التكوين السومري كيف أن الآلهة قد خلقت الاله لهار وأخته الالهة «أشنان» لتأمين الغذاء والكساء لهم. ولكن الالهة لم تستطع الاستفادة بشكل تام من خدماتهما الا بعد أن خلقت الانسان الذي استطاع أن يدير ما خلقه هذين الالهين ويستثمره..

كالبشر لما خلقوا أول مرة
لم يعرف الأنوناكي أكل الخبز
لا ولم يعرفوا لبس الثياب
بل كانوا يأكلون النباتات بأفواههم
ويشربون الماء من الينابيع والجداول

في تلك الأيام في حجرة الخلق
في «دولكورج»؟ بيت الآلهة خلق «لهار» و«أشنان»
وممـا أنتج لهار وأشنان
أكل آلهة الانوناكي ولكنهم لم يكتفوا
ومن حظائرهم المقدسة شربوا اللبن
ولكنهم لم يرتووا
لذا، من أجل العناية بطيبات حظائرها
جرى خلق الانسان[٢]

وهكـذا فلهـار وأشنـان هما بطلان حضاريان بعث بهما الآلهة الى البشر لتعليمهم الزراعة وتربية الدواجن والماشية. هذه الأشياء وغيرها، كالكتابة والفنون والنار، اعتبرت دوماً أسراراً الهية جيء بها الى الارض اما كرماً من الآلهة، كما هو الحـال في أسـطورتنـا هذه، أو عنـوة واغتصاباً كما رأينا في اسطورة بروميثيوس الاغريقي سارق النار الالهية.

كان لهار يكثر المواشي ومنتجاتها على الأرض، أما أشنان فكانت تزيد في غلال الارض ومنتجاتها ولكن الخصام وقع بينهما وراحا يتجادلان في أيهما أفضل من الآخر، ويبدي كل منهما مآثره وفعاله. وكما هو الأمر في اسطورة ايميش فان لهـار واشنان يحتكمان الى الآلهة، فيحكم انليل وأنكي لأشنان المزارعة بالغلبة والتفوق. وتنتصر الزراعة للمرة الثانية.

أنكمدو ودوموزي:

وفي هذه الاسطورة[٣] نجد «انانا» تبحث عن زوج فيتقدم لطلب يدها دوموزي الراعي وأنكمدو المزارع. وهي كموقف أولي تفضل أنكمدو.

أنا العذراء سأتزوج المزارع
الفلاح الذي يزرع النباتات ويعطي الغلال الوفيرة
الفلاح الذي ينتج الحبوب الغزيرة

2 - ibid.

3 - John Gray, Near Eastern Mythology, Hamlyn, London 1969.

الا أن أخـاها «أوتو» اله الشمس يحضها على الزواج من دوموزي الراعي وتفضيله على الفلاح . فيأخذ بتعداد محاسنه وصفاته :

أي أختاه عليك بالراعي
الكثير الانعام
أنانا أيتها العذراء لماذا تعرضين عنه؟
ان زبدته لطيبة وحليبه لسائغ
وكل ما يمسه يغدو براقاً
أي أنانا إن دوموزي الكثير الانعام
مليء بالجواهر والاحجار الكريمة فلماذا عنه تعرضين
ستأكلان معاً من زبدته الطيبة
وهو البطل حامي الملك . فلماذا عنه تعرضين

ويلي ذلك تشوه في النص ولكننا نعلم من الكلمات المتفرقة الواضحة، ان انانا تتابع ابداء وجهة نظرها في السبب الذي من أجله تفضل المزارع . وبعد ذلك يتغير المشهد فيدخل المسرح دوموزي نفسه مناقشاً انانا في رأيها ومعلناً عن نفسه وما يستطيع تقديمه لها :

افضل مني؟ افضل مني؟ ما لدى الفلاح أفضل مني؟
اذا أعطاني نبيذه اعطيته لبني
واذا أعطاني خبزه أعطيته الجبن اللذيذ

ويتـابع دوموزي ذكر ما لديه، وأفضليته على ما يستطيع خصمه تقديمه . وذلك في حوارية طريفة، تأخذ الطابع المسرحي . ويبدو أن أنانا قد اختارت أخيراً الراعي ولا ندري السبب في ذلك . فهل اقنعتها حججه؟ أم خضعت لمشيئة أخيها اوتو أم لغاية أخرى في نفسها؟ على أن الراعي دوموزي لا يكتفي بهذا الانتصار بل نجـده يذهب الى حقل أنكمدو ويستفزه في عقر داره ساحباً مواشيه وراءه تفتك بالمـزروعـات . ولكن أنكمـدو يترفع عن الدخول معه في خصام ويظهر تجاهه تسامحاً ومودة :

أيها الراعي لماذا تريد أن تبدأ خصاماً؟
أي دوموزي لماذا تريد أن تبدأ معي خصاماً؟
ولماذا نعقد بيننا المقارنة؟

الا فلتدع مواشيك تأكل عشب الأرض
وفي مروجي الخضراء فلترتع قطعانك
وفي سهول «زابالام» فلتأكل الحبوب
ولتشرب من ماء نهري «اونم»

على أن هذا الموقف المتسامح من المزارع لا يقابله من الراعي الا استمرار في العداء والبغضاء :

أنا الراعي لن تحضر حفل زفافي يا أنكمدو كصديق
أيها المزارع كصديق لي أيها المزارع كصديق لي لا تأت

ولكن أنكمدو يتابع موقفه فيعرض الهدايا على العروسين :

ما الذي أستطيع تقديمه؟ سأجلب عدساً لك
عدس الـ [. . . .] سأجلب لك
وأنت أيتها العذراء انانا، فكل ما يسرك
ايتها العذراء انانا سأقدمه لك

وهكذا ينتهي النص بانتصار الراعي دوموزي على الفلاح أنكمدو وتأخذه انانا زوجاً لها. الا أن هذا الانتصار لم يكن إلا بداية الكارثة لدموزي المسكين الذي أرسلت به انانا فيما بعد الى العالم الاسفل، لينوب عنها هناك، كما سنرى في اسـطورة هبـوط انـانا للعالم الاسفل . وتغدو التضحية بالراعي شرط انتصار الزراعة واستكمال دورة الخصب على الأرض كما سنرى في أسطورة هبوط عشتار للعالم الاسفل . وهكذا فان انتصار الراعي لم يكن الا مؤقتاً وزائفاً ومرحلة تحضيرية لخسارته النهائية، بل وللتضحية به لضمان استمرار الحضارة الزراعية . وفي مراميها الأخيرة فان هذه الاسطورة تتفق مع بقية اساطير أرض الرافدين المبحوثة سابقاً في سيادة الفلاح وغلبته على الراعي .

ولعل النص التوراتي لا يبتعد كثيراً عن هذه الفكرة عندما يقبل الاله تقدمات هابيل الراعي مفضلاً اياه عن قابيل المزارع ولكن قابيل يقوم فيما بعد بقتل أخيه انتقاماً منه .

٢ | قاين وهابيل

يسير النص التوراتي على خطى النصوص السومرية المقدمة سابقاً. فبعد هبوط آدم وحواء الى الأرض ليعملا فيها ويحصلا قوتهما بعرق جبينهما، أنجبت حواء من زوجها آدم ولدين، الأول قاين الذي اشتغل بالزراعة، والثاني هابيل الذي اشتغل بالرعي وتربية الماشية. وحدث بعد مدة من اشتغال كل منهما بما سير له، أن قاما بتقديم قربان للرب، حيث قدم قاين من ثمار الارض التي يزرعها، وقدم هابيل ذبائح من قطعانه. فتقبل الرب قربان هابيل الراعي ولم يتقبل قربان قاين المزارع. فدفعت الغيرة قاين لقتل هابيل ودفن جثته في الصحراء. يجري النص على النحو التالي :[٤]

«وعرف آدم حواء امرأته، فحملت وولدت قاين فقالت: قد رزقت رجلاً من عند الرب. ثم عادت وولدت أخاه هابيل. فكان هابيل راعي الغنم، وقاين كان يحرث الأرض. وكان بعد أيام، قاين قدم من ثمر الأرض تقدمة للرب، وقدم هابيل ايضاً شيئاً من أبكار غنمه ومن سمانها. فنظر الرب الى هابيل وتقدمته، والى قاين وتقدمته لم ينظر. فشق على قاين جداً وسقط على وجهه. فقال الرب لقاين: لم

(٤) العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح الرابع: ١-١١.

شق عليك وسقطت على وجهك؟ ألا انك ان احسنت تنال وان لم تحسن فعند الباب خطيئة رابضة واليك انقياد اشواقها وأنت تسود عليها. وقال قاين لهابيل أخيه: لنخرج الى الصحراء. فلما كانا في الصحراء وثب قاين على هابيل أخيه فقتله. فقال الرب لقاين: أين هابيل أخوك؟ قال لا أعلم، العلي حارس لأخي؟ فقال: ماذا صنعت؟ ان صوت دماء أخيك صارخ الي من الارض. والآن فملعون أنت من الأرض التي فتحت فاها لتقبل دماء أخيك من يدك».

لدى القراءة الاولى لهذه الرواية، تبادر الى ذهني أن الخطيئة الرابضة التي يتحدث عنها هي جريمة القتل المقبلة: «وان لم تحسن فعند الباب خطيئة رابضة واليك انقياد أشواقها وأنت تسود عليها» ولكن قصة سمعتها من جدتي في طفولتي ظلت تلح علي حتى استطعت فهم هذه الجملة على وجهها الصحيح. حدثتني جدتي عن قابيل وهابيل فقالت «أن قابيل قد قتل أخاه هابيل بسبب نزاعهما على اختهما أيهما يتزوجها، خصوصاً وأنه لم يكن في العالم سواهم، هم الثلاثة، وكان لا بد أن يتزوج أحدهما بأخته ليستمر النسل» والحقيقة أن النص يورد هذه القصة على استحياء فيسمي الزواج من الأخت بالخطيئة الرابضة، نظراً للتحريم القاطع لهذا النوع من الزواج في الديانة اليهودية، ونظراً لشيوع هذا النوع من الزواج لدى المصريين القدماء الذين فر منهم بنو اسرائيل. ومما يدعم هذا التفسير أن الفقرة التالية بعد بضعة سطور تقول: «فعرف قاين امرأته فحبلت وولدت له حنوك..» فمن تكون امرأة قاين هذه ان لم تكن اخته؟. كما أن مقارنة تلك الجملة بجملة أخرى قالها الرب لحواء عندما طردها من الجنة تعطي برهاناً أكيداً على تفسيرنا: «بالوجع تلدين أولاداً، والى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك» فالخطيئة الرابضة عند الباب لقاين هي اخته اليه يكون انقياد أشواقها له وهو يسود عليها. وهكذا تعود أسطورة نزاع انكمدو المزارع ودوموزي الراعي على حب الآلهة عشتار مجدداً الى الظهور في الرواية التوراتية. فيأخذ قاين دور أنكمدو وهابيل دور دوموزي وأختهما التي خطبا ودها بقربانهما للرب دور الالهة عشتار. وهنا أيضاً يلقى هابيل نفس مصير دوموزي حيث تفتح الارض فمها لتبتلعه كما ابتلع العالم الاسفل دوموزي التعيس.

وفي الحقيقة قد تبدو هذه الرواية التوراتية لأول وهلة وكأنها تعطي الغلبة والتفوق لهابيل الراعي، لأن يهوه قد تقبل قربانه ولم يتقبل من قاين المزارع. ولكن

المرامي النهائية للنص تتفق مع مرامي بقية النصوص ذلك أن مقتل الراعي على يد المزارع ان هو الا تثبيت لغلبة المزارع وقوته وتفوقه على الراعي. ولم يكن بامكان النص التوراتي الا أن يسير على هذا المخطط، ذلك أن اليهود قوم رعاة. ولكنهم استقروا فيما بعد وزرعوا الارض وبنوا المدن، وبقوا يكنون احتراماً لتاريخهم الرعوي القريب. فجاء قبول يهوه لقربان الراعي تعبيراً عن مرحلتهم الرعوية السابقة واحترامهم لها بسبب قراءاتهم اليومية للتوراة. أما موت الراعي على يد المزارع فجاء نتيجة للأمر الواقع الذي يعيشه اليهود من غلبة الزراعة على البداوة.

مات هابيل، تاركاً أحفاده الرعاة في أسر الدورة المناخية السنوية، بعيدين عن أية مساهمة في ثقافة البشر وحضارتهم. فبدوي اليوم لا يختلف في شيء عن بدوي فجر التاريخ. أما قابيل فقد استلم زمام الحضارة ودفع بها أشواطاً الى الامام. أنتج المجتمع الزراعي، فالمجتمع الصناعي واستطاع قابيل الوصول الى الفضاء الخارجي. فهل يعيش أحفاد هابيل ليروا قابيل وقد قضى عليه تقدمه العلمي والتكنولوجي ذاته.

سفر العالم الأسفل

﴿حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها
ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم﴾

قرآن كريم ـ الزمر ـ ٧١

لم يلهب خيال الانسان شيء كما ألهبته فكرة الموت. ولم يثر عقله من افكار كفكرة انعدام العقل ذاته. فما الذي ستنكون عليه الحال عندما يمضي الى النوم ولا يفيق ابداً؟ وكيف كانت حاله قبل أن يحل ضيفاً على هذا العالم؟

من هنا كانت دورة الحياة والموت والبعث هي الفكرة المركزية في الدين والاسطورة، والفكرة الاساسية التي يتمركز حولها لا شعور الفرد في الماضي والحاضر. ان دراسة احلام البشر المعاصرين تكشف عن نماذج من أحلام لا تختلف، في كثير أو قليل، عن أساطير العهود الغابرة التي كانت تعبيراً لا واعياً بشكل ما، عما يكنه الفرد في صميمه نحو فكرة الموت. وقد حاول الانسان وما زال الاقتراب من مسألة الموت عن طريق ابتكار مجموعة من الرموز عبرت عنها الاسطورة في القديم، وتعبر عنها احلامه في الزمن الحديث. وبدراسة ما أنتجه فكر الانسان عبر العصور نجد أن الموت لم يكن ابداً مرحلة نهائية من شأنها وضع حد لوجود الفرد بجميع صوره. بل اعتبر دوماً بمثابة عملية تؤمن عبور الانسان لحالة أخرى من الوجود، تختلف في كليتها عن الحالة التي الفها في حياته على الارض. وسواء كانت هذه الحالة أفضل من سابقتها أم أسوأ فان وجودها في فكر الانسان وخيالاته ولا شعوره كان دائماً مترافقاً مع وجود فكرة الموت. ولا نجد مطلقاً في أي

نتاج انساني فكري أن فكرة الموت تقوم وحدها باعتبارها النقطة التي ينتهي عندها مسار الانسان. وعلى هذا فان الخوف من الموت لم يكن ابداً خوفاً من العدم، بل كان خوفاً من المجهول، من مغادرة وضع نعرفه ونألفه الى آخر نحن به جاهلون.

وفي أساطير المنطقة لعبت فكرة الموت دوراً هاماً. وخصوصاً في ديانات الخصب التي تقوم اساساً على فكرة موت الطبيعة وبعثها المتكرر، الذي هو انعكاس لموت الاله وانبعاثه من جديد. الا أن الأمر يتغير اذا انتقلنا بفكرة الموت من مستواها الكوني الى مستوى الانسان الفرد. فالفرد لا يحيا الا مرة واحدة على هذه الارض ينتقل بعدها الى عالم الاموات وهو ليس كالطبيعة المتجددة التي تكرر حياتها وبعثها كل عام، وليس كآلهة الخصب يموت ويحيا في دورة ازلية. وعلى هذا فليس أمامه الا نوعان من الحياة: قبل الموت، وبعد الموت. وحالة بعد الموت هي الحالة الدائمة التي لا أمل معها بالعودة للحالة السابقة، ولا بأي نوع من أنواع التناسخ أو التقمص، كما هو الامر في اسطورة الشرق الاقصى. فاذا كان العالم الآخر هو دار البقاء، فما هو شكله؟ وما هي حالته؟ وما هي أحوال سكانه؟ على هذه الاسئلة الحائرة تصدت أساطير العالم الاسفل للاجابة.

نظر الانسان في سورية وبلاد الرافدين لعالم الموتى باعتباره عالماً سفلياً يقوم تحت عالمنا القائم لمسافة ليست بالبعيدة. ويشكل طبقة وسطى بين سطح الارض ومياه الغمر الاولى. أطلق السومريون عليه اسم «كور». وكلمة كور تعني في الاصل الجبل. الا انها اطلقت ايضاً على الوحش السفلي الجبار الذي اختطف الآلهة «اريشكيجال» غنيمة له بعد اكتمال الخلق والتكوين. وقد اعطى هذا الوحش اسمه للعالم الاسفل رغم أنه لم يعد للظهور في الاساطير ولا ورد له ذكر في العبادات. واريشكيجال الآلهة المخطوفة التي ابحر «انكي» لانقاذها من براثن «كور» لم توفق في العودة للارض مرة ثانية، ولا حتى على طريقة «برسيفوني» زميلتها اليونانية التي اختطفها «هاديس»، ولكنها بتوسط الألهة الكبار كانت تعود للحياة الى حضن امها فترة محددة في كل عام، تقفل بانتهائها راجعة الى مسكنها السفلي. واريشكيجال هذه تغدو السيدة المطلقة لهذا العالم المرعب وتتزوج من آلهة آخرين تجعل لهم السيادة معها. أما كور فليس له من هذا العالم الا الاسم فقط. كما أطلق السومريون على العالم الاسفل اسم «كيجال» اي الاسفل العظيم. ومن هنا جاء اسم «اريشكيجال» اي سيدة الاسفل العظيم التي اطلق

البابليون عليها فيما بعد اسم «ارانكيجالي» المشتق من الكلمة السومرية كما اطلقوا عليها اسم «ارجالا». واطلقوا على العالم الاسفل اسماء متعددة منها «اريصتاتاري» اي الارض التي لا عودة منها. ويلاحظ ان الشطر الاول من الكلمة وهو «اريص» مشابه للكلمة العربية «ارض».

تمضي الى هذا العالم ارواح الموتى. جميع الموتى. دون تمييز فيمضي اليه الصالح والطالح، الغني والفقير، العبد والامير، الا ان كل انسان يحتفظ بنفس المكانة التي كانت له في الحياة الاولى. نستدل على ذلك من احد الالواح السومرية الذي يحدثنا عن وفاة أحد ملوك سومر وكيف اخذ يقوم هناك بتقديم القرابين الى الهة العالم السفلي والهدايا، وكيف انه اقتيد الى مكان هيء له خصيصاً. ويجري الدخول الى عالم اللا عودة من فتحات في الارض كتلك التي تشرق منها الشمس والفتحة التي تغرب منها، والفتحة التي اسقط منها جلجامش آلتيه الموسيقيتين كما سنرى في نص لاحق. الا ان اي قبر يصلح للنزول ايضاً، فأرواح الموتى تغادر اصحابها عبر القبر نفسه الى سكناها الأخيرة. وأول ما يهبط الزائر الجديد يصادفه نهر «هابور» وهو نهر العالم الاسفل، ويحييه ملاح النهر «هامو طابال» ذو الاربعة رؤوس كرأس الطير، وينقله في قاربه الى الطرف الآخر حيث بوابات مدينة الموتى.

ونعثر على اقدم مشاهد العالم الاسفل في اسطورة انليل وننليل، التي اوردناها في فصل التكوين حيث ينفى انليل الى العالم الاسفل بسبب اعتدائه على الالهة ننليل. ولكن هذه تتبعه الى منفاه فيجامعها ثلاث مرات وفي كل مرة تحمل منه باله من آلهة العالم الاسفل وهي: «ميسلامتيا» «ونرجال» «ونناز» و«اليجبيبل». ونعرف من الاسطورة شيئاً عن نهر العالم الاسفل وملاحه وبواباته. الا ان الاسطورة السومرية الاخرى: هبوط «انانا» الى العالم الاسفل، هي التي تقدم لنا ايضاحات مفصلة ووصفاً دقيقاً. وفي هذه الاسطورة تترك انانا سيدة السماء وآلهة النور والحب كرسيها السماوي لتنزل الى عالم الاموات، حيث مملكة اختها الكبرى وغريمتها اريشكيجال آلهة الظلام والموت، في زيارة مؤقتة تعود بعدها للحياة ثانية. ورحلة انانا هذه تعطينا معلومات تفصيلية عن عالم اللا عودة. فهو عالم حصين خلف سبعة جدران عالية وسبع بوابات حصينة عليها حراس غلاظ شداد ما أن يقترب القادم من البوابة الاولى حتى يعلن البواب اسمه لتسمعه اريشكيجال، ثم يقاد عبر

البوابات السبع، وعند كل بوابة يتخلى عن شيء من متاعه وملبسه وزينته وفق القوانين الموضوعة لذلك العالم. الى ان يمثل عارياً امام اريشكيجال وبطانتها السبع، وهم كبار آلهة العالم الاسفل لتقرير مصيره ومكانه ووضعه العام في عالم الاموات. الا أن هذه الاسطورة ومتوازياتها البابلية والكنعانية لم تكن اساطير مكرسة أساساً للعالم الاسفل، بل لشرح الفكرة الاساسية في ديانات الخصب والمتعلقة بموت الاله وبعثه من جديد. لذلك فاننا سنبحثها مفصلاً في (سفر الاله الميت) القادم، وسنقتصر في هذا السفر على بحث الاساطير التي وجدت أصلاً للتعبير عن عالم الموتى.

١ الجحيم السومري

تقدم لنا الاسطورة السومرية: «جلجامش وانكيدو والعالم الاسفل» وصفاً مفصلاً لعالم الموتى. وقد ذكرنا في فصل التكوين مقدمة الاسطورة في معرض حديثنا عن المفاهيم السومرية في الاصول.

وجدت الواح الاسطورة في مدينتي «نيبور» و«أور» السومريتين وعمل عدد من العلماء في استنساخ المكتشفة منها ونشرها. الا ان الترجمة الكاملة للاسطورة لم تتم الا على يد السيد س. ن كريمر. الذي عثر في متحف استانبول على عدد من كسرات الالواح التي تكمل ما استنسخ ونشر من الكسرات السابقة، فعمل على ترتيب النص كاملاً بشكل مفهوم وترجمه للمرة الاولى عام ١٩٣٨.

وقد كان لترجمة هذه الاسطورة وفهم محتواها العام قيمة عظيمة، لانها القت الضوء عى مسألة لفها الغموض مدة طويلة. فهي توضح ان اللوح الثاني عشر من ملحمة جلجامش البابلية هو ترجمة شبه حرفية للجزء الثاني من الاسطورة السومرية. وبذلك تحققت توقعات مترجمي ودارسي الملحمة البابلية، عندما اعتقدوا بأن اللوح الثاني عشر ليس الا قصة غريبة ادمجت في سياق الملحمة دون أن يكون لها علاقة وثيقة بها. وسأقوم هنا بتقديم نص الاسطورة اعتماداً على

النصين السومري. والبابلي لان النص البابلي يكمل كثيراً من النواقص والفجوات في النص السومري.

تجري القصة على النحو التالي: [1]

بعد المقدمة ينتقل النص للحديث عن شجرة الحلبو (ربما الصفصافة) التي نمت على ضفة نهر الفرات، وعاشت وكبرت بفضل مياهه زمناً. الا ان ريح الجنوب هبت يوماً واقتلعت الشجرة فحملتها مياه الفيضان. وكانت الالهة انانا تسير على مقربة فمدت يدها وحملت الشجرة الى ايريك (الوركاء) مدينتها المفضلة وموضع حرمها المقدس. حيث زرعتها في حديقتها واولتها كل عناية واهتمام لتصنع من خشبها بعد ا ن تكبر كرسياً وسريراً.

ومرت السنون. والشجرة تنمو وتكبر. الا ان افعى خبيثة اتخذت لنفسها مسكناً عند قاعدتها، وعلى اغصانها الضخمة بنى طائر الزو (الوارد ذكره في فصل التنين) عشاً لصغاره وفي وسطها اتخذت «ليليث» شيطانة القفار مقراً لها. وبذلك لم تعد انانا المسكينة قادرة على الوصول لشجرتها الحبيبة. فوقعت في غمة وأسى وراحت تبكي وهي الفتاة اللاهية ابداً، الفرحة دائماً. ثم مضت الى اخيها «أوتو» اله الشمس لدى خروجه الصباحي من غرفة نومه وسردت على مسامعه قصتها مع شجرة الحلبو. ولكن اوتو تلكأ في مساعدتها فهرع اليها جلجامش ملك أوروك (ايريك) وبطلها المقدام (الذي رأيناه في اسطورة سومرية أخرى يقتل وحش غابة الارز) لابساً درعه السميك وحاملاً فأسه الجبار. فقتل الحية عند قاعدة الشجرة. فلما رأى طائر الزو هذا المشهد فر هارباً بصغاره الى الجبال. اما ليليث فقوضت بيتها وعادت الى القفار حيث اعتادت أن تصيد. عند ذلك عمد رجال «ايريك» ممن رافقوا جلجامش الى قطع الشجرة وتقديمها لانانا لتصنع لنفسها منها الكرسي والسرير. ولكن انانا اعترافاً منها بفضل جلجامش صنعت له من قاعدة الشجرة آلة موسيقية هي «الباكو». ومن قمتها صنعت له آلة أخرى هي «الماكو» ـ ربما كانت الاولى طبلاً والثانية عصاه ـ وقدمتها له هدية. ففرح البطل بالهدية وراح مسروراً بها

1 - Alexander Heidel, The Gilgamesh Epic, Phoenix Books, Chicago 1970.

- E.A. Speiser, Akkadian Myths and Epics (in: James Pritchard, Ancient Near Eastern Texts. Edited, Princeton: New Jersey 1969).

- S. N. Kramer, Sumerian Mythology, Harper and Row, NewYork 1961.

يعزف هنا وهناك الى أن سقطت منه في كوة الى العالم الاسفل. فمد يده وساقه لاسترجاعها دون طائل فجلس هناك يندب ما ضاع منه:

أيا «بكي» من سيعيدك الي من العالم الاسفل؟
ويا «مكي» من سيرجع بك من العالم الاسفل؟

وهنا يسمعه خادمه انكيدو الذي رافقه في الاسطورة السابقة الى ارض الاحياء وقاتل معه الوحش الرهيب. ويخف اليه ملهوفاً:

لماذا يا سيدي تبكي؟ وعلام يتوجع قلبك؟
«بكُك» سآتيك به من العالم الاسفل
و«مكك» سأرجعه اليك من العالم الاسفل

فينصرف جلجامش الى تحذيره من مخاطر النزول الى تلك الارض شارحاً له قوانين عالم الاموات، وما يجب عليه أن يفعل وأن لا يفعل هناك:

اذا عزمت على النزول إلى العالم الأسفل،
فان لدي كلمة اقولها لك فاستمع لها،
ونصيحة اضعها امامك فخذ بها.
«لا تضع عليك ثياباً نظيفة. وإلا خف اليك الاموات
ولا تضمخ نفسك بالعطور الطيبة،
كي لا تجذبهم الرائحة فيتجمعوا حولك.
ولا ترمي رمحاً (عند تجوالك) في العالم الاسفل.
لئلا يتكأكأ عليك من اصابهم رمحك.
ولا تحمل بيدك هراوة كي لا تهيم حولك الاشباح.
لا تضع في قدميك صندلاً.
وفي العالم الاسفل لا تصرخ ولا تبك.
لا تقبل زوجتك المحبوبة،
ولا تقبل ابنك الحبيب.
ولا تضرب ابنك الذي تكره.
حتى لا يمسك بك صراخ العالم الاسفل

(صراخ) تلك المضطجعة «أم نتازو» تلك المضطجعة*
التي لا يغطي جسدها رداء
ولا يستر صدرها الحرام غطاء»
فلم يعط انكيدو اذناً صاغية لمشورة سيده
وضع عليه [حلة نظيفة]
فهجم الاموات عليه وتصايحوا،
ودهن نفسه بالعطور الثمينة،
فتجمعوا لفوحانها حوله.
ورمى حربته في العالم الاسفل.
فحاق به من [أصابتهم] حرابه.
[وأمسك] بيده هراوة.
فتراقصت أمامه الاشباح.
[وانتعل] في قدميه صندلاً،
[وأحدث] جلبة [في العالم الاسفل].
قبل زوجته التي يحب،
وضرب زوجته التي يكره.
قبل ابنه الذي يحب،
وضرب ابنه الذي يكره.
فأمسك به صراخ العالم الاسفل،
(صراخ) تلك المضطجعة «أم نتازو» تلك المضطجعة،
التي لا يغطي جسدها رداء،
ولا يستر صدرها الحرام غطاء،
ومنعت عنه الصعود من عالم الأموات**

* «أريشكيجال» نفسها. ويظهر هذا جلياً من متابعة الفقرات التالية في النص البابلي لا السومري. ورغم أن نتازو هو احد ازواج اريشكيجال فان الاسطورة دوماً تخضع للتغيير والتبدل. فيصبح زوجاً من كان ابناً وقد يغدو ابناً من كان زوجاً. والامثلة على ذلك كثيرة ولا مجال هنا للدخول في هذا الموضوع.

** ويظهر هنا بوضوح ان ام نتازو هي اريشكيجال.

ولدى تأخر انكيدو في العودة. عرف جلجامش ما حدث له، فاضطرب فؤاده، وهرع الى «نيبور» (ايكور في النص البابلي) مدينة الاله «انليل» فسجد امامه وبكى طالباً معونته:

[. . .] بكى السيد ابن «ننسون»* خادمه انكيدو،
«ايها الاب انليل لقد سقط «بكي» للعالم الاسفل
كما سقط «مكي» للعالم الاسفل (ايضاً)
فأرسلت انكيدو ليرجعها ولكن العالم الاسفل أمسكه.
لم يقبض عليه «نمتار» ولا أمسك به «آشاك»
ولكن العالم الاسفل أمسكه
لم يطبق عليه «نرجال» ناصب الكمائن المحكمة
ولكن العالم الاسفل أمسكه
لم يسقط في المعركة، في ساح البطولة
ولكن العالم الاسفل أمسكه»
فلم يجبه انليل بكلمة. فمضى الى «ايكيشيرجال» موطن «سن».
أيها الاب «سن» لقد سقط مكي للعالم الاسفل
كما سقط بكي للعالم الاسفل ايضاً
(تكراراً لما سبق أن قاله للاله انليل)
فلم يجبه «سن» بكلمة فمضى الى «ايابسو» موطن «ايا»**
ايها الاب «ايا» لقد سقط بكي للعالم الاسفل
كما سقط مكي للعالم الاسفل ايضاً
(يتكرر هنا للمرة الثالثة مقطع احتجاز انكيدو)
وعندما [سمع] الاب «ايا» [ذلك]
[قال لنرجال] البطل الصنديد***
نرجال يا أيها البطل الصنديد [يا ابن بيليتالي]
فلتفتح الآن ثقباً في العالم الاسفل

* جلجامش. كما هو معروف مولود الآلهة «ننسون» زوجة الاله لوجال بندا أما ابوه فكان بشراً.

** اريدو في النص السومري موطن الاله «انكي»

*** نرجال زوج أريشكيجال وقد أطلق علماء الفضاء اسمه على أحد أودية كوكب المريخ.

تستطيع منه روح انكيدو الصعود من العالم الاسفل
[فيشرح مسالك العالم الآخر لاخيه]
فامتثل نرجال البطل الصنديد لطلب «ايا»
وعلى الفور فتح ثقباً في العالم الاسفل
فانسلت من خلاله روح انكيدو وكأنها الهواء
وتعانق (الصديقان) وقبلا بعضهما بعضاً
ثم أخذا يتحدثان ويتحاوران
ـ أخبرني أيها الصديق، الا أخبرني أيها الصديق،
حدثني عن مسالك العالم الذي شهدت.
ـ لن أخبرك أيها الصديق لن أخبرك.
ولكن اذا كان علي أن اخبرك. بمسالك العالم الذي رأيت
اجلس (أولاً) وابك،
ـ سأجلس وأبك
ـ [أن جسمي . . .] الذي لم تلمسه (في العناق) وقلبك مبتهج.
تنهشه الهوام حتى غدا كالخرقة.
(جثة) مليئة بالتراب*
فصرخ يا ويلاه وسقط على وجهه في التراب
صرخ جلجامش يا ويلاه وسقط على وجهه في التراب
ـ «هل رأيت الذي لم ينجب أولاداً؟» نعم لقد رأيت
(سطران مكسوران)
ـ «هل رأيت الذي أنجب ولداً واحداً؟» نعم لقد رأيت
انه ساجد عند الجدار يبكي بحرقة. . . .
ـ «هل رأيت الذي أنجب ولدان؟» نعم لقد رأيت
انه يسكن في بيت من الآجر ويأكل الخبز
ـ «هل رأيت الذي انجب ثلاثة أولاد؟» نعم لقد رأيت
انه يشرب الماء من ينابيع الاعماق
ـ «هل رأيت الذي أنجب أربعة أولاد؟» نعم لقد رأيت

* أي أن جلجامش كان يعانق شبح انكيدو بينما جسمه في العالم الأسفل.

فقلبه فرح كأنه [. . . .]
ـ «هل رأيت الذي أنجب خمسة أولاد؟» نعم لقد رأيت
ان يده مبسوطة كالكاتب الطيب
ويدلف الى المكان (عالم الموتى) بيسر وسهولة
ـ «هل رأيت الذي أنجب ستة أولاد؟» نعم لقد رأيت
[. . . . . .]
ـ «هل رأيت الذي أنجب سبعة أولاد؟» نعم لقد رأيت
انه مقرب للآلهة وهو [. . . .]
(عدد من الاسئلة غير واضح المضمون بسبب بعض النقص).
ـ «هل رأيت الذي قتل في ساح المعركة؟» نعم لقد رأيت
ان أباه وأمه يمسكان جسده وزوجه تبكي عند رأسه
ـ «هل رأيت الميت الذي تركت جثته في العراء؟» نعم
لقد رأيت.
ان روحه لا تجد راحة في العالم السفلي.
ـ «هل رأيت الميت الذي لا تجد روحه من يعتني بها؟»
لقد رأيت*
انه يأكل الاقذار وما يرمى في الشوارع من فتات

لقد حققت هذه الاسطورة مقاصد شتى. ففي مقدمتها اطلعتنا على آراء السومريين في التكوين، وعلى سبب وجود اريشكيجال في العالم الاسفل. ومنها عرفنا سبب تسمية عالم الاموات بـ«كور». وأحوال الموتى فيه. وبالاضافة الى ذلك يبدو أن للاسطورة أهدافاً تتعلق باقرار عدد من الممارسات الدينية والاجتماعية. ففيها حض على الاكثار من الانجاب لان الفرد يعامل وفق عدد الاولاد الذين انجبهم في الحياة. وفيها تأكيد على شعائر الدفن وعلى ضرورة تقديم القرابين لارواح الموتى لتجد ما تأكله في العالم الآخر.

*المقصود هنا ما يقدمه الاحياء من اضحيات وقرابين لارواح موتاهم.

٢ | الجحيم البابلي

اذا انتقلنا الى بابل وآشور وجدنا أن تصور الاكاديين للعالم الآخر وأحوال الموتى فيه هو استمرار للخيال السومري. ومن الاساطير التي تؤدي الغرض في هذا المجال. اسطورة حلم أمير في العالم الاسفل، واسطورة نرجال واريشكيجال.

وجدت اسطورة «حلم أمير» في آشور على لوح كبير يرجع عهده للقرن السابع قبل الميلاد. ونص الاسطورة نثري مؤلف من اسطر طويلة. وهو نص ثمين جداً لاكتماله نسبياً ودقة وصفه ووضوح لغته. تحكي لنا الاسطورة عن أمير آشوري اسمه (كوما‌يا) كان تواقاً لرؤية العالم الاسفل. ولهذه الغاية كان يقدم القرابين لاريشكيجال وزوجها نرجال ويرفع لهما الصلوات لتحقيق مراده. وأخيراً تحققت أمانيه ولكن في الحلم، فرأى فيما يشبه النائم أنه قد هبط الى الدار الآخرة ورأى معالمها وكاد يغدو سجيناً لها ثم عاد ليقص ما عرض له من رؤى مروعة:

حلم أمير في العالم الاسفل[٢]

تمدد «كوما‌يا» لينام مساء، فعرضت له رؤيا (عجيبة). «لقد رأيت روعته

---

2 - E. A. Speiser, Akkadian Myths and Epics, (in: J. Pritchard, Ancient Near Gastern Texts, Edited, Princeton, New Jersey 1969).

المخيفة»: رأيت «نمتار» وزير العالم الاسفل وسيد اقداره. كان يمسك بيده اليسرى لبدة رجل جاث أمامه، وبيده اليمنى كان يمسك سيفاً [....].

(رأيت) «نمتارتو» زوجته. كان لها رأس الـ«كوربيو»، أما يداها وقدماها فكانت بشرية. أما اله الموت فكان له رأس تنين ويدان بشريتان وقدمان [....]

(رأيت) «شيدد»* الشرير. كان له رأس رجل ويداه. على رأسه عمامة، وقدماه قدما طائر. أما «اللوجابو» فكان له رأس أسد، وأربع أيد بشرية وقدمان.

(رأيت) الـ«موكيل ريش ليموتي». كان له رأس طير وجناحان مبسوطتان يطير بهما جيئة وذهاباً. أما يداه وقدماه فكانت بشرية. ورأيت «حمو طابال» ملاح العالم الاسفل. كان له رأس طائر الزو أما يداه وقدماه فكانت بشرية.

[....] رأس ثور، ويداه يدا بشر وقدماه. رأيت «اوتوكو» الشرير، كان رأسه لأسد ويداه وقدماه لطائر الزو و«شولاع» الذي يملك رأس أسد ايضاً، ولكنه ينتصب على ساقي أيل.

(رأيت) «ماميتو». كان لها رأس عنزة ويدان بشريتان وقدمان. و«نيدو» حارس بوابة العالم الاسفل. كان رأسه لأسد واطرافه لطائر. و«فيماليو» ذا الرأسين، واحد لاسد والثاني لـ[....].

[...] ثلاثة أرجل. اثنتان لطائر والثالثة لثور، وعليه مهابة وروعة. ورأيت الهان لم اعرف اسميهما. احدهما له رأس وأطراف طائر الزو و[....].

والآخر له رأس انسان عليه عمامة بيده اليمين هراوة وباليسرى [...]، كان مجمل ما رأيت خمسة عشر الهاً عبدتهم جميعاً.

وبالاضافة اليهم، كان هناك رجل. جسمه اسود كالقار، ووجهه كوجه الزو، وقد توشح بعباءة حمراء. بيده اليسرى قوساً. وباليسرى كان يحمل سيفاً. ورجله اليسرى كأنها أفعى.

رفعت بصري واذ بي في حضرة «نرجال» الصنديد جالساً على عرش جلالته، على رأسه العمة الملكية، وبيديه الاثنين سلاحان رهيبان لكل سلاح رأسان.

[....] من ذراعيه ينبعث البرق، وعلى يمينه وشماله، جلس الانوناكي الآلهة الكبار في انحناء.

* الاسماء الغريبة الواردة هنا هي لآلهة وعفاريت من العالم الاسفل.

(نظرت حولي) كان العالم الاسفل مليئاً بالرعب والصمت. فمد (نرجال) يده وأمسك بجزتي وجرني اليه.

عندما تطلعت اليه ارتعدت فرائضي. غمرتني هيبته فوقعت على قدميه اقبلهما ساجداً. وعندما انتصبت. تطلع الي وهز رأسه.

وصرخ في وجهي صرخة هائلة وزار زئيراً غاضباً كأنه العاصفة الهادرة وصولجانه في يده، لائق بجلاله، مرعب كأفعى خبيثة.

اقترب مني قاصداً قتلي. غير أن مشاوره ايشوم الشفيع الذي يحفظ الارواح ويحب الحقيقة (والعدالة) قال له: «أي ملك العالم الاسفل، لا تقتل الرجل.

[انقذ حياته] لتصل أخبار عظمتك الى انحاء الارض. وجبروتك على الفسقة الظالمين» فهدأ غضب نرجال كبركة باردة.

ثم قال: لماذا ازعجت زوجتي الحبيبة ملكة هذا العالم الاسفل؟ ان امرها الذي لا راد له سيقضي بأن يسلمك «بيبلو» سفاح العالم الاسفل الى البواب «لوجال سولا» فيقودك خارجاً عبر بوابة عشتار.

ثم يستفيق الامير من رؤياه مذعوراً، وينطلق كالسهم خارج بيته هائماً في شوارع المدين صارخاً أواه.. واحسرتاه..، وأخذ يحثو التراب على رأسه ويمضغه في فمه قائلاً لاهل آشور الذين تجمعوا حوله أن يخشوا اريشكيجال ونرجال ويفعلوا وفق أوامرهما.

ابليس البابلي أو «نرجال» و«اريشكيجال»:

اكتشف نص هذه الاسطورة في تل العمارنة بمصر مع اسطورة آدبا الواردة الذكر في فصل الفردوس. وكان هذان النصان يستعملان في صف لتدريس اللغة الاكادية للطلبة المصريين. والكسرات التي تضم الاسطورة موزعة بين المتحف البريطاني ومتحف برلين، وهذه الكسرات قد انفصمت عن لوح واحد.

تحكي الاسطورة عن سبب وجود نرجال في العالم الاسفل وكيف صار ملكاً هناك وزوجاً لاريشكيجال الرهيبة: [٣]

3 - ibid.

J. Gray. Near Eastern Mythology, Hamlyn. London 1969.

A. Heidel, Gelgamesh Epic, Phoenix Books, Chicago, 1970.

عندما أقام الالهة مأدبة (فاخرة)
بعثوا رسولاً عنهم
لاختهم اريشكيجال (يبلغها):
«اذا كنا نستطيع الهبوط اليك
فانك لا تستطيعين الصعود الينا
فهلا أرسلت من لدنك رسولاً لنعطيه نصيبك؟»
فبعثت اريشكيجال بوزيرها «نمتار»
فصعد نمتار الى السماء العليا الاخيرة
ودخل المكان على الآلهة المجتمعين
فنهضوا جميعاً لتحية نمتار
رسول أختهم العظيمة

ان الاسطر التي تلي حتى نهاية الكسرة مشوهة تماماً ولكننا من سياق النص فيما بعد نستطيع أن نستنتج أن جميع الآلهة نهضوا احتراماً لنمتار الا واحداً منهم هو «نـرجال» فقد بقي جالساً. وقد نقل المبعوث لسيدته ذلك عندما عاد اليها، فثارت للاهانة البالغة واعادت نمتار على أعقابه الى مجمع الآلهة السماوية طالبة أن يسلم لها «نرجال» اسيراً لتصب عليه لعنة الموت.

قائلة: «ان الاله الذي لم يقف امام رسولي
يجب أن يسلم الى لاقتله»
فمضى نمتار لينقل حديثها للآلهة
فأدخله الآلهة ليستمعوا له:
«امسكوا الاله الذي لم يقف أمامي
وابعثوا به الى سيدتي»
ثم قام نمتار بعدِّهم فوجد الهاً غائباً في المؤخرة:
«ان الاله الذي لم يقم لي ليس هنا»
فعاد (الى سيدته) وأخبرها
[. . .] عددتهم

يلي ذلك بضعة سطور مشوهة. نستنتج منها أن اريشكيجال كررت الضغط على مجمع الآلهة فنزلوا عند رغبتها:

«خذوه الى اريشكيجال» فبكى وناح
أمام أبيه ايا «ان اريشكيجال في اثري
وهي تأبى علي الحياة» «لا يجزع فؤادك*
سأعطيك سبعة عفاريت وسبعةً أخر
فيذهبون معك. . مونابريك**
شارابدو، رابيصو، طيريد، ايديتو
اومـو، ليبـو [هؤلاء العفاريت الأربعة عشر ستمضي معك] وهكذا
عندما وصل نرجال الى بوابة
اريشكيجال صاح قائلاً: «افتح بابك أيها البواب،
وارفع مزلاجه لاستطيع الدخول فأمثل أمام سيدتك
أريشكيجال، فقد ارسلت اليها» فمضى البواب
وقال لنمتار: «ا ن الهاً يقف عند البوابة
فهلا اتيت لفحصه ليستطيع الدخول» فمضى نمتار
وعندما رآه قال مبتهجاً [. . . .]
سيدتي انه الاله الذي اختفى
لشهور خلت من امامي ولم يعد للظهور.
«احضره لي، فأنني سأقتله حال مثوله أمامي»
فمضى نمتار وقال لنرجال: ادخل يا مولاي
الى بيت اختك، ومرحباً بقدومك
(سطور تالفة)

ولكن مخـطـط نرجال الذي وضعه بمساعدة ايا كان يقضي بانقضاضه مع العفاريت المرافقة له، في لحظة الدخول على ملك العالم الاسفل وغلبها على امرها:

[. . .] يقف على الباب الثالث و«موتابريك» على الرابع
«شارابدو» على الخامس و«رابيصو» على السادس.

* الحديث لايا.
** تعداد لاسماء العفاريت الاربعة عشر.

«طيريد»
على السابع، «ايديبتو» على الثامن. «بينو»
على التاسع، و«صيدانو» على العاشر. «ميكيت»
على الحادي عشر، و«بيلوبري» على الثاني عشر
«أومو» على الثالث عشر، و«ليبو» على الرابع عشر
وهكذا احتجزها داخل قصرها
ولنمتار المحارب أعطى أمره ان افتح الابواب*
وبغمضة عين سأسرع اليك.
وبداخل القصر قبض على اريشكيجال
من شعرها نازلاً بها عن عرشها.
الى الارض ليقطع رأسها.
«لا تقتلني يا أخي. فلدي كلمة أقولها لك»
أنصت «نرجال» وتراخت قبضتاه، بينما هي تبكي
وتنتحب:
«ستكون زوجي وأكون زوجتك. وسأجعل لك ملكاً
وسلطاناً على العالم الاسفل الكبير. وسأضع بين يديك
الواح الحكمة. وتكون سيداً (معظماً)
وأكون امرأة لك» عندما سمع نرجال هذا القول
رفعها اليه وقبلها ومسح دموعها:
«ان ما اردت مني القيام به لشهور خلت
سيتحقق لك الآن»**

وهكـذا تنتهي الاسطورة على نحو يثير الانتباه لتشابه واضح في الخطوط العريضة بينها وبين أسطورة «لوسيفر» في التعاليم المسيحية. فكما كان نرجال الهاً سماوياً هبط الى الاسفل بسبب رفضه اظهار الاحترام لرسل الالهة اريشكيجال، وتحول بذلك الى اله في عالم الظلام والموت، كذلك كان أمر لوسيفر الذي تحدثنا عنه تعاليم آباء الكنيسة وكيف تحول من سيد الملائكة الى ابليس سيد الشياطين:

* ترجمت هذا السطر والذي يليه بتصرف.

** أي تقديم فروض الاحترام.

(بين الملائكة التي خلقها الله، كان هناك ملاك فائق الجمال اسمه «لوسيفر» أي حامل الضياء. وكان من صف الملائكة المقربين الذين يعكسون مجد الله وعظمته. ولما خلق الله آدم، شعر لوسيفر بالمكانة الخاصة التي أفرد بها الله هذا المخلوق الجديد، وأمعن النظر في صميم الثالوث المقدس وعرف أن الله يعد لهذا المخلوق مكانة أعلى فأعلى تهدد مكانة لوسيفر نفسه الذي يعتقد بأنه الاعلى بين جميع المخلوقات، قطعة فريدة من صنع الخالق. ورأى لوسيفر ببصيرته أكثر من ذلك، فالاله نفسه سوف يتجلى في المستقبل في جسد انساني من طينة آدم المخلوق.

ورغم أن لوسيفر يعرف تماماً اللعنة الابدية التي ستحيق به نتيجة الثورة على الاله، فقد فضل ان يتمرد ويتمرد الى آخر الزمن على أن يتخلى عن كبريائه وكرامته الملائكية السامية، وذلك بتأدية فروض الولاء لمن هو أقل منه شأناً وسمواً. وقد استخدم لوسيفر ارادته الحرة التي منحه الله أياها كاملة غير منقوصة وأظهر العصيان بأن رفض اظهار الاحترام لآدم كما أمر الله جميع الملائكة. وقد عاضده فيما بعد آلاف من الملائكة. فلما اداروا ظهورهم لنور الله العظيم، دفع بهم الى عالم الظلام الابدي. فتحول الملائكة الى شياطين ولوسيفر على رأسهم سيداً مطلقاً لمملكة الشر والظلام، عدواً لله والانسان)[4].

ولعل معرفة بعض عادات الدفن لدى سكان المنطقة القدماء تعطينا فكرة واضحة عن طبيعة تصورهم للعالم الآخر وطبيعة الاستمرار فيه. ولعل أقدم نص يفيدنا في هذا المجال هو لوح من ايام الملك السومري «اوروكاجينا» ملك «لكش»، يتحدث فيه عن اصلاحاته. وقد خصص بعض هذا النص للعادات التي كانت سائدة في دفن الموتى فنقرأ: «عندما كان يوضع الميت في قبره، توضع معه سبع جرار من الجعة، واربعمائة وعشرون رغيفاً من الخبز، ووزنتان من الحنطة، وعباءة، ووسادة» وقد تطابقت مكتشفات المقابر مع هذا النص الى حد بعيد. ففي مدينة «اور» و«كيش» كشفت الحفريات عن عدد كبير من المقابر. وفي كل مقبرة كنا نجد اطباق الطعام والملابس والحلي وعدة الحرب مدفونة مع الميت. وتتضاعف الاشياء المدفونة ويزداد عددها بارتفاع مكانة الميت الاجتماعية، حتى

4 - Alan Watts, Myth and Ritual in Christianity, Thames and Hudson, London, 1983 PP 41 - 45. Newyork 1954, P41.

ان مقابر الملوك كانت تحتوي على جثث عدد من خدمه وحشمه الذين كان عليهم أن يموتوا معه لمرافقته للعالم الاسفل ولم تعرف على وجه الدقة الطريقة التي مات بها هؤلاء الاتباع المخلصون. ولكن يرجح أنهم قد تجرعوا نوعاً من السم الزعاف. ان وجود مثل هذه الاشياء يدل على أن موتى العالم الآخر انما يستعملون لمعاشهم نفس ما يستعمله الانسان في هذه الحياة فهم يأكلون ويشربون ويهجعون بنفس الطريقة. ولكنه طعام لا تصحبه متعة وشراب لا ترافقه بهجة ونوم ثقيل كنوم الكوابيس. ووجودهم بكامله وجود سكوني لا حرارة فيه ولا حركة. وحتى طعامهم وشرابهم متوقف على ما يقدمه لهم سكان العالم الاعلى من قرابين واضحيات، والا اكلوا التراب والغبار. وكذلك الامر اذا لم تدفن اجسادهم في قبورها بالوسائل المعروفة وتركت في العراء فان ارواحهم لن تعرف الراحة وتظل هائمة الى أبد الآبدين. وربما تزعج هذه الارواح الهائمة حياة الأحياء وتنغص عليهم عيشهم. نقرأ على سبيل المثال النص التالي (مترجماً عن King)

«أي شمش يا الهي.. ان شبحاً مرعباً يجثم على ظهري.

يلاحقني كظلي في الليل وفي النهار، جاعلاً شعر رأسي ينتصب رعباً، ووجهي يلتهب خوفاً.. ففمي جاف كالتراب، وجسدي خدر مشلول.. هل هو روح هائمة لا تجد مستقراً؟ سواء كان هذا أو ذاك أي شمش يا الهي أتوسل إليك: هذه عباءة لملبسه، وهذا حذاء لقدميه، وقطعة جلد لمنطقته، وماء قراح لشرابه، وطعام مؤونة لرحلته هذه جميعاً.. فليمض حيث مغرب الشمس فيسلم الى نيدو كبير حراس العالم الاسفل ليدخله ويوصد خلفه».

من هنا كان لزاماً على أهل الميت دفنه وفق الطقوس المتبعة وتزويده بما يلزم ريثما يصل للعالم الاسفل. ومن ثم الاستمرار في تقديم الطعام والشراب والكساء له بعد دفنه عن طريق التقدمات المختلفة، وتقديم القرابين لآلهة العالم الاسفل لتكون رفيقة به. وهذه الطقوس الجنائزية والاضاحي هي التي تعين الميت أكثر من أي شيء آخر.

ولكن ما فائدة العمل الصالح والحالة هذه، اذا كان الجميع يهبطون اليها دون استثناء، فيعاملون على قدم المساواة بشكل عام مع بعض الاختلافات التي تفرضها المكانة الاجتماعية السابقة للمتوفي؟ في الواقع ان العمل الصالح من شأنه أن يفيد صاحبه في هذه الحياة. فخشية الآلهة وعبادتها واقامة المعابد لها واتباع

أوامرها، كلها امور من شأنها اطاله حياة صاحبها والمد في عمره. وفي الاقوال الشائعة في هذا المجال قولهم «ان القرابين تمد في العمر. وخشية الانوناكي تطيل ايامك على هذه الارض».

ومن صفات «جولا» الهة الشفاء انها تطيل عمر عبادها. كما نقرأ دعاءاً لأحد ملوك بابل ادعوك يا الهي ان احفظني من الخطيئة نحو ذاتك العظيمة، وامنح لي حياة مديدة وعمراً طويلاً. وازرع في فؤاد ابني وبكري بيلشازار مخافتك وخشيتك. فلا يقترف ذنباً ليمنح اياماً كثيرة».

وعن تغلات بلاصر الاول نقرأ قوله عن ابيه ان «ما قدمته يداه من افعال وقرابين قد سرت فؤاد الآلهة فعاش عمراً طويلاً» وعن صارغون الآشوري نقرأ قوله انه «لدوام الصحة وطول العمر وامتداد الحكم والسلطان اسجد اليك ايتها الآلهة وأتعبد». وعلى العكس من ذلك فان الخطيئة تقصر العمر وتقطع سلسلة الايام. وكما يقول أحد النصوص فان «من لا يخشى الآلهة سيكسر عوده كقضيب من قصب».

٣ الجحيم التوراتي

كانت نظرة التوراة للموت والعالم الآخر انعكاساً لنظرة أهل الرافدين. فعالم الموتى هو عالم سفلي تذهب اليه أرواح الموتى جميعاً دون تمييز. فنجد فيه القديسين والناس العاديين معاً. وليست عملية الموت الا مرحلة تقود الفرد من حالة الى أخرى من احوال الوجود، عن طريق مفارقة الروح للجسد. وقد عبر كتاب التوراة عن مفارقة الروح للجسد بقولهم: اضطجع مع آبائه. وربما كانت هذه الجملة تعني في الاصل أن يدفن الميت في مقبرة آبائه وعشيرته كما نرى في سفر التكوين[٥]: «لما قربت أيام اسرائيل ان يموت دعا ابنه يوسف وقال له: ان كنت قد وجدت نعمة في عينيك فضع يدك تحت فخذي واصنع معي معروفاً وامانة، لا تدفني في مصر، بل اضطجع مع آبائي فتحملني من مصر وتدفني في مقبرتهم».

الا ان هذا المعنى قد استعمل فيما بعد بمعنى مفارقة الروح للجسد اينما كان وسواء دفن في مقبرة آبائه أم في ارض غريبة. فنقرأ في سفر اخبار الايام الثاني[٦]: «ثم اضطجع آحاز مع آبائه، فدفنوه في اورشليم لانهم لم يأتوا به الى قبور ملوك اسرائيل» وكذلك الامر مع ابن آحاز الذي لم يدفن في مقبرة آبائه بل في

---

(٥) العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح ٤٧: ٢٩-٣١.

(٦) العهد القديم، أخبار الأيام الثاني، الاصحاح ٢٨: ٢٧.

حديقة بيته الملوك الثاني ٢١ : ١٨ . وفي اماكن كثيرة نقرأ ان فلاناً قد اضجع مع آبائه ثم دفن. كما هو الامر في الملوك الثاني ٨ : ٢٤ والملوك الاول ١٤ : ٣١و١٥ : ٨ واماكن أخرى.

والارواح متساوية في مصيرها كما هو الامر في ثقافة ارض الرافدين: فلا بعث هناك ولا حساب ولا ثواب ولا عقاب. بل وجود ثقيل راكد، واستمرار لا فرح فيه ولا نشوة. نقرأ في سفر الجامعة «وايضاً رأيت تحت الشمس موضع الحق هناك الظلم، وموضع العدل هناك الجور. فقلت في قلبي الرب يدين الصديق والشرير لان لكل أمر ولكل عمل وقتاً هناك وقلت في قلبي، من جهة أمور البشر ان الله يمتحنهم ليريهم انه كما البهيمة هكذا هم. لان ما يحدث لبني البشر يحدث للبهيمة، وحادثة واحدة لهم. موت هذا كموت ذاك وقسمة واحدة للكل. فليس للانسان مزية على البهيمة لان كليهما باطل. يذهب كلاهما الى مكان واحد. كان كلاهما من التراب والى التراب يعود كلاهما. من يعلم روح بني البشر هل هي تصعد الى فوق؟ وروح البهيمة هل هي تنزل الى الاسفل؟ فرأيت انه لا شيء خير من ان يفرح الانسان باعماله لان ذلك نصيبه»[٧].

كاتب هذا السفر هنا لا يعتقد بأي نوع من أنواع الاستمرار لوجود الانسان بعد مماته فحياته تنتهي عند لحظة الموت حيث يعود جسده الى التراب شأنه في ذلك شأن جميع الحيوانات، أما روحه فأمر مشكوك به. هل تصعد للاعلى أو تنزل للاسفل؟.

وعندما نقرأ سفر أشعيا نجد الملك التقي الورع حزقيا ينخلع فؤاده لفكرة الموت ومغادرة عالم الاحياء عندما يخبره النبي اشعيا بقرب وفاته. فهو يعرف أن الحياة الآخرة لن تكون أفضل من الاولى حتى للانسان الذي امضى حياته في خدمة الاله. وعندما بكى مذكراً ربه بكل ما فعله في سبيله طالباً منه أن يمد في عمره كلمه الرب بواسطة أشعيا: «اذهب وقل لحزقيا: هكذا قال الرب اله داود ابيك. اني قد سمعت صلاتك ورأيت دموعك. ها أنذا أزيد على ايامك خمس عشرة سنة»[٨]. وهكذا فجزاء الصلاح ليس في الدار الآخرة بل على هذه الارض وفي هذه الحياة. والرب يمد يده في عمر الصالح ويزهق روح الطالح، تماماً كما هو الامر

(٧) العهد القديم: سفر الجامعة، الاصحاح ٣: ١٦-٢٢.

(٨) العهد القديم: سفر أشعيا، الاصحاح ٣٨: ١.

في الفكر الديني البابلي وتتردد هذه الفكرة في مواضع كثيرة في التوراة: «أكرم أباك وأمك لكي يطول عمرك في الارض التي يعطيك الرب الهك»[٩]. «مخافة الرب تزيد الأيام وسنو المنافقين تقصر»[١٠] «يا بني لا تنس شريعتي، وليس قلبك وصاياي فانها تزيدك طول ايام وسني حياة وسلاماً»[١١]. ولكن لماذا اذن نجد انساناً صالحاً يموت في زهرة الشباب وآخر شرير يمتد به العمر؟ يجيب التوراة على ذلك بطريقة طريفة فنقرأ في سفر أشعيا[١٢] «هلك الصديق ولم يكن من تأمل في قلبه. وضم اهل التقوى ولم يفطن أحد انه من وجه الشر ضم الصديق» اي ان موت الاتقياء المبكر هو تخليص لهم من كوارث وشرور قادمة قد تصيبهم. فموتهم والحالة هذه تخليص لهم كما نقرأ في الملوك الثاني ٢١ : ٢٠ حديث الرب الى يوشيا الصالح «كذلك ها أنذا اضمك الى آبائك، فتضم الى قبرك بسلام ولا ترى عيناك كل الشر أنا جالبه على هذا الموضع» أما حياة الاشرار وامتداد اعمارهم فان الحكمة منها مهما كانت بالغة لم تقنع رجلاً صالحاً كأيوب عندما نسمعه يرفع عقيرته بالشكوى صارخاً: لماذا يحيا المنافقون ويسنون ولماذا يعظم اقتدارهم. ذريتهم قائمة امامهم، وقومهم واعقابهم لدى اعينهم، بيوتهم آمنة من الفزع وقضيب الرب لا يعلوهم»[١٣]. وهؤلاء الاشرار عندما يموتون يمضون مع الاخيار الى دار واحدة كما يمضي اليها من نعم في هذه الحياة ومن شقي. فأي حكمة من ذلك: «هذا يموت في معظم وفرة وقد عمته الدعة والطمأنينة. وذاك يموت في مرارة نفسه ولم يذق طيباً. وكلاهما يضجعان في التراب فيكسوهما الدود. ان الشرير يبقى الى يوم العطب، والى يوم النقم يساقون. فمن الذي يبين له طريقه، ومن يكافئه على ما صنع» ايوب ٢١ : ٣١. وفي المزمور ٧٣ نلمح هذا التساؤل. «اما انا فكادت تزل قدماي لاني غرت من المتكبرين اذ رأيت سلامة الاشرار. لانه ليست في موتهم شدائد وجسمهم سمين ليسوا في تعب ومع البشر لا يصابون. يستهزئون ويتكلمون بالشر ظلماً من العلاء يتكلمون. هوذا هؤلاء الاشرار ومستريحين الى أبد الدهر يكثرون ثروة».

(٩) العهد القديم: سفر الخروج، الاصحاح ٢٠-١٢.

(١٠) العهد القديم: سفر الأمثال، الاصحاح ١٠: ٢٧.

(١١) العهد القديم: سفر الأمثال، الاصحاح ٣: ١-٢.

(١٢) العهد القديم: أشعيا، الاصحاح ٥٧: ١.

(١٣) العهد القديم: أيوب، الاصحاح ٢١: ٧-٩.

وكما قلنا سابقاً فان التوراة قد تصور الدار الآخرة كما تصورها أساطير المنطقة فهي عالم أسفل يقع تحت عالمنا هذا. وعبر عن هذا العالم الاسفل بالاسم العبري «شيئول» الذي تعبر عنه الترجمات العربية باسم «الهاوية»*. فلنسمع الى ايوب يصف لنا هذا العالم[14]: «وكنت كأني لم أكن قط فأقاد من البطن الى القبر. اليست ايامي الى حين فأكفكف عني. فأرتاح قبل أن أنصرف انصراف من لا يؤوب الى ارض ظلمة وظلال موت. أرض دجية حالكة كالديجور، وظلال موت لا نظام فيها ونهارها كالديجور» ايوب ١٠ : ١٩-٢٢ . ومن ايوب ايضاً نعرف عن هذه الهاوية وبواباتها التي تشبه بوابات العالم الاسفل في بابل[15]: «ما رجائي انما الهاوية بيتي وفي الظلام مهدت مضجعي قلت للفساد أنت أبي وللديدان أنت أمي وأختي. اذن أين رجائي. رجائي من يراه. انه يهبط الى ابواب الهاوية» كما نقرأ عن ابواب الهاوية في أشعيا[16] «قلت أني في منتصف أيامي ذاهب الى ابواب الهاوية، وقد حرمت بقية سني».

وتؤكد لنا النصوص التالية الموقع السفلي للهاوية فنقرأ في عاموس[17] «ان نقبوا الى الهاوية فمن هناك تأخذهم يدي أو صعدوا الى السماء فمن هناك أنزلهم» وفي التثنية[18] «لأن النار تشب بغضبي فتتوقد الى الهاوية السفلى». ونقرأ في اشعيا[19] «ولكنك انحدرت الى الهاوية الى اسافل الجب». وفي سفر التكوين[20] نجد يعقوب الجد الاكبر لاسرائيل يبكي ابنه يوسف الغائب الذي يعتقد أنه قد مات ومضى الى العالم الاسفل. فيأمل أن يموت ليلحق به «وقام جميع بنيه وبناته يعزونه فأبى أن يتعزى وقال اني انزل الى ابني نائحاً الى الهاوية، وبكى عليه أبوه». ومن سفر صموئيل الاول نعرف أن هذا النبي قد نزل بعد وفاته الى شيئول كغيره من

* تستعمل الترجمات العربية تعبيرين لترجمة «شيئول» الاول «الهاوية» والثاني «الجحيم»

(١٤) العهد القديم: أيوب، الاصحاح ٢١ : ٢٣-٣١.

(١٥) العهد القديم: أيوب، الاصحاح ١٠ : ١٩-٢٢.

(١٦) العهد القديم: أشعيا، الاصحاح ١٣٨ : ١٠

(١٧) العهد القديم: عاموس، ٩ : ٣.

(١٨) العهد القديم: التثنية، الاصحاح ٣٢ : ٢٢.

(١٩) اشعيا ١٤ : ١٥.

(٢) العهد القديم: التكوين، الاصحاح ٣٧ : ٣٥.

الناس. وعندما يتفق شاؤول مع احدى الساحرات على استحضار شبحه من العالم الآخر نجد أن الشبح يصعد على حد تعبير التوراة الى الارض فنسمع صموئيل يقول: «فقال صموئيل: لماذا اقلقتني باصعادك اياي». وفي سفر حزقيال[21] «هناك عيلام وكل جنودها حول قبرها كلهم ساقطون بالسيف. الذين هبطوا غلفا الى الارض السفلى». وفي رؤيا اشعيا يتخيل ملك بابل وقد هبط الى العالم الاسفل فيهب لاستقباله عظماء الموتى وأكابرهم «الهاوية من اسفل مهتزة لك لاستقبال قدومك منهضة لك الأخيلة جميع عظماء الارض، اقامت كل ملوك الامم عن كراسيهم، كلهم يجيبون ويقولون لك أأنت قد ضعفت وصرت مثلنا».

من هذه الفقرة الاخيرة لاشعيا نستنتج أن الموتى في العالم الآخر يحتفظون بمكانتهم التي كانت لهم، كما هو الامر تماماً في النظرة البابلية. فالملوك قد قاموا عن كراسيهم والعظماء قد خفوا لاستقبال القادم الجديد، وهم عظماء في الآخرة كما كانوا عظماء في الاولى. ونستشف من نصوص أخرى متفرقة تأكيداً لذلك. فنجد المحاربين يهبطون الى شيئول بكامل عدتهم وأسلحتهم في سفر حزقيال: «الجبابرة الساقطين من الغلف النازلين الى الهاوية بأدوات حربهم» وصموئيل عندما تستحضر الساحرة شبحه يخرج في نفس الهيئة ونفس الثياب التي اعتاد استعمالها، «فقال لها ما صورته فقالت رجل شيخ صاعد وهو مغطى بجبة. فعلم شاول أنه صموئيل فخر على وجهه الى الارض وسجد». الا ان هذه المكانة لا تفيد صاحبها كثيراً في شيئول لان هذه تبقى ارض الظلام والسكوت والنسيان. وكما كان العالم الاسفل صامتاً عندما نزل اليه انكيدو حاملاً وصية جلجامش بالا يحدث صوتاً هناك، كذلك شيئول. نقرأ في المزمور ٩٤: «لولا أن الرب معيني لسكنت نفسي سريعاً ارض السكوت» والمزمور ١١٥ «ليس الاموات يسبحون بالرب ولا من ينحدر إلى أرض السكون» وهي أرض خراب بباب «الهاوية عريانة قدامه والهلاك ليس له غطاء» ايوب ٢٦. وهي ارض النسيان: «هل تعرف في الظلمة عجائبك، وبرك في ارض النسيان» مزمور ٨٨.

وكان لارض العالم السفلي في سومر وبابل آلهتها الخاصة التي تختلف عن

(٢١) العهد القديم: حزقيال، الاصحاح ٣٢ : ٣٤.

آلهة السماء والارض ولم يكن هؤلاء الآخرون ليجرؤون على الدنو منها والا نالهم ما ينال البشر الفانين كما حدث لانانا عند هبوطها اليها.

أما التوراة فلا يحدثنا عن موكلين بتسيير شؤون العالم السفلي ولكننا نعلم مؤكداً ان هذا العالم لا يقع تحت سيطرة يهوه وان الاموات هناك لا يعبدونه. ولا يسبحون بحمده. ففي المزمور ٦ نجد صاحب المزمور يطلب من الاله ان يخلصه من الموت ليطيل من حمده له وشكره على نعمه ويذكره بأن أهل العالم الآخر لا يسبحون له «عد يا رب نج نفسي، خلصني من اجل رحمتك لانه ليس في الموت ذكرك، في الهاوية من يحمدك؟» «هل يحدث في القبر برحمتك أو بحقك في الهلاك؟ هل تعرف في الظلمة عجائبك وبرك في أرض النسيان».

ويحدثنا الجامعة عن سيطرة القوى العمياء على شيئول وعن ضرورة تزود الانسان بما يستطيع من هذه الحياة لان بعدها يأتي النسيان. فنقرأ في الاصحاح التاسع كلمات تشبه الى حد بعيد كلمات فتاة الحانة الى جلجامش: «اذهب كل خبزك بفرح واشرب خمرك بقلب طيب.. لتكن ثيابك في كل حين بيضاء.. التذ عيشاً مع المرأة التي أحببتها.. لان ذلك نصيبك في الحياة وفي تعبك الذي تتعبه تحت الشمس. كل ما تجده يدك لتفعله فافعله بقوتك لانه ليس من عمل ولا اختراع ولا معرفة ولا حكمة في الهاوية التي انت ذاهب اليها».

واستقرار الانسان في العالم ابدي فلا بعث ولا نشور: «يضجعون معاً لا يقومون قد خمدوا كفتيلة انطفأوا»[22] «ينامون نوماً ابدياً ولا يستيقظون»[23]. ولعل من اجمل المقاطع التي تحدثنا عن ذلك حديث ايوب في الاصحاح ١٤: «لان للشجرة رجاء ان قطعت تخلف ايضاً ولا تعدم ضراعيبها. ولوقدم في الارض اصلها ومات في التراب جذعها فمن رائحة الماء تفرخ وتنبت فروعاً كالغرس. أما الرجل فيموت ويبلى، الانسان يسلم الروح فأين هو. قد تنفد المياه من البحرة والنهر ينشف ويجف، والانسان يضطجع ولا يقوم».

ويمكن القول ان مسألة الموت والعالم الآخر قد عولجت في التوراة بكثير من الغموض والتناقض. فما تعطيه النصوص المتأخرة يختلف عما قدمته النصوص

(٢٢) العهد القديم: أشعيا، الاصحاح ٤٣ : ١٧.
(٢٣) العهد القديم: ارميا، الاصحاح ٥١ : ٣٩.

السابقة، والمسألة برمتها قد خضعت كغيرها من مسائل التوراة للتطور البطيء والمديد الذي طبع الفكر التوراتي عبر مسيرته الطويلة منذ الخروج وحتى السبي والعودة من بابل. ونستطيع أن نميز بوجه عام ثلاث مراحل اجتازتها فكرة الموت والعالم الآخر في التوراة. فالمرحلة الاولى تميزت بالسكوت المطبق عن عالم ما بعد الموت وبالتلميح البعيد عن عالم الاسفل لا تعرف ما هيته ولا أحوال العيش فيه. وقد كانت هذه المرحلة ضرورية اذا اخذنا بعين الاعتبار ان دين موسى في بدايته كان استمراراً للتوحيد الاخناتوني وردة فعل على الديانة الامونية الرسمية التي محت ذكر «آتون» واضطهدت عابديه وهدمت هياكل عبادته. ولما كانت الحياة الآخرة تلعب دوراً كبيراً في الديانة الآتونية، كان لا بد من الغاء فكرة هذه الحياة الآخرة في الديانة الجديدة التي تصارع جاهدة للفوز بقلوب الناس وانتزاعهم من سيطرة اوزوريس اله العالم الاسفل، والقاضي الذي يقرر مصائر الاموات. فلقد كان لهذا الاله المكانة الاثيرة لدى الطبقات الشعبية في مصر القديمة. ولم يكن لانتزاع تأثيره من نفوس الناس من سبيل سوى الغاء العالم الاسفل من أساسه واقتلاع فكرته جذرياً. وهكذا كان.

ومع محاولات الاستقرار في الارض الجديدة كانت الديانة الموسوية التوحيدية الاولى تنسى مع زوال الجيل الأول الذي عاصر موسى وأخذ عنه قبس التوحيد. وتحول «آتون» بالتدريج الى «يهوه» الها وثنياً دونما وثن، وتسربت للدين معتقدات الفلسطينيين والكنعانيين والآراميين، وبدأت فكرة العالم الاسفل بالتوضح أكثر فأكثر لتأخذ شكلاً قريباً من معتقدات السوريين والبابليين، أما المرحلة الثالثة فكانت السبي الطويل في بابل على يد نبوخذ نصر وهناك احتك المسبيون بالديانة الزارادشتية ـ عند جيرانهم الفرس ـ التي تؤكد على الحياة الآخرة تأكيداً مطلقاً. يوضح اللاهوت الزرادشتي بكل دقة وتفصيل حياة العالم الآخر. فبعد الانتصار النهائي «لاهورا مزدا» الاله الممثل للقوى الخيرة والضياء والنظام على «اهريمان» الاله الممثل لقوى الشر والظلام والفوضى. يتوج أهورا مزدا الهاً واحداً احداً مطلقاً على الاكوان وتبعث الاموات من مرقدها الى يوم الحساب فيوضح أمام كل انسان ميزانه الذي يزين حسناته وسيئاته فمن زادت حسناته فالى نعيم دائم ومن كثرت سيئاته الى جحيم مقيم. وبعد المحاكمة يمشي كل واحد على درب يوصل

للجنان وتحته تتوقد ألسنة اللهيب. فأما الظالمون فيضيق الدرب بهم حتى يغدو كالشعرة، وأما المفلحون فيتسع لهم فيسيرون الهوينا سالمين.

وهكذا وبدافع التأثيرات الفارسية أخذت فكرة الثواب والعقاب بالظهور ولكن بشكل غامض. وبقيت هذه الفكرة موضع أخذ ورد ومناقشات بين اللاهوتيين حتى مولد المسيح دون أن يتم التوصل لرأي قاطع فيها. نقرأ في سفر دانيال[٢٤] «وكثيرون من الراقدين في تراب الارض يستيقظون، هؤلاء الى الحياة الابدية وهؤلاء الى العار، للازدراء الابدي». وهنا نجد أن النص يأبى الا أن يترك مجالاً للغموض والتأويل دون اعطاء رأي قاطع. فكلمة «كثيرون من الراقدين» تركت فجوة تمنع من تفسير قاطع للنص بأنه دلالة على بعث حقيقي شامل. وكذلك الامر في نصوص أخرى. نقرأ في اشعيا مثلاً[٢٥]. «تحيا أمواتك تقوم الجثث. استيقظوا وترنموا يا سكان التراب... هلم يا شعبي ادخل مخادعك وأغلق أبوابك خلفك، اختبيء نحو لحيظة حتى يعبر الغضب لانه هو ذا الرب يخرج من مكانه ليعاقب اثم الارض فيهم، فتكشف الارض دماءها ولا تغطي قتلاها في ما بعد».

وفي مسيرة المسيحية الاولى في القرون الثلاثة بعد الميلاد، حيث ارتبطت بكونها فرقة يهودية جديدة، تخبط الفكر اللاهوتي قبل أن يتوصل لقرار حاسم في البعث وخلود الروح وشمولية الثواب والعقاب، فكانت فكرة خلود الروح تقتصر على المؤمنين الذين اتحدوا بالمسيح فأعطيت لهم به الحياة، شأنها في ذلك شأن ديانات الاسرار التي كانت شائعة في الامبراطورية الرومانية في تلك الآونة كالاورفية وغيرها، حيث كان الالتصاق بمخلص هو «ديونيسيوس أو غيره» شرط للخلاص وللحياة الجديدة.

ولم تكن «جيهينا» أي الجحيم في بداية عهدها سوى أداة تدمير أكثر منها مكان تعذيب سرمدي. تحدثنا اسطورة مسيحية مبكرة عن نزول المسيح للعالم الاسفل وتخليصه عدداً كبيراً من الانبياء والقديسين واصطحابهم معه الى السماء. دعيت هذه الاسطورة بانجيل «نيكوديس» وجرى تداولها كحكاية شعبية فترة طويلة من الزمن[٢٦]: تبدأ القصة في منتصف الليل في العالم الاسفل حيث بزغ من

(٢٤) العهد القديم: دانيال، الاصحاح ١٢: ٢-٣.

(٢٥) العهد القديم: أشعيا، الاصحاح ٢٦: ١٩.

26 - George Every. Christian Mythology. Hamlyn. London 1970.

غياهب الظلمة شيء أشبه ما يكون بنور الشمس فابتهج الجميع وخصوصاً ابراهيم الذي قال: ان هذا الشعاع يصدر عن ضوء عظيم.

أما اشعيا ويوحنا المعمدان فقد عادا يرددان نبوءاتهما، يعقب ذلك حديث بين الموت وبين الشيطان فيقوم الاخير بتحذير الموت من المسيح ودعواه الباطلة مستغلاً خوف الموت من فقدان جميع الموتى في عالمه بعد أن أفقده المسيح لعازر الذي أحياه بعد وفاته: «انني لأشعر بمن ابتلعتهم منذ الخليقة يضطربون في جوفي فبطني اليوم تؤلمني» وبينما هما في ذلك اذ يجلجل صوت كقصف الرعد: «أفتح أبوابك الابدية ليدخل اليك ملك المجد» ولكن الشيطان وأعوانه يهرعون إلى الابواب محاولين تدعيمها مهتاجين فزعين متسائلين: من هو ملك المجد هذا؟ فيجيبهم الانبياء وخصوصاً اشعيا والملك داوود: «انه الرب الجليل في القتال، الذي سيحطم بوابات النحاس ويكسر قضبان الحديد، فيحرر المأسورين وينير شعاب الموت المظلمة» فيرد الشيطان وأعوانه «ومن يكون هذا، حتى تكون له مثل هذه القوة على الاحياء والاموات» وقبل أن يتم كلامه تعالجه يد المسيح فتمسك به ويسلمه للملائكة قائلاً لهم أن يطبقوا فمه ويقيدوا يديه وقدميه، وعندما ينتهون من ذلك يسلمه للموت قائلاً له: «احتفظ به الى حين قدومي الثاني» وبينما يأخذ الموت في صب سخريته وازدرائه على الشيطان، يقوم المسيح بتحرير آدم والانبياء والقديسين ويرفعهم معه الى السماء حيث جنات عدن. وقبل الصعود يعرج بعضهم الى نهر الاردن فيتعمد بمائه.



«لانه هكذا احب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الابدية، لانه لم يرسل الله ابنه الى العالم ليدين العالم بل ليخلص به العالم»

انجيل يوحنا. ٣:٦ ـ ١٧

لما كان الخلق هو الفعل الاساسي الذي يشف عن عظمة الالوهة وجوهرها، فقد كان على الدوام مهمة يضطلع بها أعظم الآلهة شأناً فينتشل الكون من لجة العماء، ويصنع النظام من رحم الهيولى، ويضرب تنين الفوضى ليصنع من أوصاله عالماً معقولاً ينم كل جزء من أجزائه عن عظمة القدرة التي صاغته. ولما كانت السماء هي أسمى ما في هذا الكون وأكثره تعبيراً عن عظمة الصانع فقد صارت مسكناً له ورمزاً، ومنها استمد اسمه في معظم اساطير الشعوب فأصبح الاله الاكبر دوماً الهاً للسماء وصار اسمه يستعمل تبادلياً مع اسمها بل ربما اتحد الاسمان في واحد. ولكن قيام الاله الاكبر بسكنى السماء بعد انهائه فعل الخلق قد جعله بعيداً جداً عما يجري في الارض وأخذ تدريجياً بالاختفاء من الطقوس والعبادات مفسحاً المجال لآلهة أصغر وأقل شأناً في الاصل، ولكنها أكثر التصاقاً بالناس وحياتهم وأمور معاشهم، وأكثر دينامية وفعالية. وقد وصل الامر في بعض الديانات البدائية لاختفاء اله السماء تماماً من المعابد وزوال عبادته والطقوس المتعلقة بها. فنجد لدى معظم القبائل الافريقية أن اله السماء هو أكثر بعداً من أن يحتاج لاية عبادة، وأكثر طيبة من أن يحتاج لاي طقوس أو أضاحي وتقدمات.

فعند قبائل «اليوربا» قام اله السماء الاكبر بايكال أحد الآلهة الصغرى بمهمة

اتمام ما قام به من عمل الخلق ثم انسحب الى سمائه تاركاً الارض ومن عليها. ونرى نفس الشيء لدى قبائل «توكومبا» و«تشي» فالاله الاكبر في السماء هو أعظم من التدخل في تفاصيل حياة الانسان. ولذا فلا نراهم يلجأون اليه الا في الملمات الكبرى والاخطار العظيمة التي تحل بهم كانتشار الطاعون والاوبئة وطغيان العواصف والاعاصير.[1]

وفي ثقافة الشرق الادنى القديم بدأ التحول عن اله السماء باكتشاف الزراعة وتزايد دورها والاعتماد عليها في حياة الانسان ومعاشه، ومعرفته لمدى ما تستطيع الارض ان تعطيه ولقوى الخصوبة أن تصنعه. وتدريجياً أخذ اله السماء العالية يترك أجزاءاً هامة من صلاحياته لآلهة الطبيعة تمثل قوى حركية كالارض والخصوبة والامطار والعواصف وربما كان أول هذه القوى ظهوراً هي الارض. فعند التحول نهائياً للحياة الزراعية جر معه هذا التحول الاقتصادي تحولاً فكرياً واجتماعياً، عندما بدأت الديانة شيئاً فشيئاً تتحول عن الالهة الذكور القساة ممن عرفتهم ابان الفترات الرعوية الى آلهة رفيقة وآلهات رؤومات. فظهرت الارض على أنها الام الاولى التي انبثق منها كل الاحياء من بشر وحيوان ونبات، وعلى أنها النموذج الامومي الاول الذي نتج عنه فيما بعد كل تكرار لفعل الامومة. فانجاب الاطفال وتوالد النباتات أمور هي في جوهرها تقليد لفعل الانجاب الاولي الذي قامت به الام الكبرى وتكرار له. وخصوبة النساء ليست الا قبساً من الخصوبة الكونية المتمثلة في الارض ـ الام.

وهذه الالهة اما انها مخصبة اخصاباً ذاتياً دونما حاجة لقوة خارجية كما هو الامر في الميثولوجيا اليونانية حيث أنجبت الارض «جيا» الهاً جديراً بها هو «اورانوس» السماء الذي غطاها تماماً من جميع جهاتها. أو أنها بحاجة لقرين يساعدها على الانجاب. وهذا الدور يلعبه اله السماء نفسه كما بحثنا ذلك سلفاً في فصل التكوين حيث يقوم الالهان بفعل القران الاول الذي يقلده الاحياء منذ تلك الايام: «أنا السماء وأنت الأرض» هذا ما يهمس به العريس الهندوسي ليلة زواجه في اذن عروسه. لهذا السبب فقد رافقت ـ في أحيان كثيرة ـ طقوس

1 - Philip Freund. Myths of Creation W.H. Alen - London 1964.

واحتفالات الالهة الام ممارسات الجنس الجماعي الذي من شأنه في هذه المناسبة المقدسة تحريض القوى الاخصابية الكامنة في الارض اعتماداً على مبدأ لسحر التشاكلي حيث الشبيه ينتج الشبيه.

وقد دعيت الارض بأسماء متعددة في بلاد النهرين. وأول اسم معروف لها هو «كي» قرينة «آن» اله السماء. وهي فيما بعد «ننماخ» و«ننخرساج» وهي «مامي» أو «ماما» وهي «ننتو» أو «نيسابا» وقد مرت معنا هذه الاسماء جميعاً في أساطير متعددة الغرض والغاية. فكان الاسم يختلف وفق المهمة التي تقوم بها الالهة. فتحت اسم «ننتو» كانت الهة للولادة والمخاض، وتحت اسم ماما أو مامي كانت تقوم بفعل خلق الكائنات البشرية وتحت اسم ننماخ أو ننخرساج كانت تتبارى مع انكي في صنع مخلوقات ونباتات... الخ. أما لدى الكنعانيين فهي «عشيرة» زوجة الاله الاكبر «ايل» وأم الجميع وهي في آسيا الصغرى «سيبيل» أم آتيس الذي سيلعب دوراً كبيراً في ديانات الاسرار كما سيأتي تفصيل ذلك.

الا أنه بمرور الوقت وتحول الديانة تدريجياً من طابعها، الرعوي، الخشن Patrairchal بدخول عناصر أمومية* Matrairchal للمجتمع والدين، علا الى جانب الام الكبرى، شأن الهات أخريات اخذن كثيراً من صلاحياتها. وبشكل أساسي فقد انفصلت عن الارض «روح الخصوبة» وكان هذا الانفصال تطوراً في المقدرة على التجريد لدى العقل الانساني. فالخصب ليس خاصة في التربة نفسها ولكنه قوة كونية جرى تجسيدها في الهة انثى هي «انانا» السومرية أو عشتار البابلية أو عناة الكنعانية. ولما كانت خصوبة الارض والمرأة هي محور حياة الانسان في هذا العالم، فان عشتار كانت قوة أساسية كبرى في هذا الكون ومحركاً دينامياً فعالاً لأحداثه. والعذراء لقبها، والعذرية جوهرها رغم أنها رمز للجنس والحب والخصب. فهذا الجوهر لا يبدله لقاء عابر ولا حمل ولا ولادة، وتبقى عذريتها رمز

* الترتيب الزمني هنا مفترض ولا اعتمده إلا لاعطاء صورة واضحة. فرغم ان المجتمع الامومي كما علمنا علماء الانتروبولوجيا هو سابق في كثير من الاحيان للمجتمع الابوي، إلا ان البواعث النفسية والاجتماعية الدافعة له لا تفنى ولا تزول بل انها تستمر في المجتمع والانسان الجديد وتعبر عن نفسها بأشكال شتى. لتوضيح هذه النقطة، راجع مؤلفي: لغز عشتار.

اخصابها الابدي الذي لا يمسه عرض زائل*. ولعشتار عشاق أزواج أشهرهم تموز التعيس الذي كان موته الفاجع ثمناً لحبها وعشرتها في الاسطورة السومرية، والذي كانت زيارتـه للعـالم الاسفـل جزءاً من السنـة، شرطاً ضرورياً لاستمرار الدورة الزراعية في الاسطورة البابلية والكنعانية.

والى جانب قوى الخصب تأصلت عبادة قوى الطبيعة الجبارة كالعواصف والاعاصير والصواعق، والقوى النافعة كالشمس والماء وغيرهما. فظهر انليل اله سومر الاكبر الذي اغتصب صلاحيات اله السماء «آن» ظهـر «مردوخ» اله بابل الـذي حل محل «آنو» اله السماء الاكادي، وفي كنعان كان «بعل» أقوى الآلهة وأكثرهم قرباً لقلوب العباد رغم بقاء «ايل» اله السماء الهاً أكبر ولكن بالاسم فعز وقوي شأن «انكي» أو «ايا» اله الماء و«شمش» أو «شبش» اله الشمس وغيرهم.

أما العبرانيون فلم يشذوا بدورهم عن القاعدة فهم حال استقرارهم في أرض كنعان الخصبة وتخليهم عن الحياة الرعوية القديمة، تركوا يهوه واتجهوا الى آلهة الخصب الكنعانية فعبدوا «البعليم» و«العشتاروت» كما حدثنا «العهد القديم» في مواضع كثيرة أوردنا بعضاً منها في فصول سابقة. ونجدهم لا يتذكرون الههم الكبير الا ابان المحن العظيمة والكوارث الفاجعة التي تحل بهم فنقرأ في سفر صموئيل الاول ١٢ : ١٠ : «فصرخوا الى الرب وقالوا أخطأنا لاننا تركنا الرب وعبدنا البعليم والعشتاروت. فالآن أنقذنا من يد أعدائنا فنعبدك».

الا أنـه في ضمير الـوعي الشعبي كانت الام الكبـرى وابنهـا (ونمـوذجها الاساسي سيبيل الحثية وابنها آتيس) أو القوة الاخصابية وحبيبها القتيل (ونموذجها الاساسي عشتار وتموز) هما ألصق الالهة جميعاً بقلوب الناس لالتصاقهما بحياتهم

---

* وهناك تفسير مادي للقب العذراء الذي تتمتع به عشتار، يشرحه لنا : John M. Allegro في كتابه The Sacred Mashroom and The Croso فخلق الجنين في الرحم في اعتقاد القدماء يعتمد على ثلاثة عناصر: ١ ـ الروح ٢ ـ دم الحيض ٣ ـ مني الرجل. أما الروح فمن عند الله والدم تقـدمه المرأة والمني للرجل. ولما كان دم الحيض عند العذراوات هو أغزر منه بكثير لدى المتزوجات وخصوصاً بعد الولد الاول، فقد اعتقد الاقدمون ان مقدرة العذراء الاخصابية اكثر بكثير من غيرها. خصوصاً وان انتهاء الحيض يعني انتهاء القدرة على الانجاب وذلك عند تجاوز المرأة لسن اليأس. من هنا فان عشتار وهي رمز الاخصاب لا يمكن ان تكون إلا عذراء بهذا المعنى للكلمة ـ أي المخصبة أبداً، الغزيرة دم الحيض الخالق للحياة.

ومعـاشهم. فما يجري في الطبيعه من خصب وقحط، وأمطار وجفاف، وخضرة ويباس، هو في صميمه انعكاس لدرام الهي أبطاله الآلهة أنفسهم. وهذه الطبيعة بما أ نها انعكاس لقوى الآلهة المختلفة وشفافية عن كينونتهم القدسية، فان كل مظاهرها والتغيرات التي تطرأ عليها والتحركات الظاهرة والخافية فيها، ان هي الا انعكـاس وترجمة لاحداث ومظاهر وتغيرات تقع فيما وراء الطبيعة، حيث عاش الالهة بحياتهم وعواطفهم ونزعاتهم..

لقد أثار تفكير الانسان دوماً التغيير الدوري الذي يطرأ على الطبيعة. فمن فصل بارد وماطر الى آخر أخضر معتدل فثالث حار وجاف فرابع أصفر ذابل. ولم يكن الفكر الاسطوري ليتوصل الا لتفسير يربط ذلك كله بتحركات معينة للآلهة المعنية. فاذا كانت قوة الاخصاب الكونية مسؤولة بشكل رئيسي عن الانبات ورعاية الحياة الزراعية، فما الذي يحدو بها للتخلي عن مهامها هذه وترك الطبيعة لقوى الجفاف؟ ان امراً جللاً ما قد حدث، وأي أمر أعظم من مغادرة هذا العالم كله يحدوها للنزول عن عرشها، وترك مهامها والتخلي عن شعبها الذي تطعمه من ثمار الارض وخيرات الانعام؟ لقد غابت قوة الاخصاب الكونية عن هذا العالم كلياً الى عالـم آخر، ولكنها جاهدت من أجل الرجوع مرة أخرى. وعملية الغياب والعودة هذه هي النموذج للمسار الدوري الازلي الذي دخلت فيه حياة الطبيعة.

ان الجفـاف ضروري للحياة الـزراعية كمـا هي الـرطوبة وحرارة الصيف ضرورية كما هي برودة الشتاء. فالمطر يروي الحبة والربيع يجعلها نبتة خضراء. أما حرارة الصيف فتساعد على نضوجها. لذا فالموت هو الوجه الآخر للحياة وهو رغم الفـاجعـة والالم نقيض لا غنى عنـه. ومـوت الـطبيعة استعداد لانبعاثها، وتجددها لن يحصل الا بموت اله وتضحيته بنفسه من أجل استمرار حياة الانسان. ولهـذا هبطت انانا من عليائها وذاقت طعم الموت. ولما كانت الحياة على هذه الارض هي أفضل حياة ممكنة كما رأينا في فصل العالم الاسفل، ولما كانت الدار الآخرة هي دار شقاء وأحزان، فان عمر الانسان على هذه الارض وامتاعه بها، هو نوع من الخـلاص يحمله الاله الميت لبني البشر. وليس موته وآلامه الا ضريبة يدفعهـا عن الانسان ونوعاً من الفداء السامي الذي يقدمه لعباده. فاله الخصب الميت هو اله فادي وهو اله مخلص دفع حياته ثمناً لحياة الانسان، وآلامه ثمناً للمد في عمره وابعاد شبح مملكة العالم الاسفل عنه بنزوله شخصياً الى العالم الاسفل.

وبهـذا المعنى نكـون قد أقمنا جسراً طويلاً مباشراً بين «انانا» السومرية والسيد المسيح آخر المخلصين. ومن «انـانـا» الى السيد المسيح، كان على الالـه الميت أن يسير طريقاً طويلة شاقة ملأى بالالم والشقاء. ومن مخلص أرضي الى مخلص لحياة أفضل وأسعد في عالم سماوي، كان عليه أن يقطع مسافات زرعت بالشوك والصخور. وسنقوم في هذا الفصل بمرافقته ومعايشته في آلامه وموته وصعوده.

وفكرة تضحية الاله من اجل الانسان لا تظهر فقط مع نماء ديانات الخصب وتطورها بل هي أسبق من ذلك العهد. فالانسان نفسه لم يخلق ويأتي الى هذه الحياة الا عن طريق التضحية ببعض الآلهة بقتلها واستعمال دمها ممزوجاً بالتراب لصنعه. فرأينا في أسطورة التكوين البابلية مثلاً كيف قتل الاله «كنغو» زوج تعامة وفصد دمه ثم مزجه بالتراب لصنع الانسان. كما رأينا في أساطير أخرى كيف جرى قتل اثنين من آلهة «اللغما» لنفس الغاية. واذا ارتفعنا بالفكرة الى مستوى كوني وجدنا أن تكوين العالم كله كان مشروطاً بقتل اله بدئي واستعمال اجزائه لغرض التكوين. كما حصل عندما استلب مردوخ حياة تعامة وصنع من أعضائها عالمنا الذي نعيش فيه.

١ هبوط أنانا الى العالم الأسفل

لعل النص السومري «هبوط انانا الى العالم الاسفل» هو أول ملحمة خطتها يد الانسان في موضوع الاله الفادي، فانانا في هذه الأسطورة، تقوم بتضحية اختيارية وتنزل الى عالم الاموات حيث تلبث ثلاثة أيام، يبدأ بعدها تابعها الامين بالسعي لاستعادتها الى عالم الأحياء. ولما كانت هذه الالهة تجسيداً لقوة الاخصاب الكونية، فان غيابها وعودتها يمثلان دورة الطبيعة من اختفاء للحياة النباتية وسيادة الحر والجفاف، ثم الانتعاش والبعث الجديد.

وفي معرض حديثهم عن الاسطورة ومقارنتهم لها بالاسطورة البابلية اللاحقة «هبوط عشتار الى العالم الاسفل» تحدث معظم الكتاب عن سبب غامض دعا الالهة في النص السومري للهبوط. السيد س. ن كريمر الذي كان له الفضل الاكبر في جمع الاجزاء المنشورة سابقاً لهذه الاسطورة واكتشاف أجزاء جديدة مكملة، لم يستطع أن يقدم تفسيراً للهبوط وسبباً له، كسبب عشتار التي هبطت فيما بعد لتحرر حبيبها تموز. وجرى على منواله في ذلك كثيرون، رغم أن السبب يبدو واضحاً وجلياً ان نحن وضعنا نصب أعيننا فكرة التضحية والفداء ودورهما في فكر المنطقة.

ولسنوات قليلة خلت كان الجزء المعروف من الاسطورة يقف عند صعود

الآلهة من العالم الاسفل، رغم ان النص ينتهي في موضع حرج يشير الى وجود نهاية ليست بالقصيرة. ولكننا مرة أخرى ندين بالشكر للسيد كريمر الذي كان له الفضل في اعطاء صيغة نهائية لنص آخر أمكن جمعه ونشره وترجمته، في أواخر الخمسينات يكمل النص الاول ويضع له نهاية منطقية.

النص الأول:[2]

من «الاعلى العظيم» تاقت الى «الاسفل العظيم»
من «الاعلى العظيم» تاقت الربة الى «الاسفل العظيم»
من «الاعلى العظيم» تاقت انانا الى «الاسفل العظيم»
هجرت سيدتي السماء وتركت الارض
انانا هجرت السماء وتركت الارض
الى العالم الاسفل قد هبطت
تركت الملك والسلطان
الى العالم الاسفل قد هبطت
شدت الى وسطها لوحات الاقدار القدس السبع
وبقية الاقدار المقدسة جعلتها الى يدها
[. . . . .]
وعلى رأسها وضعت الـ«شوغارا» تاج السهول
فمن محياها يشع الالق والبهاء
وبيدها قبضت على الصولجان اللا زوردي
وجيدها قد زينت بعقد أحجار كريمة
وعلى صدرها ثبتت جواهر متلألئة
وكفها قد رصعت بخاتم ذهبي
وجسدها وشحت بأثواب السيادة والسلطان
ومسحت وجهها بالزيت والطيوب.
ثم مشت انانا. في طريقها للعالم الاسفل
والى جانبها مشى «ننشوبور» رسولها

---

2 - S N. Kramer, Sumerian Mythology. Harper and Row. Newyork 1961.

فقالت له انانا المقدسة:
أنت يا مصدر عوني الدائم
يا رسولي ذو الكلمات الطيبة
وناقل كلماتي الحقة
اني لهابطة الى العالم الاسفل
فاذا ما بلغت العالم الاسفل
املأ السماء صراخاً من أجلي
وفي حرم المجمع ابك عليّ
وفي بيت الآلهة اركض هنا وهناك من أجلي
الا فلتكفهر عيناك ويعبس فمك من أجلي
[. . . . .] من أجلي
وكفقير شريد البس ثوباً واحداً من أجلي
والى «ايكور» بيت انليل اتجه وحيداً
فاذا دخلت بيت انليل
انتحب في حضرته (قائلًا):
«أيها الأب انليل. لا تدع ابنتك للموت في العالم الاسفل
لا تترك معدنك الثمين يلقى على التراب في العالم الاسفل
لا تترك لازوردك الغالي يكسر كحجارة البنائين
ولا صندوقك الخشبي يقطع كخشب النجارين
لا تترك الفتاة انانا للموت في العالم الاسفل»
فاذا خذلك انليل في هذه القضية. امض الى «أور»
وفي أور لدى دخولك بيت... البلاد
«ايكيشرجال» بيت «نانا»*
ابك أمام «نانا» (قائلًا):
«أيها الأب نانا لا تدع ابنتك للموت في العالم الاسفل
لا تترك معدنك الثمين يلقى على التراب في العالم الاسفل

---

* نانا هوسن اله القمر

لا تترك لازوردك الغالي يكسر كحجارة البنائين
ولا صندوقك الخشبي يقطع كخشب النجارين
لا تترك الفتاة انانا للموت في العالم الاسفل»
فاذا خذلك نانا في هذه القضية امض الى «اريدو»
وفي اريدو لدى دخولك بيت «انكي»
ابك أمام انكي (قائلاً):
(أيها الاب انكي لا تدع . . . تكرار للمقطع السابق)
ان الأب انكي هو رب الحكمة
الذي يعرف طعام الحياة، والذي يعرف ماء الحياة ولسوف يعيدني
للحياة بكل تأكيد.
ثم سلكت انانا طريقها نحو العالم الاسفل
والى رسولها ننشوبار قالت: امض يا ننشوبار
لا تنس ما أمرتك به ولا تهمله
ولدى وصول انانا لقصر العالم الاسفل اللازوردي
تصرفت عند البوابة بطريقة أوقعتها في الاثم
وفي قصر العالم الاسفل تكلمت بشكل أوقعها في الخطيئة:
افتح يا حارس البوابة. افتح البيت
افتح الباب يا «نيتي» افتح الباب. وحيدة سوف ألج.
و«نيتي» كبير حجاب العالم الاسفل
أجاب انانا الطاهرة
- من يا ترى تكونين؟
- أنا ملكة السماء. ذلك المكان الذي تشرق فيه الشمس
فما الذي أتى بك الى الارض التي لا عودة منها
والى الطريق الذي لا يؤوب منه مسافر كيف حفزك قلبك؟
فأجابته انانا الطاهرة:
«ان أختي الكبرى اريشكيجال
قد مات زوجها الرب كولاجانا
فجئت احضر مراسم الجنازة

. . . وصدقاً ما أقول»
«نيتي» كبير حجاب العالم الاسفل
أجاب انانا الطاهرة:
«أي انانا ابق حيث انت
ومليكتي اريشكيجال دعيني أكلم»
«نيتي» كبير حجاب العالم الاسفل
دخل بيت مليكته، اريشكيجال وقال لها
«أي مليكتي. ان فتاة . . . . . .
كأنها آلهة . . . .
في الباب . . . .
. . . .
في ايانا . . . .
لقد شدت الى وسطها لوحات الاقدار القدس السبع
وبقية الاقدار المقدسة جعلتها الى يدها
. . . .
وعلى رأسها وضعت الشوغارا تاج السهول
فمن محياها يشع الألق والبهاء
وبيدها قبضت على الصولجان اللازوردي
وجيدها قد زينت بعقد أحجار كريمة
وعلى صدرها ثبتت جواهر متلألئة
وكفها قد رصعت بخاتم ذهبي
وصدرها قد أحاطت بدرع . . .
ووشحت جسدها بأثواب السيادة السلطان
ومسحت وجهها بالزيت والطيوب»
عند ذلك «اريشكيجال» . . . . .
أجابت «نيتي» كبير حجابها (قائلة):
«أي نيتي يا كبير حجاب العالم الاسفل اقترب مني
واعط اذناً صاغية لما آمرك به

ارفع مزاليج بوابات العالم الاسفل السبع
وعند بوابة «جانزير» واجهة العالم الاسفل أعلن قوانيننا
ولدى دخول انانا
منحنية حتى الارض. . . . دعها. . . . . .»
«نيتي» كبير حجاب العالم الاسفل
أطاع ما تفوهت به مليكته من أوامر
فرفع مزاليج بوابات العالم الاسفل السبعة
ولدى بوابة «جانزير» واجهة العالم الاسفل أعلن قوانينه
وقال الى انانا الطاهرة:
«تعالي فادخلي يا انانا»
ولدى دخولها من البوابة الاولى
خلع عن رأسها الشوجار تاج السهول
ـ ما هذا الذي تفعلون؟
ـ أي انانا لقد صيغت قوانين العالم الاسفل بعناية واكتمال
فلا تناقشي يا انانا شعائر العالم الاسفل
ولدى دخولها من البوابة الثانية
اقتلع من يدها الصولجان اللازوردي
ـ ما هذا الذي تفعلون؟
ـ أي انانا لقد صيغت قوانين العالم الاسفل بعناية واكتمال
فلا تناقشي يا انانا شعائر العالم الاسفل
ولدى دخولها من البوابة الثالثة
انتزعت عن جيدها الاحجار الكريمة
ـ ما هذا الذي تفعلون؟
ـ أي انانا لقد صيغت قوانين العالم الاسفل بعناية واكتمال
فلا تناقشي يا انانا شعائر العالم الاسفل
ولدى دخولها من البوابة الرابعة
التقطت عن صدرها الجواهر المتلألئة
ـ ما هذا الذي تفعلون؟

ـ أي ا انانا لقد صيغت قوانين العالم الاسفل بعناية واكتمال
فلا تناقشي يا انانا شعائر العالم الاسفل
ولدى دخولها من البوابة الخامسة
استل من يدها الخاتم الذهبي
ـ ما هذا الذي تفعلون؟
ـ أي انانا لقد صيغت قوانين العالم الاسفل بعناية واكتمال
فلا تناقشي يا انانا شعائر العالم الاسفل
ولدى دخولها من البوابة السادسة
نزع عن صدرها الدرع الـ. . . . .
ـ ما هذا الذي تفعلون؟
ـ أي انانا لقد صيغت قوانين العالم الاسفل بعناية واكتمال
فلا تناقشي يا انانا شعائر العالم الاسفل
ولدى دخولها من البوابة السابعة
رفعت عنها جميع أثواب السيادة والسلطان
ـ ما هذا الذي تفعلون؟
ـ أي انانا لقد صيغت قوانين العالم الاسفل بعناية واكتمال
فلا تناقشي يا انانا شعائر العالم الاسفل

. . . .

اريشكيجال المقدسة كانت مستوية على عرشها
يحيط بها «الانوناكي» القضاة السبعة الذين يصدرون الاحكام
ركزوا أنظارهم عليها. أنظار الموت
وبكلمة منهم، الكلمة التي تعذب الروح
تحولت المرأة المتعبة الى جثة
ثم شدت هذه الجثة الى وتد مغروس
وبمرور ثلاثة أيام وثلاث ليال
رسولها ننشوبور
ذو الكلمات الطيبة
وحامل كلماتها الحقة

أخذ يملأ السماء صراخاً من أجلها
وبكى عليها في حرم المجمع
وفي بيت الآلهة ركض هنا وهناك من أجلها
اكفهرت عيناه وعبس فمه من اجلها
وكفقير شريد لبس ثوباً واحداً من أجلها
والى ايكور بيت انليل اتجه وحيداً
ولدى دخوله ايكور بيت انليل
بكى في حضرته قائلاً :
«أيها الأب انليل لا تدع ابنتك للموت في العالم الاسفل
لا تترك معدنك الثمين يلقى على التراب في العالم الاسفل
لا تترك لازوردك الغالي يكسر كحجارة البنائين
ولا صندوقك الخشبي يقطع كخشب النجارين
لا تترك الفتاة انانا للموت في العالم الاسفل»
فأجاب الأب انليل «ننشوبور» قائلاً :
«ابنتي في الاعلى العظيم سارت بقدميها الى اللاسفل العظيم*
انانا في الاعلى العظيم سارت بقدميها الى الاسفل العظيم
وشرائع العالم الاسفل، أنت تعرف ما شرائع العالم الاسفل
ومن يا ترى قادر على الوصول الى ذلك المكان؟»
وهكذا لم يقف الأب انليل الى جانبه بل خذله. فمضى الى أور
وفي أور لدى دخوله بيت. . . . البلاد
الـ«ايكيشيرجال» منزل نانا
انتحب أمام نانا قائلاً:
(تكرار لنفس الكلام الموجه الى انليل)
وهكذا لم يقف الأب نانا الى جانبه بل خذله. فمضى الى أريدو
وفي أريدو لدى دخوله بيت انكي
انتحب أمام أنكي قائلاً:

* تصرفت قليلاً في ترجمة هذه الاسطر الاربعة،

(تكرار لنفس الكلام)
فأجاب الأب انكي لننشوبور قائلاً :
«انني قلق على ابنتي فما الذي حدث لها
انني قلق على انانا فما الذي حدث لها
انني قلق على سيدة جميع البلاد فما الذي حدث لها
انني قلق على كاهنة السماوات فما الذي حدث لها»
ثم أخرج طيناً من تحت أظافره* فصنع منه الـ«كوجارو»
وأخرج من تحت الظفر المصبوغ بالاحمر! طيناً فصنع منه
الـ «كالاتورو»
فأعطى الكوجارو طعام الحياة
وأعطى الكالاتورو ماء الحياة
وقال الأب انكي «للكوجارو» و«الكالاتورو» :
(تسعة عشر سطراً تالفة)
وعلى الجثة المشدودة الى وتدها وجهوا أشعة النار
وانثروا عليها من ماء الحياة ستين مرة، ومن طعام الحياة ستين
فتنهض انانا من مرقدها حقاً وصدقاً
(أربعة وعشرون سطراً تالفة)
على الجثة المشدودة الى وتدها وجهوا أشعة النار
وانثروا عليها من ماء الحياة ستين مرة ومن طعام الحياة ستين
فنهضت انانا
وصعدت انانا من عالم الأموات.

ولما كانت العودة من الموت أمراً جللاً وحادثاً خارقاً، فانه لم يكن ليتم ببساطة وسهولة. وكان على الالهة انانا لقاء قيامتها من بين الاموات أن ترسل أحد الاحياء بدلاً عنها. ولضمان تنفيذ هذا الشرط قام جمع من أشباح العالم الاسفل وعفاريته من جند ارشكيجال بمرافقة انانا ليعودوا بمن يقع عليها اختياره:

عفاريت صغيرة كأنها [من القصب]

* الطين مادة اليفة لانكي لانه يسكن الاعماق المائية.

وعفاريت هائلة كأنها [. . . .]
مشت معها (جميعاً)
فالماشون أمامها كانوا بلا [. . . .] وفي أيديهم العصي
والماشون الى جانبها كانوا بلا [. . . .] وفي مناطقهم السلاح
والذين تقدموها
الذين تقدموا انانا
كانوا مخلوقات لا تعرف الطعام ولا تعرف الشراب
ولا تأكل خبز القمح المذرور*
ولا تشرب من خمر القرابين
تخطف الزوجة من حضن زوجها
وتنزع الطفل عن صدر أمه الرؤوم
هكذا صعدت انانا من العالم الاسفل
وأول خروجها من عالم الاموات
قام ننشوبور يرمي نفسه على قدميها
واقعاً على التراب كاسياً نفسه بالطين
فقالت العفاريت لانانا:
أي انانا. امضِ الى مدينتك دعينا نحمله معنا
فأجابت انانا الطاهرة العفاريت قائلة:
«انه رسولي ذو الكلمات الطيبة
وحامل كلماتي الحقة
لم ينس يوماً وصاياي
لا ولم يخن يوماً أوامري
لقد ملأ السماوات صراخاً من أجلي
وفي حرم المجمع بكى من أجلي
وفي بيت الآلهة ركض هنا وهناك من أجلي
لقد اكفهرت عيناه وعبس فمه من اجلي
و[. . . . .] من أجلي

* نوع خاص من التقدمات.

وكفقير شريد لبس ثوباً واحداً من اجلي
والى ايكور بيت الليل
والى أور بيت نانا
والى أريدو بيت انكي (مضى) ليرد الي الحياة»
فلنمض اذن الى الـ«سيجورشاكا» «في أوما»
وهناك رمى «شارا» نفسه عند قدميها
واقعاً على التراب كاسياً نفسه بالطين
فقالت العفاريت لانانا الطاهرة:
أي انانا المقدسة امض الى مدينتك ودعينا نأخذه معنا
فأجابتهم انانا الطاهرة قائلة:
(الجواب مكسور)
فلنمض اذن الى «ايموشكالاما» في «بادتيبيرا»
وفي «باديتبيرا» رمى «لتراك» نفسه من الايموشكالاما عند قدميها.
واقعاً في التراب كاسياً نفسه بالطين
فقالت العفاريت لانانا الطاهرة:
أي انانا امض الى مدينتك ودعينا نأخذه معنا
(جواب انانا وبضعة أسطر تالية مكسورة)
فلنمض اذن الى «كولاب» مدينة «دموزي»*
(وفي كولاب) وضع دموزي عليه ثياباً فاخرة واعتلى عرشه
فانقضت عليه العفاريت وجروه من ساقيه
انقضت عليه العفاريت السبعة كما يفعلون مع الرجل العليل
فانقطع الراعي عن نفخ نايه ومزماره**
ثم ركزت (انانا) انظارها عليه. ركزت انظار الموت
ونطقت ضده بالكلمة نطقت بالكلمة التي تعذب الروح
وصرخت فيه صرخة الاتهام قائلة:
أما هذا فخذوه

* هذا السطر افتراض. وقد استحدثته للربط بين الكسرة الاخيرة من النص وما قبلها.
** اي دموزي الذي كان يعزف في ذلك الوقت.

وبذلك اسلمت انانا دموزي الراعي الى ايديهم .

ان من رافقه
ان من رافق دموزي
كانوا مخلوقات لا تأكل الطعام ولا تعرف الشراب
ولا تأكل من خبز القمح المذرور
ولا تشرب من خمر القرابين
تخطف الزوجة من حضن زوجها
وتنزع الطفل عن صدر أمه الرؤوم
فبكى دموزي حتى ازرق وجهه
ورفع يديه الى السماء نحو «اوتو» قائلاً :
أي اوتو. انت اخو زوجتي وانا زوج اختك
وانا من يحمل الزبدة الى بيت أمك
وانا من يحمل اللبن الى بيت «ننجال»
فحول يدي الى حية وحول قدمي الى حية
انقذني من العفاريت ولا تدعهم يأخذونني

عند هذه الضراعة تنتهي الكسرة الاخيرة التي تكمل ما نعرفه حتى الآن عن هذا النص. الا ان نصاً آخر يحكي لنا مصير الاله دوموزي وجد موزعاً على ثمانية وعشرين لوحاً وكسرة، جرى اكتشافها وتجميعها من متاحف العالم تدريجياً. ورغم ان الكسرة الاولى قد نشرت منذ عام ١٩١٥ فان شكلاً واضحاً وذا معنى للنص لم يمكن الحصول عليه حتى عام ١٩٥٢ عندما استطاع عالم السومريات الكبير السيد : «Thorkild Jacobson» نشر الجزء الأعظم من النص في : The Jornal of Cuneiform Studies وبعده قام باكمال المهة السيد S.N. Kramer الذي عثر في متحف استانبول على باقي القطع فاستنسخها ونشرها. ثم قام باعطاء لمحة عامّة عن النص كاملاً.

يعود النص الى عام ١٧٥٠ ق.م. ويمكن القول أنه مستلهم من نص هبوط انانا وذلك للتشابه الحرفي في بعض المقاطع. ولربما كان نسخة من الجزء الاخير الضائع للنص قامت يد الناسخ باجراء بعض التعديلات عليه. وأنا من المرجحين

لهذا الاحتمال ولذا فاني ادعو قرائي لاعتبار هذا النص بمثابة تكملة طبيعية للنص السابق. وهو في رأيي من اجمل ما خطته يد الكاتب السومري.

مصير دموزي[3]

لقد امتلأ قلبه (حزناً) ودموعاً
فمضى الى السهول (الواسعة)
امتلأ قلب الراعي (حزناً) ودموعاً
فمضى الى السهول (الواسعة)
امتلأ قلب دموزي (حزناً) ودموعاً
فمضى الى السهول (الواسعة)
علق نايه حول عنقه
وراح يبكي وينوح :
رددي بكائي، رددي بكائي
ايتها السهول الا فلتبكي معي
ايتها السهول الا فابكي معي ونوحي علي
اسمعي بكائي سراطين النهر
واسمعي نواحي ضفادع الساقية
دعي امي تندب فقدي
امي التي لا تملك خمسة ارغفة فلتبكي علي
امي التي لا تملك عشرة ارغفة فلتبكي علي
لانها لن تلقى من يعنى بها يوم اموت
وانت يا عيني، تائهة في السهول فلتدمعي كعين امي
وانت يا عيني، تائهة في السهول فلتدمعي كعين اختي»
بين الازاهير استلقى، بين الازاهير استلقى
بين الازاهير استلقى الراعي دوموزي

3 - S.N. Kramer, Mythology of The Ancient World, Anchor Books, New York (His Chapter on Sumerian Mythology).

وبينما هو نائم بين الازاهير رأى حلماً
فنهض من نومه مذعوراً مما رأى
وعرك عينيه بكفيه ورأسه يدور

ثم يمضي دوموزي المذهول الى اخته «جشتينانا» الشاعرة والمغنية ومفسرة الاحلام . فيقص عليها رؤياه :

اختاه . سأقص عليك ما رأيت ، سأقص عليك الحلم الذي رأيت .
من حولي كان السمار* ينمو ويندفع بسرعة من باطن التربة .
وسمارة وقفت وحيدة ، وحنت رأسها امامي
كل السمار وقف في ازواج الا واحدة أزيلت من مكانها
وفي الغيضة انتصبت حولي انتصبت من الارض اشجار طوال مرعبة
وعلى مرقدي المقدس انسكب ماء بارد
وممخضتي** خاوية قد ازيل ما بها
وكوبي المقدس قد سقط من مشجب تعليقه
وعصا الراعي قد تلاشت وذهبت ريحها
وهناك كانت بومة . . . .
وصقر يحمل حملاً بين مخالبه
وماعزي الفتية تجرجر لحالها اللازوردية في التراب
أما شياه حظيرتي فقد لمست الارض قوائمها المنحنية
(نعم) ممخضتي محطمة لا لبن فيها
وكوبي قد انكسر . فدموزي لم يعد بين الاحياء
وحظيرته قد راحت نهباً للرياح
(فتجيبه اخته)
اواه يا أخي . ان الحلم الذي قصصت ليس حلماً طيباً
أواه يا دوموزي . ان الحلم الذي قصصت ليس حلماً طيباً :
من حولك كان السمار ينمو ويندفع بسرعة من باطن التربة

* السمار : او الاسل نبات اوراقه اسطوانية تستعمل في صنع بعض انواع الكراسي أو المكانس .
** الممخضة : ما يستعمله الرعاة لخض اللبن .

(وهذا يعني) أن عصبة من السفاحين ستنقض عليك
(أما عن) السمارة الوحيدة (التي) وقفت وحنت رأسها امامك .
(فهذا يعني) أن أمك التي ولدتك ستحني رأسها من اجلك
(وعن) كل السمار الذي وقف ازواجاً الا واحدة ازيلت من مكانها .
(فذلك يعني) انها تقول لك : احدنا يجب أن يغيب

ثم تمضي جشتنانا في تفسير حلم اخيها فقرة فقرة الى أن تنتهي بتحذير أخيها من ان الـ«جالا» وهم عفاريت العالم الاسفل سيطبقون عليه ويحملونه الى هنـاك . وان عليه الاختفاء من وجههم . فيعمل دوموزي بنصيحة اخته ويغادرها موصياً اياها الا تبوح بمكان اختبائه .

أي صفيتي ، سأختبىء بين الاعشاب
فلا تخبري أحداً بمكمني
سأختبىء بين الاعشاب القصيرة
فلا تخبري أحداً بمكمني
سأختبي بين الأعشاب الطويلة
فلا تخبري أحداً بمكمني
سأختبىء بين القنوات والترع
فلا تخبري أحداً بمكمني
فتجيبه اخته :
لتنهشني كلابك الضارية ان بحت بمكمنك
الكلاب السوداء ، كلاب حراسة قطعانك
الكلاب المتوحشة ، رمز سلطانك
نعم فلتنهشني كلابك .

ثم تأتي العفاريت التي :

لا تأكل الطعام ولا تعرف الشراب
ولا تقرب ماء القرابين
لا تقبل الاعطيات التي تهدىء الخواطر

ولا تسكن لحضن زوجة
ولا تقبل الطفل الجميل

فيحاولون استمالة الاخت وحثها بشتى الوسائل على افشاء سر دوموزي، ولكن عبثاً. الا ان دوموزي الذي يخشى ان ينال اخته شراً على يد الاشباح القساة يعود من تلقاء ذاته ويسلم نفسه. فينقضون عليه ويوثقونه بيديه وقدميه ثم يوسعونه ضرباً بالعصي والسياط ويهيئونه للرحيل معهم. وهنا يتجه بالدعاء الى «اوتو»* يستغيثه:

اي اوتو انت اخو زوجتي وأنا زوج اختك
انا الذي يحمل الطعام لـ«ايانا»**
في «ايريك» قد اتممت زواجي
فانا من قبل الشفاه الطاهرة
وعانق الجسد المقدس، جسد انانا
فحول يدي الى يدي غزال***
وحول قدمي الى قدمي غزال
حتى لا تطالني ايدي عفاريت الجالا
وانج بنفسي الى «شوبيريلا»

فيستجيب له اوتو:

فتلقى اوتو دمعه قرباناً
وكإله رحمة واسعة اراه من رحمته
حول يديه الى يدي غزال
وحول قدميه الى قدمي غزال
فلم تطاله ايدي عفاريت الجالا
ونجى بنفسه الى شوبيريلا

الا ان الاشباح القاسية تدركه مرة أخرى وتأخذ بضربه وتعذيبه. فيطلب من

---

* اله الشمس واخو انانا.
** معبد انانا.
*** في النص السابق يطلب ان تتحول يده الى حية وقدميه كذلك.

اوتو مجدداً ان يحول يديه ورجليه الى قوائم غزال فيفر هارباً. ومجدداً يستجيب له اوتو، فيهرع دوموزي الى بيت الهة اسمها «بيليلي»:

اينها السيدة العجوز الحكيمة. لست بشراً ولكنني زوج آلهة.
فدعيني اشرب من ماء القرابين قليلاً
ومن الطحين المذرور دعيني آكل بعضاً.

ولم يكد دوموزي يلتقط انفاسه ويتناول بعض الطعام والشراب حتى تتسلل الاشباح الى بيت السيدة العجوز، وتبدأ بضرب الاله المنكود للمرة الثالثة. ولكنه ايضاً بمساعدة اوتو هرب الى حظيرة اخته، وهناك كانت نهايته حيث:

دخل الحظيرة العفريت الاول
وضرب خدود دوموزي بمسمار طويل نفاذ
وتبعه الى الحظيرة العفريت الثاني
فراح يضرب وجه دوموزي بعصا الراعي
ثم دخل الى الحظيرة العفريت الثالث
وازال ما في الممخضة ورماها خاوية
وتبعه الى الحظيرة العفريت الرابع
فرمى الكوب المقدس عن مشجب تعليقه
ثم دخل الحظيرة العفريت الخامس
فحطم الممخضة الخاوية لبنها
وكسر الكوب. فدموزي لم يعد بين الاحياء
وحظيرته قد راحت نهباً للرياح

وعلى هذه الصورة تنتهي اسطورة هبوط انانا بمشهد يخلع الافئدة حتى وقتنا هذا. لقد تنعم الاله الراعي بحب انانا فترة طويلة ولكن كان عليه ان يدفع ثمن عدم اكتراثه بزوجه والحداد عليها. وكان ثمناً فادحاً جداً، فدموزي قد حمل مرغماً الى عالم الاموات بديلاً عن الآلهة الوحيدة التي تغلبت على الموت وقهرته، وخرجت منه ظافرة منتصرة لحياة جديدة. وهنا تكتمل اسطورة قابيل وهابيل. فالراعي الذي فضلته انانا على الفلاح انكمدو في اسطورة سابقة وتزوجت منه تعود لتقضي عليه بنفسها. ويصبح موته شرطاً لعودة القوة الاخصابية من عالم الاموات لتنعش الارض من جديد وتنتصر الزراعة على الرعوية على اصوات صرخات دموزي القتيل الذي

تجره عفاريت العالم الاسفل وصرخات قابيل الذي هوت على رأسه ضربات اخيه الفلاح وصوت الرب المدوي يلاحقه اينما ذهب: «اين قابيل اخوك . . صوت دم اخيك صارخ الى الارض من الارض. فالآن ملعون انت من الارض التي فتحت فاها لتقبل دم اخيك من يدك».

وبصعود انانا يكتمل درام الفداء الالهي. لقد تركت سيدة السموات عرشها ونزلت مختارة درجات الموت السبع مضحية بكل شيء في مقابل نتائج غير محققة وامل ضعيف في العودة الى الحياة. ولكن الحياة تنتصر وتقهر آلهة الحياة قوى الموت فتنقض من مرقدها حيث علقت جثة هامدة على وتد، وتنبعث في عودة مستحيلة متجددة شابة كأنها الفينيق ذلك الطائر العجائبي الذي يحرق نفسه كلما شاخ لينبعث من رماده مجدداً، فينيق آخر غض وقوي وشاب. هكذا الطبيعة المتجددة التي تموت وتجف ولكنها ما تلبث أن تنبعث بشكل مذهل غير مفسر ولا مبرر، الا باعتباره ظاهراً يشف عن القوى الالهية الماورائية الفاعلة والديناميه. لقد ظهرت الحياة على الارض نتيجة لتضحية اله، وهي تستمر نتيجة لتضحية اله آخر وفدائه.

على ان دوموزي الذي كان ذهابه الى العالم الاسفل ضرورياً للافراج عن انانا، لم يبق في ضمير العباد مجرد ضحية مسكينة بل تحول الى بطل. فهو شريك في ملحمة الفداء وطرفاً هاماً لا تكتمل الملحمة دونه. ولذا تراه في نصوص اخرى يمضي الى الموت ببطولة لينجز دوره:

انهض ايها البطل وامض في طريق اللا رجوع
ها هو يغيب. ها هو يغيب في حضن الارض
سيغمر ارض الاموات بالخيرات العميمة
امض ايها البطل الى الارض البعيدة خلف مدى الابصار[4]

وموقف انانا من تموز. ذلك الذي يحتوي على تركيب لنقيضين هما الحب والكراهية رغبة الحياة له ورغبة الموت، نجد له متوازيات في ميتولوجيا الشعوب الاخرى. فبعض الآلهات لم يكن يجدن غضاضة في اهلاك محبيهم ثم استردادهم للحياة مرة أخرى، وللحب. ففي الاسطورة اليونانية نجد ان ادونيس

4 - J.L. Henderson, The Wisdom of The Serpent, Collier Books, Newyork 1971.

يقتل من قبل الخنزير البري وهو الحيوان المقدس لدى حبيبته افروديت وأحد رموزها. وبذلك يكون ادونيس قد قتل من قبل حبيبته بصورة غير مباشرة. غير ان الرعب الذي تلقيه أمثال هذه القصص في قلوب قراء العصر الحديث هو آخر ما كانت الاسطورة تهدف اليه. فبدون الموت لم تكن هناك حياة جديدة تحل محل الاولى التي غدت بائسة رتيبة وبلا معنى باعتمادها على الخير وحده.

لقد اوردت انانا بعشيرها موارد التهلكة ولكنها هي بالذات من سيقوم بتخليصه من اسره واسترجاعه من العالم الاسفل. وسيكون حبها له والتصاقه بها العنصرين الاساسيين في عملية الاستعادة. لقد حققت انانا لنفسها عودة مستحيلة من عالم الاموات وهذه العودة ستصبح نموذجاً بدئياً لكل عودة الى الحياة، نموذجاً سينظر اليه البشر بأمل طالما بقي هناك حياة وموت. وسيحاولون الاتحاد بذلك الاله الميت الذي بعث، والالتصاق به في مجموعة من الطقوس السرية التي من شأنها، في اعتقادهم، جعلهم جزءاً متوحداً معه فيسيرون على طريقه، وينشلون معه من الموت المؤقت الى حياة جديدة ثانية بعيدة عن العالم الاسفل: «من آمن بي وان مات فسيحيا» يقول السيد المسيح.

والبعث الجديد سيصبح فيما بعد وقفاً على اتباع الاله الميت ممن دخلوا في عبادته وأدوا الطقوس الادخالية المفروضة واتحدوا به عبر مجموعة من الطقوس والعبادات.

وهكذا نجد ان انانا في الاسطورة السومرية ترسل بدموزي الى الموت ولكنها في الاسطورة البابلية تقوم بتخليصه من الموت. وتشرع برحلتها الى العالم الاسفل لهذه الغاية. وتحقق لحبيبها العودة المستحيلة كما حققتها لنفسها قبلاً وكما ستحققها للاتباع المخلصين ممن سيلتصقون بها في الفترات المتأخرة لتطور الديانات الشرقية.

٢ هبوط عشتار إلى العالم الأسفل

تحذو الاسطورة الاكادية حذو نموذجها السومرية ويغدو الهيكل العام للنزول الثاني صورة تكاد تكون طبق الاصل عن النزول الاول. بحيث يشكل النص بمجموعه مثالاً ناطقاً عن التأثر الشديد للفكر والادب الاكادي بالنماذج السومرية السابقة، وسيطرة الفكر السومري على ثقافة المنطقة. فدوموزي في النص البابلي هو «تموز» كما صار يدعى. اما انانا فتبدو باسمها الاكادي الجديد: عشتار.

الى الارض التي لا عودة منها، الى أرض [اريشكيجال][5]
اتجهت عشتار ابنة «سن» بأفكارها
نعم. ابنة سن اتجهت بأفكارها
الى دار الظلام ومسكن «اركالا»*
إلى الدار التي لا يرجع منها الداخل.
إلى الدرب الذي لا يقود صاحبه من حيث أتى.
الى المكان الذي لا يرى سكانه نوراً ولا ضياء،

---

5 - A.Heidel, The Epic of Gilgamesh, Phoenix Books 1970.

* اركالا هي اريشكيجال نفسها.

حيث الغبار طعامهم والتراب معاشهم ،
يسبحون في الظلام فلا بصيص ولا شعاع .
عليهم اجنحة تنقلهم كالطيور ،
بين ارجاء مسكنهم الذي علا الغبار ابوابه ومزاليجه
وعندما وصلت عشتار الى بوابة ارض اللا رجوع
نادت حارس البوابة :
افتح بابك يا حارس البوابة
افتح بابك ودعني ادخل
فان لم تفتح بابك لأدخل منه
سأحطمه وأكسر مزاليجه
سأخلع عوارضه وأرمي مصاريعه
وأطلق الموتى الى سطح الارض فيأكلون سكانها
ويزداد عدد الاحياء على عدد الاموات
ففتح حارس البوابة فمه وقال :
رويدك سيدتي لا تلقي بالباب ارضاً
سأهرع وأعلن قدومك للملكة اريشكيجال
(ثم مضى) ودخل على اريشكيجال قائلاً :
ان اختك عشتار [واقفة بالباب]
(تلك) التي تقود الاحتفالات ، وتحرك المياه السفلية امام ايا (!) .
فلما سمعت اريشكيجال هذا
شحب لونها حتى غدا كلون شجرة مجتثة
واسودت شفتاها حتى غدتا بلون «الكينينو» المقطوع :
ما الذي حفزها لتحضر الي ، ما الذي وجه افكارها الي؟
اني اذن سأشرب الماء مع بقية الانوناكي
وبدل الطعام سألتهم التراب وبدل الجعة ماء العكر*

* اعتقدت اريشكيجال ان عشتار قد جاءت لتحرر سكان العالم الاسفل . وفي هذا تهديد خطير لمملكتها التي ستغدو خاوية برحيل سكانها . وبزوال سلطانها لن يقوم الاحياء بتقديم القرابين .

اني اذاً سأبكي الفتيات اللواتي انتزعن من احضان الاحبة ،
واندب الطفل الضعيف الذي قضى قبل أوانه ،
والرجال الذين خلفوا وراءهم زوجاتهم .
امض يا حارس البوابة وافتح لها الابواب
ثم عاملها وفقاً للشرائع القديمة .
فمضى البواب وفتح لها :
ادخلي سيدتي ، فالعالم الاسفل يحييك بسرور ،
وسيبتهج من امامك قصر اللا رجوع .
ولما مر بها عبر البوابة الاولى ، رفع عن رأسها التاج العظيم
ـ لماذا يا حارس البوابة ازحت عن رأسي التاج العظيم؟
ـ ادخلي سيدتي فهذه شرائع ربة العالم الاسفل .
ولما مر بها عبر البوابة الثانية اخذ من اذنيها اقراطها .
ـ لماذا يا حراس البوابة اخذت من اذني الاقراط؟
ـ ادخلي سيدتي فهذه شرائع ربة العالم الاسفل .
ولما مر بها عبر البوابة الثالثة رفع عن جيدها العقود .
ـ لماذا يا حارس البوابة رفعت عن جيدي العقود؟
ـ ادخلي سيدتي فهذه شرائع ربة العالم الاسفل .
ولما مر بها عبر البوابة الرابعة نزع عن صدرها الحلي .
ـ لماذا يا حارس البوابة نزعت عن صدري الحلي؟
ـ ادخلي سيدتي فهذه شرائع ربة العالم الاسفل .
ولما مر بها عبر البوابة الخامسة انتزع عن وركها تعويذة الولادة المرصعة بجواهر الميلاد*
ـ لماذا يا حارس البوابة انتزعت عن وركي تعويذة الولادة المرصعة؟ .
ـ ادخلي سيدتي فهذه شرائع ربة العالم الاسفل .
ولما مر بها عبر البوابة السادسة نزع الأساور عن يديها وقدميها .

* اعتادت النساء البابليات حمل حجاب من نوع معين مرصع بأحجار كريمة من شأنها تسهيل عملية الولادة .

- لماذا يا حارس البوابة نزعت الاساور عن يدي وقدمي؟
- ادخلي سيدتي فهذه شرائع ربة العالم الاسفل .
ولما مر بها عبر البوابة السابعة نزع عنها ثياب جسدها .
- لماذا يا حارس البوابة نزعت عن جسدي ثيابي؟
- ادخلي سيدتي فهذه شرائع ربة العالم الاسفل .
فلما صارت عشتار في قلب العالم الاسفل .
وقع عليها نظر اريشكيجال فاستعر غضبها .
ولكن عشتار اندفعت دونما تفكر نحوها .
ففتحت اريشكيجال فمها قائلة لوزيرها نمتار :
امض يا نمتار . اصعد بها قصري واغلق عليها هناك ،
ثم اطلق ضدها . اطلق ضد عشتار ستين علة .
ضد عينيها اطلق علل العيون .
ضد اضلاعها أطلق علل الاضلاع .
ضد اقدامها اطلق علل الاقدام،
ضد احشائها اطلق علل الاحشاء ،
ضد رأسها اطلق علل الرأس .
ضد كل اجزائها، ضد كل جسدها (فلتطلق العلل) .
«بعد ان هبطت السيدة عشتار الى ارض اللا عودة

. . . .

. . . .

اضطجع الرجل وحيداً في غرفته ، ونامت المرأة على جنبها وحيدة»*
«بابسوكال» وزير الالهة العظيمة
ارتدى وشاحاً، وشعراً طويلاً

* يفهم من ذلك ان الرجال والنساء قد تباعدوا جنسياً . فعشتار هي القوة الاخصابية الفاعلة في الانسان والنبات قد غابت عن الوجود وغابت معها كل مظاهر الاخصاب التي تعكسها في الحياة .

ومضى با كباً الى ابيه «سن»
وفاضت دموعه امام «ايا» الملك :
لقد مضت عشتار الى العالم الاسفل ولم تصعد ثانية
ومنذ ان غابت عشتار في العالم الاسفل
[. . . . .]
[. . . . .]
اضطجع الرجل وحيداً في غرفته ، ونامت المرأة على جنبها وحيدة .
[. . . . .]
قلب ايا الحكيم الامر على وجوهه فخطر له خاطر .
صنع «اصوشونامير» المخلوق الخصي (وقال له) :
امض يا اصوشونامير الى بوابة عالم اللا رجوع .
يمم شطرك يا اصوشونامير نحو بوابة عالم اللا رجوع .
وستفتح امامك بوابات ذلك العالم السبع ،
وتراك اريشكيجال وتبتهج لحضورك .
فاذا هدأت خواطرها نحوك واستقرت نفسها لك .
دعها تقسم بجميع الآلهة العظيمة .
ثم ارفع رأسك وحول نظرك الى قربة ماء الـ«حالزاكو»
قائلاً :*
سيدتي . هلا امرت لي بقربة ماء الحالزاكو فاشرب منها .
فلما سمعت اريشكيجال هذا القول**
ضربت حجرها (بكفيها) وعضت على اصابعها
لقد ابديت رغبة ما كان لك ان تبديها
والآن يا «صوشونامير» سألعنك لعنة عظيمة

* يبدو ان ايا قد صنع اصوشونامير وارسله ليغوي بجماله اريشكيجال . فان استمالها كان عليه ا ن يجعلها تقسم بأن تلبي له اي طلب . وعندما فعلت طلب منها قربة ماء الحياة بحجة الشرب ، ولكنه في الواقع كان يود ان يرش بها عشتار الميتة .
** على غير العادة فقد قام ناسخ النص بالاختصار . وجعلنا نقفز فوراً من تعليمات ايا الى تنفيذها من قبل لخصي .

فيكون طعامك من مجارير المدينة (ابد الدهر)
وترد بالوعات البلدة لاجل شرابك
من ظلال الحيطان تتخذ لك مسكناً (دون البيوت)
ومن عتبات الابواب ملجأ (وملاذاً)
عطشان لا تجد ما تتبلل به . فاذا وجدت تتفجر ولا ترتوي*
ثم التفتت الى وزيرها نمتار قائلة :
امض يا نمتار واقرع باب الـ(ايجالجينا)**
زين العتبة بحجر الـ«ايريتو»(!)
استدع الانوناكي ودعهم يجلسون على عروشهم الذهبية
ثم انضح عشتار بماء الحياة وخذها بعيداً عني***
فمضى نمتار وقرع باب الـ«ايجالجينا»
وزين العتبة بحجر الـ«ايريتو»
استدعى الانوناكي وجعلهم يجلسون على عروشهم الذهبية
ثم نضح عشتار بماء الحياة وأخذها بعيداً عن اريشكيجال
ولما مر بها عبر البوابة الاولى اعاد اليها ثياب جسدها .
ولما مر بها عبر البوابة الثانية اعاد الاساور الى يديها وقدميها
ولما مر بها عبر البوابة الثالثة اعاد الى وركها تعويذة الولادة المرصعة
ولما مر بها عبر البوابة الرابعة اعاد الى صدرها جميع الحلي .
ولما مر بها عبر البوابة الخامسة اعاد الى جيدها العقود .
ولما مر بها عبر البوابة السادسة اعاد الى اذنيها اقراطها .
ولما مر بها عبر البوابة السابعة اعاد الى رأسها التاج العظيم .
فان لم تعطه الفدية المقررة كان عليه ارجاعها من حيث اتت .
اما تموز زوجها الشاب ،
(فخذوه)**** واغسلوه بماء طهور وضمخوه بالعطور الطيبة

* قمت بالتصرف بترجمة هذا السطر.
** قصر العدالة في العالم الاسفل ومسكن الالهة .
*** كانت اريشكيجال مضطرة لذلك بعد أن اقسمت لاصوشانامير ان تلبي له اي رغبة يطلبها
**** الحديث هنا لاريشكيجال .

البسوه عباءة حمراء ودعوه يعزف نايه اللازوردي
ولتحط به كاهنات عشتار يهدئن من خواطره

ثم يلتقي الزوجان على سطح الارض مرة اخرى في المقطع الاخير لهذه الاسطورة . وهذا المقطع ما زال غامضاً رغم كماله وعدم وجود نقص او خرم في موضعه باللوح . وهو يشكل الاسطر العشرة الاخيرة من النص الذي ينتهي بالتذييل التالي :

قصر آشور بانيبال ، ملك العالم وآشور
الذي وهبه «نابو» و«تاشميتو» فهماً عظيماً

لقد هبطت انانا وحيدة درجات الموت السبع ثم عادت وحيدة منتصرة وقد حققت ولادة ذاتية وتجدداً فريداً بقواها الخاصة . مؤكدة بشكل رمزي طاقتها الاخصابية الكونية وماهيتها الابدية المتجددة في صراعها مع قوى الفناء والزوال . فانانا ليست خصيبة ولكنه الخصب . . انها جوهر هذه القوة الحافظة للحياة التي تقف ابداً في مقابل القوة الهادمة للحياة . انها الوجود في مقابل العدم ، وجود حركي دينامي يثبت نفسه ابداً ويحقق ذاته باستمرار في حركة جدلية دائبة . ثم هبطت ثانية تحت اسم عشتار لتنقذ تموز القتيل وتهبه من لدنها حياة . وصعدت به معها درجات الحياة السبع ليغدو صعودهما معاً نموذجاً يتطلع اليه الانسان ابداً لما يستطيع الهه الحامي ان يفعل من اجله ، وصورة للخلاص من ربقة الموت بمعونة الفادي الذي يقبل فيما بعد ان يذوق الموت ليهب من يؤمن به الحياة .

وفي كلا الهبوطين كانت عشتار مثالاً منهجياً للالهة الام . الام الكونية المخصبة بذاتها ، الغامرة بظلها الرحيب عالم الانسان بجنسيه . وفي كلا الهبوطين كانت صورة مستعادة ، في الضمير المبدع للاسطورة ، لخيال الام في عهود سحيقة عندما كانت مركز الجماعة ومنبع قيمها وجمالاتها ، وعندما كان الذكر تابعاً في مجتمع تتخذ فيه الام لا الاب دور القائد . لقد ارسل تموز في المرة الاولى الى الموت بناء على اوامرها ، ثم عاد في المرة الثانية بدافع من رغبتها العارمة في استعادته . وفي كلا الحالين كانت هي المرأة المسيطرة القوية ، المكتفية . وكان هو الذكر الضعيف المعتمد عليها اللائذ لاحضانها .

ان هبوط عشتار توكيد لحق الانوثة ودورها في مجتمع يتجه نحو «الابوية» المطلقة في كل مظاهره العامة المعلنة، ولكنه مع ذلك يحتوي في صميمه على تلك العناصر «الامومية» التي تؤكد نفسها بشكل لا شعوري في قالب من اكثر القوالب تعبيراً عن لا شعور الفرد والجماعة الا وهو الاسطورة. ان صراع عنصري الانوثة والذكورة في نفس الانسان، ذلك الصراع غير المعلن وغير المعترف به، وصراع العناصر الامومية والعناصر الابوية في المجتمع ذلك الصراع العفوي والتلقائي والذي يجري بمعزل عن تدخل الذوات الواعية، هما صراعان يعلنان عن نفسيهما في: هبوط عشتار للعالم الاسفل وجميع التكرارات الموازية في اساطير المنطقة التي سنأتي على دراستها في هذا الفصل.

وأود أن الفت النظر لخطأ شائع يقع فيه الكثيرون عندما يتحدثون عن الاله «تموز»، فيصفونه بأنه الحياة الزراعية المتجددة او الدورة الطبيعية السنوية. والواقع ان غياب الحياة عن الزراعة وجفاف الارض هو تعبير عن غياب القوة الاخصابية الواهبة للحياة والمتمثلة بانانا او عشتار، عندما بدأت رحلتها بعيداً عن هذا العالم مسلمة اياه لقوى الموت والجفاف. وفي اعتقادي ان الاله تموز لا يلعب في هذه المأساة إلا دوراً ثانوياً. فهو على اية حال راع، ونحن لا نستطيع ان نطلب من راع ان يلعب دوراً اكثر أهمية في مأساة محورها الزراعة. وفي الواقع ان الطقوس والعبادات التي سميت تموزية من قبل الباحثين خطأ هي طقوس وعبادات عشتارية. وليس النواح على تموز في مواسم اعياده الا مشاركة من العباد لعشتار في احزانها. ولا نستطيع والحالة هذه ان نطلق على تموز ـ كما جرى الاصطلاح العام ـ صفة اله الخصب الا مجازاً وكناية، ونوعاً من ايفائه حقه لمساهمته بنوع ما في اكمال المأساة. الا ان دور تموز الثانوي هذا لا يتدخل اطلاقاً في التقليل من شأنه في قلوب العباد بل على العكس تماماً. لقد كان تموز من احب الآلهة لدى الجماهير، فلقد تألم وعانى عذابات الموت كأنه بشر فان، ثم بعث من بين الاموات وصعد الى السماء في النهاية، كما نستدل على ذلك من اسطورة آدابا السابق ذكرها في فصل التكوين عندما التقى به هناك آدابا حيث بوابة السماء السابعة. وكان البكاء عليه في الشهر المدعو باسمه يتخذ شكلاً مأساوياً فاجعاً عندما تنفجر جماهير عباده في موجة هستيرية من التعبير عن الحزن والالم بلطم الخدود وتمزيق الثياب وايذاء الجسد بشتى الوسائل. والواقع ان هذا التعبير كان

يحمل في طياته نوعاً من افراغ الشحنات الانفعالية المكبوتة لجماهير ترزح تحت شتى أنواع الضغوط النفسية والاجتماعية. لقد كان تموز مشجباً نعلق عليه احزاننا سنوياً ونستريح.

٣ هبوط بعل الى العالم الأسفل

عندما ننتقل الى آرام وفينيقية يحصل تبدل طفيف على ادوار الابطال الرئيسيين في المأساة ولكن جوهرها يبقى واحداً. ففي اوغاريت يتكافأ تماماً في اسطورة الخصب ولدرجة مدهشة دورا الالهة الانثى الممثلة للقوة الاخصابية الكونية، والاله الذكر الذي يمثل هنا قوى لا غنى عنها للقوة الاولى، الا وهي قوى السحاب والمطر والندى مدعومة بقوة البرق والصاعقة والرعد. انه «بعل» او «حدد» او «ادون» وقرينته «عناة» (عستارت فيما بعد). فلأن قوى الخصوبة لا تستطيع أن تكون فاعلة دون مساعدة الامطار في الشتاء والندى في الصيف. كانت علاقة عناة ببعل علاقة وثقى لا تنفصم، وكان حبهما الابدي ووثاقهما الجسدي ضرورة لا غنى عنها للحياة الزراعية. ولقد غذى هذه الفكرة نوعية المناخ والاقليم في سورية حيث لا غنى عن الامطار للزراعة، وحيث لا تشكل الاراضي المروية بواسطة الأنهار الا نسْبة ضئيلة. على عكس وادي النيل ووادي الرافدين. وحيث معظم الاراضي هي ملك لبعل يسقيها كيف يشاء وعندما يشاء. ولا تزال الكلمة مستعملة في سورية حتى الآن عندما يقال (ارض بعل) بمعنى انها الارض التي تسقى بمياه الامطار. ولقد اشارت مقاطع معينة في نصوص اوغاريت دهشة المترجمين وتركتهم حيارى لا يستطيعون لها تفسيراً. فهناك اعمال معينة مرة يقوم بها بعل ومرة اخرى نجد عناة

نفسها هي التي تقوم بها في تشابه يكاد يكون حرفياً. ولكن العجب يزول اذا نحن نظرنا للعلاقة الوثقى بين الطرفين، تلك العلاقة التي تجعلني اميل شخصياً لاعتبارهما اقنومين بالمعنى المسيحي للكلمة، وانهما كانا في الفكر اللاهوتي السري اثنين في واحد. وكيف لا وهما المطر والخصب.

وبعل في الاسطورة الاوغاريتية ليس مغلوباً على امره كما كان تموز ولكنه قوي جبار تغلب على «يم» المياه الاولى كما رأينا في فصل التكوين ونظم احوال العالم. وخذلانه أمام اله العالم الاسفل كما سنرى فيما يلي لم يكن الا خذلاناً مؤقتاً. الا ان هذه الصورة لبعل تتلاشى فيما بعد وخصوصاً لدى فينيقيي الجنوب، فيغدو «ادون» او «ادوني» نسخة قريبة الشبه جداً من تموز، بينما يحتفظ «حدد» الارامي برموز سلطة بعل وقوته وهي البرق والصاعقة والرعد.

لم يكن «يم» هو العدو الاخير الذي يتصدى لبعل. فما زال امامه الكثير من الصعاب قبل أن يحقق انتصاراً مطلقاً وكاملاً، وما زالت هناك قوى تعاكس النظام الذي خلقه بعل بانتصاره على مياه العماء البدئية، وتقاوم الحياة الانسانية والنباتية التي ظهرت ببناء مملكته وتشييد بيته. وهذه القوى يمثلها الاله «موت» سيد العالم الاسفل. واذا كان انتصار بعل يمثل انتصار قوى الحضارة والبناء والنظام والخصب، فان «موت» ومملكته يمثلان الموت والجفاف والدمار والفوضى. و«موت» ضد الانسان يتبعه طيلة حياته لاقتناص روحه التي يحاول بعل كل جهده الحفاظ عليها باغداقه من الخيرات والثمار والامطار وبث الخصب في التربة المعطاء. وموت ضد النبات يرسل عليه الحرارة والجفاف فيذبل ويذوي، بعد ان بذل بعل غايته في حفظه وانمائه. وهو ضد النور والشمس والوضوح والحركة، ولذا فان عالمه هو عالم سفلي يسوده الظلام والصمت والسكون، في مقابل عالم بعل المليء بالفعالية والحركة والحياة. وسيكون على هاتين القوتين الكبيرتين ان تتصارعا طويلاً قبل ان يكتب لاحداهما الانتصار. وسيجد بعل نفسه في المعركة مراراً لا حصر لها، ففي كل سبع سنوات سينبري له «موت» ويتحداه فيسلم بعل نفسه له، ويهبط الى العالم الاسفل. ولكنه يعود منتصراً الى الحياة بعد معركة عنيفة بين بعل وعناة من جهة، وموت واتباعه من جهة ثانية، حيث تقوم عناة بقتل «موت» وتقطيعه ونشر جسده في الحقول، ويقوم بعل من جهته بالقضاء على بقية القوى

الموالية لموت. وبهذا الانتصار تنبعث الطبيعة من جديد وتعود الامطار لتروي الارض المجدبة، وترجع الحياة الزراعية سيرتها الاولى.

وهكذا نجد ان هذه الاسطورة لا تهدف بالدرجة الاولى الى تفسير الدورة الزراعية السنوية بل الى تفسير تناوب دوري الخصب والجفاف الذي يميز مناخ المنطقة، والذي ما نزال حتى الوقت الحاضر في سورية نعاني من آثاره. ويبدو ان هذا التناوب كان واضحاً في ارض كنعان قديماً لدرجة كان يمكن معها حصره في سبع سنوات خصيبة تليها فترة من القحط تطول او تقصر، ثم تعود الحالة سيرتها الاولى وهكذا.

تحدثنا النصوص ٥١ـ٦٧ـ٦٢ـ٤٩ من الواح اوغاريت عن قصة هذا الصراع التي تشكل حجر الاساس في اللاهوت الكنعاني. وهذه النصوص الى جانب ما تعانيه من نقص وتشويه جعل ترجمتها من اشق مهام علماء الاوغاريتية، فانها لم تصلنا في الاساس وفق تسلسل معين يعطينا صورة عن القصة كما ارادها كتابها، كما لم يمكن التوصل الى تسلسل يمكن الركون اليه باعتباره استعادة للتسلسل الاصلي كما اراده كهنة بعل ومدوني وحيه.

وسأقدم فيما يلي ترجمة لاكثر المقاطع وضوحاً في النص مع اعطاء ملخصات لما يجري في المقاطع المشوهة والناقصة اعتماداً على شذرات الاسطر الناقصة، وعلى المحكمة المنطقية لسير الاحداث.

بعد ان يستقر بعل فوق عرشه ويشرف على مملكته يبدأ أعداؤه بالتآمر ضده ويعلن «موت» باسمهم جميعاً[6]:

انا وحدي من سيحكم فوق جميع الآلهة
(أنا وحدي) من سيأمر الناس والآلهة
ويسيطر على جميع من في الارض

فيبعث بعل رسوليه «جوبارا» و«اوغار» للتفاوض مع «موت»:

قوما برفع الجبل على ايديكم.
والتل على أعالي رؤوس النخيل
واهبطا الى اقاصي الارض العميقة،

6 - C. H. Gordon, Ugarit, Norton Library, New York 1962.

حتى تصبحون مع من غادر هذه الارض.

ومن هناك يمما وجهيكما شطر (مدينة موت)

توجها الى مدينته «حمرى»

وارقبا العرش الذي يجلس عليه

[. . . . . ارض املاكه]

[. . . . . جنود حراسة الالهة]

ولا تقربا كثيراً من «موت» الاله

حتى لا يجعلكما الى فمه كما الحمل

ويسحقكما بين فكيه كما الولد الصغير

اقطعا آلاف الأميال

وعشرات ألوف الهكتارات

وعلى قدمي «موت» قفا واركعا

اسجدا له وعظماه

وقولا له «موت»

اعلنا للبطل حبيب الاله «ايل»

رسالة عليان بعل*

وكلمة علي المحارب:**

لقد بنيت بيتي من [الفضة]

وقصري من ذهب [. . . .]

ولا نعرف بقية نص الرسالة، ولكن يمكن الاستنتاج ان الإلهين لم يتفقا على التعايش بسلام، الامر الذي حدا بالاله «موت» الى تحريض بعض القوى الشريرة التي تنتمي الى عالم العماء المائي الذي زال وانقضى بزوال مملكة «يم» فيخرج التنين الهائل «لوتان» ذو الرؤوس السبعة لصراع بعل. ولكن الاله يقضي عليه ويسحقه بسهولة كما سحقه فيما بعد «يهوه» تحت اسم «لوياتان» في المزمور ٧٤ واماكن اخرى من العهد القديم. فيثور موت ثورة عظيمة ويدرك ان لا خلاص من بعل الا بالمواجهة الشخصية الحاسمة فيرسل له قائلاً:

---

* بعل العلي.

** وردت الصفة هنا في النص الاصلي على انها اسم علم.

لانك قتلت «لوتان» الحية الشريرة

لانك سحقت الحية الخبيثة

المظهمة ذات الرؤوس السبعة

فالسماوات [. . . . .]

[. . . . .]

يلي ذلك ثلاثون سطراً ناقصة نجد بعدها وصفاً مريعاً لموت وفمه الفاغر لابتلاع بعل:

فشفة في الارض

وشفة في السماء

واللسان بين النجوم.

ليدخل بعل في اعماق جوفه.

هابطاً اليه من فمه.

فتجف اشجار الزيتون،

وكل منتجات الارض،

وثمار جميع الاشجار.

خاف عليان بعل منه (وارتجف)

(نعم) لقد فزع منه راكب الغيوم:

اذهبا وقولا للاله موت

اعلنا للبطل حبيب الاله «ايل»

رسالة بعل العلي

وكلمة «علي» المحارب.

تحية لك يا «موت» الاله

عبدك أنا سأكون.

نعم عبد لك الى الابد.

وهكذا يقبل «بعل» مختاراً المضي الى عالم اللا رجوع. وقبل أن يسلم نفسه يولم وليمة لجمع من الالهة، ويأكل معهم ويشرب قبل أن يغادر الحياة. ثم تأتيه تعليمات «موت» لما يجب عليه القيام به:

عليك أن تأخذ معك غيومك

ورياحك وعواصفك وامطارك

وتأخذ معك اتباعك السبعة،

وخنازيرك الثمانية.

ومعك ايضاً «بدرية» ابنة النور.

ومعك «طلية» ابنة المطر

ثم توجه شطر جبل «كنكيني»

فارفع الجبل على يديك

والتل على اعالي رؤوس النخيل

واهبط الى اقاصي الارض العميقة

حتى تصبح مع من غادر هذه الارض

فيسرع بعل الى تنفيذ تعليمات «موت» ولكنه قبل هبوطه يقوم بمضاجعة عجلة سبع وسبعون مرة متوالية، فتحمل منه العجلة. ولا يتضح من النص طبيعة هذه العجلة وحقيقة دورها. فربما كانت هي الآلهة «عناة» في شكل تحولي من اشكالها، او ربما نابت الصفة عن الاسم في سياق النص. فنحن نعرف ان من صفات الاله ايل انه الثور ايل. وعلى هذا ربما كانت العجلة هنا هي العجلة عناة رغم اننا لا نجد للالهة صفة بهذا الاسم في نصوص اخرى. وبعد أن يضمن بعل لنفسه الاستمرار عن طريق الغلام الذي زرع بزرته في رحم العجلة ينزل الى اعماق العالم الاسفل. وهناك يستلب منه «موت» روحه ويرمي بجثته الى سطح الارض:

مات بعل العلي

هلك الامير سيد الارض

فقام «لطبان»* اله الرحمة

وتهاوى على مسند القدمين

ومنه خر واقعاً على الارض

وأخذ يحثو التراب على رأسه

ويمرغ نفسه في الاديم

صارخاً واحسرتاه، لقد هلك بعل، لقد مات ابن داغون** هائماً في الغابات

* من اسماء ايل سيد السماء وكبير الآلهة.

** داغون هو الاله والد بعل.

يلطم وجهه ويخمش وجنته بأظافره. فتجزع عناة لصراخ ايل وتعرف ان بعلها قد قضى نحبه، فتهيم مثله نادبة نائحة الى ان تعثر على الجثة التي لفظها موت من اعماقه:

فرفعته على كتفها

وصعدت به اعالي جبل صفون*

وهناك بكت عليه وقامت بدفنه

واضعة اياه في مقبرة آلهة الارض

ثم ذبحت سبعين رأساً من الجاموس

تقدمة لبعل العلي

وضحت بسبعين رأساً من الثيران

تقدمة لبعل العلي

وبعد أن تنتهي من مراسم الدفن وتقديم الاضاحي، تمضي عناة الى مقر ايل عند نبع النهرين، وتدخل عليه وهي تعرف ان زوجته «عشيرة» قد فرحت بموت بعل لان موته سيعطيها الفرصة لتنصيب احد اولادها مكانه. وتقول:

فلتفرح عشيرة ولتبتهج مع ابنائها.

لان عليان بعل قد قضى،

لان الامير سيد الارض قد هلك.

فصاح ايل الى «عشيرة» سيدة البحر:

اي عشيرة يا سيدة البحر اصغي الي،

ادفعي الي بأحد أبنائك فاجعل منه ملكاً

فأجابت عشيرة سيدة البحر قائلة:

فلنجعل ملكاً من يعرف كيف يحكم.

لنرفع (الى العرش) «اثتر» الملك المخيف

فيصعد «اثتر» الى اعالي جبل الشيخ ويجلس على عرش بعل. ولكنه لم يستطع ان يملأه فرأسه لم يصل قمة الكرسي، ولم تستند قدماه على مسند القدمين. فاعترف بعجزه عن سد الفراغ الذي خلفه الاله الكبير، ونزل راجعاً من

* جبل الأقرع.

حيث اتى. وفي هذه الاثناء يتضاعف حزن عناة على بعلها فتطلب من موت مراراً ان يرده لها ولكن عبثاً. مما يجعلها تقرر التصدي لموت ومواجهته وجهاً لوجه:

كقلب البقرة على عجلها،

وكقلب الشاة على حملها،

كذلك هو قلب عناة على بعل.

لقد امسكت بالاله موت،

بالسيف تقطعه،

وبالمذراة تذريه،

وبالنار تشويه

وبالطاحون تطحنه

وفي الحقل تدفنه

حتى لا تأكل لحمه الطيور

ولا تنهش جسمه الجوارح

بعد ذلك يرى الاله الاكبر ايل في نومه حلماً عجيباً، فيستفيق من نومه فرحاً مستبشراً:

في حلم «لطبان» اله الرحمة،

في رؤيا خالق الكائنات الحية:

كانت السماوات تقطر زيتاً،

والوديان تجري بالعسل.

فابتهج لطبان اله الرحمة،

واستقام على كرسيه واضعاً قدميه على المسند،

ضاحكاً من اعماق قلبه

ورفع صوته صائحاً:

دعوني الآن استقر واستريح،

وتهدأ نفسي بين ضلوعي،

لان عليان بعل حي

لان سيد الارض حي

وعندما تسمع عناة ذلك تهرع الى الحقول باحثة منقبة حتى تعثر على بعل

وهو يثأر بنفسه من اعداله. فيعودا معاً ويصعد عرشه من جديد وتعود له مملكته وحبيبته، ويحدثنا احد النصوص عن الغرام المستعر الذي عاد فربط بين الالهين:

[. . .] في توق شديد أمسك بفرجها

[. . . .] في توق شديد امسكت بقضيبه

[. . عليان] بعل قام بفعل الحب آلاف المرات

[. . الـ] عذراء عناة

الا ان الوضع لا يدوم على هذا المنوال

(وهكذا) من ايام الى شهور،

ومن شهور الى سنين.

ولكن في السنة السابعة

نهض الاله موت معلناً نفسه لعليان بعل.

رفع صوته وصاح:

أي بعل. بسببك أنت جللني العار

بسببك أنت قد ذقت السيف

بسببك أنت وردت النار

بسببك أنت عرفت حجر الطاحون

بسببك أنت عرفت. . . [. . .]

بسببك أنت عرفت [. . . .] في الحقول.

ومن جديد تعود القوتان الكونيتان للتصارع من جديد:

تشابكا كأنهما جاموسان

قوي موت، وقوي بعل

تصارعا كأنهما ثوران

قوي موت، وقوي بعل

تعاضا كأنهما ثعبانان

قوي موت، وقوي بعل

ترافسا كأنهما حيوانا سباق

قوي موت، وقوي بعل

وقع موت، ووقع بعل (فوقه)

ولكن هل تحسم هذه المعركة نهائياً الخلاف بين القوتين؟ كلا بالطبع فما دام هناك خصب وجفاف، حياة وموت، خير وشر، فان القوتين ستبقيان في كر وفر الى ان تحل المملكة البعلية نهائياً على الارض. فلا موت ولا مرض ولا قلق.

لقد نافست اذن القوة الفاعلة الحركية القوة المجردة الكونية المتعالية. وظهر الاله الابن الشاب كند للاب الشيخ ساكن السماء وخالق الاكوان. ولكنه ند بمعنى مختلف ومفهوم جديد فعظمته ليست مستمدة من قدرة الخلق، لانه في معظم الاحيان ليس على مستوى الخلق. بما تتطلبه هذه العملية من قوى جبارة وقدرات خاصة. كما انها ليست مستمدة من سلطانه على الناس والطبيعة والآلهة، لا ولا من بعده عن ذلك الانسان الصغير وهمومه الحياتية. بل ان عين عظمته في ضعفه وقربه لعواطف الانسان واحاسيسه وانفعالاته ومشاركته للبشر آلامهم ومصيرهم المحزن، ومحاولته تقديم الخلاص لهم. خلاصاً حياتياً كما رأينا في الاساطير الثلاث السابقة وخلاصاً روحياً كما سنرى في اساطير لاحقة. وعظمته ليست في خلود اصيل في طبيعته بل في قهره ولاول مرة سلطان الموت وانبعاثه من جديد قوة شابة مجسداً حلماً من احلام الانسان الاولى ورغبة من اكثر الرغبات الحاحاً عليه في حياته.

ولكن تصاعد قوة الابن وتزايدها لم يلغ من قوة الاب ولم يفت في عضده. وبقيت ديانات السماء وديانات الخصب فيْ تصارع لم ينته حتى في الديانة اليهودية التي تعد انتصاراً مؤزراً للاب. فرغم ان اليهودية قد استبعدت كل الآلهة من ارض العبرانيين، كان الشعب في كل مرة يحن لآلهة الخصب المجاورة فيعبدها ويقيم لها الرقم والتماثيل، وذلك الى ان جاءت المسيحية لتحل الاشكال، وتدخل الليونة والطراوة على شخصية الاله الاب. فظهر مجدداً الاله الابن وهبط الى البشر فعاش معهم وشاركهم خبزهم وعرقهم وموتهم. وهذا الصراع بين الاب والابن سيخلق في الديانات الشرقية اتجاهين كبيرين متمايزين سيعتمد الاول اله السماء الاكبر، بينما يلجأ الثاني للاله الابن وحبيبته او امه الارض او القوة الاخصابية الكبرى. وسأدعو الاتجاه الاول بالديانات الايلية نسبة الى ايل والاتجاه الثاني بالديانات البعلية نسبة الى بعل. ومن الغريب انه في الديانات «الايلية» احياناً كانت تظهر بعض الطقوس والعبادات السرية داخل الديانة نفسها تعطي للاله الاب وجهاً مختلفاً تماماً عما تعطيه له ديانته الرسمية المعلنة. فهو بموجب هذه الطقوس

ليس الهاً مطلقاً سامياً متعالياً، بل هو عينه ذلك الاله الميت الذي يهبط الى العالم الاسفل ويعود منتصراً على الموت. وهذه في الواقع اولى بوادر جمع وجهين للاله في وجه واحد وصفتين في صفة واحدة وكما سيعبر عنه فيما بعد بـ: اقنومين في واحد او ثلاثة في واحد. فقد وصلنا من حوالي ٢٠٠٠ قبل الميلاد لوح بابلي[7] كتبه كهان عبادة سرية متفرعة عن عبادة الاله الرسمي في بابل «مردوخ» الذي تابعنا مآثره البطولية في الانيوما ايليش، حيث قضى على تنين العماء البدئي وشكل من جسده السماء والارض وتابع بعد ذلك خلق الاكوان وتربع على عرش الالهة سيداً مطلقاً. ولكنه في هذا اللوح اشبه بالاله تموز لانه يموت ويندب العباد موته، ثم تذهب حبيبته للبحث عنه في العالم الاسفل. واخيراً يصعد من مرقده ظافراً ليحتفل الناس به ويسعدوا بعودته. وفي الواقع لا أجد ضرورة لترجمة النص لانه لا يقص الاسطورة ذاتها وانما يعطي تعليمات لممثلي الادوار في الطقوس المتعلقة بهذه الاسطورة وتمثيلها في اعياد رأس السنة من قبل اتباع هذه الديانة السرية، ويشرح المعنى السري لكل حركة في التمثيلية. وذلك في نفس الوقت الذي كانت تمثل فيه قصة انتصار مردوخ الاله المطلق وترسيخه دعائم الكون على انقاض العماء. وفي آخر هذا النص اورد كاتبه التذييل التالي: ان المعاني الخفية لهذه الافعال لا يجوز ان تقرأ من قبل اولئك الذين لم يدخلوا في هذه العبادة بشكل رسمي ووفق الطقوس المنصوصة.

---

7 - J.L. Henderson, The Wisdom Of The Serpent, Collier Books, Newyork 1971.

راجع أيضاً: س . هـ . هوك ديانة بابل وآشور، ترجمة نهاد خياطة، دار العربي دمشق ١٩٨٧ ص. ٩٥ - ٩٦ وص ١٧٣ - ١٩٠.

٤ | هجرة الإله الميت

تتنوع الاسطورة الواحدة بتنوع الزمان والمكان والناس. وبانتقالها من مكان الى مكان ومن زمان الى زمان، يضيف عليها ناقلوها أو يحذفون منها او يغيرون من تسلسل احداثها. ولكنها من حيث الجوهر تبقى واحدة لانها في الاصل تعبير عن دوافع دفينة واحدة وحاجات نفسية وعقلية واحدة. وهكذا انتقلت اسطورة الام الكبرى او الروح الاخصابية الكونية وحبيبها المفقود في سورية وارض الرافدين الى بقية انحاء العالم المتمدن القديم، ففي مصر نجد اسطورة ايزيس واوزوريس صورة طبق الاصل على مثيلتها في سورية وبابل. وفي آسيا الصغرى وفرجيا نجد سيبيل وآتيس، وفي بلاد الاغريق نجد افروديت وادونيس الذي احتفظ باسمه السوري «آدون» دون تغيير الا ما فرضته طبيعة التحوير اللغوي، كما نجد ديونيسوس وسيميلي. قصة واحدة ولكن الامكنة متعددة والازمنة متنوعة.

ادونيس وأفروديت[٨]

انتشرت عبادة بعل في جميع انحاء سورية وآسيا الصغرى وكان اسمه يسبق

8 - James Frazer, The Golden Bough, Macmillan, London 1971 (Ch. XXXI).

بلقب «آدون» وتعني السيد او الرب. وقد ناب هذا اللقب عن الاسم الاصلي وصار يعبد تحت اسم «ادون» او «ادوني» وخصوصاً لدى فينيقيي «بيبلوس» و«بانو» في قبرص وهما المدينتان الرئيسيتان اللتان ازدهرت فيهما عبادة هذا الاله. الا ان تحويراً وقع على اسطورة بعل هنا. فالرب لم يمت في صراعه مع «موت» وانما قام خنزير بري بافتراسه في غابات لبنان اثناء الصيد. أما حبيبته والبطلة الرئيسية في سير الاحداث، القوة الاخصابية الكونية فلم تعد «عناة» الأوغاريتية بل زميلتها «عستارت» التي ظهرت بدور ثانوي في ملحمة بعل. والواقع ان هاتين الالهتين هما اما اصل او انعكاس للالهتين «انانا» و«عشتار» في بلاد الرافدين. وكما كانت انانا وعشتار الهتان في واحدة، كذلك الامر فيما يتعلق بعناة وعستارت حيث الشخصية واحدة ولكن التسمية اختلفت تبعاً للمكان والزمان. وكما مضت عناة تبحث عن بعلها كذلك مضت عستارت تبحث عن ادوني الى ان اثمرت جهودها ونهض من بين الاموات على مرأى من عباده الذين قضوا فترة موته في ندب وعويل. وهكذا يمضي عباد آدون في كل ربيع عند فيضان نهر ابراهيم (نهر آدون سابقاً) بالبكاء ولطم الخدود والصدور على الاله الغائب، ويجري النهر الغاضب بمياه حمراء من جراء الاتربة التي تنجرف مع الثلوج الذائبة من المرتفعات، فيعتقدون ان دماء الاله القتيل هي التي اعطت للمياه صبغتها، كما اعطت لشقائق النعمان المتفتحة لونها. وفي اليوم التالي كانت تعم الاحتفالات بقيامه آدوني فيرفع الناس الحداد ويأخذون بالرقص والشراب والممارسات الجنسية التي من شأنها تقليد لقاء الاله والالهه والايحاء للتربة بالخصب والعطاء.

ولقد حمل الكنعانيون (الفينيقيون) في ترحالهم معهم آلهتهم، وكان آدوني من اشهر الآلهة المرتحلة. وصل الى اليونان حيث اغرم به الناس هناك وزوجوه «افروديت» الهة الحياة والجمال، والنسخة اليونانية عن انانا أو عشتار*. وأضافوا لاسمه حرف الـ«س» وفق ما هو معمول به في معظم الاسماء اليونانية فصار «ادونيس». وتحكي الاسطورة اليونانية قصة ادونيس السوري مع بعض التحوير في

* يتابع عالم السومريات السيد M. Allegro اسم «افروديتي» اليوناني حتى اصوله السومرية. فكلمة Aphrodite في رأيه ليست الا اشتقاقاً من المقطع السوميري A-Buru - Da - ti الذي يدل على بعض صفات الرحم وبالتالي على الرحم نفسه(9)

9 - J. Allegro. The Sacred Mushroom and The Cross. Abacus, Newyork 1974.

التفاصيل. فشجرة المر كانت في الماضي الهة شابة اغرمت بابيها وتاقت الى وصاله جنسياً مدفوعه الى ذلك بعاطفة جارفة زرعتها فيها الالهة افروديت انتقاماً لاساءة سابقة. وقد استطاعت بحيلة ما ان تشبع رغبتها من ابيها دون معرفته بمساعدة وصيفة لها. ولكن الاب ما لبث أن ادرك الخدعة وعرف ما فعلت به ابنته فاستل سيفه وجاء اليها ليغسل ذنبها بدمها. ولكن الفتاة صلت للآلهة وتضرعت اليهم بحرارة لانقاذها فاستجيب لها واخفيت عن انظار الاب بتحويلها الى شجرة. وبعد عشرة اشهر انفتحت شجرة المر ليخرج منها ادونيس الشاب الذي حملت به من ابيها، فلما وقع عليه بصر افروديت بهرها جماله الأخاذ وهامت به حباً فأودعته في صندوق حديدي وسلمته الى برسيفوني الهة العالم الاسفل لتخفيه عن انظار الالهة. ولكن برسيفوني بدورها تغرم به وترفض ارجاعه الى افروديت، وترفع الالهتان القضية الى كبير الآلهة «زوس» الذي قضى بأن يقسم ادونيس وقته في السنة الى ثلاثة اجزاء. فواحد لنفسه وآخر لبرسيفوني وثالث لافروديت. وبذلك كان ادونيس يهبط مدة اربعة اشهر في كل سنة الى العالم الاسفل ليعيش مع آلهته، ثم يغادر صاعداً الى الحياة ثمانية اشهر أخرى وهكذا دواليك. الى أن أساء في احدى المرات للالهة «ارتميس» ربة الغابات والصيد فأرسلت اليه خنزيراً برياً صرعه، ففاض دمه مضرجاً الورود بحمرة ازلية باقية.

«آتيس» و«سيبيل»:

من الآلهة الميتة التي ولدت في آسيا الغربية بتأثير تموز وبعل ثم ارتحلت غرباً. الاله آتيس الذي نشأت عبادته في فرجيا بآسيا الصغرى. وكان موته وبعثه موضع احتفالات ربيعية سنوية. ولهذا بلغ من تشابه هذا الاله مع آدونيس ان القدماء كانوا في كثير من الاحيان يطلقون عليهما الاسمين تبادلياً. كان آتيس راعياً شاباً غض الاهاب، وكان محبوباً للام الكبرى سيبيل احياناً وابناً لها احياناً أخرى. ويحكى عن مولده(10) ان امه «نانا» (واسمها يذكرنا أنانا السومرية) قد حملت به وهي عذراء. وذلك عن طريق احتضان غصن من شجرة اللوز (او الرمان). ولكن عنزة

10 - J. Frazer, The Golden Bongh, Macmillan, London 1971, Ch. XXXIX.

ارضعته حتى شب وكبر. ومن هنا جاءه الاسم آتيس اي التيس*. وتحكى عن وفاته روايتان. فتراه في الاولى ضحية لغدر خنزير بري تماماً كأدونيس، وفي الثانية ضحية لعمل عنيف قام به هو نحو ذاته. فتراه يخصي نفسه تحت شجرة صنوبر وينزف حتى يموت. وقد حذا حذوه في ذلك جميع كهان امه سيبيل الذين كانوا يفقدون ذكورتهم قبل الالتحاق بخدمة هذه الالهة.

وصل آتيس الى رومة حوالي سنة ٢٠٠ قبل الميلاد بعد دخول عبادة الآلهة الام اليها. وقد مضى الى مدينة «بيسينوس» في فرجيا ـ وهي المقر الرئيسي لعبادة سيبيل ـ سفراء دينيون واحضروا الى رومة الحجر الاسود المقدس الذي يرمز للآلهة العظيمة. وبذلك تكون عبادتها قد انتقلت رسمياً الى الغرب حيث استقبلت بحماس منقطع النظير، مبرهنة على ان الشرق الذي فشل في غزوه العسكري حوالي ذلك التاريخ عقب تراجع جيوش «هانيبعل» القرطاجني، لم تعوزه الحيلة لغزو من نوع آخر أمر وأدهى ألا وهو الغزو الروحي.

وقد وصلت الينا صورة حية عن احتفالات الربيع الخاصة بسيبيل وآتيس كما كانت تجري في رومة. ولا شك ان هذه الاحتفالات هي صورة عن الاحتفالات والطقوس التي كانت تقام في آسيا الغربية. ففي اليوم الثاني من آذار تبدأ الطقوس باقتطاع غصن كبير من شجرة الصنوبر، ثم يغطى بازهار البنفسج التي يقال بأن دماء الاله الميت هي التي اعطتها لونها، ويحمل من قبل ثلة من الكهان وقد ربطت اليه صورة لرجل شاب هو آتيس، ويسيرون به طوافاً في الشوارع. الا ان الاحتفالات لسوء الحظ لا تحافظ على هذا الطابع الهادىء. ففي اليوم الثالث ـ ويدعى يوم الدم ـ يبدأ كبير الكهنة بالطقوس الدامية فيجرح ذراعه ويخرج منها الدم كالنافورة قرباناً للآلهة ويأخذ العازفون بعزف الموسيقى المجنونة بواسطة الابواق والمزامير والصنوج والطبول، ويروح بقية الكهنة في رقص عنيف وحركات هائجة على ايقاع الموسيقى الى ان تستبد بهم النشوة الدينية الجامحة فيأخذون بتجريح أنفسهم بالآلات الحادة فتبعث منها الدماء وتغطي المذبح والغصن المقدس. وهنا يقوم

* كان التيس من اولى الحيوانات المقدسة لدى الانسان. ونظر اليه في احيان كثيرة على انه روح النبات وذلك ربما للدور الذي لعبه في الماضي البعيد عندما كان المزارع ينثر حبات القمح في الارض ثم يتحرك قطيع الماعز ليذرع الحقل جيئة وذهاباً فوق الحبوب المنثورة مما يدفعها الى اسفل التربة.

الكهنة المبتدلون بالخصاء انفسهم ورمي قضبانهم المفصولة تحت قدمي تمثال الاله المنتصب. وربما قام اخرون من المتعبدين المشاركين بالاحتفالات بنفس الفعل في نوبة هستيرية من الوجد والانجذاب فيقوم الواحد منهم باخصاء نفسه ويركض في شوارع المدينة نازفاً متألماً لا يلوي على شيء. كل هذه الافعال تهدف الى اظهار الحزن على الاله الغائب وحث له على الرجوع من العالم الاسفل. وما أن يحل المساء حتى ينقلب جزع المتعبدين فرحاً وحزنهم بشراً. فلقد فتح باب القبر ونهض الاله من بين الاموات. وفي صباح يوم ٢٢ آذار تنفجر الجموع في فرح جنوني في شوارع رومة في كرنفال صاخب، حيث يفعل كل امرىء ما يحلو له في يوم سنوي مشهود. ومن الجدير بالملاحظة ان توقيت هذه الاحتفالات بقيامة آتيس يقارب توقيت الاحتفالات المسيحية بالجمعة الحزينة يوم موت السيد المسيح ويوم الفصح حيث قام من بين الاموات. وسنعود الى هذه النقطة في مكان آخر من هذا الفصل.

ديونيسيوس: [11]

اذا كان آتيس وأدونيس قد جاءا الى العالم الهيليني من الشرق فان آلهة اخرى قد ولدت غربية هيلينية ولكن بروح شرقية وبتأثيرات سورية وبابلية. من هذه الآلهة ديونيسيوس. وهو اله ابن يهبط الى الارض ويموت ميتة شنيعة ثم يبعث من جديد ويصعد الى السماء ليحكم في مملكة ابيه. قام زوس كبير آلهة الاوليمب بزيارة الالهة بيرسفوني وهو في هيئة الافعى فضاجعها وانسحب فحملت منه وولدت الاله «زاغروس» او «ديونيسيوس» الذي اعتلى عرش ابيه وهو طفل صغير. وكانت الولادة في كهف صغير كانت ديمتر قد خبأت فيها ابنتها بيرسيفوني. ويظهر لنا نحت بارز من العصر المتأخر شكلاً واضحاً للكهف حيث ولد الاله الطفل وصورة للمهد الذي وضعته في امه. وهذه الولادة تحضر في اذهاننا صورة ولادة المسيح في المغارة الصغيرة.

غير ان «هيرا» زوجة زوس قد أكلتها الغيرة لاعتلاء احد ابناء زوس لامرأة أخرى عرش ابيه فقامت بتحريض التيتان، وهم قوم متوحشون من آلهة الدرجة

11 - F. Guirand. Greek Mythology. Hamlyn London 1963

الثانية كانوا في خصام مع زوس، على قتل الطفل. فهاجموه محاولين تمزيقه. ولكن الاله كان يغير من شكله هرباً بنفسه منهم. فصار اسداً فحصاناً فأفعى ولكن دون جدوى لان التيتان قد نالوا منه اخيراً وهو في صورة الثور. فقتلوه وقطعوا جسده سبع قطع اكلوها جميعاً. ولم تجد محاولة زوس لانقاذ ابنه لان التيتان كانوا قد اتوا عليه قبل أن يصلهم برق كبير الالهة ويحيلهم الى رماد. وكانت الالهة «اثينا» حاضرة على مقربة من المأدبة فقامت بانقاذ قلب ديونيسيوس واسلمته لابيه. وكان زوس في تلك الاثناء على علاقة بـ«سيميلي» يزورها بهيئة عادية وينام معها تاركاً وراءه البرق والصواعق وكل رموز سلطته وجبروته. فصنع من قلب ابنه شراباً دفع به الى سيميلي لتشربه فحملت بديونيسيوس مرة أخرى. ولكن هيرا لم تكن لتترك الاله الطفل يلد مرة أخرى، فتنكرت في زي وصيفة وحرضت سيميلي على ان تطلب من زوس ان يتجلى امامها على صورته الحقيقية كما يفعل امام زوجتة هيرا. فلما استجاب لها صعقها البرق وهبطت الى العالم الاسفل ولكن زوس استطاع أن ينقذ من بطنها الطفل الذي لم يصل بعد مرحلة النمو الكامل. ثم قام بشق فخذه وزرعه فيه وخاط عليه تاركاً اياه ليستكمل نموه. وعندما آن اوان ولادته فتح ساقه واستخرجه طفلاً تاماً مكتملاً.

ولكن الاله الذي لم يـر امه سيميلي هبط الى العالم الاسفل باحثاً عنها وكان بحاجة الى مرشد ودليل. غير ان المساعدة لم تقدم له الا بشرط واحد، وهو ان يخضع لفعل جنسي خضوعاً انثوياً كاملاً. فقام ديونيسيوس بصنع قضيب من غصن شجر التين وأولجه في استه. وقد اعتبر هذا الفعل رمزاً للخضوع المطلوب قدمت على اثره له المعونة المطلوبة وعاد بأمه من العالم الاسفل واصعدها الى السماء[12] بقي أن نقول أن التيتانِ بعد ان صعقهم زوس ببرقه وتحولوا الى رماد، قد قام من رمادهم الجنس البشري.

وفي الاحتفالات الدينية الربيعية بديونيسيوس، كان يجري تمثيل عذابات الاله الميت في لحظاته الاخيرة بدقائقها مصحوباً بالاناشيد الحزينة والموسيقى. ثم يؤتى بثور يمثل الاله القتيل الذي التهمه التيتان وهو على هذه الصورة فيمزقونه ويلتهمون لحمه ويشربون دمه على اصوات الموسيقى المجنونة، معبرين بذلك رمزياً عن رغبتهم في الاتحاد بالاله القتيل بواسطة أكل جسده وشرب دمه. تماماً

12 - J. L. Henderson, The Wisdom of The Jerpent, Cllier Books, New York 1971.

كما علمنا السيد المسيح، فيما بعد. نقرأ في العهد الجديد، من الاصحاح ٣٦: «وفيما هم يأكلون اخذ يسوع الخبز وبارك وكسر واعطى التلاميذ وقال خذوا كلوا هذا جسـدي هذا هو جسـدي. واخذ الكأس وشكر واعطاهم قائلاً اشربوا منها كلكم. لان هذا هو دمي الـذي للعهـد الجديد الذي يسفك من اجل الكثيرين لمغفرة الخطايا». وبعد تناول القربان كانت الطقوس تستمر فيجري تمثيل ولادة ديونيسيوس الثانية وبعثه من بين الاموات. وبالاضافة الى الثور فان ديونيسيوس كان يمثل بشكل التيس او الجدي تماماً كالاله آتيس. ولذا فان الجدي كان في احيان اخـرى هو الضحية التي تؤكـل ويشرب دمها كرمز للاله القتيل، وكان الراقصون يرتدون ثياباً من جلد الماعز في احتفالاتهم تلك.

وتدعى الديونوسيسية احياناً بالاورفية نسبة الى اورفيسوس وهو الرجل الذي اوجدها. ولا نستطيع البت في حقيقة وجود هذا الشخص لان الاساطير والخوارق قد غللت حياته وسيرته شأنه في ذلك شأن بوذا وآخرين من مؤسسي الديانات الكبرى.

ديمتر وبيرسيفوني: [13]

من الاسـاطير اليونـانية الاخـرى ذات المـادة الشرقية والحياكة الهيلينية، اسطورة «ديمتر» الام اليونانية الكبرى وربة القمح والمحاصيل وابنتها بيرسيفوني. فبينما كانت بيرسيفوني تجمع الازهار من الحقول انشقت الارض فجأة وظهر من باطنها «هاديس» اله العالم الاسفل في عربته الذهبية فاختطفها واخذها معه الى مملكته السفلى زوجة له وملكة. ولما طال غيابها ارتاعت الام ديمتر وراحت تذرع الارض بحثاً عن ابنتها المفقودة ولكن دون جدوى. وما لبثت ان علمت ان زوس قد اعطى بيرسيفوني لاخيه هاديس هدية. فراحت تهيم على وجهها دونما هدف ولا غاية الى ان تعاظم حقدها وغلبها الحنين لابنتها، فراحت في عمل استفزازي لآلهة الاوليمب ترسـل الامراض والاوبئة على بني البشر، ومنعت عن الارض شجرها ومحـاصيلهـا. فجزع زوس لعملها هذا وارسل الآلهة واحداً بعد الآخر لاقناعها بالتوقف عن فعلها ورد غضبها ولكن عبثاً. فما كان منه سوى ان اقنع هاديس بأن يحرر بيرسيفوني ولكن بعد فوات الاوان وبعد أن جعلوها تأكل من نبات معين يجعل

13 - J. Frazer, The Golden Bough Macmillan London 1971, Ch. Xliv

صاحبه يعود الى العالم الاسفل ان هو خرج منه ثلاثة اشهر كل عام. فرحت ديمتر بلقاء ابنتها وكفت بلواها عن البشر وافرجت عن روح الخصوبة المحتجزة، فعادت الارض سيرتها الاولى ولكن الى حين، لان بيرسفوني ستعود ثانية الى العالم الاسفل. وفي كل سنة ستحزن الام على فقد ابنتها وستجف لحزنها المزروعات وتحجب الارض غلالها.

وقد عاشت ديمتر حية في قلوب عبادها فترة طويلة جداً بعد تحول اوروبا الى المسيحية فاتخذت في مدينة ايلوسيس موطن عبادتها الاساسي اسم القديسة ديمترا وبقي تمثالها هناك معززاً مكرماً حتى عام ١٨١٠ عندما حمله الى لندن رجلان انكليزيان وقدماه للمتحف البريطاني. ومنذ ذلك الحين وأهل ايلوسيس يعزون جدب الارض وشح المحاصيل الى غياب تمثال القديسة عن المنطقة.

ايزيس واوزوريس: [١٤]

وفي اتجاه آخر ارتحل الاله الميت نحو الجنوب الى مصر فتحدثنا اسطورة ايزيس واوزوريس عن ولادة اوزوريس وموته وبعثه. ووفق هذه الاسطورة نجد الاله اوزوريس بطلاً حضرياً يعلم المصريين الزراعة والحصاد والاعمال اليدوية النافعة، تساعده في ذلك اخته وزوجته ايزيس. وفي احدى المرات قام اخوه الاله «سيت» او «طيفون» بحيلة خبيثة جعلته سجين صندوق خشبي. فسمر عليه وقذفه في مياه النيل فطاف الصندوق حتى صب مع مياه النهر في البحر المتوسط وهناك تدافعته الامواج حتى وصل الى مدينة بيبلوس الكنعانية حيث علق باحدى اشجار الشاطىء الوارفة. وقد راحت ايزيس تبحث في جميع الانحاء عن حبيبها الضائع الى ان وجدته فعادت بالصندوق والجثة الى بلدها لتعيد له الحياة. ولكن «سيت» عثر على الصندوق فقام بتقطيع جسد اوزوريس، ووزع القطع في جميع انحاء البلاد حتى يصبح من المستحيل اعادة الحياة اليها مرة ثانية. ولكن ايزيس بدون يأس تابعت البحث مرة أخرى الى ان وجدت الاجزاء جميعاً عدا عضو الذكورة الذي بقي مفقوداً. ثم اعادت له الحياة بمعونة اختها الالهة «نفتيس».

وتشابه طقوس اوزوريس طقوس الآلهة الميتة الاخرى من بكاء على الاله وتمثيل لعذاباته ومن ثم الفرح ببعثه وانتصاره على الموت. وقد رحل اوزوريس الى رومة تحت اسم «سارابيس» وشاعت عبادته هناك شيوعاً عظيماً.

14 - ibid, Ch. XXXIX.

٥ الإله المخلص

ان تاريخ الدين والاسطورة هو تاريخ صراع الذات مع الموت. ففي المراحل الاولى كانت الذات مسحوقة تجاه الموت، والعالم الأسفل مسيطراً جباراً لا مهرب منه ولا فكاك من اسره الابدي. وكان هم الاله الميت أن يحفظ البشر أحياء طيلة الفترة المقررة لهم في العالم الفاني. لذلك كان هذا الاله في مراحله الاولى اله خصب وقوى طبيعية، تنحصر جهوده في دعم الانسان في صراعه مع الجوع والفناء، دون أن يكون قادراً على تحريره من ربقة الموت ومنحه خلوداً ابدياً حقيقياً. الا ان حياته وموته وبعثه كانت أموراً موحية بأمل غامض وبعيد بامكانية الخلاص من سيطرة الموت كما تخلص منها اله الخصب. فكان تعلق قلوب العباد بهذا المخلص الحياتي، تعبيراً عن النزوع الانساني الابدي نحو الخلود. ولم يكن ظهوره في ضمير البشر الا مظهراً من مظاهر صراع الظاهرتين الكونيتين في داخل الانسان وخارجه، صراع الموت والحياة.

ونستطيع القول ان نمو الديانات البعلية (ديانات الخصب) واكتسابها غلبة شعبية على الديانات الايلية (ديانات الآلهة السماوية البعيدة) هو حالة تالية في تطور الدين والاسطورة، وحالة وسط تحتوي على شيء من التوازن بين الحياة والموت.

أما المرحلة الثالثة فتمثل عن حق مرحلة انتصار الحياة على الموت في الدين والاسطورة. فما حصل لاله الخصب مرة سيحصل لكل عباده المخلصين ممن سيدخلون في ديانته، ويلتحقون به من دون بقية الآلهة. قال السيد المسيح «من آمن بي وان مات فسيحيا». وتحولت ديانة الخصب الى ديانة سرية وتحول مخلصها الارضي الحياتي الى مخلص روحي، باسطاً سيطرته من عالم الحياة الى عالم الموت ايضاً. مقدماً لعباده خلاصاً لروحهم من سطوة العالم الاسفل. وبعد أن كان الفرد حراً في الماضي في اختيار الآلهة التي يعبدها ويكرس لها طاعته، وحراً في التنقل من آله لآخر كلما حلا له ذلك، فقد اصبحت الآن الجماهير المسحوقة التي ضاقت ذرعاً بالبهارج الزائفة للتطور المادي، ترنو للالتصاق باله اقرب الى طينة البشر والصق بعواطفهم واعلم ببواطن امورهم، اله لا يعيش في السماء ويرنو من علٍ ممثلاً كمال الاشياء، بل يعيش بين الناس ويعاني مثل ما يعانون. ثم انه يموت كما يموتون، ولكنه يصعد من عالم الموتى ويصعد معه عباده المؤمنين الملتصقين به، المتحدين معه، واهباً الخلاص الروحي لاولئك الذين اختاروه عن قصد ورغبة ومروا عبر جميع الطقوس السرية الادخالية اللازمة للانتماء للجماعة والاتحاد بالاله. ولقد بلغ الانتصار على الموت قمته في المسيحية التي اعطت الانسان بعثاً كاملاً غير منقوص، حيث يعود الجسد سيرته الاولى بكل تفاصيله واجزائه.

شاعت ديانات الاسرار شيوعاً عظيماً عقب فتح الاسكندر الكبير للشرق وتأسيس الدولة العالمية التي ضمت معظم الحضارات القديمة.

وبلغت أوجها في عهد الامبراطورية الرومانية التي كانت تمثيلاً وتجسيداً لانتصار الحضارة المادية التي لا تبنى الا على اشلاء الحرية الفردية، وسيطرة الدولة بكافة اجهزتها القمعية. وقد تماثلت هذه الديانات وتشابهت لدرجة اصبح معها من الصعب تفريق واحدة من الاخرى وارجاع العناصر الخاصة بكل منها الى اصولها. واهم ما يميز الديانة السرية كونها تضم مجتمعاً منغلقاً على ذاته لا يدخله الا الافراد الراغبون عن حق في الانخراط بهذه العبادة. عند ذلك سيمر المنتسب الجديد عبر مجموعة من الطقوس الادخالية من شأنها تهيئته جسدياً وروحياً وتطهيره من ادران حياته السابقة وخلقه من جديد.

من جملة هذه الطقوس الاعتراف بين يدي كاهن الديانة بالخطايا الماضيات، والتعميد بالماء، والصيام. وفي بعض الاحيان كان يوضع المنتسب

الجديد في حفرة ثم يذبح عند فوهتها ثور ينسال دمه مدراراً الى داخل الحفرة حيث يغتسل به ويأخذ بعضه في فمه ثم يخرج وقد غسل ماضيه.

وفي ديانة «ميثرا» وهو الاله الذي جلبه معهم جنود روما من فارس وشاعت عبادته شيوعاً عظيماً في ارجاء الامبراطورية، نجد مجموعة من الاختبارات التي يتعرض لها المنتسب الجديد. منها المرور عبر نار متأججة والسباحة في تيارات مائية والقفز من اعلى جرف خطر. وما الى ذلك. ونستطيع ان نتخيل ان مثل هذه الاختبارات كانت حقيقية ولكنها استبدلت تدريجياً بأفعال رمزية تدل عليها. وبعد اجتياز هذه الاختبارات بنجاح لا يصبح العضو الجديد ضمن الجماعة مباشرة بل لا بد له من المرور بثلاث مراحل تستغرق فترة من الزمن يمتحن خلالها تطوره الروحي.

والواقع لقد بقيت عبادات وطقوس الديانات السرية خفية. وباستثناء الاعياد الربيعية السنوية التي سبق تفصيلها، لا نكاد نعرف الا القليل عما كان يجري بالفعل. من هذا القليل الذي نعرفه ان معظم هذه الديانات كانت تمارس نوعاً من العشاء السري حيث يؤتى بحيوان هو رمز الاله الميت فيقتل ويؤكل لحمه ويشرب دمه كفعل رمزي للاتحاد الحقيقي بالاله. وفي غير هذه المناسبة فان قتل هذا الحيوان واكله يحرم تحريماً باتاً. كما هو شأن حيوان الخنزير المحرم أكله لدى السوريين من عباد ادونيس الا في طقس العشاء السري. ولدى المصريين ايضاً الا خلال الطقوس المشابهة الخاصة باوزوريس. وقد تبنى اليهود هذا التحريم اقتداء باسيادهم المصريين وجيرانهم السوريين دونما سبب واضح.

٦ | السيد المسيح
« آخر المخلصين »

في هذا الجو الثقافي المشبع بديانات الاسرار وجيش الآلهة المخلصين ظهرت المسيحية الى الوجود. وكان الاتباع الاول للسيد المسيح هم قلة من اليهود المشبعين بالافكار المهدية التي كانت من القوة في تلك الآونة بين جماعة اليهود لدرجة كان معها ظهور المهدي المنتظر أو المسيح المرتقب متوقعاً في اي لحظة وساعة، لينقذ الشعب من اضطهاد الرومان ويبني ملكوت الرب في الارض. ولم يعتقد هؤلاء في البداية بأنهم انما ينتسبون لدين جديد بل نظروا لانفسهم دوماً على انهم فرقة متميزة في الدين اليهودي القديم. ورغم ان المسيح قد خيب آمال الكثيرين في ذلك الوقت عندما ترك نفسه للصلب والموت، فان من بقوا على ايمانهم، رأوا أن المسيح قد غادرهم لان الناس ليسوا بعد على مرحلة تؤهلهم للدخول في ملكوت الرب وان عليهم ان يتطهروا قبل ان يعود المسيح اليهم مرة ثانية.

الا ان المسيحية لم تحافظ على وضعها هذا باعتبارها فرقة يهودية صغيرة لاسباب متعددة:

فأولاً: لم يتحول للايمان الجديد سوى قلة من اليهود. وثانياً: تأخرت عودة المسيح الى درجة كبيرة: ثالثاً: تدمير مدينة اورشليم اثر ثورة مسلحة قام بها اليهود

على الرومان وتم بذلك توجيه ضربة قاضية لآمالهم القومية. اخيراً: فقد اثبتت تعاليم السيد المسيح انها اشمل وأوسع من التفسيرات اليهودية الضيقة. فبدأت بالانتشار في الاصقاع المجاورة والبعيدة. وقد انتشرت المسيحية أولاً لدى بعض افراد الجاليات اليهودية في اصقاع الامبراطورية الرومانية، ولكنها ما لبثت ان انتقلت الى افراد من غير اليهود وأخذت تشكل تدريجياً ديناً قائماً بذاته منفصلاً عن اليهودية. وقد ساعدت تعاليم بولص الرسول الى حد كبير في تدعيم هذا الانفصال فكان يؤكد دوماً على ان الخلاص سيأتي عن طريق الايمان بالسيد المسيح بالدرجة الاولى لا عن اتباع ما تقول به الشريعة اليهودية. وهكذا، وبدخول الغرباء الى المسيحية اخذت المسيحية تغدو غريبة عن اليهودية. ولما كان هؤلاء الغرباء بعيدين كل البعد عن فكرة المهدي أو المسيح المنتظر الذي ينقذ شعبه من الاضطهاد ويعيد بناء أمجاده، فقد قاموا بصياغة فكرتهم الخاصة عن المسيح وطبيعته ودوره. ولان معظم من دخلوا في الدين الجديد كانوا اتباعاً لديانات سرية. ولان الجوهر العام لهذه الديانات هو المسيطر على افئدة الناس في تلك الآونة. ولأن الرسل الاوائل ارادوا اجتذاب الجماهير باسلوب يألفونه وصيغ اعتادوا عليها. لهذا كله فقد نحت المسيحية منحى الديانات السرية وتبنت كل ما استطاعت ان تتبناه وما يتلاءم معها من طقوسها ومعتقداتها. فتحول المسيح من مبشر يهودي الى اله ميت. وهو كمن سبقه من الآلهة المخلصة اله ابن يلد من عذراء ويبشر برسالة جديدة ثم يعاني ويتألم ويموت. ولكنه يتغلب على الموت ويصعد منتصراً من عالم الاموات حاملاً الخلاص والحياة الابدية لمن آمن به. ولكن خلاص المسيحي لا يعتمد على الاتحاد الجسدي بالاله عبر مجموعة من الطقوس، كما هو الامر في الديانات السرية، بمقدار ما يعتمد على الحياة الاخلاقية القويمة.

وقد كافح الدين الجديد كفاحاً مريراً ضد الديانات الرسمية للامبراطورية ولكن كفاحه الاقوى والامر كان كفاحاً صامتاً لا عراك فيه ولا دماء ضد الديانات السرية. ولعل اقوى تلك الديانات التي نازعت المسيحية فترة طويلة من الزمن على الفوز بقلوب الناس كانت ديانة «مثيرا» الشديدة الشبه بالمسيحية والواسعة الانتشار في شتى انحاء الامبراطورية الرومانية. وهذا التشابه الغريب بين الديانتين اذهل المسيحيين انفسهم فاعتبروه من صنع شيطان رجيم. وكان الميثرويون يتهمون المسيحيين باقتفاء اثرهم واقتباس معتقداتهم، والمسيحيون بدورهم يردون الاتهام

بمثله. ولعل اثراً من اثار ذلك العراك الطويل ما زال ماثلاً حتى ايامنا هذه. فالعالم المسيحي ومن ورائه العالم الحديث الذي يتبع في تاريخه التقويم المسيحي، يحتفل بميلاد المسيح يوم ٢٥ كانون الاول وهو يوم الانقلاب الشتوي حيث تصل الشمس الى آخر مدى لها في الميلان عن كبد السماء، وحيث يصل النهار آخر أشواطه في القصر ويبدأ بعد ذلك بالامتداد على حساب الليل. فهذا اليوم بالذات اعتبر دوماً في الديانات الشمسية عيد ميلاد للشمس فيه تتجدد قوتها وتستعيد عزمها لمقارعة قوى الظلام. وقد اقترنت عبادة ادونيس في سورية واوزوريس في مصر في فترات متأخرة بالشمس فيحدثنا السيد J. Frazer في كتابه The golden Bough [15] ان السوريين ليلة ٢٥ كانون الاول يحتفلون بمولد ادونيس فيجتمعون في المعابد ويصرخون عند منتصف الليل: «لقد انجبت العذراء ابناً. والنور ينتشر». والمقصود بالعذراء طبعاً هو آلهة الشرق الكبرى عشتار او عستارت التي يدعوها الساميون بالسيدة السماوية أو ملكة السماوات. فالعذراء لقبها والعذرية جوهرها رغم كونها آلهة الحب. لانها معطاء دون أن تنقص.

ويوم ٢٥ كانون اول هو بالذات عيد ميلاد «مثيرا» فهو اله الضوء والخير والشمس رمزه، الشمس التي لا تقهر والتي تبدأ في هذا اليوم بالصعود الى كبد السماء دافعة قوى الشر والظلام امامها.

أما فيما يتعلق بميلاد المسيح فان الاناجيل لم تذكر تاريخاً محدداً له، ولذلك فان الكنيسة الاولى لم تحتفل بميلاده. ولكن لسبب ما بدأ مسيحيو مصر يحتفلون بميلاد المسيح يوم ٦ كانون الثاني. وانتشرت هذه العادة حتى عمت في ابان القرن الثالث للميلاد كافة الاصقاع الشرقية للامبراطورية الرومانية. ولكن مع نهاية القرن الثالث قامت الكنيسة الغربية التي لم تحتفل حتى ذلك التاريخ بميلاد المسيح، بتبني يوم ٢٥ كانون الاول تاريخاً رسمياً لعيد الميلاد وتبعتها في ذلك الكنيسة الشرقية وجرى الاحتفاظ بيوم السادس من كانون الثاني على انه «عيد الغطاس». ان تبني الكنيسة لهذا التاريخ بالذات لا يمكن تفسيره الا على ضوء صراعها مع الديانة الميثروية، والتكتيك الذي اتبعته في صراعها مع الديانات القائمة في ذلك الوقت.

15 - J. Frazar, The Golden Bough, Macmillan, London 1971, P 416.

ولعل عيد الفصح يعطينا مثلاً آخر على تبني المسيحية للمناسبات والاعياد الخاصة بديانات الاسرار. فعيد الفصح هو عيد قيامة المسيح من بين الاموات بعد ان عانى ما عاناه في يوم الجمعة الحزينة على درب الآلام. وقد تبنت الكنيسة يوم ٢٥ آذار عيداً للفصح، وبذلك يكون بعث السيد المسيح هو بعث ربيعي، شأنه في ذلك شأن آلهة الخصب القديمة والمخلصين الاوائل وخصوصاً ادونيس وآليس الذي كان يحتفل عباده بقيامته فيما بين يوم ٢٤ و٢٥ آذار.

وبعيداً عن هذين العيدين الرئيسيين فاننا نجد اعياداً وثنية اخرى قد حورت واسبغت عليها الصفة المسيحية، فعيد الالهة ديانا قد اصبح عيد صعود السيدة العذراء. وعيد الاموات قد اصبح عيد جميع القديسين، والامثلة على ذلك كثيرة..

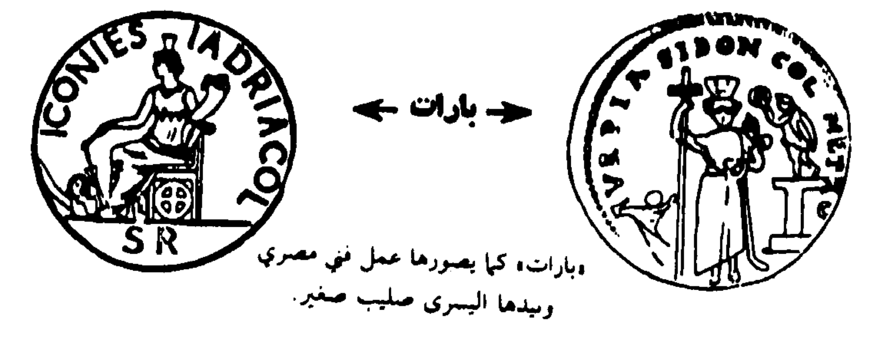
أما الام الكبرى او القوة الاخصابية الكونية المتمثلة بآلهة الحب العذراء فقد حلت محلها السيدة مريم العذراء التي دعيت بسيدة السماوات وهو اللقب الرئيسي للالهة عشتار. وحتى وقت قريب كانت السيدة مريم تدعى في بعض المناطق الريفية في ايطاليا الجنوبية: بـ«افروديتسا» نسبة الى افروديت كما كانت تماثيل الالهة ديمتر الباقية في بعض الخرائب العتيقة تعبد على انها السيدة مريم ذاتها.

وليس الصليب نفسه كرمز للسيد المسيح. بالرمز الجديد في عالم الديانات القديمة. فقد اقترن الصليب بعدد من آلهة الخصب الشرقية القديمة. فهو رمز الاله «اندارا» أحد أشكال الاله بعل أو حدد[١٦]. والذي تصوره الاعمال الفنية السومرية جالساً على عرشه وبين يديه وتحت قدميه جراراً يتفجر منها ماء الحياة. والصليب ايضاً رمز الالهة الفينيقية «بارات» آلهة مدينة بيروت، وأحد أشكال آلهة الخصب عشتار أو عشتروت، نراه في كل منحوتة أو صورة لها، ممسكة به بيدها أو منقوشاً على عرشها. وشكل الصليب هو الاصطلاح الدال على الخصب في اللغة السومرية، ويرسم هذا الاصطلاح على الشكل التالي[١٧]:

والواقع ان الذي اعطى للمسيحية هذا الطابع الجديد المنفصل عن اليهودية والقريب من الديانات الشرقية السرية. كان القديس بولص الذي كان كلما تعمق بالتفكير وكلما ازداد بالتبشير والاحتكاك بجماهير الناس في الامبراطورية الرومانية

16 - Joseph Sheban. Following The Gods. Philosophical Library. New York 1963.

17 - J. Allegro, The Sacred Mushroom and The Cross, Abacus, New York 1974.



«بارات» كما يصورها عمل فني مصري وبيدها اليسرى صليب صغير.

كلما اتجه في تفسيراته للمسيحية نحو الافكار التي تعرفنا عليها سابقاً في الديانات الشرقية البعلية والمتعلقة بالخلاص والفداء والدرام الالهي. الا ان هذا لم يمنع مطلقاً من ان بولص كان ناقداً واعياً لديانات الاسرار السائدة في ذلك الحين، وعلى وجه الخصوص تلك الديانات التي كانت تضع امور الطقوس والقواعد الشكلية قبل قضايا الحياة الاخلاقية القويمة، وكان يقول دوماً انه من غير المعقول ان ينال الخلاص انسان دون آخر لمجرد مروره عبر مجموعة من الطقوس الادخالية.

ولقد اخبرنا بولص القليل جداً عن المسيح باعتباره مسيحاً يهودياً منتظراً لتحرير شعبه، بينما اخبرنا الكثير عن المسيح باعتباره مخلصاً للانسان اينما وجد ومن اي عرق كان. نقرأ في رسالته الى اهل غلاطية ٣: ٢٦-٢٢ «لانكم جميعاً ابناء الله بالايمان بالمسيح يسوع. لان كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح. ليس يهودي ولا يوناني، ليس عبد ولا حر، ليس ذكر وانثى لانكم جميعاً واحد في المسيح يسوع». وقد ركز كثيراً في تبشيره على حادث الصلب والقيامة من بين الاموات. لقد كان المسيح مخلصاً هبط الى الحياة وتألم ثم مات من أجل خطايا الانسان. ولكنه بعث من جديد وصعد الى السماء. وهذا البعث هو النقطة المحورية في كل الديانة المسيحية. نقرأ في رسالة بولص الى اهل كورنثة ١٥: ١٤ «وان لم يكن المسيح قد قام فباطلة كرازتنا وباطل ايضاً ايمانكم» واهمية هذه القيامة لا تكمن في ان المسيح قد حقق الآمال المهدية للشعب اليهودي بمقدار ما تكمن في انه قد ضمن الخلود لاتباعه المتحدين معه وخلاصاً من رقبة الموت لمن آمن به.

ولعل اقرب الناس الى القديس بولص كان القديس يوحنا الذي التقى في كثير من افكاره مع بولص الرسول. نظر يوحنا الى المسيح ايضاً باعتباره مخلصاً

وفادياً اكثر منه محققاً للآمال المهدية لدى الشعب اليهودي. ولكنه على خلاف بولص كان اقل تركيزاً على الاتحاد الطقسي بالاله المعبود وأكثر تركيزاً على ان الاتحاد انما هو نتيجة المعرفة بالمسيح واتباع تعاليمه. فتكرار كلمة «أنا أؤمن» وحده لن يكفي لتحقيق الخلاص، بل لا بد من العمل بما يمليه هذا الايمان. نقرأ في الاصحاح ١٣ : ٢٤ «الحق اقول لكم من يؤمن بي فالاعمال التي انا اعملها هو ايضاً ويعمل اعظم منها ايضاً لاني ماضٍ الى ابي» «وان كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي».

هذا وقد التقت المسيحية ايضاً في كثير من طقوسها بطقوس الديانات البعلية السابقة عليها كطقس المعمودية بالماء الشائع لدى معظم ديانات الاسرار والذي كان يقصد الى تجديد الفرد وغسل ماضيه لادخاله في النحلة الجديدة. وطقس القربان المقدس الذي كان يقصد الى الاتحاد بالاله عن طريق أكل جسده وشرب دمه رمزياً كما رأينا بوضوح في طقوس الديانة الديونوسيسية. يقول السيد المسيح: «انا هو خبز الحياة». «من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة ابدية» كما تعطينا بعض العبارات الطقسية المسيحية دليلاً حياً على انبثاق المسيحية من ديانات الخصب القديمة في الشرق الاوسط. فصيحة «هيلوليا» المستعملة في الاناشيد الطقسية، ليست الا الصيحة التي كانت رمزاً لعباد الاله «ديونيسيوس»، والتي كانت على فمهم دائماً: ايلوليو ELELEU حتى لقد دعاهم الناس في احيان كثيرة بـ«الايلوليين» نسبة لصيحتهم المتعبدة هذه. وفيما يتعلق بهذه الكلمة نستطيع ان نلاحظ ان الجزء الاول منها مشتق من الكلمة السومرية IA - U والتي تعني السائل المخصب.(١٨) وعليه فان هذه الكلمة قد تعني «اله السائل المخصب» الذي هو حدد في ديانات الشرق الاوسط القديمة، والذي ارتحل فيما بعد نحو الغرب ليلتقي بعد فترة باله آخر قادم من نفس المنطقة فيتحدان معاً ليعطيا العالم الحديث احدى اكبر وأهم دياناته.

18 - ibid.

تعريف بأهم الآلهة

«وفق تسلسل أبجدي»

آبسو:

أحد ثلاثة آلهة بدئية، تحدر منها فيما بعد جميع الآلهة في الاسطورة البابلية. كما تشكلت منها المادة الاساسية للكون. فآبسو هو الماء العذب البدئي. و«تعامة» زوجته الماء الملح البدئي. يمزجان امواههما معاً في دعة واطمئنان وسكون أزلي، وفوقهما ينتشر الضباب المنبعث منهما، وهو الاله البدئي الثالث «ممو».

وقد قتل آبسو فيما بعد على يد الاله «انكي» أو «إيا» في ثورة قام بها الآلهة الشابة.

أدونيس:

اسم آخر للاله السوري «بعل» اله المطر والسحاب والبرق والرعد وكل مظاهر الخصب الاخرى. والكلمة آرامية، وأصلها «آدون» اي الرب أو السيد. أو «آدوني» بمعنى ربي أو سيدي. وهي من الصفات التي كانت تسبق اسم الاله «بعل». أما حرف الـ«س» فهو اضافة من اللغة اليونانية لاسم الاله بعد أن وصلت عبادته الى بلاد الاغريق. وقد عبد بعل تحت هذا الاسم لدى فينيقيي الجنوب في

مدينة «بيبلوس» وغيرها. الا ان تحويراً قد وقع هنا على الاسطورة. فأدونيس لم يمت كبعل في صراعه مع الاله «موت» كما تحدثنا الواح رأس شمرا، وانما قام خنزير بري بقتله في غابات لبنان. أما حبيبته والبطلة الرئيسية في هذه المأساة فلم تعد «عناة» الاوغارتية بل زميلتها «عستارت» التي ظهرت بدور ثانوي في ملحمة بعل. وكما كانت «انانا» السومرية و«عشتار» البابلية، الهتان في واحدة، كذلك الامر فيما يتعلق بعناة وعستارت، حيث الشخصية واحدة، والتسمية اختلفت تبعاً للزمان والمكان. وكما مضت عناة تبحث عن بعل، كذلك تمضي عستارت (أو «عشتاروت» كما صارت تدعي أيضاً) تبحث عن آدوني الى أن أثمرت جهودها ونهض من بين الاموات. ويترافق رجوع الاله من عالم الاموات باحتفالات عظيمة، حيث يأخذ الناس بالرقص والشراب، بعد أن قضوا فترة غيابه في ندب وعويل. كما تتخلل هذه الاحتفالات الممارسات الجنسية التي من شأنها تقليد لقاء آدوني وعستارت، والايحاء للتربة والزرع بالخصب والنماء، بعد أن عاد اله الخصب من موته ليعيد للطبيعة التي غابت باحتجابه (راجع بعل).

أثتر:

أحد أولاد «عشيرة» زوجة «ايل» كبير آلهة الكنعانيين. رفع الى عرش بعل بعد وفاته، ولكنه لم يقدر على ملئه فنزل خائباً، وبقي العرش شاغراً الى ان بعث بعل من بين الاموات.

أريشكيجال:

الهة العالم الاسفل في بلاد الرافدين. كانت من قبل فتاة عذبة والهة سماوية. ولكن الاله «كور» وحش العالم الاسفل اختطفها غنيمة لتعيش معه هناك، كما اختطف «هاديس» اله عالم الموتى اليوناني الفتاة بيرسفوني من أمها «ديمتر». ويبدو أن كور قد قتل في احدى معاركه الكثيرة، لاننا لا نعثر له على ذكر فيما تبقى من الاساطير والعبادات، وتبقى اريشكيجال سيدة مطلقة للعالم الاسفل.

لأريشكيجال أسماء أخرى منها «ارجالا» و«كيجال».

آشور:

كبير آلهة الآشوريين، وهو صورة طبق الاصل عن الاله البابلي «مردوخ» وقد قام الآشوريون بتبديل اسم مردوخ الى آشور في معظم الاساطير التي ورثوها.

انكي ـ ايا:

«انكي» اله المياه العذبة الباطنية عند البابليين. واسمه عند السومريين «إيا». تحكي لنا ملحمة التكوين البابلية كيف تغلب على «آبسو» المياه العذبة البدئية والتي كانت تشكل مع «تعامة» المياه المالحة البدئية، هيولى الكون، والوجود البدئي اللا متشكل. وبعد أن قهره، حبسه في مسكن سفلي وبنى فوقه مسكنه. ومنذ ذلك الوقت، والمياه العذبة خاضعة للاله انكي، يفجرها انهاراً أو ينابيع في نظام محكم بديع.

وانكي الى جانب ذلك اله للمكر والدهاء والحيلة، تماماً كالماء الذي يعرف طرقه وقنواته متحايلاً على الحواجز والعوائق. كما أنه اله الحكمة والمعرفة العميقة، تماماً كالماء الساكن، حين تنظر اليه لا تدرك له قرار. والى جانب هذا وذاك. فانكي اله السحر والقوى الغامضة، واليه تعزى معظم اساطير خلق الانسان، أو الدور الرئيسي المباشر في خلقه.

انانا:

الهة الحب والخصب عند السومريين. وبها ارتبطت مظاهر تبدل الطبيعة لانها رضيت مختارة أن تهبط درجات الموت السبع الى العالم السفلي، لتضمن للطبيعة نظاماً تتعاقب فيه الفصول، تعاقباً يحفظ استمرار الحياة النباتية على الارض. ان الطقس الحار والجاف الذي ينضج القمح والفاكهة ليس بأقل أهمية من الشتاء البارد والماطر. وموت الخريف ليس الا مرحلة تحضيرية للبعث في الربيع. ففي نزول انانا لعالم الموتى غياب لمظاهر الخصوبة في التربة، وعري للاشجار وموت للنبات. وفي صعودها من العالم الاسفل، بعد أن قهرت الموت، انتعاش لقوى الخصوبة الممثلة فيها وانبثاق للخضرة والحياة في مملكة الزرع والنبات.

وعنـد البابليين تتخذ «انانا» اسم «عشتار» وتهبط للعالم الاسفل من أجل تحرير زوجها تموز الاسير هناك. وذلك بعكس انانا التي أرسلت زوجها «دوموزي» للموت مكانها بعد أن صعدت، وذلك كشرط أساسي لتحريرها. ولما كان الانسان القديم ينظر لخصب الارض وخصب الانسان على أنهما مظهران لجوهر واحدة، فقد كانت انانا ـ عشتار آلهة للحب أيضاً. وارتبط بعبادتها كثير من الطقوس الجنسية والاحتفالات الاباحية. وخصوصاً عندما كان عبادها يحتفلون بعودتها من العالم الاسفل في أعياد الربيع المشهورة، بعد أن أمضوا أياماً في البكاء والعويل مشاركة لها في احزانها على تموز الغائب وخوفاً من الا تعود من عالم الموتى حيث مضت.

اسمها لدى الكنعانيين «عناة» في اوغاريت و«عستارت» أو «عشتروت» في بيبلوس وصيدون وغيرهما من مدن الشاطىء الجنوبي. ولها أشكال كثيرة فنراها تحت اسم «أتارغاتيس» أو «بارات» وغيرهما وذلك في الفترات المتأخرة.

وعشتـار هي كوكب «الزهرة» ابنة الاله القمر «سن» ويعادلها عند الاغريق افروديت، وعند الرومان «فينوس». وهي الى جانب كونها آلهة للحب والخصب فانهـا إلهـة للحـرب والمعارك، شجاعة تغشى الوغى مع عبادها لتنصرهم على أعدائهم، تمثلها بعض الاعمال الفنية مدججة بالسلاح على أسد متوثب. وهي رغم كل غرامياتها وممارساتها الجنسية فان لقب العذراء لم يفارقها أبداً.

وما زالت حتى الآن بعض الكلمات الدالة على الفعل الجنسي في اللغات السامية تجد أصولها في اسم «عشتار» كقولنا باللغة العربية «عاشرها» بمعنى ضاجعها.

انليل :

اله الهواء والعاصفة عند السومريين. يأتي في المرتبة الثانية رسمياً بعد «آن» اله السماء ورئيس مجمع الآلهة. الا أن قيام انليل بتنظيم الكون واخراجه من لجة العماء والهيولى الاولى، قد اعطاه الاهمية الكبرى في مجمع الآلهة، فحاز لنفسه معظم ما كان لـ«آن» من هيبـة وسلطة، وكذلك بعد أن قام بفعل فصل السماء عن الارض بعد أن كانا ملتصقين في جبل واحد في قلب المحيط الاول البدئي.

استمر انليل فيما بعد عضواً في مجمع الآلهة البابلية، ولكن في مركز ثانوي لان «مردوخ» قد استولى على المركز الاول في ذلك المجمع.

ايرا :

الـه الـطاعـون والاوبئة الفتاكة والدمار لدى البابليين. همه الدائم اشاعة الخراب والفوضى في العالم.

إيل :

اله السماء لدى السوريين، ورئيس مجمع الآلهة. ويعادل «آنو» لدى أهل الـرافدين. عبده العبرانيون في مطلع عهدهم، ولذا فقد ورد اسمه تبادلياً مع اسم الههم «يهـوه» في اكثـر من موضـع في العهد القديم، وهو أصل اسم «ايلوهيم» الذي يستعمله العبرانيون ايضاً تبادلياً مع «يهوه» وأيل هو الاسم الذي نطق به المسيح قبل أن يسلم الروح عندما صرخ باللغة الآرامية: (ايلو ايلو. لما شبثتني) اي الهي الهي لماذا تركتني.

أوتو:

اله الشمس عند السومريين. وهو ابن القمر «سن» وحفيد «انليل» الهواء الـذي أنجب القمر من حبيبته «ننليل»، والقمر بدوره أنجب الشمس من زوجته «ننجال» وأوتو اسمه عند البابليين «شمش» وعند الكنعانيين «شبش».

بارات :

الهـة مدينة بيروت الفينيقية. وهي أحد اشكال الآلهة عشتاروت. حملها الفينيقيون معهم عبر مضيق جبل طارق فاعطت اسمها للجزيرة البريطانية. كان الصليب رمزها الاساسي. نراها ممسكة بيدها أحياناً. واحياناً أخرى نراه محفوراً على كرسيها.

بعل :

اله المطر والسحاب والصواعق وكل مظاهر الخصب عند السوريين. واسمه

أيضاً «حدد». وتحت هذا الاسم الاخير دخل مجمع الآلهة البابلية. ورغم أنه بقي من الناحية الرسمية الاله الثاني بعد «إيل» رئيس مجمع الآلهة الكنعانية، الا انه كان الاله المفضل والمحبوب لدى عامة الناس. فهو الذي نظم الكون بعد تغلبه على المياه الاولى الممثلة بالاله «يم» المحيط البدئي والهيولى والعماء. وهو الذي دخل بعد ذلك في صراع كوني آخر مع «موت» اله مملكة الظلام والموت والعالم الاسفل، انتهى بخسارته المبدئية وتسليم نفسه «لموت». ولكنه ما لبث بمعونة حبيبته «عناة» أن بعث من بين الاموات وقهر الاله موت. الا ان عودته هذه ليست عودة أبدية، لانه سيعود بعد سبع سنوات للصراع مع موت من جديد. وهذا الصراع سيتكرر للأبد ممثلاً تعاقب سنوات الخصب وسنوات القحط، هذا التعاقب المميز للمناخ السوري.

ولبعل أيضاً أسماء أخرى غير حدد. منها «آدون» الذي ارتحل الى بلاد الاغريق فاسموه «أدونيس» وزوجوه من أفروديت الهة الحب والجمال. ومنها أيضا «النعمان».

حدد:

اله المطر والصواعق والسحاب والرعد وكل مظاهر الخصب عند السوريين (راجع بعل).

داجون:

والد الاله بعل. وهو في أصله اله زراعي ذو علاقة بالقمح والحبوب بصورة رئيسية. ولكننا نجده فيما بعد وقد تحول الى اله بحري لدى الفلسطينيين. فيصوّره لنا كتاب التوراة على هيئة اله له ذيل سمكة.

وربما كان تحول زراع القمح الى ملاحين، قد جلب معه تحول في اله القمح وهو الغذاء الرئيسي للمزارع، الى اله بحري ذو علاقة بالاسماك وهي الغذاء الرئيسي لدى البحارة والصيادين من سكان الشواطىء.

دوموزي - تموز:

دوموزي اله راع. تقدم لخطبة «انانا» الهة الحب والخصب لدى السومريين ونافسه في ذلك الاله المزارع «انكمدو» حيث تقدم كل منهما بقربان للالهة انانا من منتجاته. فقبلت نانا تقدمة دوموزي. الراعي وتزوجته ولم تنظر الى تقدمة انكمدو المزارع.

ولما كانت انانا آلهة للخصب، فقد اقترن اسم زوجها أيضاً بقضية الخصب والزراعة دون أن يكون هو نفسه الهاً زراعياً. واعتبره كثيرون خطأً الهاً للخصب. والحقيقة فان السبب في هذا الالتباس راجع الى الخطأ في فهم الطقوس الخاصة بدرام هبوط انانا ومن بعدها عشتار للعالم الاسفل. فانانا تهبط للعالم الاسفل في الاسطورة السومرية، وهناك تقبض عليها اريشكيجال آلهة ذلك العالم وتسلبها روحها. وبموت انانا تغيب مظاهر الاخصاب عن الطبيعة وتجف المزروعات وتزول الخضرة عن وجه الارض. فيمضي عبادها في حزن وندب وعويل حتى تقهر الموت وتصعد الى عالم الحياة مرة ثانية. ولكن هذه العودة مرهونة بشرط واحد هو أن ترسل بديلاً عنها للعالم الاسفل، فتقرر انانا ارسال زوجها دوموزي الذي تخطفه الاشباح التي رافقت انانا في صعودها وتمضي به الى مملكة الموتى.

ولكن «عشتار» وهي التسمية البابلية لانانا هي التي تمضي لفك اسر دوموزي من العالم الاسفل وقد اصبح اسمه البابلي «تموز»، ولدى غيبتها تغيب مظاهر الاخصاب من الطبيعة، وترجع برجوعها ظافرة من الموت مصطحبة معها حبيبها تموز القتيل الى الحياة. فينقلب حزن العباد فرحاً واحتفالاً بعودتها وعودة زوجها.

من هنـا نلاحظ ان دور تموز الراعي هو دور ثانوي في ديانة الخصب السومرية والبابلية، وان الضحية الرئيسية هي عشتار التي يقوم تموز الى جانبها بدور المساعد على تحـريك الاحداث. وفي الحقيقة فان بكاء الناس على تموز ليس مقصوداً لشخص تموز بالذات بمقدار ما هو مشاركة للالهة عشتار في حزنهـا على الاله الغائب.

تعامة:

الـمياه الاولى، والمحيط البـدئي، تنين العمـاء والهيولى الاصلية لدى البابليين. كانت منذ الازل مع زوجها «آبسو» المياه العذبة البدئية بدعة وطمأنينة يمزجان أمواههما معاً، وفوقهما ينتشر الضباب «ممو» الاله البدئي الثالث.

ولكن الحال لا يدوم على هذا المنوال. فهذه الآلهة البدئية تبدأ في التناسل وتنجب عدداً كبيراً من الآلهة الشابة التي تتناسل بدورها ليأتي جيل من الآلهة يقوم بالثورة على هذه الآلهة البدئية، حيث يموت آبسو في الثورة على يد «انكي» (اله الماء فيما بعد) وتموت تعامة في الثورة الثانية على يد مردوخ الذي يغدو سيد الآلهة جميعاً. يقوم مردوخ بشطر تعامة الى شطرين يرفع الاول سماء ويجعل الثاني ارضاً ويلتفت بعد ذلك لخلق بقية الكون وتنظيمه.

شمش:

اله الشمس عند البابليين. (راجع اوتو). وقد اعتبر الها للعدالة وهو الذي أوحى لحمورابي بشريعته الشهيرة.

شبش:

الهـة الشمس عنـد الكنعـانيين. وهي انثى على عكس «شمش» البابلي و«أوتو» السومري.

سن:

الـه القمـر لدى أهـل الـرافدين. وهو ابن الاله «انليل» الهواء من حبيبته «ننليل». ولسن اسم آخر هو «نانا».

عشتار.

الهة الحب والخصب لدى البابليين (راجع انانا).

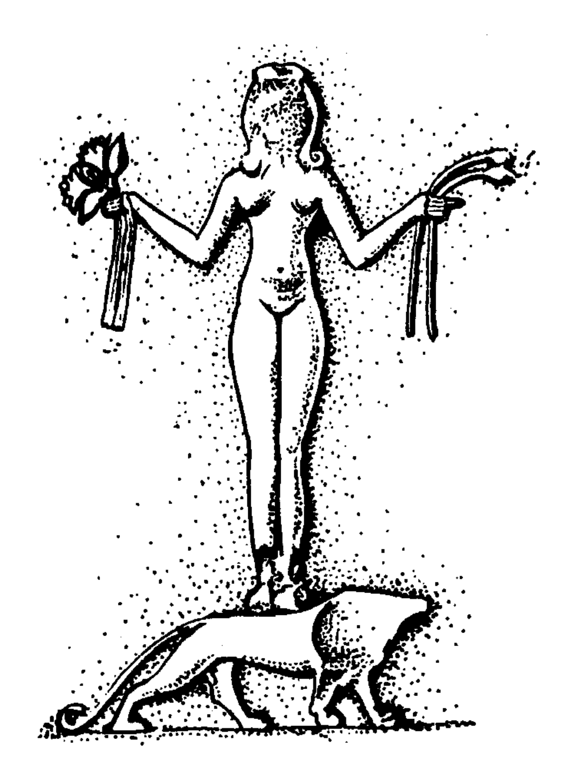
عشيرة:

زوجـة «إيل» الـه السمـاء ورئيس مجمع آلهة الكنعانيين. وهي شكل من أشكال الالهة الام ـ الارض. ولا علاقة لها بتاتاً بالالهة عشتار.

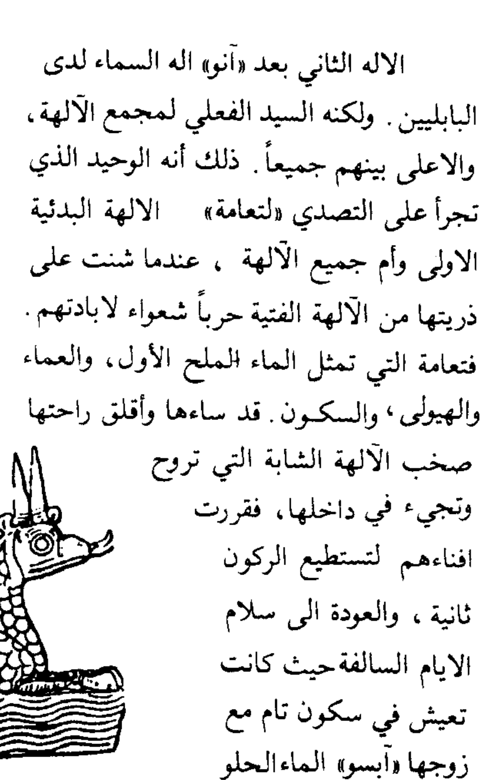
عستارت ـ عشتاروت:

كانت عستارت الهة ثانـوية في أوغـاريت ولكنها تغدو رئيسية لدى فينيقيي الجنـوب وتأخذ سلطات وصلاحيات الآلهة عنـاة الاوغاريتية. من أسمائها ايضاً عشتاروت (راجع عناة).

عناة:



مردوخ :



الاله الثاني بعد «آنو» اله السماء لدى البابليين . ولكنه السيد الفعلي لمجمع الآلهة، والاعلى بينهم جميعاً . ذلك أنه الوحيد الذي تجرأ على التصدي «لتعامة» الالهة البدئية الاولى وأم جميع الآلهة ، عندما شنت على ذريتها من الآلهة الفتية حرباً شعواء لابادتهم . فتعامة التي تمثل الماء الملح الأول، والعماء والهيولى، والسكون . قد ساءها وأقلق راحتها صخب الآلهة الشابة التي تروح وتجيء في داخلها، فقررت افناءهم لتستطيع الركون ثانية ، والعودة الى سلام الايام السالفة حيث كانت تعيش في سكون تام مع زوجها «آبسو» الماء الحلو و«ممو» السحب المنخفضة المنبعثة عن هذا المزيج ولكن مردوخ تصدى لها وشتت شمل جيشها ثم شقها نصفين، صنع من النصف الاول سماء ومن النصف الثاني صنع الارض .

وتابع بعد ذلك عمليات الخلق الاخرى، فخرج الكون من بين يديه بالصورة التي نراه عليها الآن .

ومردوخ هو سيد احتفالات رأس السنة البابلية (الايكيتو)، حيث يقوم الكهنة بتمثيل قصة انتصاره على العماء واحلال النظام وخلق الاكوان كل عام، في أعياد مشهورة لم يحدث التاريخ بمثلها .

وكوكب مردوخ هو «المشتري» أما ابنه «نبو» فهو كوكب «المريخ» .

موت :

اله الحرارة والجفاف والعالم الاسفل عند الكنعانيين . يدخل في صراع دائم مع بعل اله المطر والسحاب ومظاهر الخصب الاخرى . فيغلب موت بعل آناً ويغلبه بعل آناً آخر. وغلبة احدهما هي التي تقرر سيادة الخصب أو سيادة الجفاف . فكان بعل يموت كل سبع سنوات ، ولكنه ما يلبث أن يتغلب على خصمه .

ننخرساج :

الأرض ـ الام، لدى البابليين . انبثق عنها كل الاحياء من بشر ونبات وحيوان . وهي النموذج الامومي الاول الذي نتج عنه فيما بعد كل تكرار لفعل الامومة . فانجاب الاطفال وتوالد النبات، أمور هي في جوهرها تقليد لفعل الانجاب الاولي الذي قامت به الام الكبرى . اسمها السومري «كي» . ولها أسماء أخرى منها «ننماخ» و«ننتو» و«مامي» و«ماما» . وهي لدى الكنعانيين «عشيرة» زوجة إيل اله السماء . ولدى الحثيين «سيبل» . ورغم أن الارض في البداية هي زوجة للسماء، الا أنها تغدو فيما بعد زوجة للماء «انكي» وعن اتحادها يحيا النبات والانسان .

نيسابا :

الهة المحاصيل عند البابليين . فيقال (لقد ادارت نيسابا صدرها الخصب) أي أن الارض لم تعط تعطي محصولاً وفيراً . وهي أحد أشكال الارض الام .

نرجال :

زوج الهة العالم الاسفل «أريشكيجال» ويحكم معها مملكة الموتى . كان الهاً سماوياً، ولكنه هبط الى العالم الاسفل بأمر من ملكته ، عقوبة له لرفضه اظهار الاحترام والتبجيل لرسلها الذين ارسلتهم الى مجمع آلهة السماء، حيث وقف لهم الجميع احتراماً الا هو. ولكنها أحبته وتزوجته نظراً للشجاعة التي أظهرها عند نزوله فغدا سيداً لمملكة الظلام .

نمو:

المياه الاولى التي انبثق عنها كل شيء عند السومريين.

ننورتا:

ابن الاله انليل. واله الرياح الجنوبية العاصفة وهذا ايضاً رب القنوات والسدود والري.

مراجع الكتاب

- Allegro John. The sacred Mushroom And the Cross, Abacus, N.Y 1974.
- Delaport, L. phoenician Mythology (in Larousse Encyclopedia of Mythology.
- Eliade, M. The sacred And the profanc, Harvest Book, N.Y
- Every, G. Christian Mythology, Hamlyn, London, 1970.
- Frazer, James. The Golden Bough, Macmillan, Newyork 1971.
- Freund, philip. Myths of creation, W.H.Allen, London 1964.
- Fromm, Erich. The forgotten Language, New York 1970.
- FrankFort , Henri. Befor philosophy, Pelican,London 1964.
- Guirand, F. Greek Mythology, Hamlyn, London 1963.
- Gray, John. Near Eastern Mythology, Hamlyn, London 1969.
- Gordon, C. H. Ugarit, Norton Library, Newyork 1967.
- Graves, Robert. Greek Myths, Penguin, London 1974.
- Hiedel, Alexander, The Babylonian Genesis, phoenix, Chigaco 1969.
- Hook, S.H. Middle Eastern Mythology, pelican, London 1968.
- Harding, M.E. woma's Mysteries, Harper, Newyork 1976.
- Henderson, J.L. The wisdom of the Serpent, collier, N.Y. 1971.

- Jung. C.G. Man and His symbols, Newyork 1964.
- Kramer, S.N. Mythology of the Ancient world, Anchor, N.Y.
- Kramer, S.N. Sumerian Mythology, Harper and Row, N.Y. 1961.
- Kramer, S.N. Sumerian Myths and Epic Tales ((in Ancient Near Eastern Texts).
- Kirk, G.S. Greek Myths, Pelican Book, London 1977.
- Malinowsk: Magic, science and Religion, Graden City, N.Y. 1954.
- McNeill. The Ancient Near East, Oxford, London 1968.
- Neumann, Erich. The Great Mother, Princeton, N.Y. 1974.
- Pritchartd, James. Ancient Near Eastern Texts, Princeton New jersy 1969.
- Speiser, E.A. Akkadian Myths (in Ancient Near Easter Texs)
- Sheban, Joseph. Following the Gods, philosophical Library N. Y. 1963.
- Viaud. J. Egyption Mythology (in Larousse Encyclopedia of Mythology).
- Watts, Allen. Myth and Ritual in christianity, Thames and Hudson, London 1954.

المراجع العربية :

ـ سيجموند فرويد ـ تفسير الأحلام . مكتبة التحليل النفسي ، القاهرة ١٩٧٠
ـ سيجموند فرويد ، موسى والتوحيد ، ترجمة جورج طرابيشي ، دار الطليعة ، بيروت
ـ مسند ابن حنبل ، المطبعة الميمنية ، القاهرة .
ـ الثعالبي ، عرائس المجالس
ـ الطبري ، تاريخ الرسل والملوك .
ـ ابن عربي الفتوحات المكية
ـ يوسف اليوسف ، قراءة في ملحمة التكوين البابلية ، مجلة المعرفة العدد ١٩٧ ، ١٩٧٨ .
ـ نسيب رهيبة الخازن ، أوغاريت .
ـ توينبي ، مختصر دراسة للتاريخ ـ الجامعة العربية ، القاهرة ١٩٦٢ .

فهرس الاسماء والمواقع والمدن

آ

آبسو: ٥٢ ـ ٥٣ ـ ٧٦.
آتيس: ٣٦١.
آدابا: ٢٤١ ـ ٢٤٣.
آدم: ٣٦ ـ ٤٧ ـ ١٠٠ ـ ١٠٢ ـ ١٤٢ ـ ٢٤٧ ـ ٢٥١.
ادونيس: ٢٣١ ـ ٢٥٥ ـ ٣٥٩.
آدون: ٢٣١ ـ ٢٥٥ ـ ٣٥٩.
آرورو: ١٠٤.
آساج: ٢١٧.
آن: ٣٢ ـ ٣٤ ـ ٥٠.
آنو: ٥٠ ـ ٥٢.
انوناكي: ٣٤.
أبرام: ١٢٩.
ابراهيم: ١٣٠.
ابليس: ٢٩١.
اتراحيسس: ١٧١.
إثتر: ٣٥٣.
أخناتون: ١٣١ ـ ١٣٣.
أرارات: ١٩١.
أركالا: ٣٧٧.
أريدو: ٤٩٠.
اريك فروم: ٨٧.
أريشكيجال: ٣٤ ـ ٥٠ ـ ٢١٥ ـ ٢٧٦ ـ ٢٨٢ ـ ٢٩١.
إسرائيل: ١٢٩.
إسحاق: ١٢٩.
أشكور: ٤٤.
إشنان: ٤٦ ـ ٤٧ ـ ٢٦٤.
أفروديت: ٣٨ ـ ٣٥٩.
اقهات: ١١١.
الام الكبرى: ٤٢ ـ ١٠١ ـ ٣١٣.
اليجبيل: ٤٢.
إنانا: ١٩٨ ـ ٢٨٦ ـ ٢٦٥ ـ ٢٨٠ ـ ٣١٧.
انبيلولو: ٤٤
إنشار: ٥٢.
انليل: ٣٢ ـ ٣٤ ـ ٣٩ ـ ٤٩ ـ ١٩٩ ـ ٢٧٧ ـ ٢٨٨
انكي: ٤٣ ـ ٤٤ ـ ٤٥ ـ ٤٨ ـ ٤٩ ـ ٥٠ ـ ٥٢ ـ ١٥٨ ـ ٢١٦ ـ ٢٣٩.
انكيدو: ١٦٢ ـ ٢٢٠ ـ ٢٨١.
انكمدو: ٤٤ ـ ٢٦٥.
انول ونينول: ١٠٤.
اوتنابشتيم: ١٦٢ ـ ٢٥١.
أوتو: ٣٣ ـ ٢٢٠.
أوديب: ٣٨.
أور: ٤٤.
أورفيوس: ٣٦٥.
أورانوس: ٣٦ ـ ٣٨.
أوزوريس: ١٣٢ ـ ٣٦٦.
أوغاريت: ١١٠.
أوقيانوس: ٣٥٠.
أوليجاروانجار: ١٠٤.
أهورامزدا: ٣٠٥.

سوموفان: ٤٥ ـ ٩٩.

سيار: ٩٩.

سيبيل: ١٠١ ـ ٣٦١.

سيرارا: ٤٤.

سيرين: ٤٤.

سيميلي: ٣٦٤.

ش شبش: ١١١.

شمش: ١١١.

شو: ٣٦.

شيئول: ٣٠٢.

ص صفون: ١١٧ ـ ١٢٣.

ع عدن: ٢٥٥.

العذراء: ٣١٣.

عستارت: ١١١.

عشتار: ١٠١ ـ ٣٣٧.

عشيرة: ١٠١ ـ ١١١ ـ ٣٥٣.

علي: ١٢٠ ـ ١٢٢ ـ ٣٥٠.

عناة: ١١١ ـ ٣٤٧.

الغصن الذهبي: ١٥.

ف فرويد: ١٦ ـ ٣٨ ـ ٢٥٦.

فيلو الجبيلي: ١١٠ ـ ١٢٤.

ق قبرص: ٣٨.

ك كرث: ١١٠ ـ ١١١.

كرونوس: ٣٨.

كنعان: ١٩٤.

كوثر وحاسيس: ١١٥.

كور: ٣٤ ـ ٣٥ ـ ٢١٥ ـ ٢١٨ ـ ٢٧٦.

كي: ٣٢.

كيشار: ٥٢.

كينغو: ٥٣ ـ ٥٤.

ل لابلاس: ١٠.

لابو: ٢٢٥.

لالو: ٨٢.

لخامو: ٥٢.

لخمو: ٥٢.

لطبان: ٣٥٢.

لوتان: ١٣٧ ـ ٢٣٢.

لهر: ٤٦ ـ ٤٧ ـ ٢٦٤.

لوسيفر: ٢٩٤.

م مالينوفسكي: ١٥.

مامي: ١٠١.

محي الدين بن عربي: ٣٧.

مردوخ: ٣٦ ـ ٤٢ ـ ٤٩ ـ ٥٣.

ممو: ٥٢.

موت: ٥٠ ـ ١١١.

موسى: ١٣٠ ـ ١٣١ ـ ٢٠٩.

ميثرا: ٣٦٩.

ميسلاميتا: ٢٧٧.

ن نانا: ٣٣ ـ ٤١.

نرجال: ٢٧٧ ـ ٢٨٢ ـ ٢٨٣ ـ ٢٩١.

نسكو: ٣٩.

نعمان: ٢٥٦.

نمو: ٣٢ ـ ٣٤ ـ ٣٥ ـ ٤٥ ـ ٥٠.

ننتو: ٥٠ ـ ١٠١.

ننخرساج: ٥٠ ـ ١٠١ ـ ٢٣٩.

ننماخ: ١٠١.

ننورتا: ٢١٧.

نهر: ١١٣.

نوت: ٣٦.

نبور ٣٩

نيسابا: ١٧٢

هـ هاديس: ٣٥ ـ ٣٦٥

الهاوية: ٣٠٢.

هوميروس: ٤٤ ـ ٥١

هيرا: ٣٦٣.

ي ياهو: ١٣٦.

يشوع ١٣٠.

يعقوب ١٢٩ ـ ١٣٦ ـ ١٣٨.

يهوه: ٣٦ ـ ٢٠٩ ـ ٢٣١.

يم: ٣٥ ـ ٤٩ ـ ٥٠ ـ ١١١ ـ ١١٢ ـ ٣٤٨.

يوروبا: ١٠٩.

يونغ: ١٧.

المحتويات

- مخاطبة ٥
- فاتحة ٩
- سفر البداية ٢٥
  - التكوين السومري ٣١
  - التكوين البابلي ٥١
  - التكوين الكنعاني ١١٩
  - التكوين التوراتي ١٢٩
  - ألواح التكوين السبعة وأيام التكوين السبعة ١٤٥
- سفر الطوفان ١٥١
  - الطوفان السومري ١٥٧
  - الطوفان البابلي ١٦١
  - الطوفان التوراتي ١٨١
  - أساطير الدمار ١٩٧
- سفر التنين ٢١١
  - التنين السومري ٢١٥
  - التنين البابلي ٢٢٥
  - التنين التوراتي ٢٣١
- سفر الفردوس المفقود ٢٣٥
  - الجنة السومرية ٢٣٧
  - الجنة البابلية ٢٤١
  - الجنة التوراتية ٢٥١
- سفر قابيل وهابيل ٢٥٩
  - ثلاثة نصوص سومرية ٢٦٣
  - قاين وهابيل ٢٦٩
- سفر العالم الأسفل ٢٧٣
  - الجحيم السومري ٢٧٩
  - الجحيم البابلي ٢٨٧
  - الجحيم التوراتي ٢٩٧
- سفر الاله الميت ٣٠٧
  - هبوط انانا إلى العالم الأسفل ٣١٥
  - هبوط عشتار إلى العالم الأسفل ٣٣٥
  - هبوط بعل إلى العالم الأسفل ٣٤٥
  - هجرة الاله الميت ٣٥٧
  - الاله المخلص ٣٦٥
  - السيد المسيح آخر المخلصين ٣٦٩
  - تعريف بأهم الآلهة ٣٧٥

المؤلف في سطور

* فراس السواح ، مفكر سوري يبحث في الميثولوجيا وتاريخ الأديان كمدخل لفهم البعد الروحي عند الانسان .
* من مواليد حمص / سورية ١٩٤١
* صدرت له الأعمال المطبوعة التالية :
* مغامرة العقل الأولى
دراسة في الأسطورة - سورية وبلاد الرافدين
الطبعة الأولى ، دمشق ١٩٧٦ . الطبعة الحادية عشر
دمشق ، دار علاء الدين ١٩٩٦
* لغز عشتار
الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة .
الطبعة الأولى ، دمشق ١٩٨٥ . الطبعة السادسة
دمشق دار علاء الدين ١٩٩٦
* جـلـجـامـش
ملحمة الرافدين الخالدة
الطبعة الأولى . دمشق ، دار علاء الدين ١٩٩٦
* الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم
الطبعة الأولى دمشق ١٩٨٩ . الطبعة الثانية
دمشق ، دار علاء الدين ١٩٩٣
* دين الإنسان
بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني
الطبعة الأولى ، دمشق ، دار علاء الدين ١٩٩٤
الطبعة الثانية ، دمشق ، دار علاء الدين ١٩٩٥
* آرام دمشق واسرائيل
في التاريخ والتاريخ التوراتي
الطبعة الأولى ، دمشق ، دار علاء الدين ١٩٩٥